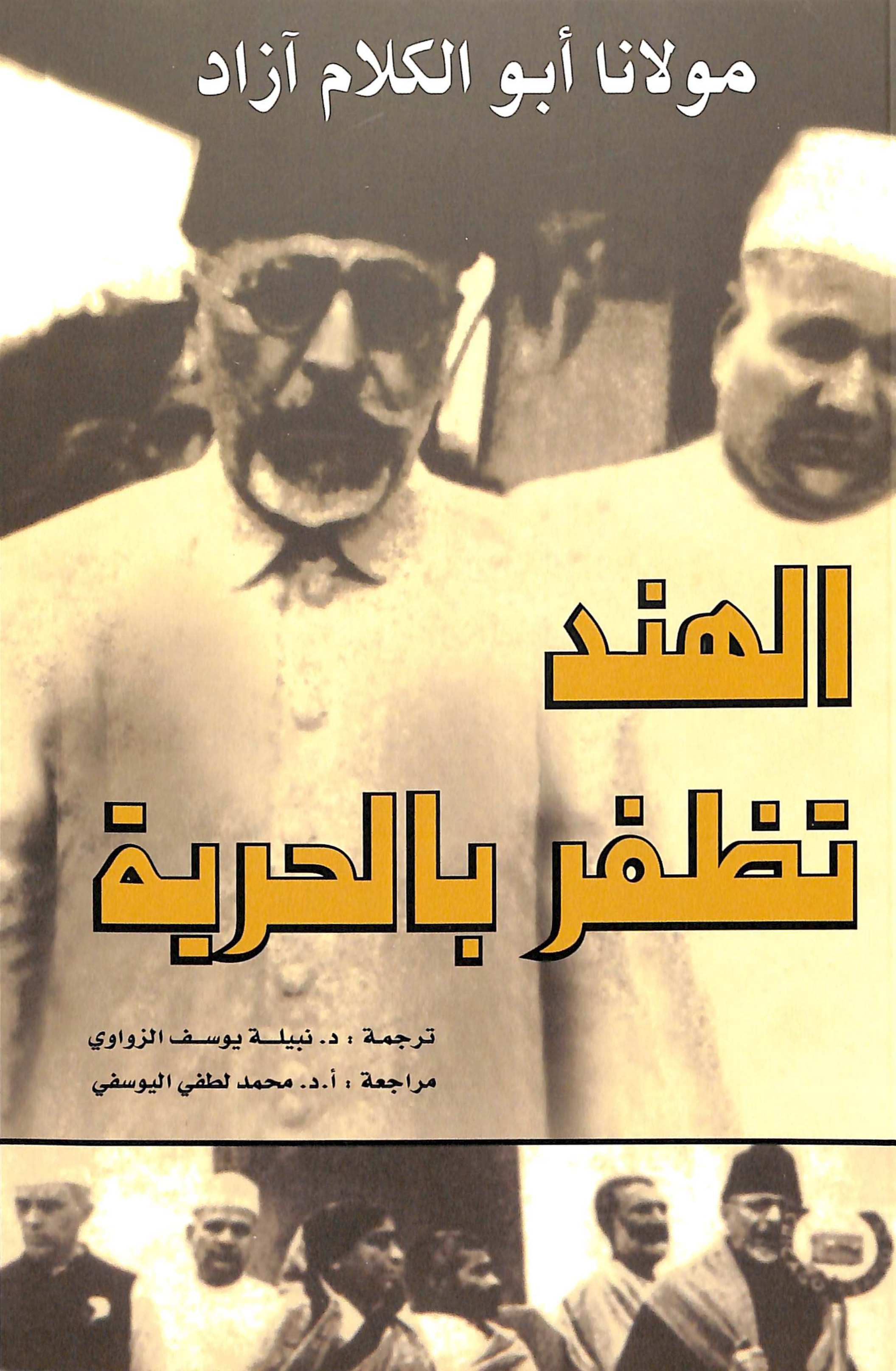


مولانا أبو الكلام آزاد

الهند تظفر بالحرية

ترجمة : د. نبيلة يوسف الزواوي

مراجعة : أ.د. محمد لطفي اليوسفي

وحريّ بنا اليوم في مستهلّ العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين أن نلتفت إلى تجارب إنسانية غير تلك الكلاسيكية الغربية التي تعجّ بها المكتبات. وحريّ بنا أن نستلهم كذلك من التجارب الديمقراطية القادمة من المشرق، ولا سيما من القارة الآسيوية وشبه القارة الهندية.

قدّم السارد مولانا أبو الكلام آزاد بمساعدة "كاتبه" هومايون كبير سيرته "الهند تظفر بالحرية" للنشر في نسختها الأولى سنة 1958 ونُشرت بعدها بعام. وهي نسخة مختصرة بعض الشيء لا تشمل "الأحداث والتأملات ذات الصبغة الشخصية". أمّا هذه النسخة (الصادرة سنة 1988) التي ترجمناها والتي نضعها بين أيدي القارئ الكريم فهي كاملة. ومع ذلك فهي لا تختلف عن سابقتها بمجرد الإضافات، بل هي استعادت نبرة النسخة الأصلية وروحها بالكامل. ويجوز أن نَعدّها وثيقة تاريخية بالغة الأهمية ترجمتها عن اللغة الإنكليزية باقتدار د. نبيلة يوسف الزواوي وأضفى عليها أ.د. محمد لطفي اليوسفي لمسة من سحر اللغة العربية التي يعرف كُنهها وأسرارها.

النّاشر



إدارة البحوث والدراسات الثقافية

22

الهند تظفر بالحرّية

النسخة الكاملة

ترجمة: د. نبيلة يوسف الزواوي
مراجعة: أ. د. محمد لطفي اليوسفي



الناشر: وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر
وحدة الترجمة، إدارة البحوث والدراسات الثقافية

الدوحة ص.ب. 23700 قطر
هاتف: 974.44022789+
فاكس: 974.44022231+

رقم الإيداع: دار الكتب القطرية، 514 - 2011
الترقيم الدولي (ردمك): 7 - 35 - 90 - 99921 - 978

الطبعة العربية: الأولى 1432 هـ - 2011 م

العنوان: «الهند تظفر بالحرية»
تأليف: مولانا أبو الكلام آزاد
ترجمة: د. نبيلة يوسف الزواوي

يتضمّن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي:
India Wins Freedom, by Maulana Abul Kalam Azad,
283p. © Orient Blackswan Private Limited 1980

محتويات الكتاب

التقديم ________ 5
مقدّمة المترجمة ________ 8
نبذة عن حياة مولانا أبي الكلام آزاد وهومايون كبير ________ 11
كلمة الناشرين ________ 17
مقدّمة طبعة سنة 1959 ________ 19
توطئة ________ 25
1- حزب المؤتمر يشارك في الحكومة ________ 40
2- الحرب في أروبا ________ 53
3- أصبحت رئيسا للمؤتمر ________ 57
4- استراحة صينية ________ 72
5- بعثة كريبس ________ 77
6- فاصلة غير سهلة ________ 105
7- غادِرُوا الهند ________ 119
8- سجن قلعة أحمدناجار ________ 129
9- قمّة سِمْلاَ ________ 147
10- الانتخابات العامة ________ 168
11- بعثة مكتب الحكومة البريطانية ________ 193
12- فاتحة التقسيم ________ 215
13- الحكومة الانتقالية ________ 230
14- بعثة مَاوْنتبَطَنْ ________ 254
15- نهاية حلم ________ 268
16- الهند المقسّمة ________ 285
خاتمة ________ 307
ملاحق ________ 315

التقـــديم

في هذه السنة التي عاشت ربيع الثورات العربية، يسرّ إدارة البحوث والدراسات الثقافية بوزارة الثقافة والفنون والتراث بقطر أن تقدّم للقارئ العربي هذه الترجمة العربية الأولى للسيرة الذاتية السياسية لزعيم ممّن صنعوا تاريخنا المعاصر: مولانا أبو الكلام آزاد. قاوم مع غاندي وجواهر لال نهرو وغيرهما دكتاتورية الاستعمار الغاشم وآمن بالديمقراطية والحرية والكرامة الإنسانية المتمثلة في حق الشعوب في تقرير مصائرها.

وحريّ بنا اليوم في مستهل العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين أن نلتفت إلى تجارب إنسانية غير تلك الكلاسيكية الغربية التي تعجّ بها المكتبات، وحريّ بنا أن نستلهم كذلك من التجارب الديمقراطية القادمة من المشرق ولا سيما من القارة الآسيوية وشبه القارة الهندية.

قدّم السارد مولانا أبو الكلام آزاد بمساعدة "كاتبه" هومايون كبير سيرته "الهند تظفر بالحرية" للنشر في نسختها الأولى سنة 1958 ونُشرت بعدها بعام. وهي نسخة مختصرة بعض الشيء لا تشمل "الأحداث والتأملات ذات الصبغة الشخصية". أمّا هذه النسخة (الصادرة سنة 1988) التي ترجمناها والتي نضعها بين أيدي القارئ الكريم فهي كاملة، ومع ذلك فهي لا تختلف عن سابقتها بمجرد الإضافات، بل هي استعادت نبرة النسخة الأصلية وروحها بالكامل. ويجوز أن نعدّها وثيقة تاريخية بالغة الأهمية ترجمتها عن اللغة الإنكليزية باقتدار د. نبيلة يوسف الزواوي وأضفى عليها أ.د. محمد لطفي اليوسفي لمسة من سحر اللغة العربية التي يعرف كنهها وأسرارها.

والله من وراء القصد.

مرزوق بشير مرزوق

مدير إدارة البحوث والدراسات الثقافية

الدوحة، رمضان 1432 هـ/ أغسطس 2011 م

مقدّمة المترجمة

ثمة بين التاريخ والسيرة الذاتية أكثر من علاقة. كلاهما حكايةٌ تروي وقائع حدثت. ولئن كان التاريخ يحدّث عادة عن الشعوب وانتصاراتها وانكساراتها، والأمم وأمجادها وزوالها، فإن السيرة الذاتية حكايةُ حالٍ تحدّث عن حياة شخصٍ فرْدٍ قرّر أن يروي من وقائع حياته ما يعتقد أنه جديرٌ بأن يُنشر ويُشهر طلبا للاعتبار. فكثيرا ما ينطلق صاحب السيرة، على سبيل القصد أو بطريقة غير واعية، من أن الأحداث التي عاشها يمكن أن تعرّي ما يتكتّم عليه التاريخ من وجع بشري، وما تعالى عليه من جراحات بني البشر وطموحاتهم وأحلامهم وانكساراتهم. حتى لكأن السيرة الذاتية إنما تؤرّخ لأحداث ووقائع عاشها الكاتب وهو إنما يرويها حتى لا تحدُثَ ثانيةً.

ههنا بالضبط يتنزّل كتاب مولانا أبو الكلام آزاد. ومن هنا بالضبط يستمدّ أهمّيته. فهو تأريخٌ لحياةِ كفاح، وتدوينٌ لسيرة رجل ممّن صنعوا تاريخ عالمنا المعاصر. مولانا أبو الكلام آزاد رجل آمن بالحرية والديمقراطية وحقّ الشعوب في تقرير مصيرها بعيدا عن سلطة الطغاة والغزاة. إنه رجل اقترن اسمه باسم شبه القارة الهندية. كان رفيقا لغاندي وجواهرلال نهرو وغيرهما ممن صنعوا تاريخ الهند الحديث. وكان قائدا شاهدا على لحظات تألّق زعماء الهند، ولحظات تردّيهم وسقوطهم التي جعلتهم يقبلون بتقسيم الهند ثمنا لحريتها.

عن دور المرأة في الكفاح حدّث، عن السجون والمنافي والمعتقلات حدّث. عن بطولات رفاق الدرب وتردّداتهم وخياناتهم حدّث. صار الكتاب تدوينا لارتباكات بني البشر من جهة كونهم بشرا يستمدّون قوّتهم من ضعفهم وهشاشتهم وحبّهم للحياة. قادَةٌ وزعماء يُزَجُّ بهم في المعتقل تنكيلا وترهيبا، لكنهم يجدون متّسعا من الوقت ليزرعوا الورود ويجمّلوا المعتقل ببهاء الحياة فيما هم يواصلون تلمّس الدروب المؤدّية إلى حرية الشعوب كلّها.

هذا الكتاب سيرة ذاتية سياسية تسلّط الضوء على مرحلة مهمّة من تاريخ الهند وتاريخ العالم لم يصلنا عنها إلا القليل. وحتّى هذا القليل الذي وصل، كثيرا ما كان منحازا ومتأثّرا بأيديولوجيات معيّنة جعلته يحجب الكثير من الحقائق التي جاء هذا الكتاب ليكشفها.

يهفو الكتاب إلى تصحيح التاريخ عبر تصويب العديد من الأفكار المسبقة، والأحكام الجاهزة. يحدّث صاحب السيرة بنبرة ملؤها الشجن عن الهند التي دفعت وحدتها ثمنا لحرّيتها. وعن نضال أبناء الهند من أجل الحرّية والعدالة والديمقراطيّة وانتصارهم للكرامة البشريّة المنتهكة. يمتزج التاريخ الذاتي لشخصيّات فاعلة في تاريخ الهند خاصّة وتاريخ العالم عامّة بتاريخ أشخاص مرموقين من أمثال جواهرلال نهرو ومهاتما غاندي ومولانا أبي الكلام آزاد وغيرهم بالتاريخ القومي والإنساني. فتتداخل الأحداث الكبرى التي صنعت الوجه الحديث للعالم بتفاصيل صغيرة من حياة الأشخاص الذين أسهموا في صنع هذه الأحداث، وهو ما يسمّيه الفرنسيّون: la petite histoire. فتنفتح السيرة الذاتيّة على ما يتكتّم عليه التاريخ من أوجاع البشر.

إن صورة زعماء الهند من أمثال غاندي وجواهرلال نهرو ومولانا آزاد نفسه محاطة في الذاكرة بهالة نورانية تكاد ترفعهم إلى مصاف الأبطال الأسطوريين. ولا مجال في فكرة البطولة ذاتها للهشاشة والضعف وسوء التدبير. لذلك عندما نشر مولانا أبو الكلام آزاد هذا الكتاب للمرة الأولى سنة 1959 حرص على حذف العديد من المقاطع والفقرات التي تتجاوز الثلاثين

صفحة حتى لا يخدش هذه الصورة النورانية. والراجح أن مولانا آزاد عاش تجربة مريرة نتيجة حرصه على الحفاظ على تلك الصورة، وحرصه في الآن نفسه على أن يقدّم الحقيقة للناس والدنيا عارية من كل تحلية وتوشية. لذلك حرص على أن يُودِعَ نسخة من الكتاب كاملا بالمكتبة الوطنية بكلكوتا، ونسخة في الأرشيف الوطني بنيو دلهي وشدّد على عدم نشر هذه النسخة الكاملة. لم ينشر الكتاب كاملا إلا سنة 1988 أي بعد مرور ثلاثين سنة على وفاة مولانا آزاد حين استصدرت المحكمة حكما يقضي بإصدار الكتاب كاملا باعتباره جزءا من تاريخ الهند الحديث وملكا لذاكرة الناس أجمعين.

نبذة عن حياة مولانا أبي الكلام آزاد
وهومَايُون كبير

مولانا أبو الكلام آزاد (1958-1888م): كان اسمه عند الولادة فيروز بَخْت، لكنه كان يُعرَفُ باسم محي الدين أحمد عندما كان شابًا. وفي وقت لاحق أَطْلَقَ على نفسه اسما مستعارا هو أبو الكلام آزاد. ينحدر مولانا أبو الكلام آزاد من عائلة جاءت إلى الهند من مدينة هِرَاتْ في عصر حكم بابار. نبَغَ في عائلته العديد من العلماء المشهورين والموظّفين المرموقين.

هاجر أبوه مولانا خير الدين إلى مكّة على إثر ثورة 1857م، فولد آزاد هناك. وبعد مولده بسنتين، انتقلت عائلته للعيش في كلكوتا. تلقّى آزاد تعليمه في البيت على يَدِ والده ومعلّمين خواصّ. وكان صدور جريدة **البنغال** سنة 1905 (تمّ مَنْعُ صدورها في وقت لاحق) السَّبَبَ في صحوته السياسيّة. سافر آزاد إلى مختلف مناطق العراق ومصر وفرنسا، وكان ينوي السفر إلى لندن، لكنّ مرض أبيه اضطرّه إلى العودة إلى الديار، حَدَثَ ذلك سنة 1908.

أسّس مولانا آزاد جريدة أسبوعيّة تحملُ اسم **الهلال**. وهي جريدة ناطقة باللغة الأورديّة، بدأت تصدر بكلكوتا في يوليو 1912. وكان آزاد مناهضا للاتّجاه الذي كان سائدا في أليغاره[1] وهو اتّجاهٌ يدعو إلى البقاء بعيدا عن

1- حركة سياسيّة انطلقت من مدينة أليغاره وقد سمّيت باسم المدينة. أطلق السير سيّد الحركة لخلق جوّ من التفاهم بين الحكومة البريطانية والمسلمين، وتكوين شريحة من المثقفين المسلمين كفيلة بأن تضمن اندماجهم مع البريطانيين بدل مقاومتهم. (المترجمة)

حركة التحرير. وحين اندلعت الحرب سنة 1914 تمّ إيقاف جريدة الهلال استنادا إلى قانون الصحافة. فأسّس، في كلكوتا، جريدة ثانية ناطقة بالأورديّة، هي الأخرى، سمّاها البلاغ. بدأت الجريدة صدورها في شهر نوفمبر 1915 وتواصل صدورها حتى شهر مارس/ آذار 1916، تاريخ إبعاد آزاد بموجب ما يسمّى قوانين الدفاع عن الهند. قصد آزاد بيهار بعد أن منعته حكومات بُمباي، وبُنجاب، ودلهي، والأقاليم المتّحدة من دخول أيّ إقليم من هذه الأقاليم. اعتُقل آزاد في رانشي وبقي في معتقلها حتّى يوم 1 يناير 1920.

ترأس آزاد، بعد إطلاق سراحه، لجنة خلافة الهند بأكملها في دورة كلكوتا سنة 1920. وعُيّن رئيسا لقمّة الوحدة بدلهي سنة 1924، وقمّة الوطنيين المسلمين سنة 1928. وانتُخب رئيسا لحزب المؤتمر الوطني الهندي سنة 1923، وأُعيد انتخابه سنة 1940، وظلّ في منصبه ذاك حتّى سنة 1946. قاد آزاد المفاوضات مع بعثة الحكومة البريطانية باسم حزب المؤتمر سنة 1946. وبعد ذلك شارك في أوّل حكومة للهند الحرّة وزيرا للتعليم. وهو منصبٌ شغَلَه حتى وفاته يوم 22 فبراير/ شباط 1958.

من ضمن أعماله المنشورة الأخرى البيان (1915)، وترجمان القرآن (1933-1936)، وهما كتابان في التفسير؛ وتذكرة (1916) وهو كتاب في السيرة الذاتية؛ وغبار الخاطر (1943) وهو مجموعة رسائل، وكلّها مكتوبة باللغة الأورديّة.

هُومَايُون كبير (1906-1969): بعد مسيرة أكاديمية متميّزة في جامعتيّ كلكوتا وأكسفورد، عمل، في البداية، محاضرا في جامعة أَنْضَرا في وَالْتَاير، ثم في جامعة كلكوتا ما بين سنة 1933 وسنة 1945. وفي سنة 1937 انتُخب عضوا في المجلس التشريعي البنغالي باعتباره زعيم حزب الفلاحين. وفي سنة 1946 اختاره آزاد سكرتيرا له. وبالتالي فقد كان مقرَّبا جدّا من آزاد. شغل منصبَ مستشار التعليم في حكومة الهند، إلى أن استقال سنة 1956، وانتُخب عضوا في البرلمان باعتباره عضوا في حزب المؤتمر سنة 1957. عُيِّنَ وزيرا للطيران المدني

(1957-1958)، ووزيرا للبحث العلمي والشؤون الثقافية (1958-1963)، ووزيرا للبترول والكيميائيات (1963-1968). وهو مؤلّف أكثر من عشرين كتابا باللغة الإنجليزية والبنغالية في مجالات الفلسفة، والأدب، والثقافة، كما نشر روايتيْن وثلاثة دواوين شعرية.

إلى جواهرلال نهرو
صديقا ورفيقا

كلمة الناشرين

عندما سلّمنا المرحوم الأستاذ هُومَايُون كبير مخطوط الهند تظفرُ بالحرّية لنشره في سبتمبر 1958، بعد مضيّ ستّة أشهر على وفاة مولانا آزاد وفاةً مباغتة، علمنا بوجود نسخة كاملة تحتوي على معلومات إضافية تناهز الثلاثين صفحة ستسلّم إلينا كي نقوم بنشرها يوم 22 فبراير/ شباط 1948، في الذكرى الثلاثين لوفاة مولانا آزاد.

لكن عندما حان الوقتُ تأجّل تسليمُ النسخة الكاملة بسبب مسائل مختلفة أثارها أشخاصٌ يدّعون أن لهم في الأمر مصلحة. رُفعتْ القضيّة إلى المحكمة العليا في كلكوتا، والمحكمة العليا في دلهي، والمجلس الأعلى للقضاء، قبل أن يُصدر رئيس قضاة المحكمة العليا في دلهي بهوبِنْدِرْ ناتْ كِرِبال يوم 29 سبتمبر 1988 أمرا يقضي بأن تُسَلَّمَ النسخة المودَعَة بالمكتبة الوطنية بكلكوتا وتلك الموجودة في الأرشيف الوطني بنيو دلهي إلى دار لونجمان الشرق للنشر يوم 29 سبتمبر 1988. كما حكمت المحكمة بأنه ينبغي إصدارُ المادة دون أيّ تحويرٍ بعد مقارنة النسختين للتثبّت من أنهما متطابقتين. وقد تمّ ذلك.

وأثناء فحْصِ الكتاب تبيّن أن المادّة المضافة لم تكن مجرّد ثلاثين صفحة مجمّعة كما كنّا نظنُّ، بل هي مبثوثة في مجمل النصّ. وإلى جانب بعض التعابير وبعض جمل ومقاطع أسقطت من النصّ المنشور، كانت هناك أيضا تحويرات

عديدة، في مواضع عدّة، كان البروفيسور كبير قد أجراها على النصّ الأصلي باعتباره محرّرا. (أنظر إشارته في الملحق رقم 1).

هذه الطبعة تقدّم النصّ كاملا كما وَرَدَ في النسختين اللتين سلّمتا إلينا. الإضافات الأساسية على النسخة الأصلية موضوعة بين نجمتين. حافظنا على "مقدّمة الجزء الأوّل" كما وردت في الطبعة الأولى. كما نُعيد نشر الملاحق التي وردت في تلك الطبعة.

أكتوبر 1988

مقدّمة طبعة 1959

عندما اتصلتُ بمولانا آزاد قبل أكثر من سنتين بقليل وطلبتُ منه أن يكتبَ سيرته الذاتيّة لم أكن أعلمُ أنه سيكون من واجبي أن أضع، وأنا كئيب، مقدّمة لهذا الكتاب. لم يكن مولانا آزاد يرغب في الحديث عن حياته الخاصة، وكان في البداية كارها القيام بهذا العمل. وبصعوبة كبيرة تسنّى إقناعه بأنه، باعتباره أحد أهمّ الأشخاص الذين اضطلعوا بدورٍ رئيسيّ في نقل السلطة من أيادٍ بريطانية إلى أيادٍ هنديّة، مدينٌ للأجيال القادمة بواجبِ تَدْوينِ قراءته لهذه الأزمنة التي لا تُنسى. يعود سبب رفضه، بعض الشيء، إلى وَهَنِ صحّته. فقد كان يشعُرُ أنه يحتاج إلى كلّ طاقاته للنّهوض بأعباء العمل الذي تفرضه عليه مهامّه السياسية والإدارية التي لا مناصَ منها. وفي نهاية المطاف وافقَ عندما طمأنتُهُ أنني سأفعل ما بوسعي لأعفيه من العبء الفعليّ للكتابة. يعني هذا، طبعا، أن الشعب الهنديَّ سيحرَمُ من متعة قراءة السيرة الذاتيّة لمولانا آزاد بأسلوبه هو شخصيّا. إن الأدب الهنديّ، بصفة عامّة، والأورديّ بصفة خاصّة سيصبحان أفقر بسبب هذا الحرمان، لكن إصدار نصّ باللغة الإنجليزية يشرف عليه بنفسه سيكون أفضل من أن لا يتمّ التدوين أصلا.

أعتقد أنه من الضروريّ أن أصف، ببعض التفصيل، كيف كُتِبَ هذا العمل. أثناء السنتين الأخيرتين أو ما يناهزهما، كنت أقضي ما معدّله ساعة أو أكثر مع مولانا آزاد كلّ مساءٍ، باستثناء تلك المناسبات التي كان عليّ فيها أن أكون

خارج دلهي. كان مُحَدِّثا رائعا دَرَجَ على وصف تجاربه بكلمات طافحة بالحيويّة. دوّنتُ ملاحظات عديدة وطرحت عليه العديد من الأسئلة أيضا لإيضاحِ نقطة ما، أو للحصول على معلومة ما. كان يرفض، باستمرارٍ، أن يتحدّث عن الأمور الشخصية، لكنه كان يتحدّث بأقصى ما يمكن من الصراحة والصدق في كل المسائل التي تخصّ الشؤون العامّة. عندما تجمّعت لديّ مادّة تكفي لكتابة فصْلٍ، جهّزت مسودة باللغة الإنجليزية وسلّمته إيّاها في أوّل فرصة. كان يقرأ بنفسهِ كلّ فصلٍ، ثمّ نراجعه معا. أدخل في هذه المرحلة العديد من التعديلات بالزيادة حينا، والتّحوير حينا، والنقصان أحيانا أخرى. وواصلنا على هذا النحو إلى أن أصبحتُ قادرا على إعطائه نسخة المسودة الأولى من الكتاب كلّه في سبتمبر 1957.

عندما أصبح الكتاب كاملا بين يديْه، قرّر مولانا آزاد أنّ ما يقارب الثلاثين صفحة من الكتاب التي يتناول فيها أحداثا وأفكارا ذات طابع شخصيّ، ينبغي أن لا تُنْشَر في الوقت الحاضر. أمرَ بأن تُودَعَ نسخةٌ مختومةٌ من نصّ الكتاب كاملا في المكتبة الوطنيّة بكلكوتا، ونسخةٌ أخرى في الأرشيف الوطني بنيو دلهي. غير أنه كان حريصا على أن لا يتسبّب إسقاط هذه المقاطع في تحوير ملامح الصورة التي يقدّمها أو تبديل النتائج التي توصّل إليها بأيّ شكل من الأشكال. أجريتُ التغييرات وِفْقا لتعليماته، واستطعت أن أقدّم إلى مولانا آزاد النسخة المنقّحة المُختَزلَة قرابة نهاية شهر نوفمبر 1957.

قام بمراجعتها، مرّة أخرى، أثناء الفترة التي كنت فيها مسافرا إلى أستراليا. وبعد عودتي قُمنا بمراجعة فعليّة للمخطوط، فصلاً فصلاً، وجملةً جملةً. أدخل بعض التعديلات البسيطة دون أن يجري تغييرا كبيرا. كانت مراجعة الفصل الواحد تتمّ بهذه الطريقة ثلاث أو أربع مرّات في بعض الأحيان. ويوم الاحتفال بعيد الجمهورية هذا العام، قال مولانا آزاد إنه راضٍ عن المخطوط، ويمكن إرساله الآن إلى المطبعة. يمثّل هذا الكتاب، في صورته الصادرة هذه، النصّ كما اعتمدهُ هو نفسه، في آخر المطاف.

كان مولانا آزاد يرغب في أن يصدر الكتاب في شهر نوفمبر 1958 ليتزامن مع عيد ميلاده السبعين، لكن القدر أراد غير ذلك، ولن يكون مولانا آزاد معنا عندما يصدر الكتاب.

كما قلتُ سابقا، لم يكن مولانا آزاد، في البداية راغبا جدّا في الاضطلاع بإعداد هذا الكتاب. كلّما كان إنجاز الكتاب يتقدّم، كان اهتمامه به يكبُر. طوال الستّة أشهر الأخيرة أو ما يناهزها، نادرا ما فَوَّتَ أيّ لقاءٍ مسائيٍّ يخصّ إعداد المخطوط. كان متحفّظا إلى أبعد الحدود حول حياته الشخصيّة، لكنه تطوّع، في النهاية، لكتابة جزءٍ أوّل كان المفترض أن يشمل المراحل الأولى من حياته، وأن تصل الحكاية حتى سنة 1937. وافق على إعداد ملخّص، ونزولا عند رغبته، يرد هذا الملخّص كفصل أوّل من فصول هذا الكتاب. كانت له، أيضا، نيّة كتابة جزء ثالث يحدّث فيه عن الأحداث منذ 1948. ولسوء حظّنا هذه الكتبُ لن تُكتَبَ أبداً.

كان العمل المتعلّق بإنجاز هذا الكتاب، بالنسبة إليَّ، عملا مُفعَما بالحبّ، وسيسعدني كثيرا لو أنه يساعد في تقديم شيءٍ كان عزيزا جدّا على قلب مولانا آزاد. هذا الشيء هو إشاعة تفاهم أكبر بين مختلف الطوائف الهنديّة كخطوة أولى نحو تفاهم أكبر بين شعوب العالم. كما أنّ مولانا آزاد كان يتمنّى أن ينظر شعبا الهند وباكستان إلى بعضهما البعض نظرة الإخوان والجيران. كان يعتبرُ المجلس الهنديّ للعلاقات الثقافيّة أداة لتحقيق هذه الغاية، وفي خطابه الرئاسيّ أمام المجلس، وهو آخر خطابٍ له مُعدٌّ ومطبوعٌ، نادى في حماسٍ إلى تقوية روابط التفاهم والتآزر بين شعبَيْ هاتين الدولتين اللتين، قبل عشريّةٍ لا غير، كانتا بلدا واحدا غير مُقسَّم. أشعر أنه لا يمكن استخدام ريع هذا الكتاب بطريقة أفضل من جعله في متناوَل المجلس حتى يعزّز تفاهما أفضلَ بين مختلف الطوائف التي تعيش في الهند وباكستان. فإلى جانب القسط الذي سيُدفع إلى أقرب أقربائه الباقين على قيد الحياة، ستدفعُ عائداتٌ من هذا الكتاب إلى المجلس لمنح جائزتين سنويتين لأفضل نصٍّ عن الإسلام يكتُبه شخصٌ غير مسلمٍ، أو نصٍّ

عن الهندوسيّة يكتبه مواطن مسلمٌ هنديٌّ أو باكستانيٌّ. ونظرا للحبّ الكبير الذي يكنّه مولانا آزاد للشباب وتبجيله لهم، فإن المسابقة ستقتصر على من تبلغ أعمارهم الثلاثين فما دُون يوم 22 فبراير/ شباط من كلّ عام.

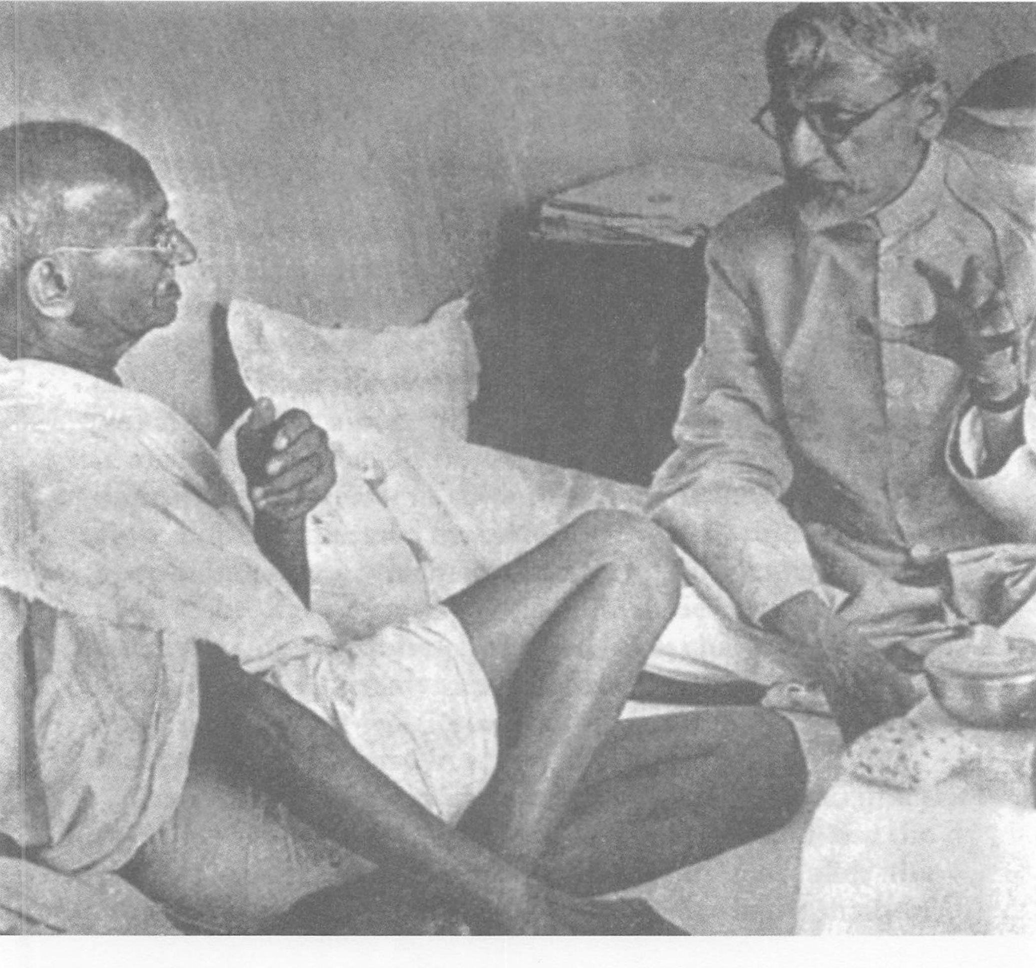
قبل أن أختمَ، أرغبُ في أن أوضّح شيئا آخر إيضاحا تامّا. هناك آراءٌ وأحكامٌ ترد في هذا الكتاب لا أتّفق معها، لكن بما أن وظيفتي تقتصر على تسجيل استنتاجات مولانا آزاد، فسيكون من غير اللاّئق أن أسمح لآرائي أن تلوّن الحكاية. عندما كان على قيد الحياة، كنت غالبا ما أعبّر عن اختلافي معه، ونظرا لرجاحة العقل التي كانت ميزة بارزة في طبعه، كان يغيّر، أحيانا، وجهة نظره في ضوء انتقاداتي. وأحيانا أخرى، كان يبتسمُ بطريقته المميّزة ويقول: "هذه وجهات نظري، ومن المؤكّد أنه من حقّي أن أعبّر عنها كما أريد." الآن وقد توفّي، يجب أن تظلّ وجهات نظره على الشكل الذي تركها عليه.

من الصعب على أيّ إنسانٍ أن يعكس بدقّة تامّة وجهات نظر إنسانٍ آخر وآراءه. حتى لو كانا يستخدمان اللغة نفسها، فإن تغيير كلمة واحدة يمكن أن تغيّر النبرة، وتدخلَ فارقا طفيفا على روح المعنى. إن اختلاف عبقرية اللغتين، الأورديّة والإنجليزية، يجعل مهمّة تأويل أفكار مولانا آزاد أكثر صعوبة. إن الأورديّة، شأنها في ذلك شأن اللغات الهنديّة الأخرى، ثريّة، ونابضة بالحيويّة وبالإمكانيات التعبيريّة. ومن ناحية أخرى إن اللغة الإنجليزية لغة تعتمد بالأساس على التضمين، وحين يكون المتحدّث متمرّسا باللّغة الأورديّة مثل مولانا آزاد، فمن السّهل تخيّل مأزق الكاتب الذي يحاول التّعبير عن أفكار مولانا آزاد باللغة الإنجليزية. رغم هذه الصعوبات حاولت أن أعكس وجهات نظر مولانا آزاد بأكبر قدرٍ ممكنٍ من الوفاء، وأعتبرُ أن خَيْرَ جزاءٍ لي أن هذا النصّ حُظِيَ بموافقته.

هُومَايُون كَبِيرْ

نيو دلهي

15 مارس/ آذار 1958



غاندي ومولانا أبو الكلام آزاد

توطئـــة

جاء أسلافي إلى الهند من هِرات في عهد بابار. استقروا في البداية بمدينة آغرا، ثم انتقلوا للعيش في مدينة دلهي. كانت عائلتي بَيْتَ عِلْم، وفي عهد جلال الدين محمّد أكبر، حاز مولاي جمال الدين شهرة كبيرة باعتباره عالمَ دينٍ. بعد ذلك، انشغلت عائلتي بأمور دنيويّة، وشغل العديد من أفرادها مناصب مدنيّة مرموقة. وفي أيام شاهجِهان عُيّن محمد هادي حاكما على قلعة آكْرَه.

كان مولاي مُنَوَّرُ الدين جدّي، والدُ أمّي، وقد كان أحد أواخر "ركن المدرّسين" المتبقّين من عهد المغول. وركن المدرّسين منصب قد تمّ إنشاؤُهُ في عهد شاهجِهان بُغْيةَ الإشراف على منجزات الحكومة في مجاليْ التعليم والبحث العلمي. وكان من بين المهام الموكلة إليه توزيع الهدايا العقاريّة، ومدّ الباحثين، والمدرّسين، وطلاّب العلم بمِنَح دراسيّة. وبالتالي فهو منصب يمكن مقارنته بمنصب المدير الأعلى للتربية والتعليم في عصرنا الحديث. كانت سلطة المغول قد تراجعت وقتها؛ غير أن هذه المناصب المهمّة ظلّت في أيديهم رغم ذلك.

تُوفّي جدّي عندما كان والدي مولانا خير الدين صغيرا جدّا، لذلك قام بتربيته جدّه، والدُ أمّه. قرّر جدّي مولاي مُنَوَّرُ الدين الرحيل إلى مكّة المكرّمة قبل سنتين من وقوع المجزرة، والسبب في ذلك أنه كان قد ضاق ذرعا بالوضع العامّ في الهند. وما كادت قدمُه تطأ أرض بيوبال حتى اعتقله نَوّاب سيكاندر جيهان بِغوم. بدأت المجزرة وهو معتقَلٌ، لذلك لم يتسنّ له أن يغادر المكان. عاد

بعد ذلك إلى بُمْبَاي، لكنه لم يَصِلْ مَكّةَ أبدا لأن الموت اختطفه قبل ذلك.

كان والدي يبلغ من العمر خمسةً وعشرين سنةً حين حدث هذا الأمرُ. فواصل مسيره نحو مكّةَ المكرّمة واستقرّ فيها. بنى بيتا وتزوّج ابنة الشيخ محمّد زاهر وَتْري. وكان الشيخ محمّد زاهر وقتها عالما يُشْهَدُ له بالفضل في المدينة المنوّرة وقد طبّقت شهرتُهُ الآفاق وتجاوزت حدود الجزيرة العربيّة. ذاع صيت أبي أيضا في كامل البلاد الإسلامية حين نشر كتابا في مصر يتكوّن من عشرين جزءا. قدِمَ أبي إلى بُمباي مرّاتٍ عديدة، وقدِمَ إلى كلكوتا مرّةً واحدة، وصار له العديد من المعجبين والمُرِيدِين في المدينتَيْن. كما قام أبي برحلة إلى مجمل مناطق العراق وسوريا وتركيا.

كان نهر زُبَيْدَة هو المصدر الأساسي للماء في جدّة بالنسبة إلى جميع السكّان. وقد بَنَتْ قناته زُبَيْدة بيغوم زوجة الخليفة هارون الرّشيد. وبمرور الزمن، حَصلَ تَلَفٌ كبيرٌ بالقناة انجرَّ عنه نقصٌ كبيرٌ في المياهِ بالبلاد. وفي موسم الحجّ تفاقمت الأزمةُ بسبب وجود الحجيج، فقام أبي بإصلاح ممرّ هذا النهر. وحتّى يتمكّن من فعل ذلك، قام بتجميع ميزانيّة قيمتها 20 لاخ جمّعها من الهند، ومصر، وسوريا، وتركيا. أصلح أبي القناة بطريقة تحميها من كلّ محاولاتِ البَدْوِ الرّامية إلى تدميرها. كان السلطان عبد المجيد سلطانَ تركيا في ذلك العهد، فكافأهُ ومنحه الميداليّة المجيديّةَ.

وُلدتُ بمكّةَ سنة 1888م. وفي عام 1890م قدِم أبي إلى كلكوتا رفقة العائلة بأكملها. وقبل ذلك بوقت قليل، قبل أن نغادر جدّة، كان أبي قد وقع على ذقنه فكسر عضم ذقنه. قمنا بتقويم ذلك الكسر، ولكنه لم يكن تقويما كافيا شافيا. لذلك السبب، نصحه الأطبّاء بأن يسافر إلى كَلكوتا حيث يوجد أطباء مَهَرَةٌ يقدرون على مداواته. كانت نيّته، حين قصد كَلكوتا، أن يكون مقامه فيها وجيزا جدّا، غير أن إصرار المعجَبين به ومُريديه جعله يُديم المقام فيها. ولم تمضِ سنةٌ على مقامِنا بكلكوتا حتى تُوفِّيَتْ أمّي، فدُفنت هناك.

كان أبي رجلا كثيرَ التّمسُّكِ بالتقاليد، لذلك لم يكن يُؤمِن بجدوى الفكر

الغربي، ولم يُفكِّر أبدا في منحي تعليما عصريّا. أصرّ أبي على أن يكون تعليمي كلاسيكيّا. وكان يعتقد اعتقادا جازما أن التعليم العصري من شأنه أن يعصِفَ بعقيدتي الدينيّة.

كانت تقاليد المسلمين الهنود القدامى تقتضي أن يتعلّم الأولادُ اللّغةَ الفارسيّةَ قبل تعلّم اللّغة العربيّة. وما إن يتمرّس هؤلاء الأولادُ بالبعض من قواعد هذه اللّغة حتّى يتمّ الشروعُ في تلقينهم علومَ الفلسفةِ والهندسةِ والرياضياتِ والجَبْرِ باللّغة العربية. ولاستكمال هذا التعلّم، كان لا بدّ من تلقّي درس في الشريعة الإسلامية. لجأ أبي إلى تدريسي في البيت لأنّه لم يَشَأْ لي أن أَلتحق بأيِّ مدرسة. وعلى الرغم من أن أبواب مدرسة كَلكوتا كانت مفتوحةً وقتَها، فإن موقف أبي منها كان سلبيّا. عمد أبي، في البداية، إلى تدريسي بنفسه، ثمّ جاءني بمدرّسين، وأوكل إلى كلٍّ واحد منهم مهمّة تدريسي مادّةً من المواد التي عليّ أن أتعلّمها.

كان الطّلاّب الذين يدرسون على الطريقة التقليديّة ينهون دروسَهم ما بين سنّ العشرين والخامسة والعشرين، بما فيها فترةً يقوم فيها التلاميذ بتدريس تلاميذ أصغر منهم سنّا حتى يُثبِتُوا أنّ المعارف التي تعلّموها قد ترسّخت في أذهانهم. وما إن بَلَغْتُ سنَّ السادسة عشرة حتى أكملت الدّرسَ، فجاءني أبي بنحو 15 تلميذا كي أعلّمهم دروسا متقدّمة في الفلسفة والرياضيات والمنطق.

بعد ذلك بقليل تعرّفت على كتابات السيد أحمد خان، وتأثّرت كثيرا بموقفه من التربية الحديثة، وعلمت أنه لا يمكن للمرء في عالمنا الحديث أن يكون متعلّما بالفعل ما لم تكن لديه معرفةً بالعلوم الحديثة والفلسفة والأدب. فقرّرت أن أتعلّم اللّغة الإنجليزية، وحدّثتُ مولاي محمّد يوسف بالأمر لأنه كان في ذلك الوقت المسؤول الأوّل عن سير الدروس الشرقيّة، فعلّمني أبجديّةَ اللّغة الإنجليزيّة وأعطاني الكتاب الأوّل لباري تشوران صاركار. وما إن تعلّمتُ اللّغةَ قليلا حتى شرعتُ في قراءة الإنجيل. كنت أضع النسخ الإنجليزية والفارسيّة والأورديّة جنبا إلى جنبٍ وأقرأها بالتّوازي؛ وقد ساعدني هذا كثيرا في فهم

النصّ. في هذه الفترة، شرعتُ أيضا في قراءة الجرائد المكتوبة باللّغة الإنجليزيّة مستعينا بمُعْجَم. وهكذا سرعان ما صرتُ قادرا على قراءة الكتب المكتوبة باللغة الإنجليزيّة وكرّستُ كلَّ جهودي لتعلّم التاريخ والفلسفة.

كانت هذه الفترةُ فترةَ أزمة نفسيّة حقيقيّة بالنسبة إليّ. فلقد وُلدت في عائلة مُثقلة بالتقاليد الدينيّة. وكان علينا اتّباع التقاليد كلّها دون مساءلتها، ولم يكن يُسمحُ لنا أن نَحيدَ إطلاقا عن أدنى مبدإ من المبادئ الموروثة. لم يكن باستطاعتي أن أتأقلم مع هذا الوضع، وكان قلبي مُفعما بإحساس ثوريّ جديد. لم تعد الأفكارُ التي تشرّبتها من عائلتي، ومن فترة دراستي الأولى، تكفيني. فقرّرت أنه عليّ أن أصلَ إلى الحقيقة بنفسي. وبشكلٍ شبه حدسيٍّ بدأت أنأى بنفسي عن عائلتي وأشقّ لي طريقا خاصا.

كان أوّل شيء أذهلني هو تركيز المذاهب الإسلامية على نقاط اختلافها. لم يكن بوسعي أن أستوعبَ وجود كلّ هذا الكمّ من الاختلافات بينها ما دامت كلّها تعلن أنها تنحدر من المصدر نفسه. ولم يكن بإمكاني أن أتفهّم اقتناع كلّ مَذْهَبٍ من هذه المذاهب بأن أتْبَاعَ المذهب الآخر مخطئون وكَفَرَة. بدأت هذه التساؤلات حول المذاهب الدينية تُثير في نفسي شكوكا حول الدين في حدّ ذاته. إذا كان الدين يعبّر عن حقيقة كونيّة فلماذا نجد كلّ هذه الفوارق والخلافات بين من يعتنقون ديانات مختلفة؟ لماذا يدّعي كلّ دينٍ أنه يمتلك الحقيقةَ كلَّها ويدينُ بقيّة الأديان ويعتبرها على خَطَإ؟

دام هذا الاضطراب النفسي سنتين أو ثلاث سنوات كاملة كنت خلالها أتوق إلى أن أجد حلاًّ يُنهي شكوكي. مررت بمراحل عديدة، وفي كل مرحلة أمرّ بها كانت القيود التي زرعتها عائلتي في ذهني ورسّختها التربية التي تلقّيتها تتلاشى تماما. شعرت بأنني أتحرّر من كلّ الروابط التقليدية وقرّرت أن أخطّ طريقي بنفسي. كانت هذه تقريبا هي الفترة التي اتّخذت فيها قرارا بأنْ أُطلِقَ على نفسي اسمًا مستعارا هو "آزاد" وهو ما تفسيرُهُ: الحُرّ، لأبيّن أنني لم أعد أتقيّد بالمبادئ الموروثة. وسأعطي تفاصيل أكثر عن هذه التغييرات في الجزء

الأوّل من سيرتي الذاتية.

كانت هذه الفترة أيضا، هي الفترة التي بدأت فيها أفكاري السياسية تتغيّر. كان اللورد كورزن نائب الملك في الهند في ذلك الوقت. وكانت مواقفه الإمبريالية وترتيباته الإدارية تزيد من حالة الاضطراب السائدة بين الهنود. كانت الاضطرابات أشدّ حدّةً في البنغال التي كان اللورد كورزن منشغلا بها أيّما انشغال. كان هذا الإقليم أكثر الأقاليم تقدّما سياسيا، وقد اضطلع هندوس البنغال بدور رياديٍّ في اليقظة السياسية في الهند. وفي سنة 1905 اتّخذ اللورد كورزن قرارا بتقسيم هذا الإقليم بُغْيَةَ إضعاف الهندوس وخلق قطيعة دائمة بين هندوس البنغال ومُسْلِميه.

لم يقف البنغال مكتوف اليدين أمام هذا الإجراء. تفجّرت حركة ثوريّة سياسيّة لم يسبق لها مثيلٌ. وغادر شْري آرابيندو غوش بارودا ليستقرّ في كلكوتا ويجعل منها مركزا لنشاطاته. فصارت جريدته كارمايوجين رمزا لليقظة الوطنيّة وعنوانا للثورة.

تعرّفت، في تلك الفترة، على شْري شيام ساندر شَكْرافَرْتي الذي كان وقتها عاملا ثوريا معروفا. وعن طريقه تعرّفت على ثوريّين آخرين. أذكر أنني التقيت شْري آرابيندو غوش مرّتين أو ثلاث مرّات. وانجرّ عن ذلك أنني أُعجبت بالأفكار السياسة الثوريّة إلى درجة أنني انضممت إلى مجموعة ثوريّة.

في تلك الأيام، كان أعضاء هذه المجموعات لا يُخْتَارون إلا من بين أبناء العائلات البرجوازية. والحقيقة أن كلّ المجموعات الثوريّة وقتها كانت مناهضة للمسلمين. كان أعضاء هذه المجموعات يرون أن النظام البريطاني كان يستخدم المسلمين لدحر جهود الهنود ونضالهم السياسي، وكان المسلمون يخدمون ألاعيب الحكومة. في ذلك الوقت، كان غرب البنغال قد أصبح إقليما منفصلا، وصرّح بامفيلد فولير جهارا أن النظام الحاكم يعتبر طائفة المسلمين بمثابة زَوْجته المفضّلة. كان الثوّار يعتبرون المسلمين عائقا أمام حرّيتهم، وكان على هذا العائق أن يزول، مثله في ذلك مثل بقية العوائق.

وكان هناك سببٌ آخر جعل الثوّار يكرهون المسلمين وهو أن الحكومة شعرت بأن الوعي السياسي الذي بدأ يسود بين هندوس البنغال، كان من القوّة، إلى درجة أنه لم يكن بالإمكان التعويل على أي حاكم هندوسيّ كي يخمد تحرّكات الثّوار؛ فاستقدموا عددا من الضبّاط المسلمين من الأقاليم المتحدة لتعزيز المخابرات البوليسية، ونتيجة لهذا الإجراء صار هندوس البنغال يشعرون أن المسلمين يقفون ضدّ الحرّية السياسية وضدّ الطائفة الهندوسية.

قدّمني شيام ساندر شَكْرافَرْتي إلى ثوّار آخرين، وعندما علم أصدقائي الجدد برغبتي في الانضمام إليهم كانت دهشتهم كبيرة. في البداية لم يمنحوني ثقتهم الكاملة، وكانوا يحاولون إبقائي بعيدا عن مجالسهم الخاصّة. لكنهم اكتشفوا، مع مرور الزمن، أنهم كانوا يخطئون الظن بي، وحزتُ على ثقتهم. كنت أجادلهم وأقول لهم إنه من الخطإ أن يظنّوا أن المسلمين كلّهم أعداؤهم. كنت أقول لهم إنه ينبغي عليهم أن لا يعمّموا، وأن لا يأخذوا كلّ المسلمين بِجَرِيرَةِ بعض الضبّاط المسلمين في البنغال. أخبرتهم أن المسلمين في مصر، وإيران، وتركيا منخرطون في نشاطات ثوريّة بُغْيَةَ تحقيق الديمقراطيّة والحرّية. وسينضمّ مسلمو الهند إلى حركة نضالنا السياسية لو أننا نعمل معهم، ونحاول أن نكسبَ صداقتهم. كما أشرت إلى أن المسلمين لو بغضونا بغضا فعليا أو حتى لو اكتفوا بالوقوف موقفا محايدا، فإن هذا كفيلٌ بأن يجعل نضالنا من أجل الحرّية السياسية أصعب بكثير. ولذلك علينا أن لا ندّخر جهدا في كسب صداقة المسلمين ودعمهم.

لم يكن سهلا عليّ، في البداية، أن أقنع أصدقائي الثوريين بصواب رؤيتي للأمر. ولكن، بمرور الزمن، بدأ البعض منهم يقتنع بموقفي. في هذه الفترة، كنت قد بدأت العمل مع المسلمين واكتشفتُ مجموعةً صغيرة من الشبّان جاهزة للاضطلاع بمهامّ سياسية جديدة.

وما إن انضممت إلى الثوّار حتى تفطّنت إلى أن نشاطاتهم تقتصر على البنغال وبِيهار. ويجب أن أضيف هنا، أن بِيهار كانت في ذلك الوقت جزءا من

البنغال. أشرتُ على أصدقائي بأن نقوم بتوسيع دائرة نشاطاتنا حتى تشمل بقيّة مناطق الهند. غير أنهم رفضوا في البداية وقالوا إن الطبيعة السرية لنشاطاتهم تمنعهم من توسيع دائرة انتشار تلك النشاطات، فلو فتحوا لهم فروعا في بقية المقاطعات قد لا يتمكّنون من المحافظة على الطابع السري الذي هو أساس النجاح. ولكنني نجحت في إقناعهم بموقفي. وبعد سنتين من انضمامي إلى المجموعة بدأت خلايا سرّيّة تتكوّن هنا وهناك في جميع المدن الكبرى بجنوب الهند وبُمباي. كان بإمكاني أن أحكي لكم العديد من الحكايات المفيدة والمتعة التي تحكي قصّة تكوين هذه الخلايا وتأطير الناس كي ينضمّوا إليها، لكن على القرّاء أن ينتظروا حتى يكتمل المجلّد الأوّل من سيرتي الذاتية وعندها سيحصلون على معلومات أكثر.

في هذه الفترة توفّرت لي فرصة للخروج من الهند وزيارة العراق وسوريا وتركيا. لمست، في هذه البلدان جميعها، اهتماما كبيرا باللّغة الفرنسيّة. فأعجبتُ بدوري بهذه اللّغة وشرعت في تعلّمها، غير أنني أدركت أن اللّغة الإنجليزية كانت تصبح، بسرعة، اللّغةَ الأكثر انتشارا وشيوعا في العالم. كما أنها لغة تكفيني في قضاء كلّ حاجاتي تقريبا.

وأودّ أن أنتهز هذه الفرصة لأصوّب خطأً أورده مَهاديف ديساي. فحين شرع في كتابة سيرتي، طرح عليّ بعض الأسئلة وطلب مني أن أجيب عنها. وقد ورد في ردّي عن أحد هذه الأسئلة أنني قمت بجولة في بلدان الشرق الأوسط، وأطلت المقامَ في مصر حين كنت في العشرين من عمري. وردّا عن سؤال آخر قلت له إن حال التربية والتعليم سيّئة لا في الهند فحسب، بل في جامعة الأزهر الشهيرة بالقاهرة أيضا. ولا أعلم كيف ربط مَهاديف ديساي بين الجوابين واستنتج أنني قصدتُ القاهرة بُغْيَةَ التّعلم في جامعة الأزهر. والحقيقة أنني لم أدرس فيها يوما واحدا. ربما يكون سبب وقوعه في الخطإ إيمانه بأنه لا يمكن للمرء أن يُحصّل العلم إلا إذا درس في جامعة، وعندما أدرك مَهاديف ديساي أنني لم أتعلّم في أيّ جامعة من جامعات الهند، خمّن أنني لا بدّ أن أكون قد

حصلت على شهادة من الأزهر.

حين زرت الأزهر سنة 1908م كان النظام التعليمي المتّبع فيه من التدهور إلى درجة أنه لم يكن قادرا على صقل الذهن، وما كان يستطيع أن يُوفّر معرفة ضافية بالفلسفة والشريعة الإسلامية القديمة. وقد حاول الشيخ محمّد عبد الله[2] أن يُصلح هذا النظام، غير أن العلماءَ المحافظين المتقدّمين في السنّ كانوا له بالمرصاد. وحين باءت كلّ جهوده بالفشل وفقد الأمل في تحسين وضع التعليم بالأزهر، فتح مركزا تعليميا جديدا بالقاهرة سمّاه "دار العلوم" وهو موجود في القاهرة إلى يوم الناس هذا. وما دامت هذه هي حال الأزهر فلا وجود لسبب يدعوني إلى الالتحاق به.

عندما غادرت مصرَ قصدتُ تركيا وفرنسا. وكان في نيّتي أن أزور لندن، لكنني لم أتمكّن من زيارتها لأنني تلقّيت أخبارا تفيد بأن أبي مريضٌ. فعدت من باريس ولم أزر لندن إلا بعد ذلك بسنوات طوال.

لقد ذكرتُ سابقا أن أفكاري السياسيّة قد توجّهت نحو النشاط الثّوري قبل مغادرتي كَلكوتا سنة 1908. حين وصلتُ إلى العراق التقيت بعض الثوّار الإيرانيين. وفي مصر كانت لي اتصالات بأتباع مصطفى كامل باشا، كما التقيت مجموعة من الشباب الأتراك كانوا قد استقرّوا بالقاهرة وأسّسوا فيها مركزا يُصدر جريدةً أسبوعيّة. وعندما زرت تركيا، ربطتني صداقة ببعض قادَةِ حركة الأتراك الشبّان، وقد تواصلت المراسلات بيننا مدّةَ سنين عديدة بعد عودتي إلى الهند.

رسّخت هذه العلاقات مع الثوار العرب والأتراك مبادئي السياسية. وقد عبّر هؤلاء الثوار العرب والأتراك عن تعجّبهم من موقف مسلمي الهند المحايد تجاه المطالب القوميّة أو المعادي لها. كانوا يرون أنه كان حَرِيًّا بمسلمي

2- وردت كذا في الأصل، والواقع أن مؤسس دار العلوم هو علي محمد باشا وقد شغل منصب العميد فيها سنة 1871م. أما محمد عبده فيقول عن دار العلوم: إن باحثا مدقّقا إذا أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية؟ وأين تحيا؟ لوجدها تموت في كلّ مكان ووجدها تحيا في هذا المكان. (المترجمة)

الهند أن يقودوا الحركة الوطنيّة نحو التحرير بدل أن يكتفوا بأن يكونوا أتباعا للبريطانيين. كنتُ أعتقد اعتقادا راسخا أنه يتوجّب على مسلمي الهند أن يشاركوا في عمليّة تحرير البلاد. وكان لا بدّ من اتّخاذ تدابيرَ حتى نضمن أن الحكومة البريطانية لا تستغلّهم. شعرت بأنه من الضروري أن نؤسّس حركة تجمع مسلمي الهند، وقرّرت أن أمارس نشاطي السياسي بفاعليّة أكبر حال عودتي إلى الهند.

وما إن عدت إلى الهند حتّى شرعت أفكّر في برنامج نشاطي المستقبلي. وتوصّلت إلى نتيجة مفادها أنه يتوجّب علينا بناء رأي عامّ، وهذا، بدوره، يتطلّب إنشاء نشريّة. كان هناك العديد من النّشريّات اليوميّة والأسبوعيّة والشهريّة الناطقة باللغة الأورديّة والقادمة من بُنجاب والمقاطعات المتّحدة، لكنها لم تكن ذات جودة عالية. كان تصميمها وورقها لا يقلاّن بؤسا عن محتواها. كانت هذه النشريات تُطبع بطريقة الطباعة الحجريّة ممّا جعلها تفتقر إلى جميع مقوّمات الصحافة الحديثة، وتعجز عن نشر صور بالألوان النصفيّة. فقرّرت أن تكون نشريّتي جيّدة التصميم قويّة المحتوى. كان يجب أن تكون مكتوبة على الآلة الكاتبة ومطبوعة بطريقة الطباعة الحجريّة. وهكذا أصدرت نشرية **الهلال**، وقد صدر العدد الأوّل منها في شهر يونيو/ حزيران سنة 1912.

تعتبر **الهلال** نقطة تحوّل في تاريخ الصحافة المكتوبة باللغة الأورديّة. وقد حقّقت نجاحا لا نظير له في وقت وجيز. لم تكن الطباعة الجيّدة وجودة الإخراج هما السببان الوحيدان وراء شدّ الجمهور، فقد كان النفس الوطني القويّ الذي تَكْرِزُ له النشرية هو أهمّ ما جذب القرّاء. بثّت **الهلال** روحا ثوريّة في صفوف الجماهير. ووصل التلهّف إلى الحصول عليها إلى درجة أننا اضطررنا إلى إعادة طباعة الأعداد القديمة بعد ثلاثة أشهر من بداية صدورها، لأنّ كلّ مشترك جديد كان يعبّر عن رغبته في الحصول على المجموعة الكاملة من أعدادها.

في ذلك الوقت، كان حزب أليغَره هو الحزب الذي يسيطر على الحركة

السياسية لمسلمي الهند. وكان أعضاؤه يعتبرون أنفسهم مُريدي السيّد أحمد. وكان أهمّ شعار يرفعونه هو أنه على المسلمين أن يكونوا أوفياء للتاج البريطاني، وأن يبتعدوا قدر الإمكان عن حركة التحرير. وما إن انتشرت **الهلال** ورفعت شعارا مختلفا حتى أحسّت قيادتهم بأن هيمنتها أصبحت في خطر، فشرعوا في مهاجمة **الهلال**، حتى أنهم هدّدوا بقتل رئيس تحريرها. وكلّما كانت وتيرة الحملة على **الهلال** تشتدّ، كانت جماهيريّتها بين القرّاء تزداد. وما مرّ عامان حتّى وصل حجم مبيعاتها إلى 26000 نسخة أسبوعيًا، وهو رقم لم تسبقها إليه أيّ جريدة في الصحافة الأورديّة.

انزعجت الحكومة، بدورها، من النجاح الذي حقّقته فطالبتها بتأمين مبلغ قدره 2000 ريالا، وهو ما ينصّ عليه قانون الصّحافة، على أمل أن يحدّ هذا الإجراءُ من حدَّة لهجتها. لم أكن لأسمح لنفسي بأن تعيقني هذه الإجراءات البسيطة. ولذلك، سُرعان ما تراجعت الحكومة عن ذلك المبلغ وطالبت بدفع تأمين قدره 10000 ريالا. وسرعان ما خاب هذا المسعى أيضا. وفي الأثناء اندلعت الحرب، وكان ذلك سنة 1914؛ ووقع حجز **الهلال** سنة 1915. ولم تمض خمسة شهور حتى أسّستُ مؤسّسة صحافية أخرى، ودوريّة أخرى أطلقتُ عليها اسم **البلاغ**. شعرت الحكومة الآن أن استخدام قانون الصحافة لم يعد كافيا لإيقاف نشاطاتي، فلجأت إلى لوائح حماية الهند. وفي سنة 1916 صدر الأمر بإبعادي من كَلكوتا. كانت حكومات بُنجاب، ودلهي، والأقاليم المتّحدة، وبُمباي، قد أصدرت أوامر بإبعادي في وقت سابق مستندةً إلى اللوائح نفسها. ولم يبق لي سوى مكانٌ واحدٌ يمكنني أن أقيم فيه وهو بيهار، فقصدتُ رانجي. بعد مُضيّ ستة أشهر اعتُقلتُ في رانجي وبقيتُ رهن الاعتقال حتى يوم 31 ديسمبر 1919. وفي يوم 1 يناير 1920 أُطلق سراحي مع مجموعة من المساجين والمعتقلين الآخرين، بأمرٍ من الملك.

بدأ ظهور غاندي في المشهد السياسيّ الهنديّ في تلك الفترة. وقد زار رانجي في مهمّة رِفقَةَ قرويين من شابمان. كنتُ، في ذلك الوقت، معتقَلا في رانجي. فعبّر غاندي عن رغبته في زيارتي، غير أن حكومة بيهار رفضت أن

تمنحه الترخيص اللاّزم لذلك. كان هذا هو السبب الذي جعلني لا ألتقي غاندي لأوّل مرّة في العمر إلا بعد إطلاق سراحي سنة 1920. كان ثمّة مقتَرَحٌ بإرسال بعثة إلى النائب البريطاني في الهند لإبلاغه بمشاعر المسلمين الهنود تجاه مسألةِ الخلافة ومستقبل تركيا. شارك غاندي في النقاش وعبّر عن مساندته للمقترح وتحمّس أيّما حماسٍ. كما عبّر عن استعداده للوقوف جنبا إلى جنب مع المسلمين لتحقيق هذا الهدف. فعُقِدَ اجتماعٌ في دلهي يوم 20 يناير 1920، أيّد فيه غاندي وكلّ من لوكمانيا تيلاك وأعضاء قياديّون آخرون من الكونغرس موقفَ مسلمي الهند من الخلافة.

ذهب الوفد للقاء نائب الملك، أما أنا فوقّعتُ على العريضة، لكنني لم أذهب مع الوفد لأنني كنت أرى أن المسألة قد بلغت مبلغا جعلها أبعد من أن تُواجَهَ بالوفودِ والعرائض. جاء في ردّ نائب الملك أن الحكومة ستقدّم التسهيلات اللاّزمة إذا أُرسِل وَفْدٌ إلى لندن وطرح وجهة نظر المسلمين أمام الحكومة البريطانية. وقال إنه عاجز عن القيام بأيّ شيء.

طُرِحَت الآن مسألة ماذا سنفعل في المرحلة الموالية. فعُقِدَ اجتماعٌ حضره السيد محمد علي، والسيد شوكت علي، وحكيم أجمل خان، ومولاي عبد الباري من فرنجي محلّ في لُكْنَاوْ. عرض غاندي برنامجه المتعلّق بعدم التعاون. وأعلن أن زمن البعثات والعرائض قد ولّى، وأنه يتوجّب علينا سحب دعمنا للحكومة لأن هذا الإجراء هو الإجراء الوحيد الكفيل بجعل الحكومة تنصاع. واقترح غاندي أن يتمّ إرجاع كلّ الألقاب للحكومة، وأن تتمّ مقاطعة كلّ المؤسّسات القضائية والتربوية الحكومية، وأن الهنود يجب أن يستقيلوا من جميع الدوائر الحكوميّة ويرفضوا الاضطلاع بأيّ مهمّة في المجالس التشريعيّة التي تكوّنت حديثا.

وما إن أكمل غاندي شرح برنامجه حتّى تذكّرت أن تولستوي كان قد طرح هذا البرنامج نفسه قبل سنوات. في سنة 1901م قام فوضويٌّ بمهاجمة ملك إيطاليا. فكتب تولستوي رسالة مفتوحة إلى الفوضويين قال فيها إن أسلوب العنف أسلوبٌ خاطئٌ أخلاقيّا، وغير مُجْدٍ سياسيّا. فإن قُتِلَ رجلٌ سيقوم رجل

آخر مكانه، والعنف لا ينجرّ عنه إلا عنف أكبر. وتذكر الأسطورة اليونانية أن 999 مقاتلا كانوا ينبثقون من دَم كلّ محارب يُقتَلُ. وبالتالي فإن من يشرع في ممارسة الجريمة السياسيّة كمنَ يزرعُ أسنانَ التنين.[3] ذكر تولستوي أن أفضل طريقة نشلّ بها حكومة قمعيّة هي الامتناع عن دفع الضرائب، والاستقالة من جميع الدوائر الحكوميّة، ومقاطعة المؤسّسات التي تساند الحكومة. كان تولستوي يؤمن أن هذا النهج هو الأسلوب الوحيد الذي يمكن أن يجعل أيّ حكومة ترضخ. وأذكر أيضا أنني أشرت، بدوري، إلى برنامج مماثل في بعض مقالاتي التي وردت في الهلال.

أما الآخرون فتصرّف كلُّ واحدٍ منهم حسب منطلقاته الخاصّة. قال حكيم أجمل خان إنه يحتاج إلى قليلٍ من الوقت لدراسة البرنامج، وإنه لا يستطيع أن يُقنع الآخرين بهذا البرنامج ما لم يتمَلاّه بنفسه ويقتنع به. أما مولاي عبد الباري فذكر أن مُقْتَرَحَ غاندي يثير مسائل جوهريّة، وقال إنه لا يستطيع أن يقدّم ردّا حتى يتأمّل الموضوع وينتظر هَدْياً إلهيا. وقال كلٌّ من محمد علي وشوكت علي إنهما سينتظران حتى يُعرَف قرار مولاي عبد الباري. عندها، التفت غاندي إليَّ، فقلت، دون أن أتردّد لحظة واحدة، إني أوافق على هذا البرنامج موافقةً تامّةً. إذا كان الشعب يريد أن يساعد تركيا فلا خيار أمامه غير برنامج غاندي.

بعد ذلك بأسابيع قليلة، عُقد مؤتمر خلافَة بمدينة ميروت. وأثناء هذا المؤتمر، طرح غاندي برنامج عدم التعاون من منْبَرٍ عَلَنِيٍّ لأوّل مرة. وبعد أن أنهى غاندي كلامه، تكلّمت أنا وساندته مساندة لا مثيل لها.

3- يمكن ترجمة هذه العبارة بعبارة «كمن يضرم النار من حوله»، لكنني آثرت أن أحافظ على الاستعارة الواردة في النص الأصلي، وهي استعارة مستمدّة من الأسطورة اليونانية التالية: طلبت أثينا من الأمير الفينيقي قَدمُوس أن يزرع أسنان التّنين فَفَعَلَ. فكان كلّ سِنٍّ يُنْبِتُ مجموعةً من المقاتلين المدجّجين بالسلاح. تناول قَدمُوس جوهَرةً ورمى بها وسط جموع المحاربين، فانقلبوا على بعضهم البعض يتقاتلون إلى أن لم يبق منهم إلاّ خمسة محاربين لا غير، هم الذين أسّسوا مدينة طيبة في ما بعد. (المترجمة)

وفي سبتمبر 1920 عُقدت بكلكوتا جلسة استثنائية للمؤتمر بُغْيَةَ النظر في جدول الأعمال الذي أعدّه غاندي. قال غاندي إنه لا غنى عن برنامج عدم التعاون إذا كنا نصبو إلى تحقيق الحكم الذاتي وحلّ مشكلة الخلافة حلاً مُرْضيا. كان لالاَ لَجْبَاتْ رَايْ هو رئيس هذه الجلسة، وكان السيد س. ر. داس أحد القياديّين الحاضرين. ولم يوافق أيٌّ منهما على كلام غاندي. تكلّم بيبين شاندرا بال بقوّة وقال إن أفضل سلاح يمكن أن نحارب به البريطانيين هو مقاطعة السلع البريطانية. غير أنه لم يكن مقتنعا اقتناعا كليّا ببقيّة ما ورد في مشروع غاندي. ولكن، رغم هذه المعارضة، اتُّخِذَ قرارٌ عدم التعاون بعد أن حاز على إجماع الأغلبيّة الساحقة.

تلتْ ذلك فترةٌ كان علينا فيها أن نتنقّل كثيرا بين مختلف المناطق لإعداد البلد لبرنامج عدم التعاون. قام غاندي بسفرات عدّة. وكنتُ أرافقُهُ في أغلب الأوقات. وكثيرا ما كان محمد علي وشوكت علي يرافقاننا بدورهما. وفي ديسمبر 1920 عُقدَتْ الدورة السنويّة للمؤتمر في نَاغْبُورْ. كانت مواقف الناس قد تغيّرت في الأثناء. فصار السيّد س. ر. داس يُجاهر بمساندته لبرنامج عدم التعاون. ورغم أن لالاَ لَجْبَاتْ رَايْ كان يعارض المشروع قليلا في البداية، إلا أنه تراجع وأصبح مساندا لغاندي عندما لاحظ أن كلّ نوّاب بُنجاب يقفون إلى جانبه. وكانت هذه هي الدورة التي غادر فيها السيّد جِنَّاه المؤتمر أخيرا.

ثأرت الحكومة لنفسها بأن اعتقلت القياديين في مختلف بقاع البلاد. كنت أنا والسيّد س. ر. داس ضمن أوّل المعتقلين في البنغال. ثم انضمّ إلينا في السجن صُبحاس شاندرا بوز وبيرندرا ناث صاسمل. وقد وضعونا كلّنا في جناح واحد هو الجناح الأروبي بسجن أليبور المركزي، فحوّلناه إلى مركز للنقاشات السياسيّة.

حُكم على السيّد س. ر. داس بالسجن مدّة ستة شهور، أما أنا فتركوني محجوزا فترة طويلة من الزمن ثمّ حكموا بسجني مدّة سنة. والحقيقة أنه لم يُفرج عنّي إلا في 1 يناير 1923، في حين أُطلق سراح السيّد س. ر. داس قبل

ذلك، فترأس جلسة المؤتمر التي عُقدت في جايا. ظهرت أثناء هذه الجلسة اختلافات كبيرة في وجهات نظر قادة المؤتمر. كوّن السيّد س. ر. داس، وموتيلال نهرو، وحكيم أجمل خان، حزبَ "سواراج" أو الحكم الذاتي وقدّموا برنامج افتتاح المؤتمر. غير أن أتباع غاندي المتشدّدين وقفوا ضدّ هذا البرنامج. وهكذا انقسم المؤتمر إلى مؤيّدين للتغيير ومعارضين له. وما إن خرجتُ من السجن حتى بدأت أحاول لَمَّ شَمْلِ المجموعتين والمصالحة بينهما، وقد توصّلنا إلى تسوية في الدورة الاستثنائيّة للمؤتمر في سبتمبر 1923. كان عمري 25 سنة في ذلك الوقت، وطُلِبَ مني أن أترأس هذه الدورة. فقيل عنّي إنني أصغر من انتُخِبَ رئيسا للمؤتمر.

بعد سنة 1923 ظلّت أغلب أنشطة المؤتمر في أيدي حزب"سواراج" أو الحكم الذاتي. فحاز أغلبية ساحقة في أغلب الهيئات التشريعيّة، ونقل جبهة المعركة إلى البرلمان. أما أعضاء المؤتمر الذين لم ينضمّوا إلى حزب الحكم الذاتي فقد واصلوا برنامجَهم البنّاء، غير أنهم لم يستطيعوا أن يستقطبوا اهتمام العديد من الناس أو مساندتهم مثلما هو الشأن بالنسبة إلى حزب الحكم الذاتي. لقد جرت العديد من الوقائع التي كان لها تأثيرٌ مباشرٌ على مستقبل التطوّرات السياسيّة في الهند، لكن عليَّ أن أطلب من القارئ أن ينتظر حتى يتمّ نشر القسم الأوّل من سيرتي الذاتية ليعرف تفاصيل هذه الأحداث.

تصاعد الحماس السياسيّ سنة 1928 على إثر تعيين لجنة سيمون، وقيامها بزيارة الهند. وفي سنة 1929 صوّت المؤتمر على قرار الاستقلال، ومنح الحكومة البريطانيّة مُهلَةَ سنة هدّد بأن تنطلق، بعد انتهائها، حركةٌ جماهيريّةٌ عارمةٌ إن لم تتمّ الاستجابة إلى هذا المطلب الوطني. رفض البريطانيون أن يستجيبوا لطلبنا هذا، فقرّر المؤتمر سنة 1930 كَسْرَ قانون ضريبة المِلْح. كان الناس، في بادئ الأمر، متشكّكين حين انطلقت مسيرة المِلْح، ولكن ما إن جمّعت الحركة قوّتها حتّى تفاجأ الناس والحكومة. أخذت الحكومة تدابيرَ كبيرةً وأعلنت أن حركةَ المؤتمر حركةٌ خارجةٌ على القانون، وأمرت بسجن

رئيس المؤتمر وسجن أعضاء اللجنة التنفيذيّة. وكان ردّ فعلنا هو أن نسمح لكلّ رئيس مؤتمر بتعيين من يخلفه في الرئاسة. فتمَّ تعييني رئيسا، وقمتُ بتعيين أعضاء لجنتي. وقبل أن يتمّ إلقاء القبض عليّ عيّنت د. أنصاري خَلَفاً لي في موقع الرئاسة. في البداية، لم تكن لديه رغبة في الانضمام إلى حركتنا، لكنني أقنعته بالانضمام فَفَعَلَ. وكانت تلك هي الطريقة التي وجدناها لنُرْبِكَ الحكومة ونحافظ على استمراريّة الحركة.

أُلقي عليَّ القبض على إثر خطاب ألقيته في ميروت. لذلك تمّ سجني في سجن ميروت مدّة عام ونصف.

وبعد أن استمرّ الصراع ما يفوق سنة، أطلق اللورد إرفين سراح غاندي وبقية أعضاء اللجنة التنفيذيّة. التقينا أوّلاً في الله آباد، ثمّ في دلهي، وتمّ توقيع اتفاقية بين غاندي وإرفين. وأعقبَ ذلك إفراجٌ عن عددٍ كبيرٍ من المنتسبين إلى حزب المؤتمر، ومشاركة الحزب في قمّة الطاولة المستديرة. كان غاندي ممثّلنا الوحيد في هذه القمّة، لكن المفاوضات باءت بالفشل وعاد غاندي صفر اليدين. وما إن عاد غاندي من لندن حتّى قامت السلطات باعتقاله من جديد، وأصدرت قوانين قمعيّة جديدة. كان اللورد ويليندون هو نائب الملك وقتها، وقد قام باتخاذ إجراءات مشدّدة ضدّ كلّ المنتسبين إلى حزب المؤتمر. سُجنتُ في سجن دلهي مدّة أكثر من سنة. وقد شهدتْ هذه الفترة، بدورها، أحداثا جِسَاماً أثّرت في التاريخ السياسي للهند، ولكن على القارئ أن ينتظر مرّة أخرى، إلى أن يصدر القسم الأوّل.

وفي سنة 1935 تمّت المصادقة على قانون حكومة الهند، وهو قانون حصلت الهند، بموجبه، على استقلاليّة إقليمية بإدارة حكومة فدراليّة. ههنا بالضبط، تبدأ الحكاية التي أودّ أن أسردها على مسامعِكُمْ في صفحات هذا الكتاب.

1- حزب المؤتمر يشارك في الحكومة

أحرز حزب المؤتمر نجاحا باهرا في الانتخابات الأولى التي أجريت إثْرَ اعتماد قانون الحكم الذاتي الإقليمي. فقد حصل على الأغلبية الساحقة من الأصوات في المقاطعات الخمس الأكثر أهمية في الهند، وكان الحزب الوحيد الذي لاقى تأييدا شعبيّا في أربعة أقاليم. لم يفشل الحزب في نيل هذه الحظوة إلاّ في بُنجاب والسند.

أين هذا الانتصار الذي حقّقه المؤتمر من التردّد الذي عاشه قبل دخول الانتخابات. كان من المفترض أن يوفّر قانون حكومة الهند لسنة 1935 استقلاليّة إقليمية تامّة، لكن الفرحة لم تكتمل. فقد مُنِحَت السلطات صلاحيات استثنائية تخوّل لها إعلان حالة الطوارئ، وما إن يقوم حاكم بهذا الإجراء حتّى يتسنّى له أن يعلّق العمل بالدستور ويمنح لنفسه السلطات جميعها. يعني ذلك أن الديمقراطية تظلّ موجودة في المقاطعات طالما سمح الحاكم بذلك. وكان وضع الحكومة المركزيّة أسوأ من ذلك، فقد كانت محاولة العودة إلى العمل بمبدإ الحكم الثنائي تجري بعد أن سحبت كلّ المقاطعات ثقتها في هذا النمط من الحكم. لم تكن الحكومة المركزيّة الفدرالية ضعيفة فحسب، بل كانت أيضا منحازةً جدّا إلى الأمراء وحريصة على المصالح الخاصّة. ولم يكن في الإمكان أن يُتوقَّعَ منها إلا أن تكون منحازة للبريطانيين المسيطرين على البلاد.

لهذه الأسباب، ليس غريبا أن المؤتمر الذي كان يناضل من أجل الحصول

على الاستقلال التامّ لم يكن يرغب في قبول هذه التسوية. أدان المؤتمر الشكل الفدرالي المُقترَح في ما يخصّ الحكومة المركزيّة. وقد ظلّت اللجنة التنفيذيّة للمؤتمر تقف هي بدورها ضدّ القبول باستقلالية الأقاليم وترفضه رفضا تاما. وكان هناك شقٌّ كبيرٌ يرفض المشاركة في الانتخابات أصلاً. أما أنا فقد كنت أعتقد أنه من الخطإ مقاطعة الانتخابات. فلو حدثت المقاطعة لأمسَكَتْ عناصر غير مرغوب فيها بالسلطة المركزية والإقليمية وصارت تتكلّم باسم الشعب الهندي. إلى جانب ذلك، كانت الحملة الانتخابية تمنح فرصة ذهبيّة لتثقيف الجماهير في ما يخصّ المبادئ الجوهرية للسياسة الهندية. اتفقنا، في النهاية، على تبنّي الموقف الذي كنت أسانده، فشارك المؤتمر في الانتخابات، وفاز بالنتائج التي ذكرتها سابقا.

انكشفت الآن اختلافات أخرى بين أعضاء قيادة المؤتمر. فقد صار قسمٌ من الذين شاركوا في الانتخابات يرفض أن يتولّى أعضاء المؤتمر مناصب حكومية. كانت حجّتهم أن الاستقلال الإقليمي لا يزيد عن كونه مهزلة لا غير، بسبب كلّ الصلاحيّات الاستثنائية الممنوحة للحكّام، وهذا أمر من شأنه أن يجعل وزارات المؤتمر رَهْنَ إشارة هؤلاء الحكّام. يعني هذا أنه لا بدّ من صراع مع الحاكم إذا كان المؤتمر ينوي تحقيق ما تعهّد به أثناء حملته الانتخابيّة. وأضاف هؤلاء الأعضاء أنه على المؤتمر أن يدمّر الدستور من داخل المجلس التشريعي. وقف البعض الآخر منّا ضدّ هذا التصوّر، وقالوا إنه علينا أن نمارس السلطة التي مُنحت للأقاليم بأكملها، ولو حدث صِدامٌ مع الحكومة فيجب أن يُعالجَ عند حدوثه. لم يكن لبرنامج المؤتمر أن يتحقّق بدون الممارسة الفعليّة للسلطة. ولو تطلّب الأمر أن تغادر وزارات المؤتمر الحكومةَ بسبب مسألة شعبية، فإن هذا لن يزيد مكانة الحركة في المخيّلة الشعبية إلا قوّة.

أثناء استمرار هذا الحوار، كانت تُقامُ وزارات بالنيابة في جميع المقاطعات. وكانت هذه الوزارات تتكوّن من أشخاص غير منتمين إلى المؤتمر، وفي بعض الأحيان كانوا من الأشخاص المعادين له. كشف تردّد المؤتمر في قبول تولّي مناصب حكوميّة عن انقسامات واختلافات في وجهات النظر، ولكن

الأدهى من ذلك أنه سمح للقوى الرّجعيّة أن تستردّ أنفاسها وتستعيد قوّتها بعد الهزيمة التي تكبّدتها في الانتخابات.

أثناء المفاوضات الطويلة مع نائب الملك، تمّت محاولة انتزاع تعهُّد بأن الحاكم لن يتدخّل في شؤون الوزارات. وكانت النتيجة المباشرة لهذا الأمر أنْ قَبِلَ المؤتمر بأن يشغل مناصب حكومية. قام بذلك، في البداية، في الأقاليم التي كان يتمتّع فيها بالأغلبيّة البرلمانية، ثم قام به في الأقاليم التي كان هو الحزب الأكبر الوحيد في مجلسها التشريعي، ثم قام بالأمر نفسه حيثما تمكّن من ذلك.

كانت هذه هي المرّة الأولى التي يتولّى فيها المؤتمر أمور الإدارة. وبالتالي فقد كان الأمرُ بمثابة امتحان للحزب، وكان الشعب يرى في هذه التجربة ما يمكن لهذا التنظيم أن يفعله في المستقبل على المستوى الوطني. ادّعى اتحاد المسلمين أن المؤتمر كان قوميّا شكليّا لا غير، وليس قوميا على مستوى المحتوى. وورد في حملتهم التشهيريّة أيضا أن وزارات المؤتمر كانت تمارس الأعمال الوحشيّة ضدّ الأقلّيات. كما عيّنوا لجنة أعدّت تقريرا مليئا بكل أنواع الادّعاءات حول سوء معاملة المسلمين وغيرهم من الأقلّيات. وأنا أقول لكم إن تجربتي الشخصية تخوّل لي أن أجزم بأن هذه الادّعاءات لا أساس لها من الصحّة، ويوافقني في هذا الرأي كلّ من نائب الملك وحكّام مختلف المقاطعات. ولم يكن أيّ إنسانٍ ذي عقلٍ ليقتنع بالتقرير الذي أعدّه اتّحاد المسلمين.

كانت الحكايات التي يُروّجها اتّحاد المسلمين عن الأعمال الوحشيّة من نسج الخيال، لكن هناك أمران حصلا وتركا أثرا سلبيا على سمعة لجان المؤتمر الإقليمية. بكلّ أسف، عليَّ أن أعترف أن المؤتمر لم يكسب رهان القوميّة على أكمل وجه في بيهار وفي بُمباي. كان المؤتمر قد كبُر ليصبح حركة قوميّة، وأعطي فرصة قيادة رجال ينتمون إلى مجموعات بشريّة مختلفة. كان السيّد ناريمان هو القائد الشرعي للمؤتمر المحلّي ببُمباي، ولذلك كان من المتوقّع، حين طُرحت مسألة تكوين الحكومة الإقليمية، أن يُطلَبَ منه أن يُديرَها نظرا لمنصبه ومُنْجَزِهِ. غير أنه لو تمّ هذا الأمر، لكان يعني تنصيب شخص فارسيّ على رأس

الوزارة، في حين أن أغلبيّة أعضاء حزب تجمّع المؤتمر من الهندوس. لم يكن بمقدور صاردار باتل وزملائه أن يرضوا لأنفسهم بهذه الوضعيّة، وشعروا بأنه ليس من العدل أن يحرموا مساندي المؤتمر الهندوس من هذا الشرف. لذلك جاؤوا بالسيّد ب. ج. خير، وانتخبوه قائدا لحزب تجمّع المؤتمر ببُمباي.

كان من الطبيعيّ أن يشعر السيّد ناريمان بالانزعاج حيال هذا القرار. فرفع الأمر إلى اللجنة التنفيذيّة للمؤتمر. كان جواهرلال هو الرئيس وقتها، وكان الكلّ يأمل أنه سيتدارك هذا الأمر بموجب تحرّره الكلّي من المؤثرات الطائفيّة. ولكن لسوء الحظّ أن هذا الأمر لم يحدث. كان جواهرلال يعرف أن الناس يعتبرونه ناقدا لصاردار باتل ومعاديا له، لذلك لم يكن يرغب في أن يفعل أيّ شيء يمنح أصدقاء صاردار باتل فرصةَ انتقاده. فارتأى أن يَسْتَرْضي باتل، ورفض طلب ناريمان. بدا الأمر وكأنّ جواهرلال يُحاول أن يُقنع بأنه لن يقبل أن يُوجَّهَ أيُّ اتّهام إلى صاردار باتل ولن يسمح بأن يُشهَّر به ما دام يشغل منصبا حكوميا.

تفاجأ ناريمان بموقف جواهرلال خاصّة حين عامله جواهرلال بفظاظة وحاول إسكاته أثناء اجتماع اللجنة التنفيذيّة. اقترب ناريمان من غاندي وأعلن أنه يضع المسألة في يد غاندي. وبعد أن استمع غاندي بصبر طويل إلى الحكاية، قرّر أن يقوم شخصٌ محايدٌ بالتحرّي في قضيّة صاردار باتل.

ولمّا كان ناريمان بدوره فارسيّا، فقد اقترح صاردار باتل وأصدقاؤه أن يكون الشخص المكلَّف بالتحقيق شخصا فارسيا. كانوا قد خطّطوا لفعلتهم جيّدا وتدبّروا أمرهم لالتفاف على القضيّة. وقاموا، فوق ذلك، بممارسة شتّى أنواع الضغوطات حتّى أنّ ناريمان المسكين خسر القضيّة قبل أن يبدأ التحقيق. وتقرّر، في النهاية، أنه لا وجود لدليل يُدين صاردار باتل.

لم يُقْنِعْ هذا الحُكْمُ أيَّ واحد من العارفين بملابسات القضيّة. فقد كنّا كلّنا نعلم أن التّضحية بالحقيقة قد تمّت من أجل تلبية رغبة صاردار باتل الشُّعُوبيَّة. انْفَطَرَ قلبُ ناريمان لما جرى، ووُضِعَ حدٌّ لحياته الاجتماعيّة.

حصل أمر شبيهٌ في بيهار. فقد كان د. سيّد محمود على رأس قيادة الإقليم حين تمّت الانتخابات، إلى جانب مسؤوليّته كاتباً عامًّا للجنة مؤتمر كلّ الهند، وهذا يعني أنه كان يتمتّع بمكانة داخل الإقليم وخارجه. لذلك، حين حصل المؤتمر على أغلبيّة الأصوات، توقّع الجميعُ أن د. سيّد محمود سيعيَّنُ قائدا، وبذلك يصبح أوّل رئيس وزراء لبيهار في عهد الحكم الذاتي الإقليمي. لكن بدل أن يحصل هذا، طُلِبَ من عضوين من أعضاء اللجنة المركزيّة هما سري كريشنا سينها وأنوغراها سينها أن يعودا إلى بيهار، ومُنِحا منصب القيادة. يكشف هذا الأمر أن د. راجندرا لعب في بيهار، الدور الذي لعبه صاردار باتل في بُمباي. كان الفرق الوحيد بين بيهار وبُمباي هو أن سري كريشنا سينها عيّن د. سيّد محمود عضوا في المجلس الوزاري عندما كوّن حكومته.

كان لهذين الحدثين طعْمٌ مريرٌ في ذلك الوقت. وحين ألتفتُ إلى الوراء، لا أستطيع أن أمنع نفسي من الشعور بأن المؤتمر لم يحافظ على الأفكار التي نَذَرَ لها نفسه. وعلى المرء أن يعترف، بكلّ أسف، أنّ الشعور القومي داخل المؤتمر لم يكن قد بلغ مرحلةً تُمكّنه من تجاوز الاعتبارات الطائفيّة، واختيار القادة حسب كفاءتهم دون أخذ مسألة الأقليّة أو الأكثريّة بعين الاعتبار.

أثناء حديثي عمّا جرى للسيّد ناريمان وللدكتور سيّد محمود، عاد بي ذهني إلى السيّد س. ر. داس وهو أقوى شخصيّة أبرزتها حركة عدم التعاون. يحتلّ السيّد داس مكانة خاصّة جدا في تاريخ نضالنا الوطني. فقد كان رجلا صاحب رؤية ثاقبة وخيال واسع. وكان يتمتّع أيضا بطريقة تفكير إجرائيّة تجعله ينظر إلى كلّ مسألة من وجهة نظر واقعيّة. كما كان يعبّر عن قناعاته بجُرْأة ويساند، دون خوف، أيَّ موقف يراه صائبا. وحين بدأ غاندي حركة عدم التّعاون، عارض السيّد داس البرنامج في بادئ الأمر، وقد كانت معارضته هذه من بين الأسباب الكامنة وراء عدم الوصول إلى اتّفاقٍ نهائيٍّ في الدورة الاستثنائيّة التي عُقدت بكَلكوتا سنة 1920. ولكنه انضمّ إلى صفّنا حين اجتمع المؤتمر بناغبور بعد ذلك بسنة واحدة، فتمّ قبول برنامج عدم التّعاون. كان السيد داس من أشهر المحامين في البلاد. وكان يُعرَف عنه أيضا أنه مُغْرَمٌ بالتّرف، لكنه تخلّى

عن هذه الممارسة دون أن يتردّد لحظة واحدة وارتدى خَادي،[4] وانغمس كليًا في حركة المؤتمر. كنت منبهرا بهذا الرجل، وكنت أعتبره من أقوى الرجال في تاريخ يقظتنا الوطنيّة.

وكما ذكرت سابقا، كان السيّد داس يفكّر بطريقة عمليّة. كان ينظر إلى المسائل السياسيّة من منظور ما يَحْسُنُ فعلُه وما يُمْكِنُ فعلُه. وكان يرى أنه إذا كانت الهند ستنال حريّتها عبر المفاوضات فعلينا أن نكون جاهزين لكي نحقّقها خطوةً خطوةً. لم يكن للاستقلال أن يتحقّق دفعة واحدة ما دام الأسلوب المتّبع هو الحوار والإقناع. تكهّن بأن تكون المرحلة الأولى هي تحقيق الحكم الذاتي للأقاليم. وكان راضيا بحصول الهنود على السلطة، لأن هذه السّلطة، وإن كانت محدودة، فهي كفيلة بأن تقرّب الهند من حريّتها وتُعِدَّ الهنودَ لتحمّل مسؤوليات أكبر في المستقبل، عندما يحصلون على حرّيتهم.

جاء وليّ العهد البريطاني (أمير بلاد الغال) إلى الهند سنة 1920 قَصْدَ تدشين مخطّط مونتاجو- تشيلمسفورد الإصلاحيّ. وقرّر المؤتمر أن يقاطع كلّ الحفلات التي تقام استقبالا للأمير. فوجدتْ الحكومة نفسها في مأزق، ذلك أن نائب الملك كان قد أكّد للحكومة البريطانيّة أن الأمير سيلقى حفاوةً بالغةً في الهند. وما إن علمت الحكومة البريطانيّة بأمر هذه المقاطعة حتّى اتخذت كلّ الإجراءات اللاّزمة لإفشالها، لكن مساعيها باءت بالفشل، واستُقبل الأمير استقبالا باهتا في جميع المدن التي زارها. كانت كَلكوتا في ذلك الوقت أهمّ مدن الهند، وهي آخر مدينة زارها. وكانت دلهي قد أصبحت العاصمةَ وقتها، غير أن نائب الملك كان يقضي كلّ شتاء في كَلكوتا، حتى أن كَلكوتا صارت تعتبر العاصمة الشتويّة للبلاد. كانت المدينة يومها تشهد مناسبة خاصّة، وكان الأمير سيضع حجر الأساس لمتحف فكتوريا التذكاري. فاتُّخذت إجراءات عديدة لاستقبال الأمير، ولم تدّخر الحكومة جهدا لإنجاح زيارته إلى كَلكوتا.

في ذلك الوقت كنّا جميعا سجناء في سجن آليبور المركزيّ. وكان بانديت

4- لباس قطني خفيف، وهو من الألبسة المنسوجة يدويًا في الهند. (المترجمة)

مادان موهان مالافيا يحاول التوصّل إلى تسوية بين المؤتمر والحكومة. فالتقى نائبَ الملك، وعاد وهو يتصوّر أنّنا إن وافقنا على عدم مقاطعة استقبال الأمير في كَلكوتا، فإن الحكومة ستتوصّل إلى تسوية مع المؤتمر. جاء بانديت مادان موهان مالافيا إلى سجن آليبور لمناقشة المقترح معي ومع السيّد داس. كان أساس المقترح هو الدّعوة إلى قمّة طاولة مستديرة لحلّ مسألة المستقبل السياسي للهند. لم نقدّم ردًا نهائيًا لبانديت مالافيا لأننا كنا نريد أن نتشاور في الأمر في ما بيننا. كنّا، أنا والسيد داس، على يقين من أن مقاطعتنا لاستقبال الأمير هي التي دفعت الحكومة إلى البحث عن تسوية. لذلك رأينا أنه علينا أن ننتهز الفرصة ونلتقي في قمّة طاولة مستديرة. كنّا نرى، بوضوح، أن هذه الخطوة لن تضمن لنا الاستقلال التامّ، ولكنها ستكون، رغم ذلك، خطوة هامّة إلى الأمام في نضالنا السّياسي. في تلك الفترة كان كلّ زعماء المؤتمر في السجن، باستثناء غاندي. اقترحنا أن نقبل العرض البريطاني، لكننا اشترطنا أن يتمّ إطلاق سراح جميع زعماء المؤتمر قبل انعقاد قمّة الطاولة المستديرة.

وعندما زارنا بانديت مالافيا في اليوم الموالي، أخبرناه بوجهات نظرنا. كما أعلمناه بأنه يتوجّب عليه أن يلتقي غاندي ويضمن موافقته. أبلغ بانديت مالافيا نائبَ الملك بقرارنا، ثمّ عاد لزيارتنا في السّجن بعد يومين، وقال لنا إن حكومة الهند مستعدّة لإطلاق سراح الزعماء السياسيّين الذين سيشاركون في المحادثات في قمّة الطاولة المستديرة. كان من بين هؤلاء الزعماء الأخَوان علي والعديد من قادة المؤتمر. فجهّزنا تقريرا مفصّلا وضّحنا فيه مواقفنا. أخذ بانديت مالافيا الوثيقة وسافر إلى بُمباي ليلتقي بغاندي.

لكننا تفاجأنا، وأصبنا بخيبة أمل، حين رفض غاندي مقترحنا، وأصرّ على أنه يجب على الحكومة أن تفرج أوّلا عن كلّ الزعماء السياسيّن المعتقلين وخاصة منهم الأخَوين علي، دون أدنى قيد أو شرط. وأضاف إنه لن ينظر في موضوع الطاولة المستديرة إلاّ بعد الإفراج عن هؤلاء المعتقلين. شعرنا، أنا والسيّد داس، أن هذا القرار غير صائب. فما دامت الحكومة قد وافقت على الإفراج عن الزعماء المعتقلين قبل الطاولة المستديرة فلم يعد هناك من داعٍ للإلحاح

في الطلب. ذهب بانديت مالافيا إلى غاندي مرّة أخرى وأبلغه بملاحظاتنا، لكنه لم يوافق عليها. ونتيجة لذلك، سحب نائب الملك عَرْضَه. في الحقيقة، لقد كان هدفه الأوّل من هذا العرض هو تجنّب مقاطعة وليّ العهد البريطاني في كَلكوتا. وبما أن التسوية لم تتمّ فقد نجحت المقاطعة نجاحا باهرا، ولكننا خسرنا فرصةً ذهبيّة للتّسوية السياسيّة. ولم يُخْفِ السيّد داس عدم موافقته، وشعوره بخيبة الأمل.

بعد ذلك دعا غاندي إلى قمّة في بُمباي يترأسها س. صَنكَران ناير. وأثناء هذه الندوة دعا غاندي نَفْسُهُ إلى عقد قمّة طاولة مستديرة. كانت كلماته شبيهة جدّا بما أبلغه إياه بانديت مالافيا. وفي ذلك الوقت كان وليّ العهد البريطاني قد غادر الهند، ولم تعد للحكومة مصلحة في قبول المقترح. فلم يعيروا مقترح غاندي أيّ اهتمام ورفضوه جملةً وتفصيلاً. استشاط السيّد داس غيظا وقال إن غاندي قد أفسد الوضع كلّه وقد ارتكب خطأ سياسيّا فادحا. ولم يكن بوسعي إلا أن أوافقَهُ هذا الرأيَ.

ثمّ عمد غاندي إلى فكّ حركة عدم التعاون على خلفيّة أحداث مدينة تشوري تشورا. وقد انجرّت عن هذا الإجراء ردّة فعل قويّة في الأوساط السّياسيّة، وثُبّطَتْ عزائمُ البلاد. فاغتنمت الحكومة الفرصةَ واعتقلت غاندي. حُكم على غاندي بالسجن ستّ سنوات، وتلاشت حركة عدم الممانعة يَسِيراً يَسِيراً.

درج السيّد داس على مناقشة الوضع معي بشكل يكاد يكون يوميّا. كان مقتنعا بأن غاندي ارتكب خطأ فادحا حين حلَّ الحركة. فقد ثبّط هذا الإجراء عزائم العاملين في المجال السياسيّ إلى درجة أنه سيكون علينا أن ننتظر طويلا حتّى تستعيد الجماهير حماسها. وكان السيّد داس يرى أيضا أنّ أساليب غاندي المباشرة قد فشلت، لذلك رأى أنّه علينا أن ننتهج طرقا مختلفة لرفع معنويّات الجماهير. لم يكن يرضى بأن نبقى بلا حِرَاك في انتظار أن يتحسّن الوضعُ من جديد. كان يؤمن بضرورة برنامج بديل وقال، في ظلّ الوضع

الجديد، يجب التخلّي عن الأسلوب المباشر، ويجب نقل الصّراع السياسي إلى الهيئة التشريعيّة. كان المؤتمر قد قاطع انتخابات عام 1921 تحت تأثير غاندي. فأعلن السيّد داس أنه على الحزب أن يحوز على الهيئة التشريعيّة سنة 1924 ويستخدمها للمضيّ بنشاطنا السياسي قُدُماً. كان السيّد داس يأمل أن يوافق كلّ زعماء المؤتمر الناشطين على تحليله وعلى الحلّ الذي يقترحه. وكنت أرى أنه يُغالي في الأمل، غير أنني وافقته الرّأيَ وقلت له إنه ينبغي عليه أن يتشاور مع أصدقائه عندما يُطلقُ سراحُهُ، وينبغي أن يُعدّ برنامجا جديدا للبلاد.

خرج السيّد داس من المعتقل عشيّة مؤتمر جايا، فاختارته لجنة الاستقبال رئيسا للمؤتمر. أحسّ داس أنّه قادر على أن يقود البلاد ببرنامجه. وازداد تحمّسه حين رأى أن حكيم أجمل خان، وبانْديت موتيلال نهرو، وصاردار فالّبهاي باتل، يشاطرونه الرأيَ. قال داس في خطابه الرئاسيّ إنه ينبغي على المؤتمر أن يقبل برنامج المشاركة في الحكومة وينقل الصّراع السياسي إلى الهيئة التشريعيّة. كان غاندي معتقلا وَقْتَها. لذلك عارض شقٌّ من أعضاء المؤتمر يقوده شري راجاغوبالاشاري، موقفَ السيّد داس خشْيَةَ أن تعتبر الحكومة تخلّينا عن النشاط المباشر وتبنّي برنامج داس تَنَصُّلاً من قيادة غاندي.

لا أعتقد أنّ شري راجاغوبالاشاري كان صائبا في تأويله، ذلك أن السيّد داس لم يكن يسعى إلى حلٍّ وسط مع الحكومة وإنما كان يريد أن يوسّع مجال النزاع السياسي ليكتسح نطاقا أوسعَ. وقد شرح ذلك شرحا طويلا، لكنه لم ينجح في إقناع عموم المنتسبين إلى المؤتمر. فعارضه شري راجاغوبالاشاري ود. راجندرا برازاد وآخرون وأحبطوا مُقْتَرَحَه. وهكذا انقسم مؤتمر جايا، وقدّم السيّد داس استقالته. فتحوّلت كلّ طاقة رجال المؤتمر نحو التناحر الدّاخليّ بين فريقين يطلق عليهما اسما "الموافقون على التغيير" و"الرّافضون للتغيير".

بعد ذلك بستّة أشهر، خرجت بدوري من المعتقَل. فوجدت المؤتمر يواجه أزمة خطيرة، وكلّ طاقة أعضائه منصبّة على النزاعات الداخليّة بدل أن ينشغلوا بالكفاح السياسي ضدّ البريطانيين. كان السيّد داس وبانْديت موتيلال

وحكيم أجمل خان يقودون شقّ الموافقين على التغيير، في حين كان راجاجي وصاردار باتل ود. راجندرا برازاد ناطقين باسم الرّافضين للتغيير. حاول كلّ شقّ منهما أن يستوعبني، لكنني رفضت أن أنضمّ إلى أيٍّ منهما. كنت أرى أن هذه الانقسامات الداخليّة خطر على المؤتمر ويمكن أن يتفكّك إن لم نتدارك الأمرَ في الوقت المناسب. فقرّرت أن أبقى خارج هذه النزاعات، وحاولت أن أركّز اهتمامي كلّه على النّضال السياسي. ويسعدني أن أقول إنني قد نجحت في ذلك. فقد عَقد المؤتمرُ جلسةً استثنائيّة في دلهي، وتمّ اختياري رئيسا له بموافقة الفريقين.

ركّزت في خطابي الرّئاسي على ضرورة أن نضع نصْبَ أعيننا أن تحرير الوطن هو هدفنا الحقيقي. لقد كنّا نتبع برنامج العمل المباشر منذ عام 1919، وقد انجرّت عن هذا العمل نتائج هامّة. لكن إذا شعر البعض منا أنه علينا الآن أن ننقل المعركة إلى الهيئة التشريعيّة فلماذا نصرّ على التمسّك بقرارنا القديم. وما دام الهدف واحدا فليكن كلّ شقّ حُرّا في اختيار البرنامج الذي يعتبره الأفضل.

اتّخذ مؤتمر دلهي قرارا مفاده أن كلاًّ من شقّ الموافقين على التغيير وشقّ الرّافضين للتغيير حرٌّ في اتباع برنامجه الخاصّ. فتفرّغ د. راجندرا برازاد وشري راجاغوبالاشاري ورفاقهما لبرنامج البناء، في حين كوّن السيّد داس وبانْديت موتيلال وحكيم أجمل خان حزب "سواراج" أو حزب الحكم الذاتي، وقرّروا أن يخوضوا الانتخابات. بثّ تحرّكهم حماسا كبيرا في كامل البلاد. وصار لحزب الحكم الذاتي أتباع كُثُرٌ في مجلس الشعب الإقليمي والمركزي.

كانت الحجّة الأكبر التي استخدمها الرّافضون للتّغيير هي أن قيادة غاندي قد تضعف عندما يشارك الحزب في الحكومة، لكن الوقائع أثبتت أنهم كانوا على خطإ. فقد تقدّم حزب الحكم الذاتي إلى الهيئة التشريعية المركزيّة بطلب قرار يقضي بالإفراج الفوري على ماهاتما غاندي. انبهرت الحكومة بهذا الإجراء، وما لبث غاندي أن غادر المعتقل.

ذكرتُ أنه صار لحزب الحكم الذاتي أتباعٌ كُثْرٌ في مجلس الشعب الإقليمي والمركزي، وربّما كان أهمّ نجاح حقّقه الحزب هو أنه نجح في الحصول على مقاعد مخصّصة للمسلمين. كان جمهور الناخبين طائفيًا، لذلك لم يكن ليعيد انتخاب نائب مسلم إلا مسلمٌ. كانت الرابطة الإسلامية وأحزاب طائفيّة أخرى قادرة على توظيفٍ تخوّفات مسلمي البنغال وقلقهم لجعلهم يعيدون انتخاب النوّاب ذوي الميول الطائفيّة. نجح السيّد داس في تجاوز مخاوف مسلمي البنغال وقلقهم، فصار زعيمهم. كانت الطريقة التي حلّ بها مشكلة البنغال الطائفيّة مذهلةً، ويجب أن تكون درسا يُحتذى به حتى اليوم.

كان المسلمون هم أكبر طائفة في البنغال، لكنهم كانوا متخلّفين في مجالي التّعليم والسياسة لعدّة أسباب. كانوا بالكاد يحصلون على منصب حكوميّ أو يحوزون مكانة اجتماعيّة. ورغم أنهم كانوا يمثّلون نسبة 50 % من السكّان فإنّهم لا يكادون يحتلّون نسبة 30 % من المناصب الحكومية. كان السيّد داس واقعيّا جدّا لذلك تفطّن إلى أنّ السبب وراء هذا الأمر سببٌ اقتصاديٌّ، وبالتالي لا يمكن توقّع انضمام هؤلاء المسلمين إلى المؤتمر، وإخلاصهم له، ما لم نُطَمْئِنْهم على مستقبلهم الاقتصاديّ. عندها صرّح تصريحا كان مفاجئا جدّا لا بالنسبة إلى البنغال فقط، بل بالنسبة إلى الهند بأكملها أيضا. جاء في هذا التّصريح أنّه في حال استلم المؤتمر مقاليد الحكم في البنغال، سيمنح المسلمين 60 % من التعيينات الجديدة، وذلك إلى حين يصبح تمثيلهم في المناصب متناسبا مع نسبتهم السكّانيّة. وقد ذهب إلى أبعد من ذلك حين قال إنه سيمنح المسلمين 80 % من المناصب الجديدة في مؤسّسة كَلكوتا البلديّة وبالشروط نفسها. وأكّد على أنه ما لم يتمّ تمثيل المسلمين تمثيلا جيّدا في الحياة العامّة وفي الحكومة فلن تكون هناك ديمقراطيّة حقيقيّة في البنغال. وما إن يُقضى على هذا التفاوت حتّى يصبح المسلمون قادرين على مواصلة عملهم، مثلهم في ذلك مثل كلّ الطوائف الأخرى. ولن نحتاج وقتها إلى أيّ معاملة خاصّة.

صَدَمَ هذا التصريحُ الجَسُورُ أعضاء المؤتمر البنغاليين صدمة قويّة. وعارضه العديد من قياديّي المؤتمر بشدّة وشنّوا حملة ضدّ السيّد داس،

اتّهموه فيها بأنّه انتهازيٌّ، وبأنّه منحازٌ إلى صفّ المسلمين، غير أنّه ظلّ صامدا كالصّخر. جاب الإقليم كلّه شارحا وجهة نظره للمسلمين وللهندوس على حدّ سواء. كان موقفه قويّا وصادقا إلى درجة أنه توصّل إلى كسب تأييد أعضاء المؤتمر البنغاليين فتبنّوا وجهة نظره. كان لموقفه هذا وقْعٌ كبيرٌ أثّر في نفوس المسلمين داخل البنغال وخارجه. وأنا على يقين من أنّ السيّد داس كان سيخلق مناخا جديدا في البلاد لو أنّه لم يمت ميتَةً مبكّرة. ومن المحزن أن أتباعه عمدوا، بعد وفاته، إلى مهاجمة موقفه وتنكّروا لتصريحه. ونتيجة لهذا الأمر، انفضّ مسلمو البنغال من حول المؤتمر، وزرعت البذرة الأولى للشّقاق.

لكن هناك أمرٌ عليَّ أن أوضّحه: لقد أخطأتْ اللجنتان الإقليميّتان للمؤتمر في بيهار وبُمباي حين لم تعيّنا د. سيّد محمود والسيّد ناريمان زعيمين محلّيّين. ولم تكن اللجنة التنفيذيّة قويّة بالقدر الذي يسمح لها بتصحيح الخطإ. باستثناء هذه الهفوة، فعل المؤتمر ما بوسعه ليرتقي إلى مستوى مبادئه. وما إن تكوّنت الوزارات حتّى تضافرت كلّ الجهود لضمان العدالة لكلّ الأقلّيات.

عندما قَبِلَ حزب المؤتمر أن يشارك في الحكومة، شُكّلت لجنة برلمانيّة تكوّنت منّي ومن صاردار باتل ود. راجندرا برازاد. فأُوكلت إليّ المهامّ البرلمانيّة في العديد من الأقاليم، من بينها البنغال، وبيهار، والأقاليم المتّحدة، وبُنجاب، والسّند، والحدود. وكان كلّ حَدَثٍ ذي صلةٍ بالمسائل الطائفيّة يُحوّل إليَّ. لذلك فإنني ألحّ، بالاستناد إلى تجربتي الشخصيّة ومن موقع الإحساس التّام بالمسؤوليّة، على أن الاتّهامات بظلم المسلمين والأقلّيات الأخرى التي وجّهها السيّد جِنّاه والرابطة الإسلامية اتهامات لا أساس لها من الصحّة. ولو كانت ذرّة واحدة من هذه الادّعاءات صحيحة لحرصت شخصيّا على تطبيق العدالة. وكنت مستعدّا لتقديم استقالتي جرّاءَ موضوع كهذا إذا لزم الأمر.

ورغم أنّ فترة وزارات المؤتمر دامت أقلّ من سنتين بقليل، فإنها تمكّنت من حسم العديد من المسائل المبدئيّة، وأذكر بالخصوص القانون الذي أصدرته وزارات المؤتمر لإلغاء الإقطاعيّة أو ما يسمّى "الزمنداريّة"، وإبطال المديونيّة

الزراعيّة، وضمان برنامج لتعليم الكبار والصّغار.

لم يكن إلغاء الإقطاعيّة أو إبطال المديونيّة الزراعيّة أمرا هيّنا. فقد كان يشكّل تهديدا للعديد من المصالح القديمة. لذلك فليس غريبا أن يتعرّض المؤتمر إلى تهجّمات متكرّرة عند كلّ خطوة. تواصل الهجوم على المؤتمر بسبب التدابير التي اتّخذها في ما يخصّ الإصلاح الزراعي، فتطلّب الأمرُ أن أتدخّل بنفسي لأحلّ المشكلة. وبعد مفاوضات طويلة مع ملاّك الأراضي توصّلنا إلى إيجاد صيغة هدّأت مخاوف المالكين المشروعة، وضمنت حقوق الفلاّحين أيضا.

يرجع جزءٌ كبيرٌ من السبب في توصّلنا إلى حلّ هذه النزاعات الحسّاسة إلى أنني لم أنْحَزْ يوما إلى أيّ شقٍّ من شِقَّيْ المؤتمر. سبق لي أن ذكرتُ أنني نجحت في الجمع بين الموافقين على التغيير والمعارضين له في مطلع العشرينات. انتهى ذلك النزاع، غير أن المؤتمر شهد في مطلع الثلاثينات انقساما حادّا بين من يُدعون باليمينيين واليساريين. كان اليمينيون يُعتبرون أبطال المصالح الشخصيّة، في حين كان اليساريّون يتكاثرون وسط حماسة ثوريّة. أعطيتُ مخاوف اليمينيين ما تستحقّه من مكانة، لكنني كنت، في الوقت نفسه، أتعاطف مع اليساريين في ما يخصّ الإصلاحات. لذلك تمكّنت من التوسّط بين وجهتي النظر الواقعتين على طرفَيْ نقيض، آملا أن يواصل المؤتمر إنجاز برنامجه باطّراد ودون نزاعات. غير أن كلّ مخطّطات التطبيق التدريجي لبرنامج المؤتمر الانتخابي عُلّقت بسبب مكائد القوى الدّوليّة.

2- الحـــرب في أوروبـــا

كانت الحرب وشيكة عندما كانت الأحداث التي وردت في الفصل الأوّل تدور في أجواء شديدة القتامة. فأثناء هذه الفترة بأكملها كانت أزمة دوليّة تتفاقم في أروبا. وكان توقّعُ نشُوبِ حربٍ يزداد رسوخا يوما بعد يوم، فقد كانت الحرب قادمة لا محالة. ضَمُّ النمسا إلى الرايش الألماني تلتْهُ مباشرة مطالبات بالسّودِيْت.[5]

حين قام السيّد تشمبرلان بزيارته التاريخيّة إلى مونيخ، بدت الأوضاع وكأنّ الحرب لا يمكن تفاديها. كان هناك تفهّم للأمور، ووقع جزء من تشيكوسلوفاكيا تحت الاحتلال الألماني بدون نشوب حرب. شعرنا وقتها أنه قد تمّ تفادي الحرب، لكن الأحداث التي تلت كذّبت آمالنا تلك. فبعد سنة واحدة من زيارة مونيخ، اضطرّت بريطانيا إلى إعلان الحرب على ألمانيا.

لم يكن المؤتمرا سعيدا بما كان يجري في أروبا من أحداث وتطوّرات. لذلك عمد، في جلسته التي عُقدت بطريبوري في مارس 1939، إلى اتّخاذ القرار التالي 1939:

5- السوديت ويطلق عليها بالألمانية والإنجليزية سُودِيتْلاَنْد، وهي إقليمٌ يقع في غرب التشيك على الحدود مع ألمانيا، وقد شكّلت منطقة السوديت محور نزاع بين ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا قُبَيْل الحرب العالمية الثانية. وقبل ذلك كان الإقليم جزءا من الإمبراطورية النمساوية المجريّة. (المترجمة)

يسجّل حزب المؤتمر رفضه الشديد لسياسة بريطانيا الخارجيّة التي بلغت ذروتها بعقد حلف مونيخ، والاتفاقية الأنجلو-إيطاليّة، والاعتراف بتمرّد إسبانيا. إن هذه السياسة تقترف خيانة مقصودة للدّيمقراطيّة وتقوم بخرق المعاهدات، وتضع حدّا لنظام الأمن المشترك، وتتعاون مع دول هي ألدّ أعداء الديمقراطيّة والحرّية. ونتيجة لهذه السياسة، فإن حالةً من الفوضى عمّت العالم، فصار العنف سيّد الموقف يسود وينمو دون رقيب، ويقرّر مصير الأمم. وباسم السلام، هناك جهودٌ مذهلة تُبذل استعدادا لأكثر الحروب فظاعة. إن الأخلاقيات الدوليّة تنزل إلى أسفل سافلين في أوروبا الوسطى وجنوب غرب أوروبا، حتّى أن العالم قد شهد، مُرتَعِباً، الإرهاب المنظّم الذي مارسته ألمانيا النازيّة ضدّ اليهود والقصف الجويّ المتواصل للمدن والسكّان المدنيّين واللاّجئين الذين لا حول لهم ولا قوّة.

إنّ حزب المؤتمر يعلن أنه لا صلة له على الإطلاق بالسياسة الخارجيّة البريطانية التي ما فتئت تساعد القوى الفاشيّة وتُعينُ على هدم بلدان الديمقراطيّة. إن المؤتمر يناهض الإمبرياليّة والفاشيّة على حدّ سواء، وهو على يقين من أنّ السلام لن يحلّ في العالم، وأن التقدّم لن يجد طريقه إلى العالم، ما لم يُقض عليهما. يرى المؤتمر أنه على الهند أن تسارع بإعلان سياستها الخارجيّة الخاصّة باعتبارها دولة مستقلّة، حتى تنأى بنفسها عن الإمبرياليّة والفاشيّة، وتواصل نضالها من أجل السلام والحرّية.

وفي الوقت الذي كانت تتجمّع فيه السّحب في سماء العالم، كانت كآبةٌ

عميقةٌ تلفّ ذهن غاندي. كان يعاني طوال هذه الفترة من أزمة فكريّة حادّة. وكان وَجْعُه الشّخصيّ يزداد حدّة بتعالي الأصوات القادمة من جمعيات وأشخاص في أروبا وأمريكا طالبة منه أن يفعل شيئًا للحيلولة دون نشوب الحرب الوشيكة. فقد كان محبّو السلام يعتبرونه قائدهم الطّبيعيّ لتحقيق السلام.

فكّر غاندي في الأمر مَليًّا. وانتهى به الأمر إلى أن يقترح على اللجنة التّنفيذيّة للمؤتمر أنه على الهند أن تعلن موقفها من هذه الأزمة العالميّة. كان يعتقد أنه على الهند أن لا تشارك في الحرب الوشيكة مهما كلّف الأمر، حتّى إذا كان استقلالها مرهونا بخوضها غمار الحرب.

كان موقفي من المشاركة في الحرب مختلفا عن موقف غاندي. كنت أرى أنّ أروبا منقسمة إلى شقّين. وكان أحد هذين الشقّين يمثّل القوى النّازيّة والفاشيّة، في حين كان الشّقّ الآخر يمثّل القوى الدّيمقراطيّة. لم يكن لديَّ أدنى شكّ في أنّه على الهند أن تصطفّ، في حال نشوب صراع بين هاتين القوّتين، إلى جانب الديمقراطيّات شريطة أن تكون حرّة. ولكن إذا لم يعترف البريطانيّون باستقلال الهند، فإنّه سيكون من الصّعب أن نتخيّل الهند تقاتل من أجل الديمقراطيات الأخرى، والحال أنها تفتقر إلى حرّيتها. في هذه الحال، كان يتوجّب على الهند أن لا تدعم جهود النظام البريطاني، ولا تمدّ له يَدَ العون.

انقسمت اللجنة التّنفيذيّة للمؤتمر جرّاء هذا الموضوع كما فعلت حيال مواضيع أخرى. والحقيقة أنّ مواقف بعض الأعضاء لم تكن واضحة. غير أن بانديت جواهرلال تفطّن إلى أنه لو تمّ اتباع سياسة غاندي حتى بلوغ نهايتها المنطقيّة، لَوَصَلَ بنا ذلك إلى طريق مسدود. كانت اللجنة التنفيذيّة في وَرْطَة. لذلك اكتفت بمناقشة المسائل دون اتّخاذ قرارات في شأنها.

أثناء انشغال المؤتمر بتردّداته، كانت هناك أزمة تسارعت وتيرتها في الهند ما إنْ أُعلنت الحرب. وحين أعلنت المملكة المتّحدة الحرب على ألمانيا يوم 3 سبتمبر 1939، طلبت من كلّ دول الكمّنوالث أن تفعل الشيء نفسه. فاجتمعت البرلمانات الخاضعة للكمّنوالث وأعلنت الحرب. أمّا في الهند، فقد أعلن نائب

الملك، بمفرده، الحرب على ألمانيا، دون أن يكلّف نفسه حتى عناء استشارة السلطة المركزيّة. أثبتت هذه الفعلة التي أتاها نائب الملك، إن كنّا ما زلنا في حاجة إلى إثبات، أنّ الحكومة البريطانيّة كانت تعتبر الهند رهْنَ إشارتها ولم تكن ترغب في أن تعترف بحقّ الهند في تقرير مصيرها وشقّ طريقها.

وحين زُجَّ بالهند في الحرب بشكل غير رسميّ، أوشكت الأزمة التي يمرّ بها غاندي أن تتحوّل إلى انهيارٍ عصبيٍّ. لم يكن بمقدوره أن يقبل أن تشارك الهند في الحرب مهما كانت الظروف. ولكن مهما كان شعور غاندي، فقد انتهى الأمر بالهند إلى المشاركة في الحرب بشكل رسمي.

عبّر المؤتمر عن موقفه في القرار الذي اتّخذه في اجتماع اللجنة التنفيذيّة الذي انعقد بِوَرْضَة أيام 8 - 15 سبتمبر 1939. كان هذا القرار أوضحَ موقفٍ اتّخذه المؤتمر تجاه الحرب، وتجاه دور الديمقراطيّات على الصعيد العالمي، غير أنني لا أورد شواهد منها ذلك أنها متوفّرة في كلّ المراجع.

3- أصْبَحْتُ رئيسا لحزب المؤتمر

اندلعت الحرب في أروبا يوم 3 سبتمبر 1939. وقبل أن يمرّ شهرٌ واحدٌ على اندلاعها، جَثَتْ بولندا على ركبتيها تحت وطأة أسلحة الألمان. ولكي تنضاف إلى مآسي البولنديين مآسٍ أخرى، عمدت القوّات السوفياتيّة إلى استعمار الجزء الشرقي من أراضي بولندا. وما إن تمّ سحقُ المقاومة البولنديّة المسلّحة حتّى خَيَّمَ سكونٌ مؤقّتٌ على أرجاء أروبا. اشتبكت فرنسا وألمانيا على امتداد الحدود المحصّنة الموجودة بينهما، لكن لم تقع اشتباكات واسعة النّطاق. بدا الجميع كما لو أنّهم ينتظرون أن يحدث شيءٌ، غير أن هذه المخاوف غير المعبّر عنها كانت ملتبسةً وغير محدّدة المعالم.

كانت العديد من المخاوف والتوقّعات موجودة في الهند أيضا. وللتصدّي لهذا الوضع الغامض المعادي، اكتسبتْ مسألة اختيار رئيس لحزب المؤتمر أهميّة جديدة خاصة. كان قد تمّ الضّغط عليّ في السنة الماضية حتى أقبل بهذا المنصب، غير أنني رفضت لأسباب عديدة. أحسست أنّ الوضع صار مختلفا الآن، وشعرت بأنني لو تماديت في الرفض لأخللت بواجبي. كنت قد أشرت سابقا إلى أنّ موقفي من المشاركة في الحرب كان يختلف عن موقف غاندي. شعرت أنه ما دامت الحرب قد اندلعت، فعلى الهند أن لا تتردّد لحظة في الوقوف إلى صفّ القوى الديمقراطيّة. لكن السؤال الذي طُرح وقتها كان التالي: كيف يمكن للهند أن تدافع عن حريّة الآخرين ما دامت هي نفسها مقيّدة؟ لو أنّ الحكومة

البريطانيّة أعلنت في هذه اللحظة عن استقلال الهند، لأصبح من واجب كلّ هندي التضحية بالغالي والنفيس دفاعا عن الديمقراطيّة. لذلك أحسست أننا ما دمنا في حالة حرب، فإنه من واجبي أن أبذل قصارى جهدي لإنجاز ما يُطلب منّي. وحين طلب منّي غاندي مرّة أخرى أن أكون رئيسا للمؤتمر، قبلت دون تردُّد.

لم يكن هناك تنافس حقيقي في الانتخابات الرئاسيّة، فانهزم المترشّح الثاني للانتخابات الرئاسية بأغلبيّة ساحقة. عُقدت الجلسة في رامْجَرْه وصدر عنها بيانٌ يعكس، إلى حدّ بعيد، ما ورد في خُطْبَتِي الرئاسية. جاء في هذا البيان:

إن هذا المؤتمر، بعد أن تدارس أمر الوضع الخطير والحسّاس الناجم عن الحرب في أروبا، ودرس مسألة السياسة البريطانيّة تجاهها، يصادق على قرارات لجنة مؤتمر كلّ الهند واللجنة التنفيذيّة للحزب ويلتزم بها. إن المؤتمر يعتبر القرار الذي اتّخذته الحكومة البريطانيّة بشأن استغلال ثروات الهند والزجّ بها في هذه الحرب دون أيّ اعتبار للشعب الهندي، إهانة لا يرضاها ولا يقبلها أيّ شعبٍ محبٍّ للسلام يحترم نفسه. إن التصريحات التي أدلت بها الحكومة البريطانية مؤخّرا في ما يخصّ الهند تكرّس فكرة أنّ بريطانيا تخوض هذه الحرب لأسباب إمبرياليّة بحت، حفاظا على قوّة إمبراطوريّتها القائمة على استغلال شعب الهند وشعوب بلدان آسيويّة وأفريقيّة أخرى. وفي ظلّ هذه الظروف، لا يمكن للمؤتمر أن يكون جزءا من هذه الحرب بأيّ شكل من الأشكال سواء كان مباشرا أو غير مباشر، ذلك أن مشاركته في هذه الحرب

تعني تكريس هذا الاستغلال واستمراريّته. لهذا يعلن المؤتمر عن معارضته الشديدة لتجنيد هُنُودٍ للقتال تحت راية الجيش البريطاني، ورفضه لنهب ثروات الهند وتسخير رجالها بُغية الانتصار في الحرب. لا يمكننا أن نعتبر الرجال الهنود الذين يؤخذون إلى الحرب، والمال الذي يُنتزع من الهند لتمويلها مساهمة طوعيّة من الهند. من المستحيل أن يساهم المنتسبون إلى حزب المؤتمر أو المؤيّدون له في الحرب بالرجال أو العتاد أو الأموال.

إن المؤتمر يؤكّد، بهذا الإعلان، أن الشعب الهنديّ لن يرضى بأقلّ من الاستقلال الكامل. لا يمكن للحريّة أن تجد طريقها إلى الهند في ظلّ الإمبرياليّة، ولا يمكن لنظام السّخرة أو أيّ نظام آخر يكرّس التبعيّة أن يطبَّق في الهند إطلاقا. فهذا صَنيعٌ لا يليق بأمّة عظمى، وهو كفيلٌ بأن يربط الهند بسياسة بريطانيا وبهيكلتها الاقتصاية بروابط عديدة. إن الشعب الهنديّ هو الوحيد المخوّل لصياغة دستوره الخاص واختيار شكل العلاقة التي تربطه بباقي دُوَلِ العالم، ويتمّ ذلك عبر تكوين مجلس تأسيسي منتخَب عبر اقتراع عامّ لمن بلغوا سنّ الرشد.

وسيكون المؤتمر جاهزا، كما كان دائما، لبذل كلّ الجهود لضمان الانسجام بين الطوائف، إذ لا يمكن أن يوجد حلّ دائم إلا عبر مجلس

تأسيسي يضمن حقوق جميع الأقليات المعترف بها. ويحصل ذلك سواء بأن يتمّ أكبر قدر ممكن من الاتّفاق بين المنتخَبين الممثّلين لمختلف الفئات الأغلبية منها والأقلّية، أو باللجوء إلى التّحكيم إن لم يتوصّلوا إلى اتّفاق على أيّ نقطة. وأيّ بديل آخر لن يؤدّي إلاّ إلى طريق مسدود. يجب أن يرتكز قانون الهند على الاستقلاليّة، والديمقراطيّة والوحدة الوطنيّة. والمؤتمر يدين كلّ محاولة لتقسيم الهند وتشتيت الأمة. كان المؤتمر يطمح دائما إلى دستور يضمن كامل الحرّيات ويتيح فرص التطوّر لجميع الأفراد والجماعات، ويُحِلّ العدالة الاجتماعية مكان الحيْف.

عندما استلمتُ مركز الرئاسة من راجندرا برازاد، كانت إحدى أوّل المهمّات التي أنجزتها هي إعادة تشكيل اللجنة التنفيذيّة. ظلّت عشرة أسماء على حالها، وهي الأسماء التالية:

شريماتي صاروجيني نايدو،
صاردار فالّبهاي باتل،
ساث جمنلال باجاج (أمين مال)،
شري ج. ب. كريبالاني (أمين عام)،
خان عبد الغفّار خان،
شري بهولابهاي دساي،
شري شَنكر راوْ ديو،
د. بروفولاّ شَنْدرا غوش،
د. راجندرا برازاد وأنا.

كان جواهرلال نهرو أحد الغائبين البارزين عن لجنة د. راجندرا برازاد.

فقمت بإعادته إلى اللجنة ودعوت كذلك شري س. راجاجوبالاشاري، ود. سيّد محمود والسيّد آساف علي.

كان سيتمّ الإعلان عن اسم خامس عشر، لكن تمّ اعتقالنا ما إن انتهت جلسة المؤتمر هذه، وبقي المكان شاغرا طيلة مدّة طويلة.

كانت هذه فترة عصيبة مرّ بها المؤتمر. وكان للأحداث التي تهزّ العالم في الخارج تأثيرٌ بالغٌ علينا. وكان أكثر ما يثير قلقنا هو الخلاف الحاصل بيننا. كنتُ رئيس المؤتمر، وكنتُ أحلم أن أجعل الهند تلتحق بركب الديمقراطيّات لو أنها كانت حرّة. إن قضيّة الديمقراطيّة مطروحة بقوّة في الهند. لكن العائق الوحيد الذي كان يقف في طريقنا هو أن الهند كانت في الأسر. لكن غاندي لم يكن يرى الأمور بهذه الطريقة. فالموضوع، بالنسبة إليه، يتعلّق بحبّ السلام لا بحريّة الهند. أعلنتُ على الملإ أن المؤتمر الوطني الهندي ليس تنظيما مُسالما، وإنما هو أداة لتحقيق حريّة الهند. لذلك كان الموضوع الذي طرحه غاندي لا يعني شيئا في رأيي.

لكن غاندي لم يكن ليغيّر رأيه. كان مقتنعا تماما بأنه على الهند أن لا تشارك في الحرب. فذهب للقاء نائب الملك وأبلغه بموقفه. كما كتب رسالة مفتوحة مخاطبا الشعب البريطاني يطلب منه فيها أن لا يحارب هتلر، بل عليه أن يقف ضدّه بقوّة الروح. وليس مفاجئا أن دعوة غاندي لم تجد لها صدًى في قلوب البريطانيين. في ذلك الوقت كانت فرنسا قد سقطت، وكانت ألمانيا تعيش أكبر لحظات قوّتها.

كانت هذه الفترة عصيبة على غاندي. كان يرى أن الحرب كفيلة بأن تدمّر العالم، ولم يكن في وسعه أن يفعل شيئا لمنع ذلك. كان الأسى يتملّكه إلى درجة أنه تحدّث عن الانتحار مرّات عديدة. وقال لي إنه إذا لم يكن باستطاعته أن يضع حدّا للآلام التي تسببها الحرب، فإنه بإمكانه، على الأقلّ، أن لا يكون شاهدا على الجريمة وذلك بأن يضع حدا لحياته. كان يمارس عليّ ضغوطا متكرّرة حتى أشاطرهُ الرأيَ. فكّرت في الأمر مليّا، لكنني لم أستطع أن أرغم

نفسي على موافقته. كان اللاّعنف بالنسبة إليّ مسألة سياسة، وليس مسألة عقيدة. وكنت أرى أنه من حقّ الهنود أن يحملوا السيوف إن شاؤوا، لكن موقف غاندي كان صائبا في ظلّ الظروف السائدة في البلاد. لذلك فقد كان قرارنا بأن يكون نضالنا سلميّا من إملاء الظروف. لم تكن المسألة مسألة عقيدة بالنسبة إليّ وبالنسبة إلى العديد من الهنود، ولو كان لا بدّ من القتال للحصول على الحرّية لقاتلنا ولشاركنا حتما في الحرب.

كانت اللجنة التنفيذيّة للمؤتمر منقسمة حول هذه القضيّة الأساسيّة أيضا. في مرحلة سابقة كان بانْديت نهرو، وصاردار باتل، وشري راجاغوبالاشاري، وخان عبد الغفّار خان، يقفون في صفّي، في حين كانت راجندرا برزاد، وأشاريا كريبالاني، وشري شَنْكر راوْ ديُو، مع غاندي. كانوا يوافقونه رأيَهُ القائل ما إن يتمّ قبول إمكانيّة أن تشارك الهند الحرّة في الحرب، حتى تضيع ركيزة نضال الهند السلمي من أجل الحرّية. أما أنا فكنت أرى فرقا بين أن تخوض معركة داخليّة من أجل التحرير، وأن تخوض معركة خارجيّة لتصدّ عدوانا. إن حرب التحرير شيءٌ، وخوض حرب ضدّ بلد آخر بعد أن تحصل على حريّتك شيءٌ آخر. وكنت أصرّ على أنه لا يجب الخلط بين الموضوعين.

تفاقمت الأمور أثناء اجتماع لجنة مؤتمر كلّ الهند الذي عُقد في بونا في يوليو 1940. كان هذا الاجتماع هو الاجتماع الأوّل للّجنة التنفيذيّة بعد الجلسة التي عقدها المؤتمر في رامَجَرْه. وباعتباري رئيسا، طرحتُ المسألة كما أراها أمام اللجنة. فأيّدتْ موقفي. وهكذا توصّلنا إلى اتّخاذ قرارين. تمثّل القرار الأوّل في تأكيد اقتناع المؤتمر بأن اللاّعنف هو السبيل السليم لنيل حريّة الهند، ويجب أن نستمرّ عليه. أما القرار الثاني فقد تمثّل في الإعلان عن أن الهند يجب أن تصطفّ إلى جانب الديمقراطية إبّانَ الحرب بين النازيّة والديمقراطيّة. غير أنها لا تستطيع أن تشارك في الحرب إلى جانب الديمقراطيات ما دامت هي نفسها لم تتحرّر. وقد ارتكز القراران في شكلهما النهائي على المشروع الذي قمت بإعداده.

فرح غاندي كثيرا عندما صدر قرارُ مواصلة اعتماد اللاّعنف ركيزة في نضال الهند من أجل حرّيتها. يبدو أنه استند إلى موقفي من الحرب فخشي أن تتراجع لجنة مؤتمر كلّ الهند عن خيار اللاّعنف سياسةً ينتهجها المؤتمر. فأرسل إليّ برقيّة تهنئة ذكر فيها أنه في منتهى السعادة لأنني ناصرت خيار اللاّعنف في النضال الدّاخلي. كان غاندي يشعر، نظرا للمزاج السائد في البلاد، أنه من السهل على لجنة مؤتمر كلّ الهند أن تقبل بسهولة مقترحي القائل ينبغي على الهند أن تشارك في الحرب بعد أن يُعترف لها بحرّيتها. ونظرا لهذه الاعتبارات كانت لديه شكوكٌ حول قدرتي على إقناع لجنة مؤتمر كلّ الهند باتخاذ قرار مواصلة سياسة اللاّعنف في نضالنا الداخلي.

غير أن مواقف أعضاء اللجنة التنفيذية تجاه الحرب بدأت تتذبْذَبُ. لم يستطع أيّ واحد منهم أن ينسى أنّ غاندي كان معارضا، من حيث المبدأ، لأيّ مشاركة في الحرب. وما استطاعوا أن ينسوا أن نضال الهند من أجل حريّتها وصل إلى هذه المنزلة بفضل قيادته. وها هُم الآن يخالفونه الرأيَ حول مسألة جوهريّة، ويتخلّون عنه للمرّة الأولى. بدأت قناعة غاندي الراسخة بسياسة اللاّعنف تتسلّل إليهم وتؤثّر في قراراتهم. وما إن مرّ شهرٌ على اجتماع بونا حتّى غيّر ساردار باتِل رأيه واصطفّ إلى جانب غاندي. وشرع الأعضاء الآخرون في التردّد.

في يوليو 1940 كتب إليّ د. راجندرا برازاد وعدد من أعضاء اللجنة التنفيذيّة مراسلة أوضحوا فيها أنهم يوافقون غاندي موافقة تامّة في ما يخصّ موقفه من الحرب، ويرغبون أن يتبنّى المؤتمر موقفهم هذا. وقالوا ما دامت أفكاري تختلف عن أفكارهم، وما دامت لجنة مؤتمر كلّ الهند وقفت إلى جانبي في بونا، فإن الموقّعين على الرسالة يشكّون في أنهم ما زالوا قادرين على الاستمرار في نشاطهم داخل اللجنة التنفيذيّة. كانوا قد عُيّنوا في اللجنة التنفيذيّة لمساندة القائد، لكن بما أنهم اختلفوا حول مسألة جوهريّة، لم يبق أمامهم أيُّ خيارٍ سوى الاستقالة. كانوا قد تدارسوا الأمر جيّدا ولكي لا يحرجوني عبّروا عن رغبتهم في الاستمرار في اللجنة التنفيذيّة ما دامت الاختلافات تخصّ مسائل

غير قابلة للتطبيق وقتها. لكن إذا قبلت الحكومة البريطانية شروطي وصار خيار الحرب مطروحا بجدية، فلن يكون أمامهم إلا الاستقالة. وأضافوا أنني إن أنا وافقتُ على هذا لأمر فإنهم سيواصلون انتماءهم إلى اللجنة التنفيذيّة، وإلا فيمكن اعتبار هذه الرسالة نفسها رسالة استقالة.

جرحت الرسالة مشاعري فهي تحمل تواقيع جميع أعضاء اللجنة التنفيذيّة باستثناء جواهرلال نهرو وراجاجي. حتّى عبد الغفّار خان الذي كان أكبر مؤيّد لي غيّر رأيه الآن. لم أتوقّع أبدا أنني سأتلقّى رسالة كهذه من زملائي يوما ما. فكتبت لهم على الفور ردّا مفاده أنني قبلت موقفهم. فحسب ما كان يبدو من مواقف الحكومة البريطانية، لم يكن هناك أمل كبير في أن تقبل الحكومة البريطانيّة الاعتراف بحرية الهند. وما دام موقف البريطانيين لم يتغيّر، فإنّ مسألة المشاركة في الحرب لن تكون سوى مسألة نظريّة. لذلك طلبت منهم أن يبقوا أعضاء في اللجنة التنفيذيّة.

دعاني نائب الملك، في شهر أغسطس، لأناقش معه مسألة مشاركة المؤتمر في الحكومة عبر مجلس تنفيذي ذي صلاحيات أوسع. رفضت طلبه حتى دون أن أتشاور مع زملائي. اتّضح لي أنه لا علاقة بين طلب المؤتمر الاستقلالَ ودعوة نائب الملك إلى مجلس تنفيذي موسّع. ومن هذا المنطلق رأيت أنْ لا داعي للالتقاء به. ثمّ تبيّن لي أن العديد من أعضاء المؤتمر لم يكونوا موافقين على قراري هذا. قالوا إنه كان عليَّ أن أقبل دعوة نائب الملك وأن أقابله. لكنني كنت ولا أزال أعتقد أن الموقف الذي اتّخذته هو الموقف الصّائب.

كانت ردّة فعل غاندي مختلفة كلّيا عن مواقف أغلبيّة أعضاء المؤتمر. فلقد أرسل إليّ رسالة يساند فيها موقفي مساندة مطلقة. كان رفضي الذهاب إلى نائب الملك، حسب رأيه، تحقيقا للنعمة الإلهية. لم يكن الله يريد للهند أن تشارك في هذه الحرب. وهذا هو السبب الذي جعلني لا ألتقي نائب الملك، في نظر غاندي. وهكذا أغلق الموضوع. كان غاندي يخشى أنني لو التقيت به لربّما توصّلنا إلى تسوية ولجُرَّت الهندُ إلى الحرب.

بعد هذه الحادثة بوقت قصير، توجّه غاندي بنداء آخر إلى البريطانيين، وطلب منهم مرّة أخرى أن يلقوا أسلحتهم وأن يقاوموا هتلر بقوّة الروح. لم يكتف غاندي برسالته المفتوحة إلى الشعب البريطاني، بل توجّه أيضا إلى اللورد لينليثجو وضغط عليه ليقبل وجهة نظره ويوصلها إلى الحكومة البريطانيّة.

حين أخبر غاندي اللورد لينليثجو أنه ينبغي للشعب البريطاني أن يلقي أسلحته وأن يقاوم هتلر بقوّة الروح، أصيب اللورد لينليثجو بالبَهْتَة أمام ما اعتبره موقفا خارقا للعادة. وكان من عادته أن يدقّ الجرس كي يأتي معاونٌ ليرافق غاندي حتّى يصلَ إلى سيارته. لكنه كان، في هذه المرّة مبهوتا إلى درجة أنه لم يقرع الجرس، ولم يتفوّه بكلمة وداع. وكانت النتيجة أن غاندي خرج من عند نائب ملكٍ مخلّفا إيّاه صامتا مندهشا واضطرّ غاندي إلى أن يجد طريقه إلى سيّارته بنفسه. روى لي غاندي هذه الحكاية بروح الدعابة التي يتميّز بها.

تواصلت المناقشات داخل المؤتمر. ظلّ غاندي يعتقد أنه ينبغي على المؤتمر أن لا يشارك في الحرب مهما كانت الظروف. وكنت متّفقا معه على أنّ الهند لا يمكن أن تشارك في الحرب في ظلّ ظروفها الراهنة. ورغم حجم الاختلافات بيننا كنّا متّفقين على أنه ينبغي للهند أن لا تمدّ البريطانيين بأيّ مساعدة في الوقت الحالي. وهكذا ظلّ التضارب بين سياستي ومعتقد غاندي تضاربا نظريّا. كان موقف البريطانيين يوحّدنا في العمل حتى إن ظلّت وجهات نظرنا للأمور مختلفة.

ثمّ طُرحت مسألة ماذا عسى المؤتمر يفعل في ظلّ الوضع الراهن. لم يكن بمقدوره، باعتباره تنظيما سياسيا، أن يظلّ مكتوف الأيدي في حين كانت أمور جسامٌ تحدث في العالم بأسره. كان غاندي، في البداية، يقف ضدّ أيّ تحرّك لأنه يخاف أن يؤدّي إلى حصول الهند على حرّيتها فتشارك في الحرب. وبعد اجتماعَيْ دلهي وبونا، حين رفض البريطانيون عرض المؤتمر الداعي إلى التعاون المشترك، فكّر غاندي في تحرّك عصيانيٍّ مدنيٍّ صغير. فاقترح أن يخرجَ كلّ رجل وكلّ امرأة ويحتجّ، كلٌّ على حدة، على جرّ الهند إلى الحرب.

وبهذه الطريقة يعبّر كلّ واحد عن رفضه للحرب ويبقى بمنجاة من الاعتقال. كنت أرى أنه علينا اتّخاذ مواقف مناهضة للحرب تكون عمليّة أكثر وعلى نطاق أوسع، لكن غاندي لم يكن ليرضى بذلك. وما دام غاندي لم يكن جاهزا للمضيّ أبعدَ، وافقتُ على أن تنطلق حركة ساتياغراها (قوّة الروح) الفرديّة على الأقلّ.

على هذا الأساس تمّ اختيار فينويا بهاڤي ليكون أوّل ساتياغراهي منفرد أو أوّل مقاوم مدنيٍّ للحرب. وبعد بهاڤي تطوّع نهرو للقيام بالمهمّة متطوّعا ثانيا، وقبلَ غاندي ذلك. تتالى عددٌ آخر من المتطوّعين، وما لبثت الحركة أن امتدّت على مستوى البلاد بأسرها. والجميل في الأمر أنه رغما عن أنني أختلف مع غاندي اختلافا جذريا في ما يخصّ مسألة اللاّعنف، فإن البرنامج الذي نتّبعه حاليا برنامج نتّفق عليه كليّا.

أحيانا كان يَنكشفُ جانبٌ هَزْليٌّ للساتياغراها الفرديّة. كان هناك عامل من بُنجاب عمَدٍ، دون علم من غاندي أو اللجنة التنفيذيّة، إلى ممارسة الساتياغراها. وحين أُلقي القبض عليه قال، مدافعا عن نفسه، إنه كان يطبّق تعليمات المؤتمر. فحكمت عليه المحكمة بدفع غرامة ماليّة قدرها 1 آنا[6] دفعها من ماله الخاص وأطلقوا سراحه. وضعت هذه الحادثة المؤتمر موضع سخرية إلى درجة أنه توجّب عليَّ أن أذهب إلى هناك حتى أسوّي الأمر. وفي طريق عودتي تمّ اعتقالي في لاهور. لم يخلُ الاعتقال في حدّ ذاته من المزحة. كنت في طريقي إلى سيارة المرطّبات لأتناول كأس شاي مبكّر، حين باغتني مفتش شرطة بمذكّرة وتحيات. أجبته بصرامة: "إنه لشرف لي أن تخصّوني بهذه المعاملة المميّزة. فأنتم تعتقلونني قبل أن أحظى بفرصة ممارسة ساتياغراها فرديّة."

حُكِمَ عليّ بالسجن طيلة سنتين في معتَقل نايني. وبعد وقت قصير تبعني د. كاتجو إلى هناك. لكننا لم نبقَ في السجن طيلة مدّة الحكم، ذلك أن حدثين هامّين على المستوى العالمي حصلا، وسرعان ما حوّلا طبيعة الحرب. تمثّل

6- عملة هندية مسكوكة من معدن النّيكل. (المترجمة)

الحدث الأوّل في هجوم ألمانيا على روسيا السوفياتيّة في شهر يونيو/ حزيران 1941، وحصل الثاني بعد ذلك بستة أشهرٍ حين قصفت اليابان بيرل هاربر في الولايات المتحدة الأمريكيّة.

حوّل هجوم ألمانيا على روسيا السوفياتيّة وقصف اليابان لبيرل هاربر في الولايات المتحدة الأمريكيّة الحربَ إلى حربٍ كونيّةٍ فعلا. كانت الحرب تدور بين دول أروبا الغربيّة قبل هجوم ألمانيا على روسيا السوفياتيّة. فوسّعت الهجمة الألمانيّة نطاق الحرب لتشمل مناطق لم تكن قد طالتها حتى ذلك الحين. كانت أمريكا تقدّم دعما كبيرا لبريطانيا، لكنها ظلّت، مع ذلك، خارج الحرب. كانت القارّة الأمريكية بمنأى عن الأذى. لكن قصف اليابان لبيرل هاربر أدخل الولايات المتحدة الأمريكيّة إلى أتّون الحرب. وبذلك صارت الحرب كونيّة بالفعل.

إن الانتصارات المذهلة التي حققها اليابانيون في المراحل الأولى من الحرب جاءت بالحرب حتى باب الهند. وما كادت أسابيع قليلة تمرّ حتّى اجتاحت اليابانُ مالايا وسنغفورة. وما لبثت أن احتلّت بُورْمَا التي كانت جزءا من الهند قبل سنة 1937. بدأ الوضع يوحي بأن الهند نفسها على وشك أن تُجتاحَ. كانت البوارج اليابانية قد شرعت بعدُ في الظهور في خليج البنغال، وسرعان ما سقطت جزر أنداامان نيكولبار في يد البحرية اليابانيّة.

حين هجم اليابان، كان على أمريكا أن تواجه مسؤوليتها الحقيقية في الحرب. كانت أمريكا قد اقترحت على بريطانيا، من قبل، أن تتوصّل إلى تفاهم مع الهند. وشرعت الآن في ممارسة ضغوطات كبيرة على المملكة المتّحدة كي تحلّ المشكلة الهنديّة وتكسب تعاون الهند معها. ورغم أن الأمر لم يُعرف وقتها، طلب الرئيس روزفلت من الحكومة البريطانيّة، بعد الاعتداء الياباني على بيرل هاربر مباشرةً، أن يسترضي زعماء الهند. لم يكن بمقدور الحكومة الهنديّة أن تواصل تجاهل هذه النداءات، فقرّرت أن تغيّر سياستها في وقت من الأوقات.

قرر نائب الملك، في شهر ديسمبر 1941، إطلاق سراحي وسراح جواهرلال

نهرو. كانت الغاية من هذا القرار هي جسّ نبض المؤتمر بخصوص موقفه من تغيّر وضعيّة الحرب. كانت الحكومة تريد أن تراقب ردّة فعلنا قبل أن تقرّر إطلاق سراح الآخرين. وفي جميع الحالات، كان عليها أن تطلق سراحي ذلك أنها إنْ لم تفعلْ لا يمكن للّجنة التنفيذيّة أن تجتمع.

كنت في حالة نفسيّة منهارة حين جاءني خبر الإفراج عني. وفي الحقيقة لقد شعرت بالإهانة حين أطلقوا سراحي. كانت مغادرة المعتقل، في المرّات السابقة، تمنحني بعضا من الشعور بأنني أنجزت شيئا. أما في هذه المرّة فقد كان ينتابني شعور بأننا لم ننجح في أن نخطو خطوة عمليّة واحدة على دَرْب تحرير الهند، رغم أن رحى الحرب ما فتئت تدور منذ أكثر من سنتين. كنا كما لو أننا ضحايا الظروف ولسنا أسياد مصائرنا.

ما إن غادرت المعتقل حتى دعوت إلى اجتماع اللجنة التنفيذيّة في بَرْدُولي. كان غاندي يقيم هناك وعبّر عن رغبته في أن يعقد الاجتماع في بَرْدُولي أيضا. ذهبت إلى لقاء غاندي، وسرعان ما تبيّن لي أنّ الشرخ بيننا قد ازداد. كنّا في ما مضي مختلفين حول مسألة المبدإ فحسب، أما الآن فقد صار هناك فرق جوهريّ أيضا بين قراءتي للوضع وقراءته له. بدا غاندي مقتنعا بأن الحكومة البريطانيّة كانت جاهزة للاعتراف باستقلال الهند وراغبة في فعل ذلك، على أن تدعمها الهند دعما كليّا في الجهود الحربيّة. كان يشعر أن الحكومة البريطانية رغما عن كونها كانت في أغلبيتها يمينيّة، ورغما عن أنّ السيّد تشرتشل كان رئيس هذه الحكومة، فإنّ الحرب قد وصلت إلى حدٍّ لم يعد فيه من خيار أمام الحكومة البريطانية غير الاعتراف بحرية الهند ثمنا لتعاونها. أما قراءتي للوضع فقد كانت مختلفة تماما. كنت أرى أن الحكومة البريطانية صادقة في قلقها تجاه تعاوننا، غير أنها لم تكن جاهزة بَعْدُ لتعترف بحريّة الهند. كنت أرى أنّ أقصى ما يمكن للحكومة البريطانيّة فعْلُهُ هو إنشاء مجلس تنفيذيٍّ ذي صلاحيات موسّعة، ومنح المؤتمر تمثيلا جيّدا فيه. تناقشنا في الأمر طويلاً، لكنني عجزت عن إقناع غاندي بوجهة نظري.

لم يمض وقت طويل على الإفراج عنّي حتى عقدت ندوة صحفيّة في كلكوتا. وحين سُئلتُ عمّا إذا كانت لدى المؤتمر رغبة في تغيير سياسته تجاه الحرب، أجبت أن ذلك يعتمد على موقف الحكومة البريطانيّة. إن هي غيّرت موقفها، غيّر المؤتمر موقفه. وأوضحتُ أن موقف المؤتمر من الحرب لم يكن موقفا دوغمائيّا ثابتا. وحين سألونى ماذا ينبغي على الهنود أن يفعلوا لو هاجمت اليابانُ الهندَ، أجبت دون تردّد عليهم كلّهم أن يدافعوا عن الوطن بحدّ السيف. وأضفت قائلا: "لا يمكننا أن نفعل ذلك إلا متى كسرنا الأغلال التي تكبّل أيادينا وأرجلنا. ماذا بوسعنا أن نفعل ونحن مقيّدو الأيدي والأرجل؟"

علّقت صحيفتا التايمز و ذو جاردن في لندن على هذه المحاورة، وقالتا إنها محاورة قد تكون تكشف اختلافا في الرؤى بين غاندي وقيادة المؤتمر. كان غاندي قد اتّخذ موقفا من الحرب غير قابل للتغيير، ولا يدع مجالا للنقاش، في حين كان موقفي مفتوحا للنقاش ومليئا بالأمل في التوصّل إلى اتّفاق.

عندما اجتمعت اللجنة التّنفيذيّة، أشار غاندي إلى تعليقات الصحافة البريطانيّة. واعترف أنها أثّرت فيه إلى حدّ مّا، ورسّخت اعتقاده بأنّ الحكومة البريطانيّة ستغيّر موقفها لو أن المؤتمر عرض عليها مساعدتها في الحرب. دام النقاش حول موقف المؤتمر من الحرب يومين كاملين دون أن نتوصّل إلى اتّفاق. ظلّ غاندي صامدا في موقعه القائل إن اللاّعنف عقيدة لا يجب الحياد عنها مهما كانت الظروف. وبالتالي فلا يمكن أن يرضى إطلاقا بأن تدخل الهند في حرب مهما كانت الظروف. أما أنا فكرّرت موقفي السابق وقلتُ على المؤتمر أن يركّز على تحرير الهند أكثر مما يركّز على اللاّعنف باعتباره عقيدة في حدّ ذاته.

كان ذلك برهانا صارخا على قدرة غاندي المذهلة على إيجاد حلّ لأكثر المشاكل صعوبة. كان قادرا على أن يجد مَخْرَجا حتّى في طريق مسدود، ويتوصّل بِوَصْفَةٍ سحريّةٍ إلى الجمع بين طرفين نقيضين. كانت لديه مقدرةٌ مذهلةٌ على تفهّم الرأي المغاير لرأيه وتمثيله تمثيلا مُنْصِفًا. وحين رأى صرامة موقفي تجاه

مشاركة الهند في الحرب، لم يتمادَ في الضّغط عليّ حتّى أغيّره. بل طرح أمام اللجنة التنفيذيّة مقترحَ قرارٍ يعكس موقفي بشكل أمين.

وسرعان ما حصل تغيير آخر في الوضع السياسي بالهند. كان صوبهاص شندرا بوز قد أطلق حملةَ معارضةٍ عَمَليّة للحرب ما إن اندلعت. أودت به نشاطاته هذه إلى الاعتقال، لكن سرعان ما أُطلق سراحه حين أعلن إضراب الجوع. وفي يوم 26 يناير 1941 صار الكلّ يعلم أنّه غادر الهند. لم تصل أخباره طيلة أكثر من سنة. ولم يكن أحد يعلم إن كان حيًا أو ميتا. في مارس 1942 تبدّدت كلّ الشكوك حين ألقى خطابا بثّه راديو برلين. صرنا نعرف الآن أنه موجود ببرلين وأنه كان يحاول أن يكوّن فيها جبهة معادية لبريطانيا. أثناء ذلك كانت الأخبار التي يروّجها اليابانيّون حول استعمار بريطانيا للهند تزداد قوّة. وكان لهذه الأخبار التي يروّجها الألمان واليابانيّون أثرٌ بالغٌ على عدد كبير من الناس في الهند. غزت الوعود اليابانيّة الكثير من العقول، وصدّق كثيرون أن اليابان كانت تعمل من أجل حريّة الهند وتكافل آسيا. كانوا يعتقدون أنه ما دام اليابانيّون قد أضعفوا القوّة البريطانيّة فقد ساعدونا في نضالنا من أجل تحرّرنا، وعلينا أن نستغلّ هذا الوضع. وهكذا بدأت مجموعة من الناس المصطفّين إلى جانب اليابان تتزايد في البلاد، يوما بعد يوم.

هناك نقطة أخرى كان رأيي فيها مختلفا عن رأي غاندي. كان غاندي يرجّح أنّ الحلفاء لن ينتصروا في الحرب. وكان يخشى أن تنتهي الحرب بانتصار ألمانيا واليابان، أو تفضي، في أحسن الحالات، إلى طريق مسدود.

لم يعبّر غاندي صراحة عن تصوّره لنتيجة الحرب، لكنني شعرت من محادثاتي معه أن شكّه في إمكانية انتصار الحلفاء كان يزداد يوما بعد يوم. أحسستُ أيضا أنّ هروب صُوبْهَاصْ بُوزْ إلى ألمانيا كان له تأثيرٌ كبيرٌ على غاندي. لم يكن غاندي في السّابق يُعجب بالكثير من أعمال صُوبْهَاصْ بُوزْ، لكنني لاحظت الآن تغيّرا في الموقف. أثبتت العديد من الملاحظات التي أبداها غاندي إعجابَهُ بشجاعة صُوبْهَاصْ بُوزْ، وبسعة الحيلة التي دلّ عليها هروبه من

الهند. وبشكل من الأشكال أثّر هذا الإعجاب بصُوبْهَاصْ بُوزْ، لاشعوريّا، في موقف غاندي من الحرب برمّتها.

إنّ هذا الإعجاب كان عاملا من العوامل التي جعلت الغيوم تخيّم على أجواء المفاوضات أثناء بعثة كريبس إلى الهند. سأناقش مقترَحَ بعثة كريبس والأسباب التي دفعتنا إلى رفضها بشكل تفصيلي في الفصل القادم، لكنّني أودّ الآن أن أذكر تقريرا كان يجوب أرجاء البلاد قبل مجيء كريبس. أعلنت نشرة الأخبار أنّ صُوبْهَاصْ بُوزْ توفّي جرّاء حادث تحطّم طائرة. كان لهذا الخبر تأثيرٌ كبيرٌ على الهند. وأثّر هذا الخبر خاصّة على غاندي. فأرسل برقيّة تعزية إلى أمّ صُوبْهَاصْ بُوزْ تحدّث فيها بكلمات من نور، عن ابنها وما قدّمه من خدمات للهند. وتبيّن في ما بعد أنّ الخبر لم يكن صحيحا. غير أن كريبس أخبرني أنه لم يكن يجدر بغاندي أن يقول كلاما كهذا عن صُوبْهَاصْ بُوزْ، فقد كان غاندي مناصرا للاّعنف، في حين كان صُوبْهَاصْ بُوزْ مصطفّا عَلَناً إلى جانب قوّات المحور، وكان لا يني ينشر أخبارا تبشّر بهزيمة الحلفاء في الحرب.

4- استراحة صينيّة

كنت قد أشرت سابقا إلى الانشغال الذي عبّر عنه روزفلت بخصوص مشاركة الهند الطّوعيّة في الحرب. ظلّ الجنراليسيمو شيانغ كاي-شك يلحّ في تكرار الطلب نفسه. ما إن اندلع القتال حتّى صار يحثّ البريطانيين على إيجاد تسوية مع الهند، وازداد طلبه إلحاحا بعد أن قصفت اليابان بيرل هاربر. كانت النتيجة الطبيعيّة للضربة اليابانيّة هي أنها زادت الجنراليسيمو والحكومة الصينيّة قوّة. صارت الصين تعتبر قوّة من القوى العظمى في العالم، مثلها في ذلك مثل الولايات المتّحدة الأمريكية والمملكة المتحدة والاتّحاد السوفياتي وفرنسا. ما فتئ شيانغ كاي-شك يحثّ الحكومة البريطانيّة على الاعتراف بحرّية الهند، لأنه كان يرى أنّه لا يمكن للهند أن تمنح المساعدة التي تقدر على تقديمها في الحرب إلا متى كانت مشاركة فيها طوعا.

قبل اندلاع الحرب بفترة قصيرة، كان جواهرلال نهرو قد زار جنوب الصين، ونزل في ضيافة شيانغ كاي-شك وربط علاقات جيّدة معه. تمكّن نهرو بهذه الطريقة من الحصول على معلومات صحيحة حول الوضع السياسي في الهند. ونتج عن زيارة جواهرلال للصين أن شيانغ كاي-شك أرسل بعثة إلى الهند، وكتب إليّ رسالة، باعتباري رئيس المؤتمر، يعبّر فيها عن تضامنه الكامل مع الهند ويتمنّى لها الخير. قرّر أن يسافر بنفسه إلى الهند ليلتقي بنائب الملك وبقيادة المؤتمر ليرى إن كان بالإمكان إيجاد تسوية للوضع، على أمل أن ينتج

عن هذا الفعل تعاونٌ مع قادة المؤتمر في الجهود الحربيّة.

كنت في بيت آساف علي في دلهي حين علمت أن شيانغ كاي-شك يقوم بزيارة إلى الهند في النصف الأوّل من فبراير 1942. وبعد أيام قليلة تلقّيت رسالة من زوجة شيانغ كاي-شك تقول فيها إنها ترافقه في هذه الرحلة. وسرعان ما أعلنت الحكومة أنّ شيانغ كاي-شك وزوجته سيكونان ضيفَا الحكومة الهندية في دلهي.

وصل الجنراليسيمو شيانغ كاي-شك وزوجته إلى دلهي يوم 9 فبراير 1942. وبعد وصولهما بيومين، قمنا أنا وجواهرلال بدعوتهما. كانت هناك صعوبة في التعامل معه تتمثّل في كونه لا يعرف أيّ لغة أجنبية. كان لديه مترجمٌ بالطبع، لكن ذلك الأمر كان يجعل المحادثة بطيئة جدا ورسمية بعض الشيء. ألقى الجنراليسيمو خطبة افتتاحيّة طويلة يثبت فيها أنّ أمّة مستعمرة يمكنها أن تتحرّر بإحدى طريقتين. إمّا أن ترفع السلاح وتطرد القوّة الأجنبيّة، أو أن تنال حريتها بطرق سلميّة مما يعني أنّ تقدّمها نحو الحرّية يتمّ تدريجيا كي تحقّق غايتها في الحكم الذاتي. هذان النهجان هما السبيلان الوحيدان أمام كلّ أمّة تتعرّض لعدوان من الداخل أو من الخارج.

قال الجنراليسيمو إن الصين مثال جيّد على هذا المبدإ. فقد بدأت الحركة الوطنيّة في الصين سنة 1911، لكن كان عليها أن تمرّ بمراحل عديدة قبل تحقيق التحرير. ينبغي للهند أن تتبع الطريق نفسه. يجب على الهنود أنفسهم، بالطبع، أن يختاروا الطريق الذي سيوصلهم إلى بلوغ هدفهم. وأضاف الجنراليسيمو إن لم تحصل الهند على حريتها دفعة واحدة فلا خيار أمامها سوى طريقة الخطوة خطوة. ثمّ قال لي إنه كان على اتصال مستمرّ بالحكومة البريطانية، وإنه أرسل خطابات مفصّلة إلى رئيس الوزراء البريطاني الذي ردّ عليه برسالة عبّر فيها عن اقتناعه التامّ بأنه لو تصرّف الهنود بحكمة وحنكة فإنه يمكنهم استغلال وضع الحرب وسيتحصلون على حريتهم.

ثمّ سألني الجنراليسيمو: "ما هو موقف الهند بالتحديد؟ هل تقف مع

النازيّة أم في صفّ الديمقراطيات؟"

أجبته قائلا إنني لن أتردد لحظة في أن أقول إن أزيحت العوائق من طريقنا، فلن أدّخر جهدا حتى أرى الهند تنضمّ إلى صفّ الديمقراطيات.

بعد ذلك طرح علينا الجنراليسيمو سؤالا إنكاريا. قال إن الحرب ستنتهي بشعوب كثيرة إلى العبوديّة أو الحرّية. في ظلّ هذه المخاطر الجسيمة، أليس من واجبنا الانضمام إلى صفّ المملكة المتّحدة والصين دون الإصرار على أيّ شروط؟

أجبته قائلا إننا متلهّفون إلى الانضمام إلى صفّ الديمقراطيات شريطة أن نكون أحرارا كي ننضمّ بمحض إرادتنا.

كرّر الجنراليسيمو كلامه قائلا في ما يخصّ الهند بالذات، ليس هناك فرق جوهري بين وضع الاستقلال التامّ ووضع السيادة[7] تحت الوصاية البريطانيّة. تحدّث طويلا في هذا الموضوع وقال إنه لو اقترحت علينا الحكومة البريطانيّة حكما ذاتيا تحت الوصاية البريطانيّة فمن الحكمة أن تقبل الهند به. وأضاف قائلا إنه يعلم أن جواهرلال لا يوافقه الرّأيَ ولا يرضى بغير الاستقلال التامّ، لكنه ينصحنا، باعتباره شخصا يتمنّى الخير للهند، بأن لا نرفض هذا العرض.

خاطبني جواهرلال بالأوردي، وقال لي إنه عليّ أنا شخصيا أن أجيب على هذا السؤال باعتباري رئيس المؤتمر.

فأجبت قائلا إذا عرضت علينا الحكومة البريطانيّة حكما ذاتيّا تحت الوصاية البريطانيّة وسمحتْ لممثّلي الهند بأن يشتغلوا في ظلّ الحرّية والمسؤوليّة أثناء الحرب، فإن المؤتمر لن يرفض هذا العرض.

عندها، انضمّت إلينا السيدة حرم شيانغ كاي-شك، ودعتنا إلى تناول الشاي. صار النقاش في حضرتها أكثر سهولة لأنها درست في الولايات المتّحدة

7- يتكوّن الكمّنوالث من مجموعة سيادات كانت في السابق مستعمرات بريطانيّة ثمّ أصبحت كلّ دولة تابعة لسلطة الإمبراطوريّة البريطانيّة تتمتّع بالحكم الذاتي تسمّى سيادة. (المترجمة)

الأمريكيّة وبالتّالي فهي تتكلّم اللغة الإنجليزيّة بطلاقة.

قال الجنراليسيمو إنه من البديهي أن تشارك الحكومة البريطانية في جهود الحرب. فمن غير المعقول أن توقّع أنها ستمنح الهنودَ حقّ سيادة أنفُسهم بالكامل ما دامت النزاعات قائمة. أجبته قائلا إنه بإمكاننا أن نضع مخطّطا يرضي زعماء الهند والحكومة البريطانية ويستمرّ طيلة فترة الحرب. لكن الإشكال الحقيقي يكمن في الكيفية التي ستُسوّى حسبها القضية الهندية بعد انتهاء الحرب. ما إن تضمن لنا الحكومة البريطانية أن الهند ستكون حرّة بعد انتهاء الحرب حتى نتوصّل إلى اتّفاق.

سألتني السيدة حرم شيانغ كاي-شك إن كنت أرى مانعا في أن تُبَلِّغَ الحكومةَ البريطانية بفحوى هذه النقاشات. أجبتها قائلا إن المؤتمر قد اتّخذ هذا القرار عَلناً ونحن لا نمانع في إيصال وجهات نظرنا إلى أيّ طرف كان.

طيلة الفترة التي أمضاها الجنراليسيمو شيانغ كاي-شك في الهند كانت الحكومة الهندية منزعجة. فهي لم تكن راضية عن وجود علاقة وطيدة بين الجنراليسيمو وقادة المؤتمر، فقد توهم هذه العلاقة الناسَ داخل الهند وخارجها بأن الجنراليسيمو إنما جاء إلى الهند لزيارتنا نحن. ومن ناحية أخرى، وضّح الجنراليسيمو أنه قدم إلى الهند لمناقشة وضع الحرب، لا مع نائب الملك والقائد العام للقوات المسلّحة فحسب، وإنما مع قادة المؤتمر أيضا. يعني هذا أنه ليس بإمكان الحكومة أن تمنعه من التواصل معهم.

عبّر الجنراليسيمو عن رغبته في زيارة تاج محل فنظّمت له الحكومة برنامج زيارة رسمية يرافقه فيها أشخاص تختارهم الحكومة. غير أن السيدة حرم شيانغ كاي-شك قالت إن جواهرلال يجب أن يرافقهم إلى أجرا. هكذا صار جواهرلال فردا من أفراد الوفد المرافق. إلا أن هذا الموقف لم يحظ، هو الآخر، برضاء الحكومة الهندية.

غادر الجنراليسيمو دلهي قاصدا كلكوتا. فارتأت حكومة البنغال أن يُقِيمَ

الجنراليسيمو في آليبور بالمقرّ الرسمي لإقامة نائب الملك. أعلم الجنراليسيمو جواهرلال بهذا الأمر، وعبّر له عن رغبته في أن يراه ثانية في كلكوتا. ذهب جواهرلال إلى كلكوتا حيث دارت بينه وبين الجنراليسيمو محادثات مطوّلة. وفي تلك الأثناء كان غاندي يقيم في بيرلا بارك، فذهب إليه الجنراليسيمو وقابله هناك. دام اللقاء زهاء ساعتين، وكانت السيدة حرم شيانغ كاي-شك تضطلع بالترجمة الفورية. حدّثه غاندي عن بداية خوضه لتجربة ساتياغراها (قوّة الروح) في جنوب أفريقيا، وعن الكيفية التي طوّر بها أسلوب اللاّعنف واللاّتعاون من أجل حلّ المشكلة السياسية في الهند.

لم أكن موجودا في كلكوتا أثناء زيارة الجنراليسيمو. حدّثني جواهرلال، في ما بعد، عمّا دار من أحاديث في هذا اللقاء. لم يستطع جواهرلال، خلال هذه الأيام، أن يرفع بصره إلى عَيْنَيْ غاندي. كان جواهرلال يشعر أن الطريقة التي تكلّم بها غاندي مع الجنراليسيمو لم تترك انطباعا يليق به في نفس الجنراليسيمو. كان من الصعب عليَّ أن أصدِّقَ هذا الكلام. فمن المحتمل أن الجنراليسيمو لم يتمثّل النتائج التي ستترتّب عن مواقف غاندي. ومن المحتمل أيضا، أنه لم يقتنع بحُجَجِ غاندي، لكنني كنت على يقين من أن الجنراليسيمو قد افتتن بما يمتلكه غاندي من قدرات على التأثير في الأجانب.

قبل أن يغادر الجنراليسيمو كلكوتا تقدّم إلى الحكومة البريطانية بالتماس حارّ راجيا إيّاها أن تمنح الهند سلطةً سياسية فعلية في أقرب الآجال. ولكن من الواضح أنه لم يستطع أن يقنع، لا نائب الملك ولا الحكومة البريطانية، بضرورة الاعتراف الفوري باستقلال الهند.

5- بعثة كريبس

تعمّقت أزمة الحرب فبدأ الناس يتوقّعون أن يتغيّر موقف الحكومة البريطانية من الحكومة الهندية. وهذا ما حصل فعلاً. ونتيجة لذلك أقبلت بعثة كريبس إلى الهند سنة 1942. قبل مناقشة مسألة مجيء البعثة لا بدّ من الإشارة إلى أمْرٍ سابقٍ حَدَثَ حين جاء السير ستافورد كريبس لزيارة الهند قبل اندلاع الحرب. دارت بيني وبينه محادثات عديدة أثناء هذه الزيارة. قضى السير ستافورد بضعة أيّام بِوَرْضَة أثناء اجتماع اللجنة التنفيذية للمؤتمر. ومن الطبيعي أن مسألة مشاركة الهند في جهود الحرب كانت أكثر المواضيع التي وقع تناولها في هذه المناقشات.

لاحظ السير ستافورد كريبس أكثر من مرّة، أثناء هذه الزيارة، أن آراء غاندي في ما يخصّ الحرب كانت معروفة جدّا، ولا أمل له من ورائها في التوصّل إلى اتفاق مع الحكومة البريطانية. كانت آرائي أنا أيضا معروفة جدّا، وبدا أنها يمكن أن تكون أرضية للمناقشات. سألني السير ستافورد إن كنت أستطيع أن أضمن له، في حال لبّت الحكومة البريطانية مطلب حرّية الهند، أنَّ الشَّعبَ الهنديَّ سينحازُ إلى أفكاري لا إلى أفكار غاندي. فأجبته قائلا إننا كلّنا نكنّ لغاندي احتراما كبيرا ونعير اهتماما بالغا لكلّ ما يقوله، لكن في ما يخص هذه المسألة بالذات يسرّني أن أغلبية أعضاء المؤتمر وأغلبية أرجاء البلاد في صفّي. لذلك استطعت أن أضمن له أنه في حال حصلت الهند على الحرّية، فإن البلاد

بأكملها ستتحمّل أوزار الحرب عن طيبِ خاطر. سألني أيضا إذا كانت الهند ستقبل التجنيد الإلزامي في صورة ما إذا شاركت في الحرب. فأجبته قائلا إننا سنرحّب بذلك، وسنحرص على أن لا تدّخر الهند جهدا إلا وتبذله في الحرب.

أرسل إليّ السير ستافورد مذكّرة أورد لي فيها أهمّ ما دار في نقاشاتنا، وعرض لي فيها مقترحاته في ما يتعلّق بتسوية ممكنة بين الحكومة البريطانية والشعب الهندي. بالنسبة إليه ينبغي أن تعلن الحكومة البريطانية فورا أن الهند ستصبح مستقلّةً ما إن تنتهي الحرب. ويجب أن يشمل هذا الإعلان أيضا بَنْداً ينصّ على أن الهند ستكون حرّة في اختيار البقاء ضمن الكمنوالث البريطاني أو الخروج منه. وما دامت الحرب مستمرّة فإنه يجب إعادة هيكلة اللجنة التنفيذية، ويُمْنَحُ كلّ عضوٍ من أعضائها لَقَبَ وَزِير. ويُخْلَعُ على منصب نائب الملك لَقَبَ الرئيس الدستوري. وسيكون هذا بمثابة نَقْلٍ أوّليٍّ للسلطة على أن لا يتمّ النقل الفعلي إلا بعد انتهاء الحرب.

سألني السير ستافورد عن ردّة فعلي على هذا المُقتَرَح، فأجبته قائلا لا يمكنني أن أعدك وعدا قاطعا في شأن موضوع بهذه الأهمية، والحال أنك لم تقدّم لي إلاّ عَرْضا افتراضيّا، لكنني أستطيع أن أضمن لك أنه ما إن يقتنع الشعب الهندي بأن الحكومة البريطانية صادقة في نواياها، حتى نتوصّل إلى اتّفاقٍ يُلغِي ما بيننا من اختلافات في وجهات النظر.

غادر السير ستافورد كريبس الهندَ قاصدا روسيا في زيارة غير رسميّة. وسرعان ما تمّ تعيينه سفيرا لبريطانيا في روسيا. يُقالُ أحيانا إنه كان وراء تقريب الاتحاد السوفياتي من الحلفاء. وحين غزت ألمانيا روسيا قيل إنه اضطلع بدور كبير في القطيعة التي حصلت بين هتلر وستالين. منح هذا الدور السير ستافورد كريبس صِيتا كبيرا، وعزّز من مكانته في المجتمع البريطاني. لديَّ شُكُوكٌ في أن يكون له تأثيرٌ فعليٌّ في السياسة السوفياتية. لكن، مهما كان الأمر، فإن صِيتَهُ طبّق الآفاق. وحين عاد إلى المملكة المتحدة ذهب الظنّ ببعض الناس إلى حدّ توقع أنه قد يُعيَّنُ على رأس الحكومة بدلا عن السيد تشرتشِل.

كنت قد أشرت، سابقا، إلى الضغط الذي كان الرئيس روزفلت يمارسه على الحكومة البريطانية حتى تتوصّل إلى تسوية في ما يخصّ المسألة الهندية. زاد الرأي العام الأمريكي، بعد الهجوم على بيرل هاربر، في إلحاحه ومطالبته بانضمام الهند طَوْعاً إلى الجهد الحربي. وشعر تشرتشل نفسه أنه من واجبه أن يفعل شيئا ما. فقرّر أن يَخْطُو خطوةً جديدةً، وانْتَدَبَ كريبس ناطقا رسميّا باسم سياسة جديدة.

كانت شهرة كريبس قد بلغت الذُّرى بعد عودته من الاتحاد السوفياتي. فقد كان هو الرجل الذي يقول عنه عامة الناس إنه نجح نجاحا باهرا في موسكو، إذ وجد حلاً لمسألة في منتهى الدقّة. ومن الطبيعي أن يقع عليه الاختيار كيْ يُوفَدَ إلى الهند. فإلى جانب ما حقّقه من شهرة، كان انشغاله بالمسألة الهندية قد بدأ منذ سنوات عديدة. ولديَّ أسبابٌ تدفعني إلى أن أعتقد أنه أَطْلَعَ تشرتشل على المذكّرة التي كان قد دوّنها في وَرْضَة أثناء زيارته الأخيرة إلى الهند. وفي اعتقادي أن تشرتشل لم يقبل المقترَحات الواردة في المذكرة. لكن كريبس أوهم الجميع بأن المُخطَّطَ قد نال القَبُولَ. لذلك قَبِل المجيء إلى الهند دون تردُّد، لأنه شعر، في ضوء النقاشات التي كانت قد دارت بيني وبينه في السابق، أن الفرصة سانحة لإقناع المؤتمر بتبنّي مُقترحاته.

حين أعلنت قناة البي بي سي عن بعثة كريبس كان للخبر وَقْعُ المفاجأة. فلقد كانت العديد من التخمينات والإشاعات تروج، ولم يكن أحدٌ يعرف تمام المعرفة ما كانت الحكومة البريطانية ستقترحه بالضبط. بلغ الخبرُ مسامعَ الناس في الهند على الساعة الثامنة صباحا. وبعد ذلك بساعةٍ طلبتْ منّي الصحافة أن أعلّق على الخبر فقلت:

> لا يمكنني الإدلاء برأيي دون أن أدرس مليّا كلّ النقاط الواردة في العرض الذي سيجلبه السير ستافورد كريبس معه. غير أنني سأرحّب به باعتباره صديقا قديما، وسأحاول أن أتفهّم وجهات نظره قدر المستطاع.

ورغم الضغط الكبير الذي مارسته عليّ الصحافة إلاّ أنني رفضتُ أن أزجّ بنفسي أكثر في هذا الموضوع.

كنت في وَرْضَة حين أرسل إليّ نائب الملك برقيّةً يعلمني فيها أن مجلس الحرب قرّر أن يُوفِدَ السير ستافورد كريبس إلى الهند، وأنه ينبغي أن أتوجّه إلى الهند لأناقش معه المُقترحات التي جلبها معه في ما يتعلّق بالمسألة الهندية. قبلتُ الدعوةَ وأعلمتُ نائب الملك.

قبل مجيئه إلى الهند كان السير ستافورد كريبس قد كتب إلى نائب الملك رسالة يعلمه فيها أنه يرغب في مقابلة زعماء الرابطة الإسلامية إلى جانب قادة المؤتمر. كما يرغب في مقابلة ممثّلين للأمراء، ولمنظّمة الماهاصبها الهندوسيّة، وخان باهادور الله بُكْس الذي كان حينها الوزير الأوّل في السند. وقد اكتسب خان باهادور الله بُكْس مكانةً مرموقةً في الأشهر الأخيرة بعد أن ترأس قمّة اتفاقية المسلمين القوميين في الهند. لم أشارك في هذه القمّة لكنني ساعدت في تنظيمها دون أن أظهر في الصورة. حقّقت القمّة نجاحا باهرا فلقد حضرها 1400 مندُوب جاؤوا إلى دلهي من مختلف أنحاء الهند. كان لهذه القمّة نجاح باهر إلى درجة أن الصحافة البريطانية والأنجلو-هندية التي دأبت على التقليل من أهمية فاعلية القوميين المسلمين لم تستطع تجاهلها. فلقد كانت مرغمة على الاعتراف بأن هذه القمّة قد أثبتت أنه لا يمكن تجاهل دور القوميين المسلمين، حتى أن جريدة ستايتسمان وجريدة تايمز أوف إنديا وسّعتا في صفحاتهما مكانا لمقالات مهمّة حول القمّة.

من المهمّ أن نفكر في السبب الذي جعل الحكومة البريطانية ترغب في دعوة ممثّلين عن كل هذه الكتل الموجودة في الهند. كان من المعلوم جيّدا أن المؤتمر ينطق باسم أغلبية الناس في الهند. صحيح أن الرابطة الإسلامية قد صارت تمتلك تأثيرا كبيرا في أوساط بعض المسلمين، ولكن هذا الأمر إنما كان يرجع إلى الدّعم الذي كانت الحكومة تقدّمه لها. أما بالنسبة إلى بقية الأحزاب فقد كانت كلّها تقريبا صنيعة الحكومة. لو توصّلت الحكومة البريطانية إلى

تسوية مع المؤتمر فإن هذه الأحزاب لم تكن تملك القوّة ولا الشجاعة الكافية التي تؤهّلها لإعلان معارضتها. فلقد كانت الغاية الوحيدة من دعوة كل هذه الأحزاب إلى لقاء السير ستافورد إنما هي توظيفها كي تضاهي وزن المؤتمر.

كانت الحكومة البريطانية ترغب في إعلام العالم الخارجي بوجود أحزاب كثيرة في الهند حتى تُقنِعَ بأن المؤتمر ليس هو الناطق باسم البلد كلّه. ربّما كان البريطانيون يشعرون أيضا أنهم قد يتمكّنون بذلك من ممارسة بعض الضغوط على المؤتمر. من هنا تولّدت رغبة كريبس في دعوة رئيس اتّفاقية المسلمين القوميين في الوقت الذي كان يلتقي فيه بقادة الأحزاب الهندية الأخرى.

قابلت السير ستافورد بعد وصوله إلى نيو دلهي بقليل. تمّ اللقاء الأول يوم 29 مارس 1942 على الساعة الثالثة بعد الظهر، وكان السير ستافورد قد أعدّ تقريرا يطرح فيه مقترحاته ستجدونه مرفَقاً في الملحق رقم 2. وقد سلّمني إياه وهو يقول إنه مستعدٌّ لمناقشة المقترحات وتقديم تفسيرات إضافية إذا تطلّب الأمر ذلك. حين اطّلعتُ على التقرير اتّضح لي أنه كان ينصُّ على تشكيل مجلس تنفيذي جديد لنائب الملك. مما يعني أنه على جميع الأعضاء أن يمتثلوا للأمر، وأنه على المؤتمر الوطني والمنظمات الأخرى الممثّلة للشعب أن ترسل ممثليها حتى يشكّلوا، مجتمعين، هذا المجلس التنفيذي الجديد. وستتعهّد الحكومة البريطانية تعهّدا رسميا بأنه ما إن تنتهي الحرب حتى تُنهِي مسألة استقلال الهند.

كانت النتيجة المباشرة لهذا المقترح هي أن يتمّ تعويض المجلس التنفيذي القديم، وهو مجلسٌ أغلبيةُ أعضائه من البريطانيين، بمجلسٍ تنفيذي جديد يتكوّن من الهنود حصريا، على أن يظلّ الضبّاط البريطانيون في مناصب الأمناء دون أن يكونوا أعضاء في هذا المجلس. لكنّ نظام الحكم لن يشهد أيّ تغيير.

سألت السير ستافورد ما هي المكانة التي سيحتلّها نائب الملك في هذا

المجلس. فأجابني قائلا إن نائب الملك سيشغل وظيفة الرئيس الدستوري، وهي وظيفة تعادل وظيفة الملك في المملكة المتحدة. وكي لا أدع أيّ مجالٍ للشكّ طلبتُ منه أن يؤكّد لي أن هذا الأمر يعني أن نائب الملك، باعتباره الرئيس الدستوري، سيعمل بنصائح المجلس. ردّ عليّ السير ستافورد قائلا هذا ما ننوي تحقيقه فعلا. بادرته بالسؤال مرّة أخرى مستفسرا عمّن سيمارس السلطة: هل هو المجلس المقترَح أم نائب الملك. فكرّر على مسمعي قوله إن السلطة ستظلّ بيَدِ المجلس كما ستظلّ بيَدِ الإدارة البريطانية. سألته، بعد ذلك، عمّا ستكون عليه وضعية مكتب الهند في هذا الإطار. فقال لي إن هذا مجرّد تفصيل لم يفكّر فيه حتى الآن، لكنه أكّد لي أنه سيعير اهتماما خاصّا لكل رأي يصدر عن المؤتمر في هذا الشأن. واستطرد قائلا إن مكتب الهند سيظلّ قائما وسيكون هناك كاتبُ دولة، لكن منصبه سيكون شبيها بمنصب كاتب وصاية على الهند، مثله في ذلك مثل كتّاب الوصاية الآخرين التابعين للحكومة البريطانية.

شرحت له بالتفصيل كيف أن الهند قد اقترحت مرّات عديدة أن تشارك في الحرب عند اندلاعها شريطة أن يتمّ الاعتراف بحرّيتها. غير أن البريطانيين فشلوا في انتهاز هذه الفرصة. لذلك فهم المسؤولون عن عدم اضطلاع الهند بدورها في الحرب. ومرّة تلو المرّة، قال السير ستافورد إنه آسف لكون الأمور قد جرت على هذا النحو، لكنه كان على يقين من أن كلّ الأمور ستنتهي الآن إذا تمّ قبول العرض الذي جلبه من الإدارة البريطانية.

هكذا اختُتِم لقاؤنا الأوّل ببعضٍ من تفاؤُل.

بدأ اجتماع اللجنة التنفيذية للمؤتمر يوم 29 مارس 1942، وتواصل حتى يوم 11 أبريل. لعلّ هذا الاجتماع كان أطول اجتماع عقدته اللجنة التنفيذية على الإطلاق. ومثلما كان متوقّعا فقد قارَبَ الأعضاء المُقترحات من وجهات نظر مختلفة ومن مشارب مختلفة.

كان غاندي، منذ اليوم الأول، ضدّ قبول المقترحات. شعرت أن السبب وراء ذلك إنما هو نفُورُه من الحرب، لا اعتراضه على المقترحات في حدّ ذاتها.

ذلك أن اقتناعه العميق الثابت بأن الهند لا يجب أن تخوض غمار الحرب هو الذي لوّن موقِفَهُ من المقترح. فلقد كان غاندي يعارض كلّ المقترحات التي من شأنها أن تؤدّي إلى مشاركة الهند في الحرب حتى إذا كانت تلك المقترحات تخدم مصلحة الهند. وبالإضافة إلى ذلك لم يعجبه القسم الأخير من العرض وهو القسم الذي ينصّ على أن المؤتمر والرابطة الإسلامية سيُمْنَحانِ فرصةً لحلّ الإشكالات الطائفية بعد انتهاء الحرب.

حين التقى غاندي بكريبس في المرّة الأولى أثناء هذه البعثة ذكّرَهُ كريبس بالمذكّرة التي أشرت إليها سابقا. قال كريبس إنه كان قد أعدَّ المذكّرة بعد مشاورات مع قادة المؤتمر ومنهم غاندي نفسه. وكان فحوى هذه المذكّرة ينصّ على هَنْدَنَة المجلس التنفيذي هَنْدَنَةً كلّية أثناء الحرب. أما بعد الحرب فسيُعْلَنُ أن الهند قد أصبحت حرّةً. إن المقترحات التي حملها معه هذه المرّة هي نفسها المقترحات التي تقدّم بها سابقا.

قال غاندي إنه نسي أمْرَ هذه المذكّرة، وكلّ ما يذكره ممّا دار من نقاش بينه وبين كريبس أثناء زيارته السابقة للهند، هو ما دار بينهما من نقاشات حول النظام الغذائي النباتي. أجاب كريبس قائلا إنه لمن سوء طالعي أن غاندي استطاع أن يتذكّر كلامي حول الطعام، ولم يستطع أن يتذكّر المقترحات التي تجشّمت عناء إعدادها بعد أن استشرته هو نفسه.

تخلّل الكثير من الهزل والمزاح محادثات غاندي وكريبس. لكن هذه المحادثات اتّسمت أيضا بالتوتّر والحدّة رغما عن كونها لم تخرج عن روح الصداقة. قال غاندي إن المقترحات كانت شتَاتاً جافّا حتى أنها بالكاد يمكن أن تفتح أفقا لإجراء مفاوضات، وعمد إلى تحذير كريبس ضاحكاً وهو يقول محدّثا عنّي: "إنه يمدّ لك حَبْلاً طويلاً، وعليك أن تلزم الحذَرَ". فردّ كريبس قائلا إنه يعلمُ أن لديّ حَبْلاً طويلاً بما يكفي لشنقه.

كان جواهرلال يمرّ بحالة من الاضطراب الشديد بسبب التطورات في أوروبا وآسيا، وكان قَلِقاً على مصير الديمقراطيات. ذلك أنه كان بطبيعته

متضامنا مع الديمقراطيات يريد أن يفعل ما بوسعه كي يمُدَّ لها يَدَ العَوْنِ. لذلك كان يميلُ إلى قبول المقترحات. لكن مشاعر الهنود المعادية لبريطانيا كانت قوية في ذلك الوقت إلى درجة أن جواهرلال لم يجرأ على الإفصاح عن موقفه جهاراً وعلانيةً. غير أنني كنت أقرأ أفكاره وكثيرا ما كنت أتعاطف مع وجهات نظره.

أما بقيّة أعضاء اللجنة التنفيذية للمؤتمر فلم يكن لدى أغلبهم أيّ موقف تجاه الحرب. كانوا يتطلّعون إلى غاندي ينتظرون أن يقودهم باستثناء شري راجاغوبالاشاري. فلقد كان مقتنعا اقتناعا كليا بضرورة المشاركة في الحرب، لكن آراءه لم يكن لها أيّ وزنٍ يُذكرُ. ومن سوء الحظّ أن دوائر المؤتمر كانت تنظر إليه باعتباره رجلاً من الصعب التفرقة بينه وبين أيّ شخص مُعتدلٍ.

ناقشت اللجنة التنفيذية المقترحات طيلة يومين، لكن النقاشات لم تفض إلى أيّ نتيجة. شعرتُ، عندها، أنه من الضروري أن أطلب من السير ستافورد أن يمدّني بمزيد من الإيضاحات والمعلومات المفصّلة حول بعض النقاط. كان السؤال الأساسي يتعلّق بسلطات المجلس التنفيذي، وكان السير ستافورد قد اقترح أن يظلّ المجلس على حاله على أن يصبح أعضاؤه هنودا تتولّى الأحزاب السياسية اختيارهم. وقد أكّد لي مشافهة أن منصب نائب الملك سيطلق عليه اسم الرئيس الدستوري. كانت اللجنة التنفذية ترغب في أن تُوضَّحَ هذه النقطة وتُدرَجَ ضمن بُنُودِ القرار نفسها. لذلك التقيت بكريبس من جديد يوم 1 أبريل 1942.

كان هذا الاجتماع مع السير ستافورد حاسما. تواصلت نقاشاتنا زهاء ثلاث ساعات. تبيّن لي أن الموقف كان قد تغيّر تغيّرا جذريا منذ لقائنا الأخير. كانت النبرة التي يجيب بها مختلفة عن النبرة التي اتّسمت بها إجاباته في اللقاء السابق. وحين سألته عن منزلة المجلس التنفيذي قال إنه يتمنّى أن يعمل المجلس باعتباره إدارة حتى أثناء الحرب. سألته إن كان ذلك يعني أن المجلس سيتّخذ قراراته بالإجماع في ما يخصّ جميع المسائل التي تطرح عليه، وهل ستكون هذه القرارات نهائية. فأجابني إجابة مُلتبِسةً. لم يكن في مقدوره أن

يجزم بأن نائب الملك سيكون له القول الفصل، لكن فحوى ما قاله هو أن المجلس لن تكون له حرية كاملة وغير مشروطة في اتّخاذ القرارات. حاول أن يفسّر لي ذلك الأمر قائلا إن المنصب الذي يحتلّه نائب الملك لا يمكن تغييره دون تغيير القانون. غير أنه أكّد لي، المرّة تلو الأخرى، أنه مهما كان المنصب في نظر القانون، فإن الدور الفعلي الذي يمارسه نائب الملك شبيهٌ بدور الرئيس الدستوري.

ذكّرت السير ستافورد أن مواقفه كانت أكثر صرامة في المرّة السابقة فحاجَجَني في الأمر محاولاً أن يقنعني بأن موقفه الأساسي لم يتغيَّر، وأنّ نواياه في المرّة السابقة هي نواياه نفسها في هذه المرّة. ذكّرته بأنه، في المرة السابقة، ردّ على سؤالي قائلا بشكل قاطع إن المجلسَ التنفيذي سيعمل مثل مجلس الوزراء بالضبط. لكنه اليوم يقول إن وضعية المجلس القانونية لن تتغيّر، وهو إنما يحاول أن يُطَمْئِنَنِي حين قال لي إنه يتمنّى أن يعمل المجلس مثل مجلس الوزراء. ولكن لم يكن هذا التصوّر هو الذي بقي في ذهني بعد اللقاء الأول. وذكّرته أيضا بالحديث الذي جرى بيننا في ما يخصّ مكتب الهند وكاتب الدولة في الهند، فلقد كان قد ذكر حينها أن كاتب الدولة في الهند سيضطلع بالأعمال نفسها الموكولة إلى كاتب الكمنوالث، لكنه يقول الآن أيّ تغيير في وضعية مكتب الهند أو كاتب الدولة في الهند يتطلّب استصدار قانون من البرلمان. أجابني كريبس قائلا إنه يرى أن مكتب الهند سيعتمد عمليًا، إبّانَ أدائه لوظيفته، على أسس جديدة، لكن هناك مشاكل إجرائيّة تعيقُ استصدار قانون ينصُّ على تعويض منصب كاتب الدولة بمنصب كاتب كمنوالث.

تناولت، بعد ذلك، مسألة الاعتراف باستقلال الهند بعد أن تضع الحرب أوزارها. فقال كريبس إنه سيتمّ النظر في مسألة الهند من وجهة نظر جدّية بعد الحرب، وستُحظى الهندُ بفرصة تقرير مصيرها. وأضاف قائلا إنه سيغامر وينصحني بأنه علينا أن لا نثير صعوبات جديدة بطرح أسئلة جديدة. ينبغي على الهند أن تقبل المُقتَرَحات برمّتها وأن تتقدّم إلى الأمام. لم يكن يساوره الشكّ في أن الهند كانت ستحصل على حرّيتها، لا محالة، لو أنها تعاملت كليا

مع بريطانيا أثناء الحرب.

كانت هناك العديد من التخمينات والإشاعات تروج في الهند وخارجها حول السبب الذي جعل السير ستافورد كريبس يغيّر موقفه ما بين اللقاء الأول واللقاء الثاني. ثمّة تفسيرٌ ممكنٌ وهو أن السير ستافورد كان يأمل في أن يُقنع المؤتمر بقبول المقترحات معوّلا في ذلك على قدرته على الإقناع وأساليبه الدَّمِثَة رغم أن الوضع لم يتغيّر جوهريا. كان هذا هو السبب الذي جعله يعطي، في البداية، تطمينات قطعيّة. فقد كان يريد أن يعطي عن نفسه انطباعا حَسناً. لكن حين تمّ تدقيق النظر في تفاصيل المقترحات، وبعد أن أخضِع السير ستافورد لاستفسارات عديدة، أحسّ بأنّ عليه أن يلزم الحيطة والحذر، وأن يكفّ عن تغذية الآمال حين لا يسمحُ وضْعُهُ بتلبيتها.

هناك تفسيرٌ آخر مفاده أن الحلقة الداخلية للحكومة الهندية بدأت تؤثّر في السير ستافورد خلال الفترة الممتدّة ما بين الاجتماع الأول والاجتماع الثاني. كان محاطا باستمرار بنائب الملك وبطانته. ولعلّه كان من غير الممكن تفادي أنْ تلوّنَ وجهةُ نظرهم رؤيتَهُ للأمور وإنْ بشكلٍ جزئيٍّ. ثمّة تفسيرٌ ثالثٌ محتملٌ وهو أنه في الفترة الممتدّة ما بين الاجتماع الأول والاجتماع الثاني كانت هناك مراسلات بين دلهي ولندن، وأن مجلس الحرب البريطاني أرسل إليه تعليمات جعلته يشعر أنه لو تمادى سيُفْصَلُ.

من الصعب أن نعطي تفسيرا قاطعا لما حدث. فمن المحتمل جدّا أن كلّ هذه العوامل التي عدّدتها قد تضافرت وأسهمت في جعله يغيّر موقفه. كان كريبس محاميا بالأساس، لذلك كان يضفي على الأمور لَوْناً وَرْدِيّا أكثر مما يسمح به الواقع. كما أنه كان ميّالا لرؤية الأمور من وجهة نظره الخاصة، وكان يقدّم الوضع تقديما ملائما قدر المستطاع حتى يؤثّر في خَصْمِه. وحين حاولنا في وقت لاحقٍ أن نسدَّ في وجههِ سُبُلَ التهرُّبِ اضطُرَّ إلى التراجع. سمعتُ، بعد ذلك، أنه كان أحيانا يتجاوز التعليمات بالطريقة ذاتها عندما كان في موسكو.

يمكن أن نقدّم تفسيرا آخر أكثر رِفْقاً بالسير ستافورد، وهو أنه باعتباره

رجلا إنجليزيا كان ميّالا إلى التركيز على الممارسة والمواثيق أكثر من تركيزه على الاتفاقيات المكتوبة. والراجح أنه كان يعتقد صادقاً أنه ما إن يتمّ قبول المقترحات حتى تتطوّر المواثيق بالشكل الذي أشار إليه في اللقاء الأول. من الطبيعي أنه لم يكن باستطاعته أن يقدّم أيّ ضمان رسميٍّ في هذا الشأن. لذلك تراجع عن موقفه الأوّل حين طالبناه بإعطائنا ضماناً رسميا.

وكان لا بدّ لي، نتيجة لما حدث، أن أقدّم صورة جديدة كلّيا للّجنة التنفيذية حين اجتمعت ثانيةً صبيحة يوم 2 أبريل لتدراس نتائج اللقاء الثاني مع السير ستافورد كريبس. حاولت أن ألخّص الموقف على النحو التالي:

1. يمكنني الآن أن أرى بوضوح أن الإدارة البريطانية غير مستعدّة لمنح الهند حرّيتها أثناء الحرب. كان البريطانيون يشعرون أنهم لو فعلوا ذلك فإنهم يعرّضون أنفسهم للخطر، ولم يكونوا مستعدين لذلك.

2. نتيجة لظروف الحرب، وخاصة الضغط الأمريكي، طرأ على الموقف البريطاني تغييرٌ طفيفٌ حتى أن حكومة تشرتشِل نفسها أحسّت بأنه يجب عليها أن تمنح الهند فرصة المشاركة في الحرب مشاركةً طوعيّةً. كان هذا هو السبب الذي جعلهم مستعدين لتكوين مجلسٍ تنفيذيٍّ هنديٍّ خالصٍ، وأن يمنحوه ما في استطاعتهم مَنْحهُ من سلطة. لكن هذا المجلس سيظلّ، في نظر القانون، مجرّد مجلسٍ وليس مجلسَ وزراء.

3. كان من الممكن على مستوى الممارسة العملية أن يتبنّى نائب الملك موقفا ليبراليا وأن يقبل، بشكل طبيعيٍّ، قرارات المؤتمر. لكن المؤتمر سيظلّ وقتها

في منزلة التّابع له، وتظلّ المسؤولية الحقيقية في يَدِهِ هو لا في يَدِ المؤتمر.

4. انجرّ عن هذا الأمر أن الإجابة التي قُدِّمَتْ عن السؤال الأساسي الذي طرحته اللجنة التنفيذية في ما يتعلّق بمن يملك القرار النهائي، كانت: نائب الملك.

5. في ما يتعلّق بالمستقبل، من المحتمل، حسب ما ورد في كلام كريبس، أن تَدْرُسَ الحكومة البريطانية المسألة الهندية من وجهة نظر جديدة. غير أنه لا يمكن الجزمُ بأن الهند ستصبح مستقلةً حال انتهاء الحرب.

6. كان هناك احتمالٌ كبيرٌ، بعد انتهاء الحرب بالطبع، أن تُعَيَّن حكومةٌ جديدةٌ بدل الحكومة المحافظة التي يرأسها السيد تشرتشِل. ومن المحتمل أن هذه الحكومة البديلة قد تنظر إلى المسألة الهندية نظرةً أكثر تفهّما وأشدّ تعاطفاً. غير أنه ليس من الممكن طبعاً أن يُدرَج هذا الاحتمال ضمن المقترحات.

7. لذلك فإن النتيجة هي أنه لو قبل المؤتمر عرض كريبس فسيكون ذلك دون ضمانٍ واضحٍ يتعلّق بمستقبل الهند حتى بعد انتهاء الحرب.

ناقشنا هذه النقاط في ضوء الإعلان الذي بثّته إذاعة البي بي سي بمناسبة بعثة كريبس. ذلك الإعلان الذي جاء فيه صراحةً أن الهند ستنال الآن فرصة تقرير مصيرها. وكان هذا أيضا مضمونُ كلام كريبس في اللقاء الأول.

ولكن مع تواصل المفاوضات تلاشت، تدريجيا، نبرة الثقة والتفاؤل التي اتسم بها كلامه في البداية.

كانت هناك أسبابٌ أخرى وراء تغيُّر النبرة والأجواء المخيّمة. كنت قد ذكرتُ سابقا أن السير ستافورد جاء إلى الهند وطلب من نائب الملك أن يُصدر دعوات لعدد من القادة السياسيين ومن بينهم الراحل السيد الله بُكْس. وبدا أن كريبس غيّر رأيه بعد وصوله إلى الهند ربّما نتيجة إقامته في مقرّ الإقامة الرسمي لنائب الملك. كان الله بُكْس قد جاء إلى دلهي تلبيةً لدعوة نائب الملك وظلّ ينتظر اللقاء مع السير ستافورد. لكن موعد هذا اللقاء لم يحدّد. ولأن هذا الأمر كان يتسبّب في وضعية حرجة، خاطبتُ كريبس في الأمر فقال إنه سيدعو الله بُكْس قريبا. ورغم هذا الوعد لم تتم دعوة الله بُكْس. وفي نهاية المطاف شعر الله بُكْس بالقرف وقال إنه لن ينتظر في دلهي أكثر ممّا انتظر. حين سمعتُ ذلك خاطبتُ السير ستافورد بحدّة وذكرتُ له أن هذا الصنيع إهانةٌ لا للّه بُكْس فحسب، بل لمجموعة المسلمين القويّة التي يمثّلها. لو كان لكريبس أدنى شكوك حول هذه النقطة لما دعا الله بُكْس أصلاً. ولكن بما أن الدعوة قد وجّهت إليه فينبغي أن يُسْتَقْبَلَ استقبالا لائقاً. نتج عن تدخّلي هذا لقاءٌ بين السير ستافورد والله بُكْس في اليوم الموالي. دام اللقاء ساعةً واحدةً، واقتصر النقاش على العموميات دون أن يتطرّق كريبس إلى جذور القضية.

خلّفت هذه الحادثة في أعماقي أثرا سيّئا. شعرت أن هذا الأسلوب ليس أسلوبا لائقا في التعامل مع مسائل سياسية عويصة. وفي اعتقادي لم يتصرّف كريبس كرجل دولة. فلقد كان ينبغي أن لا تُسْتَصدَرَ الدعوات دون استشارة الحكومة الهندية. وحتى إذا كانت هناك صعوبات فكان عليه أن يخبر بها الله بُكْس بشكل مباشر، لا أنْ يتركه قابعا في دلهي دون جدوى.

حصلت حادثةٌ ثانية خلّفت في نفسي مرارةً، فما إن نشرت الصحافة نصَّ مقترح مجلس الحرب حتى تتالى كَمٌّ هائلٌ من المقالات النقدية في الصحافة الهندية. وورد أشدّها انتقادا في الصّحف التي تعبّر عادة عن وجهة

نظر المؤتمر. كانت صحيفة هندوستان تايمز في دلهي من بين أكثر الصحف صراحةً في التعبير عن رأيها. وبينما كانت اللجنة التنفيذية للمؤتمر تواصل اجتماعها أرسل كريبس إليّ رسالةً يقول لي فيها إنه رغم أن صحافة الهندوس لم ترحّب بعرضه، فإنه يأملُ أنْ أَتَمَعَّنَ أنا نفسي في المقترح من وجهة نظرٍ أوسع. بدت لي هذه الإشارة إلى صحافة الهندوس غريبة جدّا، وجال بخاطري أنه ركّز على صحافة الهندوس ربّما لأنني مسلمٌ. إن لم تعجبه التعليقات التي كتبتها الصحف، كان يمكنه بكل بساطة أن يشير إلى الصحف الهندية أو إلى قسم منها. أجبته قائلا إنني فوجئتُ بإشارته إلى صحافة الهندوس، ولم أكن أظنُّ أن هناك أيّ تبريرٍ للتمييز بين مختلف الصحف الهندية. أكّدت له أن اللجنة التنفيذية للمؤتمر ستنظر في المقترحات من وجهة نظرٍ هنديّةٍ وستأخذ بعين الاعتبار كلّ وجهات النظر قبل أن تتّخذ قراراً.

أثناء هذه الجلسة الطويلة للّجنة التنفيذية التي امتدت من 29 مارس حتى 11 أبريل، كنت عمليّا مع اللجنة طيلة النهار. كنت ألتقي بكريبس كلّ مساء تقريبا بعد يوم 2 أبريل. وكان جواهرلال يرافقني في بعض هذه اللقاءات. كنت قد أرسلت منشوراً إلى جميع أعضاء اللجنة التنفيذية ينصّ على أنه لا يحقّ لأيّ عضوٍ من الأعضاء أن يلتقي بكريبس على انفرادٍ، ما إن تلقّيتُ إشعاراً بأن كريبس سيزور الهندَ. كان السبب في ذلك أن اللقاءات المنفردة قد تؤدّي، بل إنها كثيرا ما تؤدّي فعلا، إلى الخلط وسوء الفهم. وأضفت قائلا إذا رغب أحد أفراد اللجنة التنفيذية في لقاء كريبس بسبب موضوع خاصّ أو بسبب ارتباطه معه بعلاقة سابقة، فينبغي عليه أن يعلمني أوّلا بنيّته هذه.

اشتكى لي كريبس من أنه حين زار الهند في المرّة الأولى كان يلتقي بالعديد من أعضاء اللجنة التنفيذية، أما في هذه المرّة فقد لاحظ أنني وضعتُ حدودا بينه وبينهم ولم يعد أيّ واحد منهم يرغب في لقائه. كانوا يمتنعون حتى عن التعبير عن آرائهم حين يلتقون به صُدْفَةً أثناء قضائهم لحاجاتهم الاجتماعية خِشْيَةَ أن يعترض رئيس المؤتمر على صنيعهم ذاك.

أخبرت كريبس أنه حين تخوض منظّمةٌ مسؤولةٌ مفاوضات مع الحكومة فعليها أن تفعل ذلك بواسطة ممثّليها المخوّلين. وقد قرّرت اللجنة التنفيذية أن رئيس المؤتمر هو الذي يقود المفاوضات. وبالتالي فلن يكون من اللائق أن يخوض أيّ عضو من أعضاء اللجنة التنفيذية مفاوضات على انفراد. وإذا كان كريبس يرغب في الالتقاء بأيّ عضو من الأعضاء، لأيّ سبب من الأسباب، فإنني سأنظّم له لقاءً معه بكلّ سرورٍ.

قال كريبس إنه كان متلهّفا للقاء بهولابهاي دساي على وجه الخصوص. كان قد أقام عنده أثناء زيارته السابقة للهند. أشار كريبس إلى الطقم الخادي الذي كان يرتديه وقال مبتسما: "حتى هذه الملابس التي أرتديها الآن هي هديّة من بهولابهاي دساي."

تواصل النقاش في اللجنة التنفيذية حول العرض. كان غاندي ضدّ قبوله. وكان جواهرلال ميّالا إلى ما ورد في العرض من مقترحات. وكان رأيي مختلفا عن رأي كلّ واحد منهما. كان غاندي معترضا بسبب معارضته للحرب. وكان جواهرلال موافقا بسبب تعلّقه بالديمقراطيات. كما كان واقعا تحت تأثير النداء الذي توجّه به المارشال شيانغ كاي-شك إلى الشعب الهندي. لذلك كان مع قبول المقترحات إذا لم يكن في ذلك إضرارٌ بمقام المؤتمر.

أما بالنسبة إليّ فقد كان لديَّ محَكٌّ واحدٌ أحكم به على هذه المقترحات. هل يؤدّي عرض الحكومة البريطانية إلى حرّية الهند؟ إذا كان ذلك كذلك فعلينا أن نقبل العرض سُعَداء وبدون أيّ تحفّظات. وإذا كانت الإجابة: لا، فإنه يجب علينا أن نرفض العرض رفضا قطعيًا. المحكُّ الوحيد، في نظري، هو مسألة حرّية الهند.

نتيجة لذلك كنت أحاول، طوال المفاوضات، أن أوصل عرض كريبس في شكل يضمنُ لنا أنْ نتَوَصَّل إلى قرارٍ ينصُّ على أن يضطلع المجلس بدور مجلس وزراء، ويصبح نائب الملك مثل رئيسٍ دستوريٍّ. فإذا نالت هذه النقطة رضاءنا

فإننا سنقبل العرض، ولن نلحّ على مطلب النقل الفعليّ للسلطة أثناء الحرب.

تواصلت هذه المفاوضات، كما ذكرت سابقا، طيلة أسبوعين طويلين. كنت أحضر اجتماعات اللجنة التنفيذية أثناء النهار، وألتقي بكريبس في المساء، وفي اليوم الموالي أقدّم تقريرا للّجنة التنفيذية. جرت محادثةٌ بين كريبس ونائب الملك أثناء اجتماع اللجنة التنفيذية. وبلغني، أيضا، أن كريبس استشار تشرتشِل في ثلاث مناسبات خلال هذه الفترة. ويمكن أن يكون قد استشار أعضاء آخرين من مجلس الحرب.

واصل كريبس إصراره على أن يكون خَوْضُ غمارِ الحرب هو العامل الحاسم أثناء الحرب. كانت الحرب قد بلغت الآن مرحلةً صارت فيها الاعتبارات الجغرافية، في حدّ ذاتها، وزْراً ثقيلاً على الهند. لذلك كان من الضروري أن تكون للمجلس التنفيذي كَلِمَتُهُ في الموضوع، ويجب على مجلس الحرب البريطاني أن يعوّل على المجلس التنفيذيّ الهنديّ. وذكر كريبس أنه من الضروري، في وضعية مثل هذه، أن نلحّ على ضرورة توسيع السلطات القانونية للمجلس أو نعلن صراحةً أن القرار النهائي سيكون بِيَدِه. سينهض القادة الهنود أعضاءُ المجلس التنفيذيّ بالجزء الأكبر من المسؤولية على نحوٍ يتزايد كلما تعقّدت الظروف أكثر.

كان وايفل وقتها هو رئيس الأركان في الهند. أجرى كريبس العديد من المحادثات معه، واقترح أن ألتقي به أنا أيضا. كان يشعر أنني لو التقيت بوايفل وتلقّيت منه تقريرا حول وضع الحرب، فإن ذلك سيكون له مفعولٌ مرغوبٌ فيه. لذلك كتب إليَّ يدعوني إلى لقاء وايفل. وافقت عن طيب خاطر، فنظّم كريبس اللقاء بيني وبين وايفل. أوصلنا كريبس شخصيا، أنا وجواهرلال، إلى وايفل. لكنه غادر بعد أن عرّف كل واحد منّا على الآخر. تحدّثنا مع وايفل طيلة أكثر من ساعة. غير أنه لم ينجم عن هذه النقاشات ما يجيب عن سؤالي الرئيسيّ. كان وايفل يتكلّم باعتباره رَجُلَ سياسة أكثر منه كجنديٍّ، وكان يصرّ على أن الاعتبارات الاستراتيجية يجب أن تُقدَّمَ على كل المسائل الأخرى أثناء الحرب.

لم أنكر هذا الأمر، لكنني ذكرت أن شاغلنا الشاغل هو: مَنْ سيمارس السلطة في الإدارة الهندية. ولم يكن في وِسْعِ وايفل أن يسلّط الضوء على هذه المسألة.

ونتيجة لإلحاحنا اقتُرِح أن يُكلَّف أحد أعضاء اللجنة التنفيذية بالاهتمام بالمشاكل المتعلّقة بالحرب. حاول كريبس أن يقنعنا أننا بهذه الطريقة سنضمن مشاركة الهند في مسؤولية خوض غمار الحرب. لكنه لم يستطع أن يقول لنا صراحةً كيف ستكون العلاقة بين هذا العضو الهندي وقائد الأركان. إن السبب الرئيسيّ الذي جعل كريبس ينظّم لقاء بيني وبين وايفل هو مناقشة هذه المسألة. وحين سألت وايفل عما إذا كان دور عضو المجلس الهنديّ سيكون بمثابة دورِ وزيرٍ مسؤولٍ في الإدارة، لم يعطني أيّ ردٍّ مباشر. فاستنتجت من حديثي معه أن العضو الهنديّ ستكون له مسؤولية، ولكن لن تكون له سلطةٌ. سيكون مسؤولا عن الكانتينات والمخافر والتنقّل، ولكن سيكون دوره ضئيلا في ما يخصّ القوّات المحاربة. يمكن تلخيص هذا المنصب، بإيجازٍ، على هذا النحو.

ركّز كريبس على أنه سيتمّ الاعتراف باستقلال الهند بعد انتهاء الحرب. أما أثناء الحرب فإن التغيير الوحيد هو أن جميع أعضاء المجلس التنفيذيّ سيكونون من الهنود، ومن زعماء الأحزاب السياسية. وفي ما يخصّ مشكلة الأقليات، قال كريبس بعد الحرب ستُعطى الأقاليم الحرّية كي تختار ما بين الانضمام إلى الاتحاد وعدمه.

لم أعترض على المبدإ الأساسيّ الذي لَهَجَ به كريبس وهو أن الاعتراف باستقلال الهند سيتمُّ بعد الحرب. غير أنني شعرت أنه ما لم تُمْنَحْ السلطة الفعلية والمسؤولية للمجلس إبَّانَ الحرب، فإنه لن يكون هناك تغييرٌ يُذكَرُ. في لقائي الأول بكريبس أعطاني ضمانا حول هذه النقطة، وقال لي إن المجلس سيعمل مثل مجلس وزراء. وأثناء هذا الحديث تبيّن لي أن ذلك لم يكن سوى تَوَسُّعٍ في الكلام. فقد كان عَرْضُه الفعليّ مُختلفاً تماما.

كانت هناك عَقَبَةٌ أكبر، وهي تتمثّل في منح الأقاليم خيار البقاء خارج

الاتّحاد. انزعج غاندي انزعاجا شديدا من هذه العَقَبَة، ومن المقترح الذي طرحه كريبس لحلّ مشكلة الأقلّيات. كان ردُّ فعل غاندي عنيفا. وحالما التقيت به، بعد لقائي الأول مع كريبس، تفطّنتُ إلى أن غاندي يعتبر عَرْضَ كريبس غير مقبولٍ على الإطلاق. كان يشعر أن هذا العرض سيزيدنا مصاعب على مصاعب، وسيجعل حلّ مسألة الأقليات أمراً مستحيلاً.

ناقشت تداعيات هذا الأمر مع كريبس نقاشا مفصّلا. سألته أن يخبرنا عن وجهة نظره، ووجهة نظر زملائه في مجلس الحرب. حاول كريبس أن يقنعني بأنه لا يمكن حلّ القضية السياسية الهندية إلاّ متى توصّلنا إلى حلّ مسألة الأقليات، وهذا أمرٌ لا يمكن تحقيقه إلا باللجوء إلى خيارٍ محدّدٍ من هذين الخيارين: أوّلهما أنْ تُحلَّ المسألة فَوْراً، وثانيهما أن يُؤَجَّل القرار حتى تنتهي الحرب وتتحوّل السلطة إلى أيادي الهنود. قال كريبس إنه لمن الخطإ طَرْحُ هذه المسألة في الوقت الحاضر. فذلك لن يزيد الطين إلاّ بلّة. وبالتالي، ما من خيار لدينا غير انتظار نهاية الحرب. لكنه أكّد لي أنه إذا عقَدَ الهندوس والمسلمون اتّفاقا فإن التوصّل إلى حلٍّ الآنَ يصبح أمرا ممكنا.

قلت لكريبس إن مَنْح الأقاليم حقّ الاختيار معناه فتْح باب الانفصال. حاول كريبس أن يدافع عن موقفه مستندا إلى كون هذا الحقّ يُمنَح للإقليم بأكمله لا لأقلّية معيّنة من الأقلّيات. كان مقتنعا بأننا حين نعطي هذا الحقّ للأقاليم لن يطالب أيّ إقليم بالانفصال. لكن، من ناحية أخرى، إن حرمان الأقاليم من هذا الحقّ أمرٌ من شأنه أن يثير الرّيبَة والشكّ. لن يكون في وسع الأقاليم أن تنظر إلى هذه المسألة نظرة موضوعية إلا متى أحسّت بأنها تتمتّع بحرّية القرار والاختيار.

بعد أن ناقشنا هذه المسألة صبيحة يوم من الأيام اتّصل بي كريبس هاتفيا في المساء وقال إن السير سِكَنْدار حياة خان سيأتي لمقابلتي في اليوم الموالي. كان كريبس يمنّي نفسه بأنْ يساعد السير سِكَنْدار في حلّ مشكلة الأقلّيات. كان إقليم بُنجاب أكبر الأقاليم التي توجد فيها أغلبية سكانية مسلمة، وإذا قرّرت

بُنجاب أن تظلّ جزءا من الهند فإن كلّ الأقاليم ذات الأغلبية المسلمة ستَحْذُو حذْوَها. أخبرته أنني أشكّ في قدرة السير سِكَنْدار على حلّ المسألة، ولكن بما أنه سيأتي إلى دلهي فسأكون سعيدا برؤيته.

جاء السير سِكَنْدار إلى دلهي في اليوم الموالي وقابلني بعد أن التقى بكريبس. كان يرى أن عرض كريبس هو أفضل حلٍّ لمسألة الأقليات. وكان على يقينٍ من أنه إذا عُرِضَ الأمر للتصويت في المجلس البُنجابي فإن القرار سيكون على أساسٍ قوميٍّ لا على أساس عِرْقِيٍّ. وافقتُه الرّأيَ في أنه إذا تمّ التصويت الآن فإنه من المرجّح أن يكون تخْمِينُهُ صائبا، أما ما سيحدث بعد انتهاء الحرب فلا أحد منّا يمكن أن يتكهّن به. قلت له إنني لن أقبل أن يُحظَى، بعد الحرب، بالتأثير نفسه الذي يتمتّع به الآن.

أما في ما يخصّ دُول الهند، فإن عَرْضَ كريبس يمنح كلّ ممثّلي تلك الدول الحرّيةَ المطلقةَ لتقرير مصيرها. غير أن هذه الحرّية تتضمّن أيضا حقّ اختيار الانفصال مثل الأقاليم. ولكي أكون مُنْصِفا لكريبس عليّ أن أشير إلى أنه كان، أثناء نقاشاته مع ممثّلي الدول، واضحا وصريحا. قال لمهاراجا كشمير إن مستقبل الدول مرتبطٌ بالهند، ولا ينبغي لأيّ أميرٍ أن يتصوّر، ولو للحظةٍ واحدةٍ، أن التاج البريطاني سيهبّ لمساعدته إن هو قرّر الانفصال. لذلك يجب على الأمراء، ضمانا لمستقبلهم، أن يتشبّثوا بالحكومة الهندية لا بالتاج البريطاني. ما زلت أذكر أن أغلب ممثّلي الدول بدوا مكتئبين بعد لقائهم بكريبس.

كانت اللجنة التنفيذية قد توصّلت إلى قرارٍ في ما يخصّ المقترحات التي جاء بها كريبس. أُرْسِل إليه هذا القرار يوم 2 أبريل، لكنه لم يُسلَّم إلى الصحافة إلا عندما انتهت المفاوضات تماما. وإلى جانب المسألة العامة التي تتعلّق بنقل السلطة إلى الهند، كَمَنَتْ الصعوبة الكبرى في تحديد سلطات رئيس الأركان وعضو اللجنة التنفيذية الهنديّ المكلّف بالدفاع. كان كريبس قد اقترح أن يكون العضو الهنديّ مسؤولا خاصّة عن العلاقات العامة، وتسريح الجيوش،

وإعادة الإعمار بعد الحرب، وتأمين وسائل الراحة لقوات الدفاع. كان المؤتمر يعتبر هذه المسؤوليات غير كافية على الإطلاق، وتقدّمَ باقتراح مضادٍّ ينصّ على أن يضطلع وزير الدفاع بجميع المهام، باستثناء تلك التي يمارسها رئيس الأركان من أجل إدارة شؤون الحرب. طرح كريبس مقترحاتٍ عديدةً مضادّةً لكن تبيّن أنها جميعا غير مُجدية، ذلك أنه حاول أن يُبقي كل المسؤوليات المهمّة حكرا على رئيس الأركان.

اجتمعت مع كريبس مرّة أخرى في وقتٍ متأخّر من مساء يوم 9 أبريل، وصباح يوم 10 أبريل قدّمت إلى اللجنة التنفيذية تقريرا عن نتائج محادثاتي معه. وإنه لمن المؤسف أننا استنتجنا أن مقترحات الحكومة البريطانية كما هي الآن غير مقبولة.

لذلك كتبتُ إلى السير ستافورد يوم 10 أبريل 1942 موضّحا أن مقاربة مشاكل الهند في مسودة البيان لم تكن خاطئة فحسب، بل من الراجح جدّا أن تؤدّي إلى مصاعب أشدّ تعقيدا. كتب لي ردّاً يوم 11 أبريل حاول فيه أن يحاججني قصد إقناعي بأن مقترحاته تقدّم أفضل حلٍّ ممكنٍ للقضية الهندية وأكّد على أنه لم يغيّر موقفه في أيّ مرحلة من المراحل. وفي الحقيقة لقد كان يحاول أن ينحو باللائمة على المؤتمر عوض أن يتحمّل اللّوم هو نفسه، وأراد أن ينشر ردّه. كتبت له ردّا في اليوم ذاته أعبّر فيه عن أسفي من ردّ الفعل الذي بَدَرَ منه، مشيرا إلى أن المراسلة التي تمت بيننا كفيلةٌ بأن تُقنعَ أيّ ملاحظٍ محايدٍ بأن الخطأ الذي أفشل البعثة راجعٌ إليه لا إلى المؤتمر. أورد، في ما يلي، أهمّ النقاط التي وردت في رسالتيَّ، لكن القرّاء المهتمين يجدونها كلّها في الملحق رقم 3.

بإيجاز، هذا ما كتبته في رسالتيَّ إلى السير ستافورد بتاريخ 10 و11 أبريل. إذا كانت الحكومة البريطانية ترغب في أن تبُثَّ روحاً جديدةً في نفوس الهنود حتى في هذه الساعة المتأخّرة، وأرسلت شخصا في مكانة السير ستافورد ليحاول إنجاز هذه المهمّة، فإن أبسط الأشياء التي كان يجب فعلُها هي أن

تُرسِل بريطانيا بواسطته بيانا بأنها مستعدّة لاقتسام السلطة. بدل ذلك عمدت الحكومة البريطانية إلى وضع مقترحات محدّدة، وما إن تمّ لها ذلك حتى صارت مهمّة التوصّل إلى اتفاقٍ بين الأحزاب الهندية أكثر عُسْرا.

أخبرت السير ستافورد أن مسودة البيان تركّز على المستقبل أكثر مما تركّز على الحاضر الآنيّ، في حين أن الهند تطالب بتغييرات في النظام الحالي. إن المقترحات الواردة في البيان في ما يخصّ المستقبل غير إيجابية، بل إنها سلبية. وما دام الأمر هكذا فإنني لا أرى كيف يمكن للمؤتمر أن يقبل هذه المقترحات. قلتُ له إن الحرب تهدّد الهند، وأنها تتطلّب شجاعةً وثقةً بالشعب الهنديّ حتى يُقاوم العدوّ، لكن بسبب الموقف البريطاني انطفأت شعلة النور في قلوب الملايين الذين كان من الممكن أن يضحّوا بأنفسهم دفاعا عن وطنهم. أشرت إلى أن مهمّتنا المشتركة الآن تتطلب منّا أن نجد مُقارَبَةً نفسيّة حتى نُعيدَ إذْكاءَ شعلة الوطنية هذه في قلوب الهنود. لا يمكن أن يتحقّق هذا الأمر إن اقتصرنا على الوفاء بوعودنا التي تخصّ المستقبل، بل علينا أن نجعل الناس يشعرون أنهم أحرارٌ في بلدهم اليوم، وأنّ عليهم أنْ يدافعوا عن حرّيتهم الخاصة وعن وطنهم.

أشارت رسالتي أيضا إلى أن الدفاع عن الوطن هو المطلب الأهمّ في هذه اللحظة. أثناء الحرب على الإدارة المدنية أن تُجَنِّدَ لمطالب الدفاع. إلى جانب ذلك، إن مشاكل الدفاع تداخل جميع الأقسام المدنية، ووضع مسألة الدفاع في يد نائب الملك أو رئيس الأركان حصريا، إنما يعني حرمان الهنود من كل السلطات بما فيها تلك التي حُوِّلَت إلى الأيادي الهنديّة في الظاهر.

كانت النقطة الثانية التي ركّزت عليها هي أن المؤتمر كان على وعي تامٍّ بأهمية حلّ مسألة الأقلّيات. فنحن نعترف أننا حين نتناول المسألة السياسية في الهند لا بدّ أن تطرح مشاكل الأقليات نفسها في مرحلة أو في أخرى، ولا بدّ، عندئذ، من إيجاد حلّ لها. أكّدت له أنه ما إن تحلّ المشكلة السياسية حتى تصبح مسؤولية إيجاد حلٍّ مُرْضٍ لمسألة الأقلّيات والمسائل الأخرى مسؤوليتنا.

وكنت على يقين من أننا قادرون على إيجاد حلٍّ مُرْضٍ لمشكلة الأقلّيات ما إن تُحلّ المسألة السياسية.

بعد ذلك أشرت، بكلّ أسف، إلى أن انطباعي الأول عن الصورة التي حصلت عندي نتيجة لقاءاتي الأولى مع السير ستافورد كانت تتبدّد تدريجيا كلما تقدّمنا في مراحل محادثاتنا حول نقاط مادّية. حين التقيت به آخر مرّة يوم 9 أبريل كانت الصورة قد تغيّرت تغيّرا كلّيا، والآمال في الحلّ تبدّدت تماما.

عندما عبّر السير ستافورد عن نيّته في نشر رسالته التي كان قد أرسلها إليّ، أرسلت إليه ردّا جاء فيه أنه لن يُمانِعَ، بطبيعة الحال، إن قمتُ بنشر جميع المراسلات التي تمّت بيننا، بما فيها القانون الذي أصدرناه. نصُّ هذا القانون موجودٌ هو الآخر في كلّ كتب التاريخ المتاحة، وليس من الضروري أن أورده هنا. كتب لي كريبس ردّا يقول فيه إنه لا يمانعُ، لذلك سلّمت كلّ المراسلات إلى الصحافة يوم 11 أبريل.

عقدتُ، أيضا، ندوةً صحفيةً يوم 11 أبريل 1942 التقيت فيها بعدد من الصحافيين وشرحتُ لهم الأسباب التي جعلتنا نرفض عَرْضَ كريبس. لا داعي لأن أعيدها كاملة لأنها مذكورة في نصّ القرار وفي المراسلات. ركّزت خاصة على النقطة التالية وهي أن الصورة الورديّة التي رسمها لنا كريبس كانت تتبدّد كلما تقدمنا في المفاوضات. هذا التغيّر الذي طال الأجواء انعكست آثاره أيضا على محادثاتي مع اللورد وايفل. أثناء حديثنا ظلّ السير ستافورد كريبس يركّز باستمرارٍ على الصعوبات التقنية التي تعيق نقل مسؤوليات الدفاع إلى عضوٍ هنديٍّ. التقينا بالجنرال وايفل تلبيةً لمقترح كريبس. ذلك أنه بإمكان الجنرال أن يفسّر لنا الجانب التقنيّ من المسألة بشكل أفضل. لكن الغريب في الأمر أنه لم يقع التلفّظ بأيّ كلمة عن أيّ صعوبة تقنية أثناء النقاش مع رئيس الأركان بحضور عدد من ضباط الجيش. دار النقاش بأكمله حول الاتجاهات السياسية. لم يساورني أدنى شكّ، ولو لحظة واحدة، في أننا كنا نحاور خبيرا عسكريا. الواقع أن اللورد وايفل كان يتكلّم مثل خبيرٍ سياسيٍّ.

أثناء الندوة الصحفية شعرت أيضا أنه من الضروري أن أوضّح الوضعيّة التي أدّت إليها بعض التخمينات التي نشرت على أعمدة بعض الصحف بخصوص دور ماهاتما غاندي في المفاوضات. كانت آراء غاندي حول عدم المشاركة في أيّ حربٍ معروفةً جدّا. وسيكون من غير الصحيح إطلاقا القول إن القرارات التي اتخذتها اللجنة التنفيذية قد تأثّرت، بأيّ شكل من الأشكال، بوجهة نظر غاندي.

أوضح غاندي للّجنة التنفيذية أن لدينا كامل الحرّية في اتخاذ قراراتنا في ما يخصّ المقترحات. لم يكن يرغب في المشاركة أصْلاً حتى في الجلسات الأولى للّجنة التنفيذية، ولم يوافق على البقاء معنا بضعة أيّام إلاّ بسبب إلحاحي عليه. كان يشعر أنه لم يعد بإمكانه البقاء أكثر، وفشلت كل محاولاتي لإقناعه.

كرّرت مرّة أخرى ما قلته في اليوم السابق في ما يتعلّق بأن قرار اللجنة التنفيذية يُتَّخَذُ بالإجماع في كل مرحلة.

وختمت قائلا إنه لأمرٌ مؤسفٌ للغاية أننا لم نبلغ الهدفَ الذي ننشده كلّنا بشغَف، لكن لا بدّ من أن نسجّل أن كلّ هذه المفاوضات تمّت في جوٍّ من الصداقة على الرغم من الاختلافات العميقة التي أدّت أحيانا إلى جدال ساخن. افترقنا، نحن والسير ستافورد، فراقَ الأصدقاء، وظلّت أحاديثُنا مُفْعَمَةً باللّباقة حتى النهاية.

كانت هذه هي نهاية بعثة كريبس حسب رأي المؤتمر. لكن لم يكن هذا هو رأيُ جواهرلال وراجاغوبالاشاري. وقبل أن أمرّ إلى سرد المرحلة التالية من حكاية نضال الهند من أجل الحرّية أودّ أن أشير إشارة خاصة إلى موقفهما من هذه الأحداث.

ما إن غادر كريبس حتى أجرى جواهرلال محاورة صحفية في جريدة نيوز كرونكل. وتبيّن أن نبرة المحاورة والموقف المعبّر عنه خلالها يقلّصان من شأن الاختلافات بين المؤتمر والبريطانيين. حاول جواهرلال أن يوضّح أنه رغم رفض

المؤتمر لعَرْضِ كريبس، فإن الهند كانت ترغب في مساعدة البريطانيين، ولم يكن في وسعها أن تقدّم مساندة كّلية لسبب واحدٍ وحيدٍ، وهو يتمثّل في السياسة التي انتهجتها الحكومة البريطانية.

علمتُ أيضا أنه كان هناك مقترحٌ بأن يُجْرِي جواهرلال لقاءً إذاعيّا بإذاعة أُولْ إنْديَا (كلّ الهند)، وممّا أعرفه عن موقفه خَشِيتُ من احتمال أن يؤدّي كلامه إلى الْتِبَاسٍ في صفوف الرأي العام. كان جواهرلال قد توجّه إلى الله آباد، وكنت قد نظّمتُ له تراتيب العودة إلى كلكوتا. قرّرت أن أتوقّف في الطريق وأتحدّث معه أكثر. فعلتُ ذلك وقلت لجواهرلال، بوضوح، الآن وقد اتّخذت اللجنة التنفيذية قرارها يجب عليه أن يكون شديد الحذر في ما يقوله. فإنْ هو أدلى بتصريح قد يُفهَمُ منه أن المؤتمر سيعارض جهد الحرب، سيضيع مفعول قرار المؤتمر كلّه.

كان المؤتمر يرى أن الهند ترغب في مساعدة بريطانيا، لكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك إلاّ متى صارت بلدا حرّا. كنت متأكّدا من أن هذا هو موقفه أيضا. لذلك إن هو لَهَجَ بأيّ شيءٍ قد يُعطي انطباعا بأن الهند كانت راغبة في المشاركة في جهود الحرب بغضّ النظر عن الموقف البريطاني، فإن قرار المؤتمر سيصبح خاليا من المعنى. هذا ما جعلني أطلب منه أن لا يُدلي بأيّ تصريح. حاججني في البداية، لكنه تفهّم وجهة نظري في النهاية. سُعدت كثيرا حين أعلَن أنه لن يقوم بتصريح على الإطلاق وألغى التسجيل الذي كان قد وعد بإجرائه.

أريد أن أوضّح توضيحا لا يترك مجالا للّبسِ، وهو أن موقف جواهرلال ليس سببه شكّهُ بخصوص حرّية الهند. كان موقفه نتيجة طبيعية لتقييمه للوضع الدولي. كان مناهضا صلبا للفاشية منذ البداية. وزادته زيارته إلى الصين ومناقشاته مع شيانغ كاي-شك صلابة في مناهضته للفاشية. لقد كان منبهرا بنضال الصين ضدّ اليابان إلى درجة أنه شعر أنه من الواجب مساندة الديمقراطيات مهما كان الثمن. والحقُّ أنه كان يشعر بأسى عميقٍ وكَرَبٍ شديدٍ لأن الهند لم تكن تحارب في صفّ الديمقراطيات.

يمكنني أن أذكر أيضا أن الاعتبارات الدولية كانت تحرّك جواهرلال أكثر من غالبية الهنود. كان ينظر إلى جميع المسائل من وجهة نظر دولية، لا من وجهة نظر وطنيّة. كنت أقاسمه انشغاله بالمسائل الدولية، لكن مسألة استقلال الهند كانت هي المسألة الأهم بالنسبة إليّ. أدركتُ أن الديمقراطيات تمثّل الشرَّ الأصغرَ، غير أنه لم يكن في استطاعتي أن أنسى أنه ما لم يُطَبَّق مبدأ الديمقراطية على الهند فإن كلّ كلام عن الديمقراطية ليس سوى كلام فارغ غير صادق. تذكّرت أيضا سير الأحداث منذ الحرب العالمية الأولى. أعلنت بريطانيا وقتها أنها كانت تحارب ألمانيا الإمبريالية لتحمي حقوق الأمم الصغيرة. حين دخلت الولايات المتحدة الحربَ صاغ الرئيس وِلْسُون نقاطه الأربع عشرة الشهيرة مدافعا عن حقّ جميع الأمم في تقرير مصيرها. غير أن حقوق الهند لم تُحتَرم. ولم يتمّ تطبيق النقاط الأربع عشرة على الهند أبدا. هذا ما جعلني أشعر بأن كلّ الكلام حول المعسكر الديمقراطي لا معنى له، ما لم يتمّ النظر بجدّية في القضية الهندية. صغت هذه النقاط جميعها في محاورة أجرتها معي جريدة نيوز كرونكل بعد ذلك بأسبوع في كلكوتا.

طيلة كامل هذه المدة كان جواهرلال يعاني إرهاقا ذهنيا فظيعا. كان قد عاد مؤخّرا من الصين وقد تأثّر بالجنراليسيمو والسيدة حرم شيانغ كاي-شك. فلقد كان من الواضح بالنسبة إليه أن مساعدة الهند ضرورية كي تتمكّن الصين من مقاومة اليابان بنجاح. جاءني جواهرلال ذات مساء أثناء اجتماع اللجنة التنفيذية. أقنعتني مناقشاتنا أنه كان يؤيّد فكرة قبول عَرْض كريبس حتى إذا لم يكن هناك أيّ تغيير في الموقف البريطاني. كانت حجّته أنه، نظرا للضمان المُرضي الذي تعهّد به كريبس، علينا أن لا نتردّد. لم يقل جواهرلال هذا الكلام بوضوح ولم يستخدم هذه الكلمات، ولكن كان ذلك أسلوبه حين يقدّم براهينه.

شعرت بانزعاج شديد جرّاء هذه المحادثة حتى أنني لم أستطع أن أخلد إلى النوم حتى الساعة الثانية صباحا تقريبا. وما إن أفقتُ حتى ذهبت إلى منزل شْرِيمَاتي رَامِشْوَارِي نِهْرُو حيث كان يقيم جواهرلال. ناقشنا مختلف

المسائل طيلة أكثر من ساعة. قلت له إن تيّار أفكاره يمضي ضدّ أهمّ مصالحنا. إذا لم يتمّ نقل السلطة الفعلية إلى الهند وتمّ الاكتفاء بتشكيل مجلس تنفيذيّ، فلن نحصل وقتها من كريبس إلاّ على وعْدٍ لن يكون ساري المفعول إلا بعد انتهاء الحرب. في ظلّ الظروف الراهنة ستكون أهمية هذا الوعد قليلة جدّا. من يعلمُ ما ستُسْفِرُ عنه الحرب؟ كنّا على استعدادٍ للمشاركة في الحرب كبلدٍ حرٍّ، وعَرْضُ كريبس لا يمنحنا أيّ شيء في ما يتعلّق بهذه النقطة. حتى قرار المشاركة في الحرب لم يكن قرارنا وإنما هو قرار نائب الملك. كان كريبس يطلب منا أن نقبل قرار نائب الملك هذا، دون أن يعطينا فرصة أن نقرّر بأنفسنا. إذا واصلنا قبول العَرْض فسيعني ذلك أن كلّ القرارات التي اتخذناها إلى حدّ الآن كانت خاطئة.

أضفت مُحاجِجاً من المؤكّد أن العالم سيتغيّر بعد الحرب. وليس هناك شخصٌ واعٍ بالوضع السياسيّ في العالم يمكن أن يشكّ لحظةً في أن الهند ستصبح حرّة. وبالتالي فإن عَرْض كريبس لا يقدّم لنا شيئا. إذا قبلنا هذا العرض فقد نَنْدَمُ على ذلك في المستقبل. إذا تراجع البريطانيون عن وعْدهم فلن يكون لدينا أيّ مبرّرٍ لشنّ حرب جديدة. منحت الحرب الهندَ فرصة نيل حرّيتها، ويجب علينا أن لا نضيّع هذه الفرصة معوّلين على مجرّد وَعْدٍ.

كان جواهرلال مُحبَطا غاية الإحباط بسبب كلّ ما كان يجري. وبدا واضحا أنه لم يكن متأكّدا من موقفه. جعله الصراع الدائر في ذهنه يشعر بأنْ لا حوْلَ له ولا قوّة. ظلّ صامتا بعض الوقت ثم قال: "لا أريد أن أتّخذ قرارا حسب ميولاتي الشخصية، ولو للحظة واحدة، فانزعوا كلّ ما يجول في أذهانكم من شكوكٍ حول هذه النقطة. سيكون قراري هو قرار زملائي نفسه."

وكانت طبيعة جواهرلال أنه عندما يمرّ بإرهاقٍ ذهنيٍّ يتكلّم حتى وهو نائم. مشاغل النهار تعود إليه في شكل أحلام. حين خرجت من عنده قالت لي شْرِيمَاتي رَامِشْوَارِي نِهْرُو إن جواهرلال كان يتحدّث وهو نائم في الليلتين السابقتين. كان يخوض نقاشا هامسا حينا، رافعا صوته حينا آخر. وأضافت

قائلة إنها سمعته يلهج باسم كريبس، وأحيانا يذكر اسم غاندي، وأحيانا أخرى يتلفّظ باسمي أنا. وهذا دليلٌ آخر على شدّة الإرهاق الذهني الذي كان جواهرلال يعاني منه.

الشخص الثاني الذي أثّرت فيه هذه المفاوضات تأثيرا بالغا هو شري راجاغوبالاشاري. ظلّ، فترة من الزمن، مضطربا كثيرا بسبب تدهور وضعية الأقلّيات في البلاد. كان رأيه أن استقلال الهند مُعطّلٌ بسبب الاختلافات بين المؤتمر والرابطة. قراءتي للوضع مفادها أن البريطانيين كانوا لا يريدون أن يقوموا بأيّ مجازفة أثناء فترة الحرب، وأن الاختلافات بين الأقلّيات ليست سوى تعلّة يتذرّعون بها حتى يبقوا السلطة في أيديهم. لم يكن راجاغوبالاشاري يوافقني هذا الرأيَ. وبعد رفض عَرْض كريبس بقليل، شرع يقول عَلَناً لو قبل المؤتمر مطالب الرابطة لزالت العراقيل التي تحول دون حرّية الهند. لم يكتف بالتعبير عن وجهة النظر هذه، واستصدر قرارا من حزب مدراس للمؤتمر التشريعيّ كان، في الحقيقة، مضادّا لموقف المؤتمر. احتجّ العديد من أعضاء المؤتمر على هذا القرار، وأرسلوا إليّ العديد من الاحتجاجات.

لم يستشرني راجاغوبالاشاري قبل أن يستصدر هذا القرار، ولا استشار أيّ زميل آخر على حدّ علمي. اضطربتُ كثيرا حين قرأت ما كُتب في الجرائد حول هذا القرار. إذا صار أحد زملائي المقرّبين من اللجنة التنفيذية يَكْرِزُ ضدّ قرار المؤتمر فإن ذلك سيؤدّي، لا إلى إضعاف الانضباط داخل المنظّمة فحسب، بل سيؤدي إلى تشويش في أذهان الناس ويخدم القوّة الإمبريالية. لذلك شعرت أنه ينبغي على اللجنة التنفيذية أن تقوم بمناقشة هذا الأمر.

قلت لراجاغوبالاشاري إن القرارات التي اتّخذها حزب مدراس للمؤتمر التشريعي لم تكن متماشية مع السياسة المعلنة للمؤتمر. وباعتباره عضوا مسؤولا من أعضاء اللجنة التنفيذية كان ينبغي عليه أن يتجنّب أيّ صلَة بهذه القرارات. إذا كان لديه إحساسٌ قويٌّ بهذا الموضوع، فكان ينبغي عليه أن يناقش الأمر مع زملائه في اللجنة التنفيذية قبل أن يعبّر عن وجهات نظره، وإن لم توافقه اللجنة

التنفيذية الرأيَ فبإمكانه أن يقدّم استقالته، ثم يشرع في ترويج آرائه.

اعترف شري راجاغوبالاشاري بأنه كان ينبغي عليه أن يطرح الموضوع على اللجنة التنفيذية قبل نقل القرارات إلى حزب مدراس للمؤتمر التشريعي. غير أنه لم يكن في استطاعته أن يسحب هذين القرارين لأنهما كانا يجسّدان آراءه الأثيرة لديه. أرسل إليّ رسالة اعتذار عبّر فيها عن أسفه عمّا بدر منه من مجاهرة علنية بأفكاره حول مسألة في غاية الدقّة قبل استشارة الرئيس، وقدّم استقالته من اللجنة التنفيذية.

6- فاصلة غير سهلة

بثّ فشل بعثة كريبس خيبةَ أملٍ كبيرةٍ وغضبا واسعا في البلاد. شعر العديد من الهنود أن السيد تشرتشل أرسل السير ستافورد تحت ضغط الأمريكيين واليابانيين لا غير، ولم تكن لديه نيّة حقيقيّة في الاعتراف بحريّة الهند. ولم تكن غاية البريطانيين من المفاوضات المطوّلة مع العديد من الأحزاب سوى أن يثبتوا للعالم الخارجيّ أن المؤتمر ليس الممثّل الحقيقي للهند، وأن الشّقاق بين الهنود هو السبب الفعليّ الذي يمنع البريطانيين من وضع السلطة بين أيادي الهنود. ولأنّ سوء الفهم والارتباك قد شملا الجميع بما في ذلك أعضاء المؤتمر، قرّرتُ أن أدعو لجنة مؤتمر كلّ الهند إلى اجتماع في الله آباد يوم 29 أبريل 1942، وقد سبقه اجتماعٌ للّجنة التنفيذيّة امتدّ من 27 أبريل إلى 1 مايو/ أيار.

ذكرت، في الجلسة الافتتاحيّة للَجنة مؤتمر كلّ الهند، أننا كنا قد اجتمعنا في وَرْضَة منذ شهر ونصف. في ذلك الوقت كان معروفا أنّ الحكومة البريطانيّة كانت قد قرّرت أن تنظر إلى المسألة الهنديّة من منظورٍ جديد. أُعلِنَ أنّ السير ستافورد كريبس، وهو عضو مجلس الحرب، سيقصد الهند ومعه مقترحات جديدة لتسوية المسألة الهندية. فقرّرت اللجنة التنفيذيّة المُجتمعة في وَرْضَة أنه ينبغي لي، باعتباري رئيس المؤتمر، أن ألتقيه نيابة عن المؤتمر. أجريت مفاوضات عديدة مع السير ستافورد، وقلت له إن المسودة مُخَيِّبَةٌ للآمال. فهي لا تمنح شيئا هنا والآن، وتشير إلى مستقبلٍ غامضٍ. والمقترحات المتعلّقة

بالحاضر ليست مُبْهَمَةً فحسب، بل إنها لا تعطي أيّ سلطة للناس، ذلك أن الدفاع سيكون مسؤوليّة حكومة جلالة الملك في إنجلترا وحدها. هذا الانفراد يجعل النقل المزعوم للسلطة من أيدي البريطانيين إلى أيدي الهنود باطلا. ففي زمن الحرب يشمل الدفاع كلّ مجالات الإدارة المدنيّة، وإذا كان الدفاع حكرا على البريطانيين فإن كلّ شيء حكر عليهم.

رويتُ للّجنة التنفيذيّة أن السير ستافورد كان قد أكّد لنا، في محادثاته السابقة، أن المسودة تحتوي على نيّة إنشاء حكومة وطنيّة. وستكون منزلة نائب الملك بالنسبة إلى الحكومة، مثل منزلة عاهل دستوري بالنسبة إلى إدارته. غير أن المركز لم يتمّ الحفاظ عليه. وهناك مَلْمَحٌ آخر غير مرغوب فيه البتّة في عرض كريبس وهو الطريقة التي ستعتمد لتُسوَّى حسبها مسألة الأقليّات ومسألة الدّول الهنديّة. كان من الواجب ترك هذه المسائل ليحلّها الهنود بأنفسهم. لكن، بدل ذلك، يطرح عَرْض كريبس لهذه المسائل أكثر الحلول شناعة. وكلّما كان الوقت يمرّ، كانت الصورة الأولى التي بدا عليها السير ستافورد كريبس في بداية المفاوضات تتلاشى، وما بقي منها لم يكن يستحقّ النظر إليه.

قلت للّجنة التنفيذيّة إن الموقف البريطاني غير متعاون منذ بداية الحرب. أما المؤتمر فقد فعل ما بوسعه ليضمن تسويةً، غير أنه كان من الواضح أنّ الحكومة البريطانيّة لم تكن تثق بالمؤتمر. لم تكن الحكومة جاهزة لتَعْهدَ مهمّة الدفاع إلى الهنود. والموقف الذي اتّخذته اللجنة التنفيذيّة كان يمكن أن يؤدّي بالهند إلى المشاركة الفعليّة في الحرب. كان من المعروف جيّدا أنّ بعض أعضاء اللجنة التنفيذيّة كانوا يساندون ماهاتما غاندي في رفضه المطلق للعنف. غير أنه يسرّني أن أقول إنّه طوال الأسبوعين اللذين استمرّت فيهما مفاوضات دلهي، لم يتمسّك أيّ واحدٍ من هؤلاء الأعضاء بوجهة نظره الشّخصية، وقد ناقشوا كلّ مقترح من منظور الدفاع عن الوطن. قالوا بوضوح إنهم سيفعلون ما بوسعهم، تماشيًا مع إيمانهم الراسخ باللاّعنف، لمساندة أيّ حكومة وطنيّة تتكوّن نتيجةً للمفاوضات.

أشَدْتُ علانيةً بوطنيّة زملائي وولائهم، وأخبرت اللجنة التنفيذيّة أن كلّ قراراتنا اتّخذت بالإجماع. وأشرت كذلك إلى أن لدينا رؤية واضحة حول السّبل التي يمكن أن تحلّ بها مسألة الأقليّات، لكننا لم نسمح بأن تؤثّر هذه الأفكار في موقفنا من عَرْض كريبس. حكمنا على عَرْض كريبس بمعيارٍ واحدٍ وهو: هل سيؤدّي إلى نقل السلطة من أيدي البريطانيين إلى أيدي الهنود؟ لم يكن لديّ أدنى شكّ في أنه لو تمّت عمليّة نقل السلطة أوّلا بشكل مرْضٍ، لاستطعنا التوصّل إلى حلٍّ مرْضٍ لمسألة الأقليات.

بعد ذلك انتقلت إلى طَرْحِ رأيٍ عبّر عنه بعضٌ من يرون أنّ عَرْض كريبس قد نجح في تغيير موقف الناس من الحرب حتى إن هو لم يسفر عن تسوية للإشكال الهندي-البريطاني. قلت إن هذا الرأي خاطئٌ تماما ومُضِلٌّ. لم تنجز البعثة شيئا سوى أنها كادت تضرّ بالتفاهم الهندي-البريطاني إضرارا لا يُرجى بعدَهُ إصلاحٌ. لم تزرع آمالا إلاّ لتخذلها. ورسّخت القناعة بأن الهند الأسيرة لا شأن لها بالحرب. لا يمكن للهند أن تحمي نفسها إلاّ إذا كانت حرّة. صار السير ستافورد كريبس يقول الآن إن المبادرة في التعامل مع وضع الهند يجب أن تكون، من هنا فصاعدا، في يد قادة الشعب الهندي لا في يد الحكومة البريطانيّة. أعلنتُ أن المؤتمر قد بذل قصارى جهده، ولن يتّخذ أيّ مبادرة أخرى في هذه المسألة.

ثم أشرتُ إلى خطر الغزو الياباني المحدق. ونقدت نقدا لاذعا أولئك الذين يعتقدون أو يقولون إنّ اليابان ستمنح الهند حرّيتها. إن الكرامة الوطنيّة تفرض علينا أن لا نفكّر في أن نستبدل سيّدا بسيّدٍ. سنقاوم العدوان الياباني رغم خلافاتنا مع البريطانيين. لا مجال للتّرحيبِ باليابان، سواء كان هذا التّرحيبُ صريحا أو ضمنيّا. لو كنّا أحرارا للجأنا إلى المقاومة المسلّحة إذا هاجمنا أيّ بلد. مُنِعْنا من المقاومة المسلّحة، لكن لدينا سلاح اللاّعنف. إنه السلاح الذي ما فتئنا نستخدمه في السنوات العشرين الأخيرة، ولن ينتزعه منّا أحدٌ. تبنّت لجنة مؤتمر كلّ الهند موقف اللجنة التنفيذيّة، وأكّدت من جديد

القرار الذي كانت قد أصدرته بخصوص عَرْض كريبس. كما قرّرت أن تخوّل للّجنة التنفيذيّة أن تتّخذ خطوات عمليّة أكثر، قدر المستطاع، من أجل أن نواصل نضالنا في سبيل حرّية الهند. غادرتُ الله آباد وقصدتُ كلكوتا فانزعجتُ حين رأيتُ أن الأوضاع السائدة ازدادت سوءا. كان أغلب الناس يتوقّعون أن ينهزم البريطانيون في الحرب، وبدوا كأنهم يرحّبون بانتصار اليابان. كانوا يشعرون بمرارةٍ من تصرّفات البريطانيين. وكانت هذه المرارة تشتدّ أحيانا إلى درجة أنهم لا يفكرون في تبعات هجومٍ يابانيٍّ على الهند.

بعد سفر كريبس لاحظت، أيضا، تغييرا كبيرا في موقف غاندي. كنت قد ذكرت سابقا كمْ كان يعارض، في البداية، أيّ تحرّك أثناء الحرب. فلقد كان يرى أنه ينبغي على الهند أن تقف موقف اللاّعنف، وأن لا تحيد عنه لأيّ سبب من الأسباب. لذلك لم يوافق على أيّ تحرّك شعبيٍّ، رغم كل الجهود التي بذلتُها، لأنه كان يشعر أن تحرّكا مثل هذا يمكن أن يؤدّي إلى العُنف. تمكّنت، بعد لأيٍ، من إقناعه بقبول تحرّك الساتياغراها (قوّة الروح) الفرديّة أو العصيانَ المدنيّ. ورغم اقتناعه ظلّ يضع العديد من الشروط التي تنصّ على أن لا يكون التحرّك أكثر من حركة معنوية.

كان ذهن غاندي الآن يتنازعه نقيضان: يتمثّل الأوّل في الامتناع الكلّي عن التحرّك، أما الثاني فيتمثّل في القيام بحركةٍ شعبيةٍ مُنَظَّمَة. ربما كان هذا الأمر قد بدأ من قبل، لكنه أصبح أكثر وضوحا بعد أن غادر كريبس. في شهر يونيو/ حزيران 1942 ذهبتُ لزيارته في وَرْضَة، وأقمت معه قرابة خمسة أيّام. انتهبتُ، فيما كنت أحادثه، أنه قد ابتعد كثيرا عن الموقف الذي كان قد اتّخذه حين اندلعت الحرب.

بدأت أشعر الآن أن الحكومة كانت تتوقّع هجوما يابانيّا على الهند. وبدا أن الحكومة كانت ترى أنه، حتّى لو لم يتمّ اجتياح كامل البلاد، فسيحاول اليابانيون أن يحتلّوا البنغال على الأقلّ. كانت الحكومة قد اتّخذت بَعْدُ بعض الإجراءات الوقائية الضرورية. جهّزت خطّةَ مقاومةٍ في أماكن مختلفة، حتى

أنها أعدّت خطّ رِجْعَة احتياطيٍّ في حال صار التراجعُ ضروريا. قرّرت الحكومة أيضا أنه لو حصل هُجومٌ يابانيٌّ، يجب اتّباع سياسةٍ شبيهةٍ بسياسةِ الأرض المحروقة. كما وضعت خططا لإحراق بعض الجسور، وتدمير بعض المصانع والمنشآت الصناعية، حتى نحرم اليابانيين من الاستحواذ عليها. ولا أحدَ يعلم كيف تسرّبت خطّة إحراق مصنع الحديد والفولاذ في جامشدبور. وسرعان ما انتشر الخبرُ، فأشاع جزعا وقلقا كبيرين في المنطقة بكاملها.

أعلمت غاندي بكلّ هذه التطوّرات. كما أعلمته بأنني على يقين من أنه ما إن تطأ أقدام اليابانيين أرض البلاد، حتى يصبح واجبنا المقدّس أن نصدّهم بكلّ ما أوتينا من قوّة. كنت أشعر أن تبديل سيّدٍ جديدٍ بسيّدٍ قديم أمرٌ لا يُحتَمل. وسيكون في مجيء هذا الغازي الجديد الفَحْل الذي يعوّض الحكومة القديمة التي أصابها الوهَنُ وأصبحت قوّتها تتضاءل تدريجيا، إضرارٌ بمصالحنا. كنت مقتنعا أن التخلّص من إمبريالية جديدة مثل الإمبريالية اليابانية سيكون أمرا أكثر صعوبة.

كنت قد اتّخذت، بَعْدُ، بعض الخطوات تحسّبا لهجوم يابانيٍّ على الهند. وطلبت من منظّمة المؤتمر أن تقوم بحملة دعائية لتعبئة الجماهير لمقاومة اليابانيين. قسّمتُ كلكوتا إلى عدد من المناطقِ، وبدأت في تجنيد عصابات من المتطوّعين وتنظيمها لتتعهّد بصدّ اليابانيين. أُعْطِيَتْ تعليمات لهؤلاء المتطوّعين حتى يضعوا ما أمكنهم من عراقيل في طريق الجيش الياباني إن هو حاول التقدّم. كان المخطّط الذي يجول في خاطري هو أنه ما إن يصل الجيش الياباني إلى البنغال وينسحب الجيش البريطاني في اتجاه بيهار، على المؤتمر، حينئذٍ، أن يتدخّل ويأخذ بزمام أمور البلاد. بمساعدة متطوّعين ينبغي أن نستحوذ على السلطة في فترات فراغ السلطة قبل أن يتمركز اليابانيون. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي نأمل أن نصدّ بها العدوّ الجديد ونظفر بحرّيتنا. وفي الواقع لقد قضيت أغلب وقتي خلال شهري مايو/ أيار ويونيو/ حزيران 1942، في العمل على تطوير هذا النّهج والتخطيط له.

تفاجأتُ كثيرا حين لمستُ أن غاندي لا يوافقني الرّأيَ. قال لي بكلمات قاطعة إذا دخل الجيش الياباني الهندَ، فإنه سيدخلها لا كعدوٍّ لنا، بل باعتباره عدوّا للبريطانيين. كان يعتقد أن اليابانيين لن يهاجموا الهندَ إذا غادرها البريطانيون. لم يكن في استطاعتي أن أقبل قراءته للوضع، وبالرغم من كلّ النقاشات الطويلة التي دارت بيننا لم نستطع أن نتوصّل إلى اتّفاق. وهكذا افترقنا ونحن على اختلافٍ.

عُقِدَ خلال الأسبوع الأول من شهر يوليو/ تمّوز اجتماع اللجنة التنفيذية في وَرْضَة. وصلتُ إلى وَرْضَة يوم 5 يوليو/ تمّوز. حدّثني غاندي، لأوّل مرّة، عن حركة "غادروا الهند". لم أتمكّن من جعل ذهني يتقبّل هذه الفكرة الجديدة بسهولة. شعرت أننا في مأزقٍ كبير. كنّا نتعاطف مع قوّات الحلفاء، لكن الحكومة البريطانية اتّخذت موقفا جعل من المستحيل علينا أن نتعاون معها. لم يكن في استطاعتنا أن نصطفّ إلى جانب البريطانيين إلاّ متى أصبحنا بلدا حرّا، لكن البريطانيين كانوا يريدون أن يجعلوا منّا مجرّد أتباع لمعسكرهم. ومن ناحية أخرى كان اليابانيون قد احتلّوا بُورَمَا وكانوا يتقدّمون باتجاه أسّام.

شعرتُ أنه يتوجّب علينا أن نمتنع عن التلفّظ بأيّ كلمة أو القيام بأيّ فعْلٍ من شأنه أن يَهَبَ اليابانيين أيَّ تشجيع. بدا لي أن الشيء الوحيد الذي كان بإمكاننا أن نفعله هو أن ننتظر ونرى كيف تسير الأمور، ونراقب تطوّرات وضْع الحرب. لم يكن غاندي موافقا. أصرّ على أن الأوانَ قد آن كي يتقدّم المؤتمر بطلب يدعو فيه البريطانيين إلى مغادرة الهند. وإذا وافق البريطانيون فإنه بإمكاننا، وقتها، أن نطالب اليابانيين بأن لا يتقدّموا أكثر. وإذا تقدّموا أكثر، رغم كلّ شيء، فسيكون ذلك هجوما على الهند لا على البريطانيين. وإذا حدث مثل هذا الأمر فعلينا أن نصدّ اليابان بكلّ ما أوتينا من قوّة.

كنتُ قد ذكرت سابقا أنني كنتُ مساندا لفكرة التصدّي للبريطانيين حين اندلعت الحربُ. لم يوافقني غاندي الرأيَ في ذلك الوقت. الآن، وقد تغيّر غاندي، وجدت نفسي في وضعيّةٍ حرجةٍ. لم أكن أستطيع أن أصدّقَ أن

البريطانيين سيسمحون بوجود حركة مقاومة منظّمة مادام العدوّ على الحدود. بدا وكأن لدى غاندي قناعةً غريبةً بأنهم سيفعلون. كان مقتنعا بأن البريطانيين سيسمحون له بأن يُنشئ حركته حسب طريقته الخاصة. وحين حثثتُهُ على أن يقول لنا ما هو بالضبط البرنامج الحقيقي لهذه المقاومة، لم تكن لديه أدنى فكرة. الشيء الوحيد الذي ذكره، أثناء محادثاتنا، أن الشعبَ لن يسعى وراء السجن الإرادي هذه المرّة، بخلاف المرات السابقة. ولابدّ له أن لا يرضى بالاعتقال ولا يرضخ للحكومة إلاّ إذا أُرغِم جسديّا على فعل ذلك.

كنتُ أشكُّ في وعود اليابانيين، وكنت أرى أن لا نمنح أيّ ثقة لتعهّدات اليابانيين. بدا لي أنهم لن يُوقفُوا زحْفَهُم المُظَفَّرَ عندما يرون الانسحاب البريطانيّ. وبدا لي أيضا أن هذه الخطوة من شأنها أن تشجّعهم على مواصلة الزّحف على الهند بدل أن توقفهم. ألن يجدوا في انسحاب البريطانيين أفضل فرصة لاستعمار الهند؟ لم يكن في وسعي أن أجد إجابات حاسمة لهذه الأسئلة. لذلك تردّدت في قبول نهج غاندي.

حين بدأت اللجنة التنفيذية مناقشاتها فصّلتُ القول في هذه النقاط بدقّة. ومن بين جميع أعضاء اللجنة التنفيذية كان جواهرلال هو العضو الوحيد الذي ساندني إلى حدّ ما. لم يكن بقيّة الأعضاء ليعارضوا غاندي حتى إن لم يكونوا مقتنعين اقتناعا كلّيا. لم تكن هذه التجربة تجربة جديدة بالنسبة إليّ، فباستثناء جواهرلال الذي كان غالبا ما يتّفق معي، كان بقيّة الأعضاء يكتفون عموما باتّباع أفكار غاندي. لم تكن لدى صاردار باتل، ود. راجندرا برازاد، وآشاريا كريبالاني، أدنى فكرة عن الحرب. نادرا ما كانوا يحاولون أن يحكموا على الأشياء من منظورهم الخاص. فقد كانوا معتادين، في جميع الحالات، على أن يكتفوا بحكم غاندي. وما دام الأمر كذلك فإنّ النقاش معهم كان بالكاد يُجْدِي نفعا.

والشيء الوحيد الذي استطاعوا أن يقولوه، بعد كلّ النقاشات التي أجريناها، هو أنه علينا أن نثقَ بغاندي. كانوا يرون أننا إن وثقنا به فإنه سيجد

مخرجا، ويستشهدون بمثال حركة ساتياغراها المِلْح عام 1930. حين بدأت هذه الحركة لم يكن أحدٌ يعلم ما الذي كان سيحصل. فحتى أعضاء الحكومة كانوا يزدرونها ويحقّرونها عَلَناً. لكن حركة ساتياغراها حقّقت، في النهاية، نجاحا كبيرا وأجبرت البريطانيين على التسوية. كان صاردار باتل وزملاؤه يعتقدون أن غاندي سيحقّق النجاح نفسه هذه المرّة أيضا. أعترفُ أن هذه الطريقة في التفكير لم تكن تقنعني.

بدا لي أن غاندي كان يعتقد أنه ما دامت الحرب تجري على الحدود الهندية فسيسارع البريطانيون إلى التسوية مع المؤتمر ما إن يبدأ التحرّك. وحتى إن لم يحصل هذا فإنه كان يعتقد أن البريطانيين سيتردّدون في اتخاذ أيّ خطوات جذرية ما دام اليابانيون يقرعون أبواب الهند. كان يتصوّر أن هذا سيعطي المؤتمر الوقت والفرصة لتنظيمم تحرُّك مُجْد. كانت قراءتي للوضع مختلفة تماما. كنتُ مقتنعا أن الحكومة لن تسمح بأيّ تحرُّك شعبيٍّ في هذه المرحلة الحسّاسة من الحرب. فالمسألة بالنسبة إلى البريطانيين مسألة حياة أو موت. لذلك سيتصرّفون بشكل عنيف حادٌ. كنت أرى بوضوح أننا ما إن نبدأ التحرّك حتى تعتقل الحكومة كلّ زعماء المؤتمر، وعندها لن يستطيع أحدٌ أن يتكهّن بما سيحصل.

كانت لديّ قناعةٌ قويةٌ بأن الظروف الحالية لم تكن تسمح بالدخول في حركة لا عُنْف أو الاستمرار فيها. فلا يمكن لأيّ تحرُّك أن يستمرّ في اللاّعنف إلا إذا كان زعماؤه حاضرين وناشطين لتوجيه الجماهير في كل مرحلة من المراحل. وكنت على يقين من أن الزعماء سيُعتَقلون إن هُم اقترحوا أن يقوموا بالتحرّك. أما إذا قرّر المؤتمر أن يتخلّى عن اللاّعنف فإن التحرّك يصبح، وقتها، ممكنا بالطبع. فحتى شعبٌ بدون قيادة يمكنه أن يشوّش اتصالات، ويحرق محلاّت ومخازنَ، ويخرّب جهد الحرب بمائة طريقة وطريقة. اعترفتُ أيضا بأن انتفاضة عامّة كهذه قد تؤدّي إلى وَرْطَة وتجبر البريطانيين على التسوية. غير أن ذلك سيكون مجازفة كبرى. لكنني كنت أعتقد أنه إنْ كان لا بدّ من المجازفة فيجب أن نفْعَلَ وعيُونُنا مفتّحة. ومن جهة أخرى لم أكن أستطيع أن

أتصوّر، ولو للحظة واحدة، كيف يمكن لحركة اللاّعنف حسب تصوّر غاندي، أن تنطلق وأن تستمرّ في ظروف الحرب.

بدأت مناقشاتنا يوم 5 يوليو/ تمّوز وتواصلت طيلة بضعة أيام. كنتُ قد اختلفتُ مع غاندي في مناسبات سابقة حول بضع نقاط، لكن اختلافاتنا السابقة لم تصل أبدا إلى هذا الحدّ. بلغت الأمور ذروتها حين أرسل إليّ رسالة جاء فيها أن موقفي كان مختلفا عن موقفه إلى درجة أنه لم يعد بالإمكان أن نشتغل معا. وإذا كان المؤتمر يريد أن يقود غاندي الحركة فعليّ أن أستقيل من الرئاسة، وأن أنسحب من اللجنة التنفيذية أيضا. وقال إنه على جواهرلال أن يفعل الشيء نفسه. دعوتُ جواهرلال في الحال وأطلعته على رسالة غاندي. جاء صاردار باتل أيضا وصُعق حين قرأ الرسالة. وفي الحين توجّه إلى غاندي واحتجّ احتاجا حادّا على صنيعه هذا. قال باتل إنني لو استقلت من الرئاسة وغادرت أنا وجواهرلال اللجنة التنفيذية فستكون لهذا الأمر عواقب وخيمة على البلاد. لن تعمّ الفوضى بين الناس فحسب، بل إن أُسُسَ المؤتمر سيُزَلْزَلُ زِلْزَالُهَا.

كان غاندي قد أرسل إليّ هذه الرسالة في الصباح الباكر من يوم 7 يوليو/ تمّوز. وزهاء منتصف النهار دعاني للقائه. ألقى عليَّ خطبة مطوّلة فحواها أنه كتب الرسالة على عَجِلٍ في الصباح. لكنه قد فكّر الآن مليّا في الأمر، وهو يرغبُ في سَحْب رسالته. فما كان بوسعي إلا أن أستجيب. وحين اجتمعت اللجنة التنفيذية على الساعة الثالثة بعد الظهر كان أوّل شيءٍ لَهَجَ به غاندي هو "ها أن المُذنِبَ يأتي تائبا إلى مولانا."

بدأنا نناقش مختلف عناصر التحرّك المقترح بطريقة أكثر تفصيلا. أوضح غاندي أن هذا التحرّك يجب أن يكون مبنيّا على اللاّعنف، مثله في ذلك مثل بقيّة تحرّكات المؤتمر. ويُسمَح بتوخّي كلّ الأساليب التي لا تلجأ إلى العنف. أثناء النقاش قال جواهرلال إن ما كان يجول بذهن غاندي هو انتفاضةٌ مفتوحةٌ حتى إذا كانت هذه الانتفاضة غير عنيفة. أعجب غاندي بهذه العبارة وبدأ يتحدّث عن انتفاضة مفتوحة غير عنيفة مرّات عديدة. وفي يوم 14 يوليو/

تمّوز 1942 أصدرت اللجنة التنفيذية قرارا فحواه أن إمكانية المفاوضات مع البريطانيين قد انتهت عمليّا، رغم أن غاندي لم يكن يَعِي ذلك في ذلك الوقت. لستُ في حاجة إلى أن أورد هذا القرار فلقد أصبح جزءا من تاريخ الهند باعتباره المسودة الأولى لقرار "غادروا الهند".

رئيس حزب المؤتمر مولانا آزاد يصل إلى مقرّ إقامة نائب الملك

من اليسار إلى اليمين: السيد أ. ف. ألكسندر والسير ستافورد كريبس ومولانا آزاد واللورد باثيك-لورنس، بتاريخ 5 مايو 1946.

رئيس حزب المؤتمر و السيد آساف علي يلتقيان البعثة الحكومية

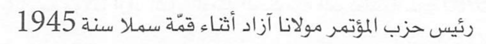
من اليسار إلى اليمين: اللورد باثيك-لورنس ومولانا والسيد آساف علي والسيد أ. ف. ألكسندر والسير ستافورد كريبس

مولانا أبو الكلام آزاد واللورد باثيك-لورنس يوم 5 مايو 1946



اللورد وايفل نائب الملك في الهند، يصافح رئيس حزب المؤتمر الوطني الهندي عند افتتاح القمّة

اجتماع اللجنة التنفيذية للمؤتمر في وَرْضَة، فبراير 1942



رئيس حزب المؤتمر مولانا آزاد أثناء قمّة سملا سنة 1945



صاردار باتل مع مولانا آزاد أثناء البعثة الحكوميّة البريطانية سنة 1946

آزاد ونهرو وباتل في اجتماع لجنة الرعايا، الجلسة الخامسة والخمسين للمؤتمر الوطني الهندي في ديسمبر 1948

7 - غادروا الهند

حين نُشر قرار اللجنة التنفيذيّة خلق جوّا مكهربا في البلاد. لم يتمهّل الناس للتثبّت من التبعات المحتملة لهذا التحرّك، بل شعروا أن المؤتمر، ينظّم أخيرا، تحرّكا شعبيا لجعل البريطانيين يغادرون الهند. سرعان ما صار الناس والحكومة يطلقون على القرار اسم قرار غادروا الهند. كانت الجماهير وبعضٌ من أعضاء اللجنة التّنفيذيّة يؤمنون إيمانا ضمنيا بقيادة غاندي، وكانوا يشعرون أن في نيّته أن ينظّم حركة تشلّ الحكومة وتجبرها على التسوية. ربما يمكنني هنا أن أعترف بأن بعض الناس كانوا يتصوّرون أن غاندي سيأتي بالحرّية إلى الهند بطريقة سحريّة أو خارقة، لذلك لم يفكّروا في أنه من الضروري أن يساهموا في أيّ شيء.

بعد أن اتّخذت اللجنة التنفيذيّة قرارها، عقدت العزم على أن تنتظر قرار الحكومة. إذا قبلت الحكومة العَرْض، أو اتّخذت، على الأقلّ، موقفا وَسَطا، فإن الاستمرار في المفاوضات قد يصبح ممكنا. أما إذا رفضت الحكومة العَرْض، فإن النضال سيعلن تحت قيادة غاندي. كان يساورني بعض الشكّ في أنّ الحكومة سترفض أن تفاوض تحت الإكراه. وقد أكّد مسار الأحداث توقّعاتي.

هَرَعَ حشدٌ كبيرٌ من الصحافيين الأجانب إلى وَرْضَة لأنهم كانوا متلهّفين لمعرفة ما ستقرّره اللجنة التنفيذيّة. عقد غاندي ندوة صحفيّة يوم 15 يوليو/ تمّوز. وقال ردّا على سؤال: لو يتمّ تنظيم تحرّك، فسيكون هذا التحرّك ضدّ

القوات البريطانيّة تمرّدا غير عنيف. عليّ أن أعترف أنني لم أكن راضيا عن الأوضاع بأكملها. لم أعارض القرار الذي يطالب بتحرُّكٍ مباشر، لكنني لم أكن متفائلا كثيرا بخصوص ما سيُسْفِرُ عنه الأمر.

بعد اتّخاذ القرار قال ماهاديف دساي للآنسة سلايد (التي تُعرَف في الهند باسم ميرا بان) إنه ينبغي لها أن تذهب إلى نائب الملك وتجري معه لقاءً، وتخبره بفحوى القرار، وتفسّره له. اقتُرِح أيضا أن تحاول أن تعطيه تقريرا حول طبيعة التحرّك المقترح وكيف سيجري. غادرت الآنسة سلايد وَرْضَة وقصدت نائب الملك لتجري معه حوارا. فأخبرها سكرتيره الخاصّ أنه بما أنّ غاندي قد أعلن أنه يفكّر في تمرّد، فإن نائب الملك ليس مستعدّا لإجراء الحوار. أوضح أن الحكومة لن تسمح بأيّ تمرّدٍ أثناء الحرب سواء كان عنيفا أو غير عنيف، وأنها ليست على استعداد للقاء أيّ ممثّلِ منظّمةٍ يَلْهَجُ بمثل هذا الكلام أو التّفاوض معه.

بعد ذلك التقت ميرا بان بالسّكرتير الخاص لنائب الملك، وكان لها معه حديثٌ طويلٌ. كنت في ذلك الوقت في دلهي فقدّمتْ لي تقريرا عن هذا الحديث. ثم عادت إلى وَرْضَة ونقلت فحوى ذلك الحديث إلى غاندي. وسرعان ما أصدر ماهاديف دساي بيانا جاء فيه أن بعض اللَّبْسِ قد يكون داخل كيفيّة فَهْمِ نيَّة غاندي. ذكر ماهاديف دساي أنه من الخطإ أن نقول إن غاندي وصف التحرّك المقتَرَح بكونه انتفاضَة مفتوحة غير عنيفة.

أعترفُ بأن بيان ماهاديف دساي فاجأني، والواقع أنه بعد أن لَهَجَ جواهرلال بهذه العبارة استخدمها غاندي في مناسبات عديدة. قد يكون غاندي أعطى هذه العبارة معنى خاصا في ذهنه، ولكنها كانت تعني بالنسبة إلى الجمهور العريض أن المؤتمر قد عقد العزم الآن على أن يُرغم الحكومة البريطانية على التخلّي عن سلطتها، مستخدما في ذلك جميع الوسائل باستثناء التمرّد العنيف. كنتُ قد قلتُ إنني توقّعتُ ردّة الفعل البريطانية المحتَمَلة، لذلك لم يفاجئني رفضُ نائب الملك لقاءَ غاندي أو ممثّله.

أمام هذا التطوّر قرّرت أنه لا بدّ من دعوة لجنة مؤتمر كلّ الهند للاجتماع بُغيَةَ النظر في الوضع بتَمَعّن، والمصادقة على مقترح اللجنة التنفيذية إذا لزم الأمر. شعرتُ أيضا أن هذا سيعطي الحكومة وقتا أكثر للنظر في الوضع كلّه. نتيجة لذلك عُقِدَ اجتماع لجنة مؤتمر كلّ الهند في بُمباي يوم 7 أغسطس/ آب 1942.

ومنذ يوم 14 يوليو/ تمّوز حتى يوم 5 أغسطس/ آب كان كلّ وقتي مشغولا بسلسلة من الاجتماعات مع قادة المؤتمر الذين أقبلوا من جميع أنحاء البلاد. أردتُ أن أرسّخ في أذهانهم أنه إذا قبلت الحكومة مطالبنا أو سمحت لنا على الأقل بالعمل، فإن التحرّك يجب أن يلتزم التزاما تاما بسياسة غاندي. أما إذا تصرّفت الحكومة بشكل قاسٍ فعلى البلد أن يردّ على عنف الحكومة هذا بكل الطّرق الممكنة. كانت الصورة كما تبدو لي أن البنغال، وبيهار، والأقاليم المتحدة، وإقليم الوسط، وبُمباي، ودلهي، كلّها على أتمّ الاستعداد، وأن التحرّك سيكون قويّا في هذه الأقاليم. أما بالنسبة إلى بقيّة الأقاليم فقد فعلتُ ما بوسعي لأخلق جوّا مناسبا، لكنني أعترف أن الصورة لم تكن واضحة جدّا أمامي.

إنّ رفضَ نائب الملك استقبالَ ميرا بان جَعَلَ غاندي يتنبّه إلى أن الحكومة لن تستسلم بسهولة. فتزعزعت الثّقة التي كانت لديه في هذا الخصوص، لكنه ظلّ متشبّثا باعتقاده أن الحكومة لن تُقْدِم على أيّ عمل عنيف. كان يظنّ أنه سيكون لديه ما يكفي من الوقت، بعد اجتماع لجنة مؤتمر كلّ الهند، ليعدّ برنامجَ عملٍ ويشرع، تدريجيّا، في تحديد وتيرة التحرّك. لم يكن بوسعي أن أشاركه تفاؤله. وفي يوم 28 يوليو/ تمّوز كتبت إليه رسالة مفصّلة قلت له فيها إن الحكومة كانت على أتمّ الاستعداد وستأخذ إجراء فوريّا بعد انتهاء اجتماع لجنة مؤتمر كلّ الهند في بُمباي. ردّ غاندي قائلا إنه لا ينبغي لي أن أستخلص استنتاجات متسرّعة. كان يدرس المسألة، وما زال يؤمن أنه من الممكن العثور على حل.

غادرتُ كلكوتا قاصدا بُمباي يوم 3 أغسطس/ آب. لم أكن متأكّدا تماما،

لكن كان لديَّ حدسٌ أن ابتعادي عن كلكوتا سيدوم طويلا. كنتُ قد تلقّيت بعض التقارير التي تكشف أن الحكومة قد جهّزت مخطّطاتها، وأنها تنوي اعتقال جميع القادة حال صدور القرار.

اجتمعت اللجنة التنفيذية يوم 5 أغسطس/ آب وأعدّت مسودة قرارٍ قدّمتها إلى لجنة مؤتمر كلّ الهند يوم 7. قدّمتُ في ملاحظاتي الافتتاحية ملخّصا موجزا عن التطوّرات التي حصلت منذ الاجتماع الأخير للّجنة. كما شرحتُ بإطْناب الأسبابَ التي جعلت اللجنة التنفيذية تغيّر موقفها وتطلب من الأمّة أن تهبَّ للنضال من أجل حرّية الهند. أشرت إلى أنه لم يعد بوسع الأمّة أن تظلّ مكتفية بالتفرّج السلبيّ، في حين أن مصيرها في الميزان. كانت الهند تريد أن تشارك مع الديمقراطيات لكن الحكومة البريطانية جعلت من المستحيل على الهند أن تقدّم مساعدة مُشرّفة. وأمام خطر الاجتياح اليابانيٍّ الوشيك، كانت الأمّة تريد أن تزيد من قوّتها لتقاوم المُعْتَدِي. كان بإمكان البريطانيين أن يغادروا الهند لو رغبوا في ذلك، مثلما كانوا قد انسحبوا من سنغافورة وملايا وبُورْمَا. لكنه ليس بإمكان الهنود أن ينسحبوا منها لأنها وطنهم، وعليهم أن يضاعفوا قوّاهم لكسر القيود البريطانية والتصدّي لأيّ هجوم يقوم به مُعتَدٍ آخر.

باستثناء حفْنةٍ من الشيوعيين الذين عارضوا التحرّك، رحّب كل أعضاء لجنة مؤتمر كلّ الهند بالقرار الذي حرّرته اللجنة التنفيذية. تكلّم غاندي أيضا في الاجتماع. وبعد يومين من النقاش تمّت المصادقة على قرار "غادروا الهند" التاريخيّ في ساعة متأخّرة من مساء يوم 8 أغسطس/ آب.

أثناء زياراتي إلى بُمباي كنت غالبا ما أقيم مع المرحوم بهولابهاي دساي. ففعلت الشيء نفسه هذه المرّة أيضا. كان مريضا وقتها. وكانت صحّته قد تدهورت منذ فترة. لذلك تفاجأت قليلا حين وجدته في انتظاري عندما عدتُ بعد اجتماع لجنة مؤتمر كلّ الهند. كان الوقت متأخّرا جدّا وكنتُ متعبا، وكنتُ أتصوّر أنه من المؤكّد أن يكون قد خلد إلى النوم. عاتبته بلُطفٍ لأنه سهر حتى

ذلك الوقت. لكنه قال لي إن محمد طاهر، وهو أحد أقاربي من رجال الأعمال في بُمباي، قد جاء لزيارتي وظلّ ينتظرني وقتا طويلا. وحين لم أعُد ترك لي رسالة عند بهولابهاي دساي. كان لمحمد طاهر صديقٌ في شرطة بُمباي، وكان قد سمع منه أنه سيتمّ اعتقال جميع قياديّ المؤتمر صبيحة يوم الغد. وقال له أيضا إنه ليس متأكّدا تماما، لكن الراجح أنهم سيقومون بترحليهم إلى خارج الهند، ويأخذونهم إلى جنوب أفريقيا.

كنت قد سمعت إشاعاتٍ شبيهةً بهذه قبل أن أغادر كلكوتا. تفطّنت، في ما بعد، إلى أن هذه الإشاعة ليست خالية من الصحّة. حين اتّخذت الحكومة قرارها باعتقالنا فكّرتْ، أيضا، أنه ليس من الحنكة السياسية تَرْكنا في البلاد. والواقع أن اتصالات كانت قد أُجريت مع حكومة جنوب أفريقيا. لكن الراجح أن عائقا ما قد حصل في اللحظة الأخيرة فتمّ تغيير القرار بعد ذلك. وسرعان ما علمنا أن الحكومة قد قرّرت أن تحتجز غاندي في بونا، وتعتقلنا نحن في سجن قلعة أحمدناجار.

انزعج بهولابهاي كثيرا عند سماع هذا الخبر، لذلك ظلّ في انتظاري. كنتُ متعبا جدّا، ولم يكن مزاجي يسمح بسماع مثل هذه الإشاعات. قلت لبهولابهاي إذا كانت هذه الأخبار صحيحة فإنه لم يبق لديّ سوى بضع ساعات من الحرّية. من الأفضل لي أن أتناول عشائي بسرعة وأخلد إلى النوم كي أواجه الصباح بشكل أفضل. أفضّل أن أنام على أن أمضي الساعات القليلة المتبقية التي سأقضيها حرّا في مناقشة الإشاعات. وافقني بهولابهاي وسرعان ما خلدت إلى النوم.

كنت دائما متعوّدا على الاستيقاظ باكرا جدّا. هذا اليوم استيقظت أيضا على الساعة الرابعة صباحا. غير أنني كنت لا أزال متعبا جدّا وأشعر بثقلٍ في رأسي. تناولت حبَّتَيْ أسبيرين وكوبا من الشّاي وجلست للعمل. فقد كنّا قد عقدنا العزم على إرسال نسخةٍ من القرار الذي صادقنا عليه ومطلبٍ إلى الرئيس رُوزفلت. شرعت في تحبير رسالة إلى الرئيس روزفلت لكنني لم أستطع

أن أكملها. ربما كان سبب ذلك أنني كنت متعبا، أو ربما كانت الأسبريبن هي السبب. شعرت مجدّدا بدُوَارٍ فعدت إلى النوم.

لا أظنّ أنني استطعت أن أنام أكثر من خمس عشرة دقيقة حين شعرت أن شخصا ما يلمس قدميّ. فتحتُ عينيَّ فوجدت ذيروبهاي دِساي ابن بهولابهاي واقفا ممسكا بورقة في يده. أدركت ما هي الورقة حتى قبل أن يعلمني ذيروبهاي أن نائب مفوّض الشرطة قد جاء بهذه المذكّرة لاعتقالي. أخبرني أيضا أن مفوّض الشرطة كان في انتظاري بالردهة. طلبت من ذيروبهاي أن يعلم مفوّض الشرطة أنني سآخذ بعض الوقت لكي أستعدّ.

تحمّمتُ ثم ارتديتُ ملابسي. أعطيت أيضا بعض التوجيهات اللازمة لسكريتيري الخاص محمد أجمل خان الذي كان قد التحق بي وقتها. ثم خرجت إلى الردهة. كان بهولابهاي وكنّته يتحدثان مع مفوّض الشرطة. ابتسمت في وجه بهولابهاي قائلا ها أن المعلومة التي أتى بها صديقك مساء أمس تثبت صحّتها. ثم التفتّ إلى مفوّض الشرطة قائلا: "أنا جاهزٌ." كانت الساعة، وقتها، تشير إلى الخامسة صباحا.

دخلتُ سيّارة مفوّض الشرطة. وحملتْ سيّارة أخرى أمتعتي وتبعتنا. توجّهنا مباشرة إلى محطّة فيكتوريا. كان ذلك وقت تحرّك القطارات الداخلية لكن المحطّة كانت مقفرة تماما. لربّما تمّ إيقاف كلّ القطارات والمسافرين مؤقّتا. ما إن نزلتُ من السيّارة حتى رأيت آزوك مِهْتا. كان قد اعتقل أيضا وجيء به إلى محطّة فكتوريا. انتبهت إلى أن الحكومة لم تقم باعتقال أعضاء اللجنة التنفيذية فحسب، بل اعتقلت أيضا قادة المؤتمر المحّليين في بُمباي. وافترضتُ أن هذا الإجراء كان يحدث في جميع أرجاء الهند. كان ثمّة مَنْ يشدُّ عَرَبة الطعام إلى القطار. وهذا القطار قطار ذو أروقة، وهو الذي يربط بُمباي ببِونا. أخذوني إلى مقصورة فجلستُ قرب النافذة.

ولم تمض برهة من الزمن، حتى أطلّ جواهرلال، وآساف علي، ودكتور سيّد محمود. قال لي جواهرلال إن غاندي أيضا قد جيء به إلى المحطّة، لكنه

وُضِع في مقصورة أخرى. أقبل علينا ضابط عسكريٌّ أوروبيٌّ وسألنا إن كنّا نرغب في تناول الشّاي. كنت قد تناولت كوبا لكنني طلبت كوبا آخر.

وصل، في تلك اللحظة، ضابطٌ عسكريٌّ ثان وبدأ يَعُدّنا. لا بدّ أنّ شيئا ما كان يربكه، لأنه عدّنا مرات كثيرة. عندما صعد إلى عربتنا قال بصوت مرتفع: "ثلاثون". وعندما تكرّر هذا الأمر مرّتين أو ثلاث مرّات، قلت معه بصوت مرتفع: "ثلاثون". بدا أنّ هذا الأمر زاد في ارتباكه، فشرع يعدّنا من جديد. لكن سرعان ما صفّر الآمر، وبدأ القطار يتحرّك. لاحظتُ أن زوجة آساف علي كانت واقفة على رصيف المحطّة. كانت قد أتت لتشْهَد ترحيل زوجها. وما إن شرع القطار في التحرّك حتى نظرتْ إليّ قائلة: "أرجوك، لا تقلق عليّ، سأجد شيئا أفعله، لن أقف مكتوفة اليديْن." وقد أثبت ما تلا من أحداثٍ أنّها كانت تعني ما تقول.

كان القطار الذي أقَلّنا قطارا ذا أروقة كما سبق أن ذكرت. جاءت السيّدة نايدو إلى عربتنا وقالت إن نهرو كان يرغب في الالتقاء بنا. نزلنا الرواق للقائه في عربته التي كانت تبعد مسافة ما عن عربتنا. كان غاندي يبدو مُحبَطا. لم أكن قد رأيته قطّ مغتمّا إلى هذا الحدّ. فهمت أنه لم يكن يتوقّع هذا الاعتقال المفاجئ. كانت قراءته للوضع هي أنّ الحكومة لن تتخذ أيّ إجراء عنيف. كنت قد حذّرته مرّة تلو الأخرى، بالطبع، من أنّ موقفه كان متفائلا أكثر من اللزوم، ولكنه لم يكن يثق أيّما ثقة إلا برأيه الخاصّ. أما الآن وقد تبيّن أن حساباته خاطئة فإنه صار يشكّ في ما سيفعله مستقبلا.

بعد أن أن تحادثنا طيلة دقيقة أو دقيقتين قال غاندي:

> ما إن تصل إلى وجهتك، ينبغي لك أن تعلم الحكومة أنك ترغب في مواصلة الاضطلاع بمهمّة رئيس المؤتمر. عليك أن تطالب بأن يأتوك بسكرتيرك الخاص، ويوفروا لك تسهيلات

أخرى أساسية تحتاجها كي تبلغ غايتك. عندما تمّ اعتقالك في المرّة السابقة وسُجنتَ في سجن نايني، وفّرت لك الحكومة هذه التسهيلات. ينبغي لك أن تطالب بالتسهيلات نفسها مرّة أخرى، وإذا لزم الأمر عليك أن ترفع دعوى لمقاضاتها.

لم أستطع أن أوافق غاندي الرأيَ. قلت له إن الوضع الآن صار مختلفا تماما. لقد اخترنا طريقا بأعْيُن مفتَّحَة وعلينا الآن أن نتحمّل النتائج. كان بإمكاني أن أتفهّم لو أنه أرادني أن أختصم معه حول المسألة التي قبلها المؤتمر، لكنني لم أكن لأتمثّل كيف يمكنني أن أختصم معه حول موضوع أقلّ قيمة، وهو موضوع توسيع دائرة بعض التسهيلات الشخصية التي تُمنَح ليِ. لم أكن أعتقد أنه سيمكنني أن أجد حجّة تخوّل لي المطالبة بأن يُسْمَحَ لسكرتيري الشخصي بأن يقابلني حتى أواصل عمل المؤتمر. بالكاد كانت هذه الحجّة أمرا يمكنني أن أخاصم من أجله في الوقت الحاضر.

وأثناء حديثنا وصل مفوّض شرطة بُمباي الذي كان معنا في القطار هو الآخر. وطلب منّا أن نعود إلى عرباتنا. أعلمني أن الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يظل مع غاندي هو السيد نايدو. عندها رجعنا، أنا وجواهرلال، إلى عربتنا. كان القطار وقتها يسير بسرعة نحو كَلْيان. لم يتوقّف عندها، بل واصل سيره نحو بونا. وظننت أنه قد يقع حبْسُنا هناك، وتحوّل ظني إلى يقين حين توقّف القطار.

بدا أن خبر اعتقالنا كان قد وصل إلى بونا بشكل من الأشكال. كان رصيف محطة القطار غاصّا برجال الشرطة، ولم يكن يسمح لأيّ شخص من الناس بالاقتراب. غير أنه كان هناك حشدٌ غفيرٌ من الناس فوق الجسر العلوي. وما إن نفث القطار دخانه إيذانا بالتوقّف حتى شرعوا في الهتاف: "ماهاتما غاندي كاي جاي."[8] وما إن علت الهتافات رافعة هذا الشعار حتى انقضّت الشرطة

8 - وهو ما تفسيره: النصر لغاندي. (المترجمة)

على جموع الناس. قال مفوّض الشرطة إنه كان قد تلقّى أوامر تمنع المظاهرات ورفع الشعارات.

كان جواهرلال جالسا قرب النافذة هو الآخر. وما إن رأى أن الشرطة كانت تلقي القبض على الناس حتى قفز خارج العربة وركض صارخا: "ليس من حقكم اعتقال الناس". ركض مفوّض الشرطة خلف جواهرلال محاولا أن يعيده إلى العربة. غير أن جواهرلال لم يولِ نداءه أيّ اهتمام، بل كان يرفع صوته ساخطا. وفي تلك الآونة ظهر على الرصيف عضوٌ آخر من أعضاء اللجنة التنفيذية هو شَنْكر راوْ ديُو. أحاط به أربعة رجال من الشرطة وطلبوا منه أن يعود إلى القطار، وحين رفض، أمسكوا به وجرّوه إلى العربة. ناديت جواهرلال طالبا منه أن يعود. بدا جواهرلال غاضبا، لكنه لبّى طلبي. جاءني مفوّض الشرطة وقال لي مرتين أو ثلاث مرّات: "آسفٌ جدّا سيّدي. لكن هذه هي الأوامر، وعليَّ أن أنفّذها".

من خلال نافذتي رأيت السيّدة نايدو وغاندي يؤخذان بعيدا عن القطار. وكان رجلٌ آخر من بُمباي قد نزل هو الآخر وكان يريد أن يصل إلى الرصيف، غير أن الشرطة منعته من ذلك. لكنه لم يكفّ عن المحاولة إلا عندما ألقت الشرطة القبضَ عليه. أعتقدُ أنه كان يحاول أن يتصرّف حسب توجيهات غاندي. وسيتذكّر الناسُ أن غاندي قال، خلال هذا التحرّك، ينبغي أن لا يرمي أحدٌ بنفسه في الأسْرِ طواعيةً. ينبغي أن لا يَقْبَلَ الرجالُ الذهابَ إلى السجن إلاّ عندما تُستخدم القوة الجسدية.

بعد أن أُخذَ غاندي بعيدا، بدأ القطار يتحرّك من جديد. تبيّن لي الآن أنهم يأخذوننا إلى أحمدناجار. بلغنا المحطّة قرابة الساعة الواحدة والنصف ظهرا. كان الرصيف مُقْفرا تماما إلا من حفنة من ضباط الشرطة وضابط عسكري واحد. طُلب منّا أن ننزل بسرعة ووُضعنا داخل سيارات كانت في انتظارنا. انطلقت هذه السيارات في الحين، ولم تتوقّف إلى أن وصلنا إلى بوّابة القلعة. كان ثمّة ضابط عسكري يقف هناك. حمل مفوّض الشرطة قائمة

وسلّمها إليه. وقام مفوّض الشرطة بمناداتنا فَرْداً فَرْداً وطلب منّا الدخول. كان مفوّض الشرطة، في حقيقة الأمر، يسلّمنا إلى السلطات العسكرية. من هنا فصاعداً أصبحنا تحت السيطرة العسكرية.

8- سجن قلعة أحمدناجار

تمّ جَلْبُ تسعة أعضاء من اللجنة التنفيذية معي، وهم جواهرلال، وصاردار باتل، وآساف علي، وشَنْكر راوْ ديُو، وجُوفيند بالأَبَه بانتْ، ود. باتّابهي سِيتاراماياّ، ود. سيّد محمود، وآشاريا كريبالاني، ود. بروفولاّ غوش. كان راجن بابو، هو الآخر، عضواً في اللجنة التنفيذية، لكن بما أنه لم يحضر اجتماع بُمباي فقد تمّ إيقافه في باتنا، وتمّ حبْسه هناك.

أُدخِلْنا إلى القلعة ثم أُخِذْنا إلى بناية تشبه ثكنة عسكرية. كان هناك رواقٌ مفتوحٌ طوله قرابة 200 قدم ومن حوله غُرَفٌ. علمنا بعد ذلك أنه كان يتمّ فيها احتجاز المساجين الإيطاليين أثناء الحرب العالمية الأولى. قام سجّانٌ من بونا كان قد نُقِلَ إلى هذا المكان، بتفقّد أمتعتنا حال وصولها. كان لديَّ جهازُ راديو محمول، كنت أحمله معي دائماً. وصلت كل أمتعتي الأخرى، لكن الرّاديو احتُجز ولم أره مرّة أخرى إلاّ عندما أُفرج عنّي.

وبعد ذلك بقليل، قدُّم العشاء في أطباق من حديد لم تعجبنا. قلت للسجّان إننا متعوّدون على الأكل في أطباق صينيّة. اعتذر السجّان وقال إنه لا يستطيع أن يوفّر لنا ذلك الآن، ولكنه سيفعل في اليوم الموالي. جيء بسجينٍ من بونا ليصبح طبّاخنا. لم يكن في استطاعته أن يعدّ لنا طعاما يروق لنا، لذلك سرعان ما تمّ تغييره، وعُيِّن بدله طبّاخٌ أمهر منه.

ظلّ مكان اعتقالنا طيَّ الكتمان. بدا لي الأمر سخيفا لأنه من البديهيّ أن الأمور لا يمكن أن تظلّ طيّ الكتمان فترةً طويلة. غير أن صَنيعَ الحكومة هذا لم يفاجئني. ربّما كانت الحكومات كلّها تتصرّف بشكل جنونيٍ في مثل هذه المناسبات. وبعد يومين أو ثلاثة أيام، أقبل مفتّش عام سجون بُمباي لزيارتنا. أعلمنا أن أوامر الحكومة تنصّ على أنه ليس من حقّنا أن نكتب رسائل حتى لأقاربنا، ولا أن نتلقّى رسائل منهم. كما أننا لن نُمَكَّنَ من أيّ جريدة. كان متأسّفا جدّا، وقال إن هذه الأوامر أوامر صارمة وعليه أن يطبّقها. غير أنه سيكون سعيدا بتلبية أيّ طلب آخر نتقدّم به.

لم أكن في حالة جيّدة حين غادرت كلكوتا قاصدا بُمباي. كنتُ أعاني من أنفلوانزا حتى أثناء اجتماع لجنة مؤتمر كلّ الهند. وكانت الحكومة على عِلمٍ بهذا الأمر. كان المراقب العام طبيبا وأراد أن يفحصني، غير أنني لم أقبل.

كنّا معزولين عن العالم تماما. ولم نكن نعلم ما يحصل في الخارج. كنا نشعر أنه علينا أن نضع برنامج أنشطة حتى نحافظ على صحّتنا ومعنوياتنا. وكما قلتُ سابقا، كانت الغُرَفُ مصطفّةً حول رواقٍ مربّع. كنت أقبعُ في الغرفة الأولى من أحد الصفوف، أما الثانية فيقبع فيها جواهرلال، والثالثة يقبع فيها آساف علي ود. سيّد محمود. وكانت الغرفة الرابعة في هذا الصفّ غرفة طعامٍ لنا جميعا. كنا نلتقي لتناول الفطور على الساعة الثامنة صباحا، ولنتناولَ الغداء على الساعة الحادية عشرة، وبعد ذلك، كنا نلتقي في غرفتي ونناقش مختلف المواضيع طيلة ساعتين. ثم ننال قسطا من الراحة، نلتقي بعده لتناول الشاي على الساعة الرابعة. وبعد الشاي كنا نمارس بعض التمارين الرياضية داخل الرواق المربّع. كان العشاء يقدّم على الساعة الثامنة، وقد درجنا على مواصلة نقاشاتنا حتى الساعة العاشرة. ثم ينصرف كلّ واحد منّا إلى غرفته.

كان الرواق المربّع خاليا تماما حين وصلنا. اقترح جواهرلال أن نزرع حديقة للوُرُودِ حتى ننشغل بها ونجمّل المكان. فرحّبنا بالفكرة وكتبنا إلى بونا طالبين البُذُورَ. ثم أعددنا في الأرض أحواضَ الوُرُود. كان جواهرلال يضطلع

بدور القيادة في هذا الأمر. زرعنا نحو ثلاثين أو أربعين فصيلة من الزهور. كنا نسقيها وننظّف الأحواض يوميًا. وكلّما كانت النباتات تتفتّق وتظهر، كنا نتفرّج عليها باهتمام وافتتان. وحين بدأت الورود تتفتّح سار المُجَمَّعُ مكانا للجمال والمرح.

بعد أن مكثنا في السجن ما يقارب الخمسة أيام، جاءنا ضابط علمنا في ما بعد أنّه عُيّن مراقبا للسجن للاعتناء بنا. استقرّ في المدينة، وكان يأتي كلّ يوم على الساعة الثامنة صباحا، ويغادر في المساء. لم نكن نعرف اسمه، وفكّرنا أنه علينا أن نجد له اسما. فتذكّرت أنّه حين اعتُقِلَتْ شاند بيبي في هذا المعتقل ذاته، كان لها سجّان حبشيّ اسمه تشيتا خان. فاقترحت أن نطلق الاسم نفسه على مراقبنا. وافق زملائي عن طيب خاطر. اشتهر الاسم حتى أن الجميع سرعان ما صاروا ينادونه تشيتا خان. تفاجأت حين جاءني السجّان بعد مرور يومين أو ثلاثة أيام، وقال لي إن تشيتا خان قد غادر مبكّرا ذلك اليوم.

كان تشيتا خان، سأسمّيه هكذا، موجودا في بورت بلير حين هجم اليابانيّون على جزر أندمان واحتلّوها.

في يوم 25 أغسطس/ آب كتبتُ رسالة إلى نائب الملك أعلمته فيها أنني لم أكن أتذمّر لأنّ الحكومة رأت أنّه من الضّروري اعتقالي أنا ورفاقي. غير أنني أشكو من طريقة التعامل معنا. فحتّى المجرمون المدانون يُسْمَحُ لهم بتبادل الرسائل مع ذويهم الأقربين. لكننا نحرم من هذا الحقّ. كتبت له أنني أنا وزملائي سننتظر أسبوعين، وإذا لم يصلنا ردٌّ مرضٍ من الحكومة، سنقرّر أنا وزملائي ما سيكون مسار عملنا.

وفي يوم 10 سبتمبر جاءنا تشيتا خان، وقال إنه تلقّى أمرا مفاده أنه بإمكاننا أن نتراسل مع أقاربنا مرّة في الأسبوع. كما سيمدّوننا بجريدة واحدة كلّ يوم. تمّ وضع نسخة من صحيفة تايمز أوف إنديا على طاولتي، ومنذ ذلك الحين صارت تصلنا بانتظام. في تلك الليلة، أمضيت وقتا طويلا وأنا أقرأ الجريدة. فقد مضى أكثر من شهر ونحن دون أيّ خبر. الآن على الأقلّ صرنا

نعرف ما يحدث في البلاد بعد اعتقالنا ونتابع تطوّرات الحرب.

في اليوم الموالي، طلبت من تشيتا خان أن يرسل إليّ الأعداد السابقة من الجريدة. الآن وقد وافقت الحكومة على أن يقع مدّنا بالجرائد بشكل منتظم، لم يعد يمكن أن يوجد ما يمنع طلبي هذا. وافق تشيتا خان على طلبي، ولم يمرّ يومان أو ثلاثة حتّى أرسل إليّ مجموعة كاملة من صحيفة تايمز أوف إنديا.

ما إن قرأت المقالات حتّى تبيّن لي أنّ قراءتي للوضع كانت صحيحة، فستقع اضطرابات عنيفة في البلاد عقب اعتقالنا. كانت البنغال، وبيهار، والأقاليم المتّحدة، وبُمباي، في مقدّمة المناضلين ضدّ الحكومة. تعطّلت الاتّصالات، وأغلقت المصانع. تمّت مداهمة مراكز للشّرطة وتمّ إحراقها. وتمّت مداهمة محطّات قطارات، وتدميرها في بعض الأحيان. كما تمّ إضرام النار في عدد كبير من الشاحنات العسكريّة. تمّ إغلاق المصانع ممّا جعل إنتاج حاجيات الحرب ينعدم أو ينقص. وباختصار شديد، ردّت البلاد ردّ فعل عنيف على وحشيّة الحكومة. لم يلتزم التحرّك بالمقاومة غير العنيفة. كان هذا ما توقّعته، وإلى حدّ ما، كان هذا ما ناقشته مع عمّالنا وما نصحتهم به.

مرّت بقيّة شهور سنة 1942 دون أن يحصل شيءٌ يُذكَرُ.

في بداية سنة 1943، حصل تغيّر في الأجواء، مرّة أخرى. قرأنا في الصحف خلال شهر يناير أنّ غاندي كان قد كتب رسالة إلى نائب الملك يعلمه فيها أنه يعتزم أن يصوم ليطهّر روحه. كنت على يقين من أنّ ما حثّ غاندي على اتّخاذ هذه الخطوة سببان رئيسيان. كما ذكرت سابقا، لم يكن غاندي يتوقّع أن تعمَدَ الحكومة إلى اعتقال قادة المؤتمر فجأة. بالإضافة إلى ذلك، كان يأمل في أن يكون لديه الوقت الكافي ليُنمّي التحرّك على نهج اللاّعنف، تماشيا مع أفكاره الخاصّة. خاب أمَلاَهُ. فقبل تحمّل مسؤوليّة ما فعله، وكما هي عادته، قرّر أن يصوم تكفيرا عن ذنبه. لم أكن أرى أيّ معنى آخر لصومه أو أي فرضيّة أخرى.

غير أن الحكومة نظرت إلى مبادرة غاندي من منظور مختلف تماما. رأت الحكومة أنه ليس بمقدور غاندي أن يصوم واحدا وعشرين يوما وهو في هذه السنّ، وفي هذا الوضع الصحّيّ. واعتبرت أنّ صومه، في هذه الحال، نوع من السعي وراء مَوْت محقّق. وذهبت إلى أنّ هذا هو هدف غاندي، وأنّه يريد أن يحمّل الحكومة مسؤوليّة موته. علمنا لاحقا أنّ الحكومة قامت بجميع الإجراءات اللاّزمة على هذا الأساس. ولأن الحكومة كانت مقتنعة أنّ غاندي لن يعيش إذا بدأ صومه، فلقد وصل بها الأمر إلى حدّ اشتراء خشب الصندل استعدادا لإحراق جثّته. كانت ردّة فعلها على النحو التالي: إذا كان غاندي يريد أن يُحمّلَ الحكومة مسؤوليّة موته، فستتحمّلها. وستقوم بتنفيذ طقوسه الأخيرة في قصر الآغى خان، وهو المكان الذي حُبِسَ فيه، ويُسلّم رَمَادُهُ إلى أولاده.

كتب د. بي سي رُويّ إلى الحكومة معبّرا عن رغبته في أن يكون طبيبَ غاندي أثناء فترة صوْمِه. لم تُبْدِ الحكومة أيّ ممانعة. في مرحلة ما أثناء الصوم، بدا وكأن حسابات الحكومة كانت تُثبت صحّتها. حتى الأطباء فقدوا الأمل. غير أن غاندي كذّب كلّ حسابات الحكومة وجميع تخمينات أطبائه. إن قدرته الهائلة على تحمّل الألم، وهي قدرةٌ كان قد أظهرها في مناسبات أخرى، تتكشف أمامنا الآن واضحة بشكل مذهل. تغلّبَ جَلَدُهُ على الموت المُحدقِ به. وبعد واحد وثلاثين يوما من الصوم أفطر.

عُدْنا، بعد التوتّر الذي نتج عن صوم غاندي، إلى ما كنّا عليه من عيْشٍ رتيبٍ. طوال فترة صوم غاندي، كان لدينا شعورٌ حادٌّ بأننا أسْرَى لا حوْلَ لنا ولا قوّة. ازداد هذا الشعور إيلاما خلال السنة الموالية. كانت زوجتي فريسة للمرض طيلة سنوات. وحين كنت في سجن نايني سنة 1941، ساءت صحتها إلى درجة أنهم أفرجوا عنّي كي أراها. استشرتُ أطبّاء فأشاروا عليها بتغيير مكان إقامتها. فانتقلتْ للعيش في رانشي ولم تعد إلا في شهر يوليو/ تمّوز 1942. كانت، وقتها، في حال أفضل قليلا، لكنني حين قصدت بُمباي في الأسبوع الأول من شهر أغسطس/ آب، كانت صحّتها تبعث على القلق من جديد.

لا بدّ أن خبر اعتقالي واعتقال زملائي يوم 9 أغسطس/ آب كان له عليها وقْعُ الصدْمة العنيفة، فشهدت صحّتُها التي لم تكن من قبلُ على ما يرام، منعرجا خطيرا. كان أكثر شيء يثير في نفسي الهموم هو الأخبار التي تبلغني عن تدهور حالتها الصحية. وفي مطلع سنة 1944 تلقّيت أخبارا من البيت تفيد بأنها مريضة جدّا. بعد ذلك وصلتني أخبارٌ أكثر هولاً. كان أطباؤها قلقون عليها، وبمبادرة شخصية منهم كتبوا إلى الحكومة يطلبون منها أن تسمح لي برؤيتها مرّة واحدة، لأن الأمل في بقائها على قيد الحياة قد تضاءلَ. تجاهلت الحكومة رسالة الأطباء هذه. راسلت، أنا أيضا، نائب الملك، لكن هذه المراسلة كانت دون جدوى. ذات يوم من أيام شهر أبريل أقبل عليّ تشيتا خان في منتصف النهار، وكان مجيئه في مثل ذلك الوقت غير معتاد البتّة. لم ينبِسْ ببنت شفة، لكنه سلّمني برقيةً. كانت البرقية مُشفّرةً، لكنها منسوخة أيضا بالحروف الإنجليزية. كانت البرقية مرسلة من كلكوتا وقد جاء فيها أن زوجتي قد قضت نحبها. كتبتُ رسالة إلى نائب الملك أعلمه فيها أن حكومة الهند كانت تقدر على الأقلّ، أن تنقلني إلى كلكوتا بصفة مؤقّتة حتى أتمكن من رؤية زوجتي قبل وفاتها. بقيت رسالتي هذه دون ردٍّ.

بعد انصرام ثلاثة أشهر كان القدر يخفي لي فاجعة أخرى. وقعت أختي أَبْرُو بِيجُومْ القاطنة في بهوبال فريسةً للمرض. وبعد زهاء أسبوعين بلغني أنها توفّيت هي الأخرى.

في ذلك الوقت، قرأنا فجأة في الصحف أنه تمّ الإفراج عن غاندي. وأغلب ظنّي أن غاندي نفسه لم يكن يعلم بسبب الإفراج عنه. بدا غاندي وكأنه يعزو حرّيته إلى تغيّر في السياسة البريطانية. وقد أثبتتْ الأحداث اللاّحقة أنه كان على خطإٍ مرّة أُخرى. كانت صحّته قد تدهورت جرّاء الصوم. منذ ذلك الحين بدأ يعاني العلّة تلو الأخرى. عاينه طبيبٌ مدنيّ في بونا، وكتب تقريرا جاء فيه إن غاندي لن يعمّر طويلاً. كانت تجربة الصوم أكبر من طاقته على التحمّل، فلقد أحسّ الطبيب أن أيّام غاندي صارت معدودة. حين تلقّى نائب الملك هذا التقرير قرّر أن يفرج عن غاندي حتى لا تُحَمَّل الحكومة مسؤولية موته. وإلى

جانب ذلك، كان الوضع السياسي قد تغيّر إلى درجة أن البريطانيين لم يكونوا يتوقعون أيّ خطر يصدر عن غاندي. كانت أزمة الحرب قد انتهت. ولم يعد انتصار الحلفاء إلاّ مسألة وقت. أحسّت الحكومة أيضا أنه ما دام قادة المؤتمر في السجن فإن غاندي لا يستطيع بمفرده أن يفعل الكثير. وعلى العكس من ذلك، إن حضوره قد يفيد في كبح العناصر التي كانت تحاول أن تنتهج أساليب عنيفة.

طيلة مدّة من الزمن ظلّ غاندي مريضا إلى درجة أنه لم يتخذ أيّ خطوة عمليّة بعد خروجه من السجن. ظلّ يتناول الأدوية طيلة أشهر. وما إن شعر بأنه بدأ يتماثل للشفاء، حتى بادر بالقيام ببعض التحرّكات السياسية. تحرّكان من هذه التحركات يستحقّان الذكر بصفة خاصة. قام غاندي بمحاولة جديدة للتفاهم مع الرابطة الإسلامية، ونظّم لقاءً مع السيد جِنَّاهْ. أما التحرّك الثاني فهو محاولة فتح مفاوضات جديدة مع الحكومة. وبعكس تصريحاته السابقة أصدر الآن بيانا جاء فيه أنه إذا تمّ إعلان حرّية الهند فإنها ستصطفُّ طَوْعا إلى جانب البريطانيين وتساندهم مساندة كاملة في جهد الحرب. اندهشتُ أيّما اندهاشٍ، وعلمت أن مصير هذين التحرّكين هو الفشل.

أعتقد أن لقاء غاندي بالسيد جِنَّاهْ في هذا الظرف خطأً سياسيٌّ كبيرٌ. فهذا اللقاء كفيلٌ بأن يمنح السيد جِنَّاهْ مكانةً أكبر. وقد استغلّ هذه المكانة في ما بعد. منذ البداية كان موقف غاندي من جِنَّاهْ موقفا مميّزا. كان جِنَّاهْ قد خسر الكثير من مكانته السياسية بعد أن غادر المؤتمر في العشرينات. ويعود جانب كبير من السبب في استعادة جِنَّاهْ مكانَتَه في الحياة السياسية الهندية إلى أن غاندي كان كثيرا ما يُعَيِّنُّ، وسرعان ما يفصل. إنه لمن المشكوك فيه، حقّا، أن جِنَّاهْ كان بإمكانه أن يحقق تفوّقا لولا موقف غاندي. كانت فصائل كثيرة من الهنود المسلمين تشكّك في السيد جِنَّاهْ وفي سياسته، ولكنهم حين لمسوا أن غاندي يلهث وراءه باستمرار، ويخطب وِدَّهُ، نشأ لدى العديد منهم احترامٌ جديدٌ لجِنَّاهْ. وظنّوا أيضا أن جِنَّاهْ ربما يكون أفضل رجُلٍ للحصول على نتائج مرضية في حلّ مسألة الأقلّيات.

عليَّ أن أشير هنا إلى أن غاندي كان أوّل من خلع على جِنَّاهْ لقب قائد الزمان. كانت، في معسكر الموالين لغاندي، إمرأةٌ حمقاء، لكنها حسنةُ النوايا اسمها أَمَطُسْ سلاَمْ. كانت قد قرأت في إحدى الصحف الأوردية إشارة إلى جِنَّاهْ تنعته بكونه قائد الزمان. وحين كان غاندي يكتب إلى جِنَّاهْ ليطلب لقاءه أخبرته أن الصحافة الأوردية أطلقت على جِنَّاهْ اسم قائد الزمان، وأشارت على غاندي أن يخاطبه بالاسم ذاته. ففعل دون أن يفكّر أو يأخذ بعين الاعتبار تبعات صنيعه ذاك. سرعان ما تمّ نشر الرسالة في الصحافة. وحين رأى الهنود المسلمون أن غاندي أيضا يخاطب جِنَّاهْ باعتباره قائد الزمان، أحسّوا أنه لا بدّ أن يكون حقّا قائد الزمان.

حين قرأت، في يوليو/ تمّوز 1944، أن غاندي كان يراسل جِنَّاهْ وكان سيذهب إلى بُمباي للقائه، قلت لزملائي إن غاندي يرتكب خطأً فادحا. إنه بعمله هذا لا يحلّ مشاكل الوضع السياسيّ في الهند، بل على العكس من ذلك إنما يزيدها تفاقما. وأثبتت الأحداث اللاحقة أن توقّعاتي كانت صائبةً. استغلّ جِنَّاهْ الوضع أقصى درجات الاستغلال، وبنى لنفسه مكانة. لكنه لم يقل شيئا، ولم يفعل شيئا من شأنه أن يساعد في حلّ مسألة حرّية الهند بأيّ شكل من الأشكال.

كان توقيت الخطوة الثانية التي خطاها غاندي للاتصال بالحكومة توقيتا خاطئا. وسيذكر التاريخ أنني، عندما بدأتْ المعارك، بذلتُ قصارى جهدي لأقنع المؤتمر باتخاذ موقف واقعيّ إيجابيّ تجاه الحرب. كان غاندي وقتها يرى أن استقلال الهند السياسي مهمّ ولا شك في ذلك، لكن انتهاج نهج اللاّعنف أكثر منه أهمّية. والحقّ أنه قال جازما، في العديد من المناسبات، حتى إذا كانت الطريقة الوحيدة التي تمكّننا من تحقيق استقلال الهند هي اللجوء إلى العنف، فإنه لن يتبنّى هذا الخيار. وها هو الآن يقول إن المؤتمر يجب أن يتحالف مع البريطانيين إذا تمّ إعلان حرّية الهند.

كان هذا انقلابا كلّيا في مواقفه نتج عنه سوء فهمٍ لما يجري داخل الهند

وخارجها. التبس الأمر على الهنود. أما الانطباع الذي حصل في بريطانيا فقد كان أكثر بؤسا. اعتقد الكثير من الإنجليز أن غاندي كان قد رفض مساعدة البريطانيين حين كانت نتيجة الحرب غير مأمونة. واعتبروا عَرْضَه الحاضر للمساندة محاولة منه لكسب تعاطف البريطانيين، الآن وقد أصبح انتصار الحلفاء مؤكّدا. ونتيجة لذلك لم يعيروا عَرْضَه الاهتمام الذي كان يتوقّعه. وبالإضافة إلى ذلك لم يعد البريطانيون في حاجة ماسّة إلى مساندة الهند مثلما كانوا في الأيام الأولى للحرب. هذا الأمر ساهم أيضا في لامبالاتهم بتحرّك غاندي.

الآن وأنا أكتبُ في سنة 1957، وأستحضر شريط الأحداث، لا أقدر أن أمنع نفسي من القول إن تغييرا جذريا قد طرأ على مواقف أتباع غاندي المقرّبين. فلقد استقال كلّ من صاردار باتل، ود. راجندرا برازاد، وأشاريا كريبالاني، و د. بروفولاّ غوش من اللجنة التنفيذية حين صادق المؤتمر على قرار مساندة جهد الحرب إذا أعلنت بريطانيا حرية الهند. وأعلنوا صراحة أن اللاّعنف بالنسبة إليهم مسألة عقيدة، وهو يفوق استقلال الهند أهمية. غير أنهم، حين أصبحت الهند حرّة سنة 1947، لم يقل واحدٌ منهم إنه ينبغي تسريح الجيش الهندي. وعلى العكس من ذلك كانوا قد ألحّوا على أن الجيش الهندي يجب أن يقسّم ويوضع تحت السلطة المباشرة لحكومة الهند. كان هذا الرأي عكس المقترح الذي قدّمه رئيس الأركان في ذلك الوقت. كان رئيس الأركان قد اقترح أن يبقى الجيش مشتركا وتبقى قيادة الجيش مشتركة مدّة ثلاث سنوات، لكن أبطال اللاّعنف هؤلاء لم يوافقوا. لو كان اللاّعنف عقيدتهم حقّا كيف أمكنهم أن يتولّوا مسؤوليات في حكومة تنفق أكثر من مائة كرور[9] على الحرب سنويا؟ وفي الواقع كان البعض منهم يريد أن يزيد في تلك المصاريف التي تُنفَق على القوات المسلّحة، بدل أن يُنقص منها.

كان يساورني شعورٌ دائمٌ بأن هؤلاء الزملاء والأصدقاء لم يكونوا يُعملون

9 - الكرور: كلمة مشتقة من الكلمة السنسكريتية كوتي، وتعني عشرة ملايين (المترجمة).

عقولهم في أغلب المسائل السياسية. كانوا أتباعا طائعين لغاندي. وكلّما طُرحتْ مسألة ينتظرون حتى يروا ردّ فعل غاندي. لم أكن في الماضي، ولست الآن، أقلّ من أيّ واحد منهم احتراما لغاندي وإعجابا به. لكنني لاأستطيع أن أقبل، ولو للحظة، وضْعيةَ أن نكون تابعين له تبعيّة عمياء. وإنه لمن الغريب أن هؤلاء الأصدقاء قد محوا اليومَ من ذاكرتهم المسألة التي استقالوا بسببها من اللجنة التنفيذية سنة 1940. لا يمكنهم أن يفكّروا، ولو هُنَيْهَةً واحدةً، في إدارة حكومة الهند دون جيشٍ ودون مؤسّسة دفاعية ضخمة. ولم يطرحوا من أذهانهم إمكانية خوض الحرب. كان جواهرلال هو العضو الوحيد في اللجنة التنفيذية الذي كان يشاطرني الرأيَ. وأعتقد أن منطق الأحداث أثبت صواب رأيي ورأيه.

في شهر يونيو/ حزيران 1944 قرأنا مقالات حول اليوم الموعود. كانت تلك نقطة تحوّل في الحرب. كان انتصار الحلفاء مؤكّدا الآن، بل كان قاب قوسين أو أدنى. وأدرك العالم أن الرئيس روزفلت هو أعظم شخصية تمت الإطاحة بها أثناء هذه الحرب. وبدا أن الصورة التي رسمها للمستقبل ما فتئت تجد مبررات وجودها يوما بعد يوم باطّراد. كانت قوّات الحلفاء قد انتصرت في كلّ من أفريقيا وآسيا وهي تزحف الآن زحفا مظفّرا نحو معقل هتلر الأروبي. لم يكن ذلك مفاجأة لي. فقد كنت دائما على يقين من أن الذي يحدث، هذه المرّة أيضا، هو ما حدث في الحرب العالمية الأولى. فلقد اقترفت ألمانيا خطأ خوض الحرب على جبهتين. ففي الواقع، حين قرّر هتلر أن يهاجم الاتحاد السوفياتي زرع بذرة سقوطه. لم يكن هناك مهربٌ من خرابه أو خراب شعبه.

فجأةً حدث تطوّرٌ عطّل حياتنا في قلعة أحمدناجار. أقبل تشيتا خان، ذات يوم، وقال إنه تلقّى أمرا بإطلاق سراح د. سِيَادْ محمود. فوجئنا جميعا لأننا لم نستطع أن نفهم لماذا وقع الاختيار عليه كي يحظى بهذه المعاملة.

منذ بضعة شهور خلت كان وباء الكوليرا قد خيّم على أحمدناجار. نصحنا تشيتا خان بالتطعيم ضدّ هذا الوباء. عمل خمسة منّا بنصيحته وهم: أنا وجواهرلال، وبَطّابْهِي سِيتَارَامَيًّا، وآساف علي، ود. سِيَادْ محمود. وامتنع

أربعَةٌ إرضاءً لضمائرهم، وهم: صاردار باتل، وآشاريا كريبالاني، و شري شَنكر راوْ ديو، و د. بروفولاً غوش. انتابتني حمّى خفيفة كردّة فعل على التطعيم، وبدا أن د. محمود أصيب بحساسية ضدّ التطعيم إذ لازمته حمّى متواصلة ومرتفعة ارتفاعا لا مثيل له طيلة أسبوعين. جزعنا كلّنا عليه، وكان جواهرلال، بلطفه المعهود، يقوم بدور الممرّض النصوح. وأخيرا شُفيَ د. محمود من الحمّى، لكن لثّتُهُ ظلّت تنزف. كان يخضع للعلاج الذي يقدّمه له تشيتا خان حين وَرَدَ خبرُ إطلاق سراحه. لذلك لا يمكن أن نعتبر أن مرضه كان سببا كافيا للإفراج عنه. ظننا أن ذلك ربما كان يعني تغييرا في سياسة الحكومة التي بدت الآن مستعدّة للتصرّف بلُيُونَةٍ أكثر وقد أفرجت عن د. سياد محمود مراعاة لتدهور صحّته.

حين وصل د. سياد محمود إلى باتنا حاورته الصحافة. أشار إلى أنه لا يعرف لماذا أُطلق سراحه. أدّى هذا التصريح إلى نتيجة غير متوقّعة البتّة. قرّرت الحكومة أنها لا يمكنها أن تسمح بمرور هذا التصريح دون اعتراض عليه. نشروا في الصحافة رسالة كان د. سياد محمود قد أرسلها إلى نائب الملك من أحمدناجار. وقالت الحكومة إنها أفرجت عن د. سياد محمود بسبب ما جاء في هذه الرسالة.

حين قرأنا الرسالة في معتقل أحمدناجار شعرنا جميعا بالغضب والإهانة. لم يكن بإمكاننا أن نصدّق أن د. سياد محمود يمكن أن يكتب رسالة مثل هذه دون أن يعلم أيّ واحد منّا بوجود مراسلات بينه وبين نائب الملك. صحيحٌ أنه كان قد تشاور مع البعض منّا حول بعض الجمل والتعابير الجاهزة في اللغة الإنجليزية. ظننا، أنا وجواهرلال، أنه كان يؤلّف كتابا، وأنه كان يرغب في التأكّد من الاستخدام الصحيح لبعض الجمل. لم يمرّ ببالنا أبدا أنه كان يحبّر رسالة اعتذار إلى نائب الملك.

قال د. سياد محمود في رسالته إنه لم يشارك في أيّ اجتماع من اجتماعات اللجنة التنفيذية أو اجتماعات لجنة مؤتمر كلّ الهند عندما تمّت المصادقة على قرار "غادروا الهند". زادني هذا الأمرُ اندهاشا. فلقد كان حاضرا، وقد

شارك في النقاشات التي دارت حول هذا القرار.

وكما قلتُ سابقا، شعرنا جميعا بالإهانة جرّاء هذه الحادثة. كان من الغريب أن يكتب هذه الرسالة، والأغرب منه أن لا يشير إليها في المحاورة التي أجريت معه في باتنا. لعلّه كان يتوهّم أن رسالته إلى نائب الملك ستظلّ طيَّ الكتمان. حين نشرت الحكومة رسالته انزعج أيّما انزعاج، وذهب للقاء غاندي. وبعد أن تحادث معه أصدر د. محمود بيانا جاء فيه أنه رغم كتابته للرسالة فإنه لم يرسلها إلى نائب الملك طيلة فترة طويلة. فلم يكن، في الواقع، واثقا من أنه ينبغي له أن يرسلها أم لا. وفي غمرة حيْرته عاد إلى القرآن (الكريم) ثلاث مرّات. وكان، في كلّ مرّة، يفتحه حيثما اتّفق. وكانت عيناه تقع، كلّ مرّة، على آية تشير عليه بأن يتصرّف حسب رغباته. قال د. محمود إنه اعتبر هذا الأمر إشارة إلهية. لذلك قام بإرسال الرسالة إلى نائب الملك. أعترفُ أن هذا التفسير يبدو لي أشدّ غرابة من ذلك التصرّف. فمن المؤكّد أن الأمر لن يصبح أفضل بإسناد مسؤولية هذا الصنيع إلى الله.

كان غاندي يتحلّى بطبع كريم جدّا في التعامل مع كل هذه الأمور. بعد أن التقاه د. سياد محمود شعر غاندي بالشفقة عليه. فأصدر بيانا جاء فيه أنه ليس من الصواب أن يكتب د. محمود رسالة مثل هذه دون أن يعلم أصدقاءه في المعتقل، يجب أن يعلم الشعب الهندي بأمر تَوْبَتِهِ ولا يحاسبه حسابا عسيرا.

خالجنا إحساسٌ بأن أيّام اعتقالنا كانت تشرف على نهايتها رغم أننا لم نكن متأكّدين من ذلك. وتبيّن لحكومة الهند، في نهاية النصف الثاني من سنة 1944، أنه لم يعد هناك من داعٍ لاحتجازنا في أحمدناجار. كنّا قد اعتقلنا لأسبابٍ عديدة. ظنت الحكومة أن اعتقالنا هناك سيظلّ سرّا. واعتقدت أيضا أنها لو حبستنا في سجن مدنيّ قد نستطيع أن نتواصل مع العالم الخارجي، في حين أن حبْسَنا في سجن عسكريّ قد يحول دون ذلك. لم يكن يوجد في سجن معسكر أحمدناجار غير العساكر الأروبيين، وهم كفيلون بمنع حصول أيّ تواصل مع العالم الخارجي، ومنع أيّ شكل من أشكال التواصل الفعليّ مع العالم

الخارجي. كان البناء الضخم الذي احتجزنا فيه مزوّدا بأضواء كاشفة من شأنها أن تجعلك ترى البلاد بأكملها، وقد وقع تعطيلها كلّها قبل أن يؤتى بنا. كان الجبس الذي سدّوها به قد وضعوه حديثا حتى أنه كان لا يزال طريّا حين وصلنا. طوال فترة اعتقالنا التي دامت ثلاث سنوات ونصف في أحمدناجار لم نكد نرى أبدا هنديّا واحدا في الخارج. احتاجت البنايات إلى بعض الإصلاحات الطفيفة، في مناسبة أو مناسبتين، فلم يستخدموا عاملا هنديّا واحدا للقيام بذلك. هكذا كنّا معزولين تماما عن العالم.

نجحت الحكومة في حرماننا من جميع الاتصالات مع العالم الخارجي، لكنها فشلت في تحقيق هدفها الأساسي. فلقد علم الناس أجمعين، في غضون أسبوع، أننا معتقلون جميعا في سجن أحمدناجار. ها قد انعدمت الآن أيضا الحاجة إلى الكتمان. كان الانتصار البريطاني وشيكا. لذلك شعرت حكومة الهند أنه لم يعد من الضروري اعتقالنا في سجن عسكريّ، وأنه يمكن نقلنا إلى السجون المدنيّة الموجودة في أقاليمنا.

كان صاردار باتل و شَنكر راوْ دِيو أوّل مَن نُقلا إلى سجن بونا. تمّ إرسال آساف علي إلى باتالا حيث كان المساجين السياسيون القادمون من دلهي يعتقلون عادة. أُخذ جواهرلال، في البداية، إلى نايني قرب الله آباد، ثم إلى ألْمورَا. قال جواهرلال وهو يغادر ربّما يكون موعد إطلاق سراحنا قد اقترب. طلب منّي أن أدعو إلى اجتماع اللجنة التنفيذية أو إلى اجتماع لجنة مؤتمر كلّ الهند حالما يتمّ الإفراج عنّي. قال إنه يريد أن يُمْهَلَ بعض الوقت حتى يرتاح ويروّح عن نفسه، وكي يضع اللمسات الأخيرة لكتاب كان يؤلّفه حول الهند.

قلت لجواهرلال إن هذا هو عينه ما أريد فعله. أنا أيضا كنت أرغب في قليل من الوقت كي أرتاح وأسترجع قواي. لم كن أعلم وقتها أنه سيتمّ الإفراج عنا في ظروف تقتضي تحرّكا سياسيا عاجلا، وقد لا يتسنّى لنا طرح مسألة الاستراحة طيلة ما تبقّى لنا من عمر.

حين جاء موعدُ نقلي أنا، قال لي تشيتا خان بما أن صحّتي ليست على ما

برام فإن كلكوتا بمناخها الرطب ليست المكان المناسب لي. وأشار إلى أنني قد أنقَل إلى مكان في البنغال مناخه أكثر جفافا. ذات مساء طُلب مني أن أستعدّ. وبعد أن تمّ وضع أمتعتي في سيارته لم يأخذني إلى محطّة أحمدناجار، بل إلى محطّة في قرية تبعد عنها بعض الأميال. كان السبب في ذلك أنني إذا سافرتُ من أحمدناجار سينتشر الخبر فورا. ولم تكن الحكومة ترغب في إشهار أمر تحرّكاتي.

مرّت معظم الأوقات التي قضيتها في سجن أحمدناجار وأنا أعاني من الإجهاد الذهني. كان لهذا الأمر تأثيرٌ سلبيٌّ عميقٌ على صحّتي. حين تمّ اعتقالي كان وزني 170 رطلا، وعندما تمّ نقلي من أحمدناجار كان وزني قد نقص حتى صار 130 رطلا لا غير. فقدت الشهيّة وكنت بالكاد أتناول الطعام.

كان مفتّش من إدارة البحث الجنائي في البنغال ومعه أربعة عساكر قد جاؤوا لمرافقتي. حين وصلنا إلى المحطّة وضعني تحت عهدتهم. سافرنا من أحمدناجار إلى آسَنْسُول عبر كَلْيَاني. وفي آسَنْسُول تمّ أخذي إلى غرفة الاستراحة حيث كانوا أعدّوا تجهيزات خاصة من أجلي. ورغم محاولة الحكومة أن تُبقي الأمر سرّا فإن الصحافة قد تمكّنت بطريقة ما من التقاط الخبر. وجدتُ في آسَنْسُول بعض المراسلين الصحفيين من كلكوتا، كما وجدت ميَانْ محمد فاروق من الله آباد. وكان هناك أيضا حشْدٌ من سكّان المنطقة.

استقبلني مراقب عام شرطة آسَنْسُول في محطّة القطار، وتقدّم لي بطلب شخصيّ. قال لي إنني إذا كنت أريد أن ألتقي بالناس فلن يستطيع منعي، لكنني إذا فعلت ذلك فإن الحكومة ستصبّ جام غضبها عَلَيه. لذلك قال لي إنه سيكون شاكرا جزيل الشكر إذا قبلت أن أصعد إلى غرفة في الطابق العلوي وأتفادى الناس. أكّدت له أنني لا أنوي إلحاق الأذيّة به، ولا أريد أن أعرّضه لاستياء الحكومة. تبعا لذلك، ذهبت معه إلى غرفة في الطابق العلويّ.

كان مراقب عام الشرطة على صلة بنَوّاب أصيل دَاكّا فاعتنى بي هو وزوجته، وأصرّت زوجته على أن أكتب إليها إهداء على الكتاب. فعلا ما في

وسعهما كي يجعلاني أشعر بالراحة.

صرتُ الآن أعرف أنهم يأخذونني إلى بَانْكُورَا. وصل القطار إلى رصيف المحطة حوالي الساعة الرابعة، وسرعان ما وقع اقتيادي إلى عربتي. كان العديد من الناس قد أتوا من كلكوتا، والله آباد، ولُوكْنَاوْ، بالإضافة إلى سكّان المنطقة. كان مراقب عام الشرطة والمفتّش الذي يعمل تحت إمرته يبدوان حريصين تمام الحرص على أن لا ألتقي أحدا. كانت حرارة الشمس متّقدة فجلبوا لي مظلّة. كان المفتّش يمسك بها ولشدّة حرصه على أن يُخْفِيني عن أنظار الحشود كان ينزلها إلى الأسفل، ثم ينزلها مرّة أخرى إلى الأسفل حتى كادت تستقرّ فوق رأسي. كانت غايته من ذلك أن يمنع الناس من رؤية وجهي. وكانوا يظنّون أنهم، بهذه الطريقة، يمكن أن يأخذوني إلى العربة دون جلب الانتباه.

لم تكن لديّ رغبة خاصة في رؤية أحد. لكن حين رأيت أن الناس قد أقبلوا من كلكوتا، والله آباد، ولُوكْنَاوْ لا لشيء إلا لرؤيتي قلت في نفسي إنه ليس من العدل إطلاقا أن يُحرَموا حتى من إلقاء نظرة خاطفة عليَّ. فتناولت المظلّة من يد المفتّش وأغلقتها. فهرع الناس راكضين باتجاهي. غير أنني طلبت منهم أن يتوقّفوا. كان من المستحيل عليّ أن أصافحهم فرداً، فرداً. لكنني خاطبتهم بصفة جماعية وقلت ضاحكا: "إن قلق مراقب عام الشرطة والمفتّش يزداد شيئا فشيئا كلّ لحظة، ولا أريد أن أصاب بصُدَاعٍ في هذا اليوم القائظ".

بعد أن حيّيت الجمهور بإشارة من يدي، دخلت إلى عربتي، لكن الحشود اندفعت من حولنا بقوّة. فبالإضافة إلى الناس الموجودين على الرصيف دار جمْعٌ غفيرٌ من الناس حول الرصيف وجاؤوا إلى عربتي من الجهة الأخرى. على عجلٍ انطلق القطارُ، وبلغنا بَانْكُورَا حوالي الساعة السابعة. استقبلني مراقب عام شرطة بَانْكُورَا بمعيّة عدد من الضبّاط، ورافقوني إلى جناح متكوّن من طابقين يقع خارج المدينة.

كنّا في بدايات شهر أبريل/ نيسان وبدأت النهارات تصير أكثر دفئا، غير أنني حين جلست في شرفة الطابق الأول أحسست بنسيم رَطْبٍ عليلٍ يداعب

وجهي. لم تكن الصباحات والأماسي سيّئة جدّا، لكن الحرارة كانت تشتدّ خلال النهار. كانت لديّ مروحة كهربائية، وكانت قطع الثلج متوفّرة أيضا، لكن الحرارة كانت تشتدّ في منتصف النهار إلى درجة أن المروحة وقطع الثلج تكاد لا تجدي نفعا. كان رئيس الإدارة المحلّية يزورني مرّة كلّ أسبوع. أخبرني، ذات يوم، أنه كان قد كتب إلى الحكومة يعلمها أنه لم يعد بإمكاني البقاء في بَانْكُورَا مدّة أطول. وكان ينتظر الردّ، وسيرسلني إلى مكان جوّه أكثر لطفا ما إن يصل الردّ.

إنه لمن الصعب دائما أن تحصل على طبّاخ ماهرٍ. في بَانْكُورَا أيضا كانت هناك بعض الصعوبة في البداية، لكن سرعان ما تمّ تعيين طبّاخ ماهرٍ أعجبني عمله إلى درجة أنني جلبته معي إلى كلكوتا بعد أن تمّ الإفراج عنّي.

في بَانْكُورَا مدّتني الحكومة بنسخة من ستايتسمان. طلبت من الحكومة أن تمدّني أيضا بأمريتا بازار باتريكا. تمّ ذلك بعد أن قام قاضي المقاطعة باستشارة الكاتب العام.

كنت قد ذكرت سابقا أنني حين دخلت معتقل أحمدناجار صودر مني جهاز الراديو. وبعد أيام قليلة سألني تشيتا خان إن كان بإمكانه أن يستخدمه. سمحت له بذلك بكلّ سرور، لكنني لم أر جهاز الراديو ذاك إلا عندما خرجت من أحمدناجار. أثناء عملية نقلي إلى البنغال كان جهاز الراديو موجودا ضمن أمتعتي. وحين حاولت استخدامه لاحظت أنه معطوبٌ. فأمدّني قاضي المقاطعة بجهاز راديو آخر. وبعد وقت طويل صار بإمكاني أن أسمع الأخبار التي تبثّها دول أخرى.

وحين شارف شهر أبريل/ نيسان على النهاية، علمت من المقالات الصحفية أن آساف علي كان مريضا جدّا في معتقله في باتالا. سقط في حالة غيبوبة طيلة فترة طويلة، وكانت حياته في خطر. فقرّرت الحكومة أن تطلق سراحه وتعيده إلى دلهي.

ذهب اللورد وايفل إلى لندن، في شهر أبريل/ نيسان أو شهر مايو/ أيار، ليخوض مفاوضات أخرى حول الوضع السياسي في الهند. وحين شارف شهر مايو/ أيار على الانتهاء عاد إلى الهند. ذات مساء كنت أستمع إلى إذاعة دلهي، حين سمعت أن نائب الملك قد أعلن أنه، تماشيا مع الضمانات التي أعطتها بريطانيا سابقا، فإن خطوات جديدة ستؤخذ لحلّ مشكلة الهند السياسية. ستُعقد قمّة في سِمْلاَ، وسيُدعى إليها قادة المؤتمر والرابطة الإسلامية وأحزاب سياسية أخرى. وسيُطلق سراح رئيس المؤتمر وأعضاء اللجنة التنفيذية حتى يتمكّن المؤتمر من المشاركة في القمّة.

في اليوم الموالي سمعت أن أوامر قد صدرت بالإفراج عني وعن زملائي. سمعت هذا الخبر قرابة الساعة التاسعة مساء. وسمعه قاضي المقاطعة أيضا فأرسل إليّ رسالة على الساعة العاشرة يقول لي فيها رغم أنه سمع الخبر فإنه لم يتلق أيّ أمرٍ رسميٍّ. وسيعلمني حالما يستلمه. لذلك جاءني السجّان في منتصف الليل وأخبرني أن أوامر الإفراج قد وصلت. لم يكن بالإمكان فعل أيّ شيء في هذه الساعة المتأخّرة. فجاءني قاضي المقاطعة في الصباح الباكر من اليوم الموالي. تلا قرار الإفراج وأعلمني أن قطار كلكوتا السريع يغادر بَانْكُورَا على الساعة الخامسة، وقد حجزوا لي مقعدا في عربة الدرجة الأولى في هذا القطار.

وخلال ساعات قليلة أقبل مبعوثون صحفيّون من كلكوتا للقائي. وجاءت حشودٌ من آلاف السكّان المحليّين أيضا. وعلى الساعة 3.30 ظهرا عقدت لجنة المؤتمر المحليّة اجتماعا حضرتُه وألقيتُ فيه خطبة مقتضبة. غادرتُ كَلكوتا في القطار السريع، ووصلت إلى هُوْرَاه صباح اليوم الموالي.

كان رصيف هُوْرَاه ومحطّة القطار بأكملها يعجّان بالناس. ولم أتمكّن من مغادرة العربة وركوب سيّارتي إلاّ بعد لأْيٍ. كانت رئيسة مؤتمر البنغال السيدة لَبَانيا بْرابْهَا دَاتًّا وبعض القادة المحليّين، معي في السيّارة. وفي اللحظة التي كنا سنتحرّك فيها لاحظت وجود فرقة موسيقيّة تعزف أمام سيّارتي مباشرة.

سألت السيّدة دُوتْ لماذا أتوا بفرقة موسيقيّة، فقالت إنهم فعلوا ذلك احتفالا بالإفراج عنّي. لم يعجبني ذلك الأمر، وقلت لها إنّ الإفراج ليس مناسبة يُحتفل بها. صحيح أنه قد تمّ الإفراج عنّي لكنّ العديد من زملائي كانوا لا يزالون رَهْنَ الاعتقال.

تمّ إيقاف العزف وصرْف الفرقة الموسيقيّة استجابة لأمري. وحين كانت السيارة تعبر جسر هُوْرَاه، عدت بذاكرتي إلى الأيام الخوالي. تذكّرت اليوم الذي سافرت فيه إلى بُمباي منذ ثلاث سنوات لحضور اجتماع اللجنة التنفيذيّة ولجنة مؤتمر كلّ الهند. كانت زوجتي قد جاءتني حتّى بوّابة منزلنا لتسلّم عليّ. ها أنني أعود اليوم، لكنها في مثواها الأخير، وبيتي مقفرٌ. تذكّرت بيت شعر لوردزورث:

لكنها في قبرها، وأوّاه

كم يُحدث هذا فرقا بالنسبة إليّ!

طلبت من أصدقائي أن يغيّروا اتّجاه السيارة لأنني كنت أرغب في أن أزور قبرها قبل الذهاب إلى البيت. كانت سيارتي مليئة بأكاليل الورد، فتناولت منها إكليلا وضعته على قبرها، وتلوت الفاتحة سرّا.

9 - قمّة سِملا

منذ أولى أيّام الحرب، كان الرأي العامّ الأمريكي يحثّ البريطانيين على منح الهند حريّتها. وبعد الهجوم الياباني على بيرل هاربر صارت الولايات المتّحدة مشاركة في الحرب مشاركة مباشرة. كان الرئيس روزفلت يتناول الموضوع باستمرار مع تشرتشل، وربما يكون البريطانيّون قد شعروا أنّ عليهم أن يفعلوا شيئا لتلبية المطالب الأمريكيّة. وحين جاءت بعثة كريبس، أعلن قسم ما وراء البحار بقناة البي بي سي، مرارا وتكرارا، أن الفرصة الآن سانحة أمام الهند كي تنال حريّتها، وتقرّر بحريّة ما تراه مناسبا في ما يخصّ الحرب. أقبل أيضا ممثّل شخصي للرئيس روزفلت إلى الهند، وأتاني برسالة من عنده. عبّر الرئيس في رسالته عن الأمل في أن تقبل الهند عرض كريبس وتنضمّ إلى صفّ الديمقراطيات في الحرب. غير أن بعثة كريبس فشلت، وظلّ الوضع كما كان في السابق.

أدّى اعتقالنا في شهر أبريل/ نيسان 1942 إلى ردّ فعل سلبيّ في الولايات المتّحدة. لم نعلم بالأمر وقتها، لكننا عرفنا في ما بعد، أن الشعب عبّر عن استياء كبير من الصنيع البريطاني. ناقش مجلس الشيوخ ومجلس النوّاب المسألة، وأُلقيت خُطَبٌ حادّة اللهجة.

وفيما كان وضع الحرب يتحسّن في أروبا، جدّد الأمريكيون ضغطهم بُغْيَةَ حلّ مشكلة الهند السياسيّة. ولعلّ هذا السبب كان من بين الأسباب التي أدّت

إلى اتّخاذ قرار الدعوة إلى قمّة طاولة مستديرة على إثر مناقشات دارت بين اللورد وايفل وكاتب الدولة للشؤون الهنديّة. وبحلول شهر أبريل/ نيسان، كانت الحرب في أروبا قد انتهت عمليًا. غير أن مجريات الحرب في آسيا لم تُظهر أيّ علامة تشير إلى انتهاء وشيك. كانت اليابان لا تزال تحتلّ الكثير من الأراضي الشاسعة، وظلّت أراضيها منيعة. كان الجزء الأكبر من الأسلحة الأمريكيّة يُستخدم في ساحات الحرب التي كانت تدور في أروبا إلى حدّ الآن، مما نتج عنه عدم وجود أيّ علامة تدلّ على أن اليابان ستنهزم. غير أن إلحاق الهزيمة باليابان كان أهمّ من إلحاق الهزيمة بألمانيا بالنسبة إلى الولايات المتّحدة.

أدرك الأمريكان أنّ هزيمة اليابان ستصبح أسهل بكثير إن هم ضمنوا مساندة الهند كاملة. كانت اليابان تحتلّ بُورَمَا وسنغفورة وأندونيسيا. كان بإمكان الهند أن تساعد إلى حدّ كبير في جميع هذه المناطق. ورغم أن هتلر قد سُحِقَ في أروبا، فقد كان لا بدّ من الحصول على مساندة الهند لإلحاق الهزيمة باليابان. كان هذا الأمر سببا رئيسيًا وراء الضغط الأمريكي المتواصل لضمان مساندة الهند.

كانت كلكوتا في ذلك الوقت أحد أكبر مواقع تمركز للجيش الأمريكي في الشرق، مما جعلها تعجّ بالمراسلين الصحفيين الأمريكان وبالضبّاط العسكريين. كانوا يهفون إلى لقائي، وقد التقيت بالبعض منهم بعد وصولي إلى كلكوتا بيوم واحد. تطرقوا مباشرة إلى صلب الموضوع ، دون لفٍّ ودوران. سألوني عن ردّ فعل المؤتمر على العرض الذي قدّمه نائب الملك. أجبتهم قائلا إنه ليس في مقدوري أن أعطي ردّا نهائيا حتّى أطّلع على تفاصيل هذا العرض. وما دامت الهند ترزح تحت الهيمنة السياسيّة البريطانيّة، فمن البديهي أنها لا تستطيع أن تشعر بأيّ حماس تجاه الحرب. كيف يمكن لرجل مكبّل اليد والرِّجل أن يشعر بأيّ حماس لقتال عَدُوٍّ من كبّلوهُ بهذه الأغلال؟

عارضوا قولي هذا بسؤالهم عمّا إذا كان ميثاق الأطلسي قد ضمن حريّة الهند. فقلت جازما إنه لم يسبق لي أن رأيت نصّ هذا الميثاق في أيّ مكان، ولم

أكن أعرف أين هو، وما هو.

أردفت قائلا إنهم ربّما كانوا يشيرون إلى التصريح الشهير الذي أدلى به الرئيس روزفلت بعد محادثاته مع السيّد تشرتشِل. قال الرئيس، بعد انتهاء الحرب، ستُمنح جميع الأمم فرصة أن تقرّر مستقبلها وفقا لمبدإ تقرير المصير. حين سئل السيّد تشرتشِل في البرلمان إن كان مستقبل الهند سيُقرَّرُ على أساس تصريحه هذا، أجاب بشكلٍ قاطعٍ حاسم: لا. كان قد أعلن، لا مرّة واحدة بل ثلاث مرّات، أن ما يسمّى ميثاقا لن يطبّق أبدا على الهند، وأوضح أنّ تصريح الرئيس لن يطبّق في الهند. وحين تمّ لَفْتُ انتباه الرئيس روزفلت إلى ردّ السيّد تشرتشِل، اعترف الرئيس بأنّ محادثاته مع الوزير الأوّل البريطاني لم توثّق، وبالتالي فإن تصريحه لم تكن له أيّ فاعلية سياسيّة بالنسبة إلى تشرتشِل، ولا يُلزمه في شيء.

لم يكن المراسلون الأمريكان غافلين عن هذه الوقائع. لذلك اكتفوا بالابتسام عندما سألتهم ما هو هذا الميثاق وأين يُوجد. كانت هناك سيّدة ضمن المراسلين. سألتني هل كان سؤالي الإنكاري حول وجود الميثاق يشير إلى اعتراف الرئيس بأنْ لا وجود لوثيقة تحوي محادثاته مع السيّد تشرتشِل.

قلت: "بالطبع، هذا ما يجول في خاطري". كان آخر سؤال توجّه به المراسلون إليّ هو هل سأؤيّد مبدأ التعبئة العامة في الهند إذا قبل المؤتمر عَرْضَ وايفل.

أجبت قائلا إذا تأكّدت الهند من أنها ستنال حرّيتها فإنها ستخوض غمار الحرب طواعية. سيكون واجبنا الأول، حينها، هو توظيف الجهود الوطنية توظيفا كاملا وتأييد التعبئة العامة.

ذكّرت المراسل بتصريح كنت قد أدليت به منذ سنة 1940 باعتباري رئيس حزب المؤتمر الوطني. صرّحت وقتها قائلا إذا حُلّت مشكلة الهند السياسية فإنها لن تدخل الحرب بمحض إرادتها الحرّة فحسب، بل إنها ستتبنّى أيضا مبدأ التعبئة العامة، وترسل كلّ شابّ قادر على حمل السلاح إلى جبهة القتال.

كنت قد قلت، وقتها أيضا، إن عَرْضَنا هذا لا يعني أننا لا نرغب في العيش من أجل الديمقراطية فحسب، بل نرغب في الموت دفاعا عنها أيضا. أردفت قائلا إنها لخسارة أن البريطانيين لم يعطونا فرصة الموت بشرف، وتمّ رفض عَرْضي.

في يوم 14 يونيو/ حزيران 1945، أدلى السيد ل. س. آمِري كاتب الدولة للشؤون الهندية بتصريح في مجلس العموم أعلن فيه أنه سيتمّ منح الهند باعتبارها أمة حرّة مجالاً واسعا حتى تقرّر ما تراه في ما يخصّ الحرب. وحين سئل إذا كان سيسمح لقادة حزب المؤتمر الوطني أن يتولّوا دفّة الحكم، قال السيد آمِري إنهم كانوا يطلبون من ممثّلين عن المؤتمر وعن الرابطة الإسلامية أن يشكّلوا حكومة. هكذا ستكون للمؤتمر حرّية كاملة لاختيار أيّ ممثلين يرغبون فيهم بمن فيهم مولانا آزاد وبانديت نِهرو.

أثار هذا التصريح انطباعا عاما في الهند مفاده أن المشكلة السياسية في الهند أشرفت على الحلّ أخيرا. شعر الناس بوجود سبب وراء رفض المؤتمر للعَرْض. فبدأت أتلقّى كلّ يوم مئات البرقيات والرسائل تحثّني على أن يقبل المؤتمر العرض. حين رأيت هذا الجوّ السائد في البلاد أرسلت تصريحا موجزا إلى الصحافة. أشرت إلى أن المؤتمر لم يتنصّل من مسؤوليته أبدا، بل كان دائم الترحيب بها. إذا مُنِحت الهند فرصة أن تسطّر مصيرها السياسي والإداري سأبذل قصارى جهدي حتى يُقبَل التحدّي. وأعلنت بصرامة إنني أريد أن أشيّد صرح الحرّية. كانت مُقاربتي بنَّاءَةً لا هدَّامَةً.

بعد يوم من إطلاق سراحي تلقّيت في كلكوتا دعوة نائب الملك لقمّة الطاولة المستديرة التي كانت ستُعقَدُ في سِمْلاَ يوم 25 يونيو/ حزيران. أجبت قائلا إنني كنت قد دعوت اللجنة التنفيذية للاجتماع يوم 21 يونيو/ حزيران 1945. ستنظر اللجنة التنفيذية في رسالته وتعيّن ممثّليها. وكتبت إليه أيضا إنني أرغب في لقائه قبل القمّة، وسألته إن كان يرى مانعا في نشر المراسلات التي تمّت بيننا عندما كنت في معتقل أحمدناجار.

كانت صحّتي واهنة جدّا وقتها. كنت قد فقدتُ 40 رطلا من وزني، وبالكاد

كنت أقدر على تناول الطعام. كما كنت أعاني من وَهَنٍ عامٍّ وأشعر أنني مُرهَقٌ إرهاقا شديدا. أشار عليّ الأطباء بأن أطلب من نائب الملك تأجيل موعد القمّة أسبوعين على الأقلّ. وهذا أمرٌ سيمنحني فرصة أن أتداوى وأسترجع قواي. غير أنني اعتبرت أنه من غير اللاّئق أن أطلب تأجيل اجتماعٍ بهذه الأهمية الكبرى بسبب صحّتي الشخصية.

طلبتُ من هُومَايُون كَبِيرْ، وهو عضوٌ قياديٌّ في اللجنة التنفيذية البنغالية، أن يضطلع بدور سكريتاري أثناء قمّة سِمْلاَ. أرسلته إلى بُمباي ليحمل رسالة إلى جواهرلال. قلت لجواهرلال علينا أن نلتقي أنا وأنت أوّلا، وأن نقرّر خطّة عملنا قبل أن تجتمع اللجنة التنفيذية اجتماعا رسميا. وافق جواهرلال على اقتراحي وقال هذه هي خطّة العمل التي تجول في خاطره هو أيضا.

وصلتُ إلى بُمباي يوم 21 يونيو/ حزيران. وكالعادة أقمت عند بهولابهاي دساي في الغرفة نفسها التي جرى فيها اعتقالي صبيحة يوم 9 أغسطس/ آب 1942. حين جلست في الشرفة وتحدثت مع الأصدقاء، كان من الصعب عليّ أن أصدّق أن ثلاث سنوات كانت قد انقضت، شعرت كأنني كنت أحدّث الأصدقاء البارحة، وأحسست أيضا كأن الأحداث التي وقعت منذ يوم 9 أغسطس/ آب لم تحصل أبدا. كانت الأماكن المألوفة هي نفسها كما تركتها، وكان الأصدقاء القدامى هم أنفسهم، وبحر العرب هو نفسه يمتدّ أمامي حتى الأفق البعيد.

كان غاندي يقيم، كعادته دائما، في بيرلا هاوس. عقدنا اجتماع اللجنة التنفيذية هناك حتى يتمكّن من المشاركة بسهولة أكبر. حدّثت اللجنة التنفيذية عن الدعوة التي تلقّيتها لحضور قمّة سِمْلاَ. تفحّصتْ اللجنة التنفيذية الرسالة وقرّرت أن تسمح لي بتمثيل المؤتمر في اجتماع الطاولة المستديرة. أخبرنا نائب الملك بهذا القرار فقام بإعداد ترتيبات سفرنا من بُمباي. وضع تحت تصرّفنا طائرة أخذتنا إلى آمْبَالاَ. ومن هناك ركبنا سيّارة أقلّتنا إلى سِمْلاَ. يمكن أن أضيف هنا أنني قد تلقّيت، قبل أن أغادر بُمباي، ردّ نائب الملك على الرسالة التي كنت قد أرسلتها إليه من كلكوتا. جاء في رسالته أنه يوافق مسرورا على

لقائي قبل انعقاد القمّة. أما في ما يخصّ نشر المراسلات فقال بما أنني قادم إلى سِمْلاَ فإنه يرغب في أن يناقش الأمر معي مشافهة.

كان اليوم قائظا، وحين وصلنا إلى دلهي كان الإرهاق قد أخذ مني مأخذا كبيرا. تبيّن لي أن الرحلة بالسيارة من آمْبَالاَ إلى كَالْكَا كانت شاقّة. على طول الطريق كنّا نصادف حشودا كبيرة من الناس. كانوا يحيطون بالسيارة ويصعدون إلى مقدّمتها، ويبلغ بهم الأمر حدّ الصعود إلى سقفها. لم نتمكّن من الحركة إلا بمشقّة كبيرة. كأن الناس قد جُنّ جُنُونُهم وما كانوا يفسحون الطريق أمام السيارة إلا حين نناشدهم، المرّة تلو الأخرى، أن لا يكونوا سببا في تأخيرنا وأن يتركونا نعبُرُ. وفي نهاية المطاف، وصلنا إلى سِمْلاَ على الساعة العاشرة ليلا تقريبا. واتّجهنا إلى فندق سَافُويْ حيث حُجِزَت لنا غُرفٌ.

في اليوم الموالي التقيت بنائب الملك على الساعة العاشرة صباحا. استقبلني بلباقةٍ وحدّثني باقتضابٍ عن المقترحات التي كان قد أتى بها نيابة عن الحكومة البريطانية. قال لي إنه لن تتمّ تغييرات دستورية جذرية ما دامت الحرب مندلعة، لكن المجلس التنفيذي لنائب الملك سيكون متشكّلا كلّيا من الهنود، وسيفعل ما في وسعه لإعداد اتّفاقية تقضي بأن يتصرّف نائب الملك وفق نصائح المجلس. ناشدني أن أثق في الحكومة. كانت رغبته صادقة في أن يقع حلّ المشكلة الهندية بعد انتهاء الحرب، وأشار إلى أن الحرب توشك على نهايتها. لذلك فسيكون من مصلحة الهند أن تقبَل العَرْضَ وتتعاون مع البريطانيين بُغْيَةَ أن تتوّج الحرب بالانتصار. ثم أشار إلى الرابطة الإسلامية قائلا إنه لمن الضروري أن يكون هناك اتّفاقٌ بين المؤتمر والرابطة.

قلت له، بوضوح، يبدو أن التوصّل إلى اتّفاق مع الرابطة أمرٌ مشكوكٌ فيه كثيرا. يبدو أن الأشخاص الذين يديرون الرابطة واقعون تحت تأثير انطباعهم بأنهم حازوا مساندة الحكومة، وبالتالي فإنهم لن يقبلوا أيّ شروط عقلانية.

قال نائب الملك، بصرامة، إنه لمن غير الممكن إطلاقا أن تساند الحكومة الرابطةَ. وإذا كان لدى قادة الرابطة الإسلامية أفكارٌ مثل هذه فهم مخطئون

تماما. وأكّد لي أن الحكومة كانت وستظلّ محايدة.

عندها، أثرْتُ مسألة مراسلاتي معه من معتقل أحمدناجار، وعبّرت عن أملي في أن لا يكون لديه مانع في نشرها.

قال نائب الملك إنه لن يعارض إذا كنت أرغب حقّا في ذلك. لكنه كان يتصوّر أن نشرها في هذا الوقت بالذات غير ملائم. ذكر أننا نلتقي الآن كي نحاول إيجاد حلّ للمسألة الهندية بروح جديدة، ونرغب في أن ينسى الناس مرارة الماضي. وإذا تمّ إحياء ذكريات قديمة في مثل هذا الوقت، سيتغيّر الجوّ، وبدل أن يسود جوٌّ من الصداقة والوئام ستسود الرّيبة والسُّخط. ناشدني أن لا أسلّم المراسلات للنشر، وقال إنه سيكون ممتنّا جدّا إن أنا قبلت مقتَرَحه.

لاحظت أن نائب الملك كان صادقا، وهو يرغب بإخلاص في تغيير الأجواء. قلت له إنني أشاطره الرغبة في خلق مناخ جديد ومناقشة مسألتنا بروح جديدة مفعمة بالصداقة، وإنني لن أقوم بأيّ فعلٍ من شأنه أن يعيق هذا التطوّر. لذلك قبلتُ مقتَرَحه.

كرّر نائب الملك على مسمعي مرّتين أنه شاكر فضلي على هذا الموقف.

ثم شرح لي نائب الملك عَرْضَه شرحا مفصّلا. كان ردّ فعلي الأوّل أن هذا العرض لا يختلف في جوهره عن عَرْض كريبس. لكن هناك فارقٌ ماديٌّ في الملابسات. قُدِّمَ عَرْض كريبس عندما كان البريطانيون في أمسّ الحاجة إلى المساعدة الهندية. أما اليوم فإن الحرب في أروبا قد وضعت أوزارها وانتصر الحلفاء على هتلر. أعادت الحكومة البريطانية طرح عَرْضها السابق نفسه في محاولة منها لخلق مناخٍ سياسيٍّ جديد في الهند.

قلت لنائب الملك إن المؤتمر الوطني الهندي قد خوّلني أن أتصرّف باسمه، لكنني أودّ أن أستشير زملائي قبل أن أعطي إجابة نهائية. لذلك دعوت أعضاء اللجنة التنفيذية إلى الاجتماع في سِمْلاَ لمناقشة العَرْض. وبهذه الطريقة سأتمكّن من أن أطرح قرار المؤتمر في القمّة. غير أنني أكّدت للّورد وايفل أن

غايتي ستكون البحث عن حلّ لا خلق المصاعب.

أعجبتُ بصراحة نائب الملك وبصدقه عندما كان يشرح لي المقترحات. رأيت أن موقفه ليس موقف رجل سياسة بل موقف جنديّ. كان يتكلّم بصراحة وبطريقة مباشرة ويبلغ صلب الموضوع دون محاولة اللفّ والدوران. فاجأني أن مقاربته تختلف تماما عن مقاربة السير ستافورد كريبس. كان كريبس يحاول أن يقدّم مقترحاته بطريقة ملائمة قدر المستطاع. كان يركّز على نقاط القوّة ويحاول أن يتغاضى عن الصعوبات. لم يقم اللورد وايفل بأيّ محاولة لتجميل مقترحاته. ومن المؤكّد أنه لم يكن يحاول أن يؤثّر في النفوس. قال، بصريح العبارة، إن الحرب ما زالت متواصلة واليابان إنما تمثّل عدوّا رائعا. وفي وضع مثل هذا لم تكن الحكومة البريطانية جاهزة لاتّخاذ أيّ خطوات بعيدة المدى. إن تطوّرات مثل هذه يجب أن تنتظر حتى نهاية الحرب، لكنه كان يشعر أن أسس هذه التغييرات البعيدة المدى يمكن أن تُرسى الآن. سيكون المجلس التنفيذي هنديّا خالصا. وهكذا يكون رأس إدارة البلاد في حوزة الهنود. وحين يحصل هذا ستنمو وضعيّة جديدة تماما، وسيُضمن تطوّرٌ أكبر بعد الحرب.

خلقت محاورتي مع اللورد وايفل مناخا جديدا في سِمْلاَ. كان قد أعدّ، تلك الليلة، مأدبة عشاء رسميّ. ويبدو أنه تحدّث معي باحترام شديد أثناء ذلك العشاء. كما أنه ذكر قادة آخرين من الكونغرس وقال إنه مهما كان موقفهم السياسي أو اختلافاتهم مع الحكومة فإنهم سادةٌ فضلاء. سَرَتْ هذه الملاحظة سريان النار في الهشيم بسِملاَ. وخلقت حركيّة في الدوائر الرسميّة وغير الرسميّة. فجأة صار لدى العديد من الناس الذين كانوا يعاملون المؤتمر ببرود ويكادون لا يعترفون بوجودي أصلا عواطف إيجابية تجاهنا. قدّموا لي العديد من الهدايا، وحاولوا أن يوهموني بأنهم كانوا دائما، في قرارة أنفسهم، يكنّون الإعجاب للمؤتمر ويصطفّون إلى جانبه.

عشيّة يوم 24 اجتمعت اللجنة التنفيذية في منزل صارْدارْ هارْنامْ سِنْغ حيث كان غاندي يقيم. حدّثتهم بإيجازٍ عن محاورتي مع نائب الملك وعبّرت

لهم عن رأي مفاده أنه رغما عن أن عرض نائب الملك غير مختلف عن عرض كريبس، ينبغي أن نقبله. استندتُ إلى الظروف التي تغيّرت لأدعمَ موقفي. كانت الحرب قد انتهت في أوروبا، وحتى اليابان لم يعد بإمكانها أن تستمرّ طويلا. عندما تضع الحرب أوزارها لن يكون لدى البريطانيين أيّ سبب يدعوهم لطلب معونتنا. لذلك ليس من المحبّذ لنا أن نرفض عَرْضَ وايفل. ينبغي أن نشارك في القمّة واضعين نصب أعيننا أننا سنقبل بالشروط إذا كانت لائقة.

دار نقاشٌ طويلٌ، ولكن اللجنة التنفيذية قرّرت، في نهاية المطاف، أنه ينبغي أن نركّز في القمّة على النقاط التالية:

1. يجب أن نحصل على تصريح واضح يحدّد علاقة المجلس التنفيذيّ بنائب الملك. إذا توصّل المجلس إلى قرار ما بالإجماع، هل سيكون هذ القرار مُلزِما لنائب الملك، أم أنه بإمكانه أن يستخدم الفيتو حتى في حالات كهذه؟

2. يجب أن يُحدَّدَ موضع الجيش. كان هناك في وقت ما جدارٌ يفصل بين الجيش والشعب. يجب أن يتغيّر هذا ليُمْنَحَ قادةُ الهند فرصةَ الاتّصال بالجيش.

3. إن الحكومة البريطانيّة دفعت بالهند داخل أتون الحرب دون أن تطلب رأيها. رفض المؤتمر أن يقبل بهذا الوضع. إذا توصّلنا إلى حلٍّ، وكوّنّا مجلسا تنفيذيّا جديدا، فيجب أن يكون له الحقّ في أن يحيل مسألة مشاركة الهند في الحرب إلى المجلس التشريعيّ الهنديّ. ستشارك الهند في الحرب ضدّ اليابان لا امتثالا لقرار بريطانيٍّ، بل نتيجة تصويت ممثّليها.

كان غاندي حاضرا في هذا الاجتماع وشارك في اتّخاذ هذا القرار. ولم يَطْرَحْ، في هذه المناسبة، أن مسألة المشاركة في الحرب تعني أن المؤتمر يتخلّى عن اللاّعنف. بتعبير آخر، إنه لم يُثِرْ، ولو للَحظة واحدة مسألة العنف أو اللاّعنف. ظلّ أعضاء اللجنة التنفيذية الذين استقالوا في السّابق بسبب هذه المسألة صامتين هم أيضا.

وبموجب تصريح نائب الملك، حضر القمّة رؤساء المؤتمر الوطني الهندي، وقادة الرابطة الإسلامية، بالإضافة إلى ممثّلين عن الطوائف المجَدْولة[10]، وممثّلي السّيخ. كما دُعِيَ قائد حزب المؤتمر، ونائب قائد الرابطة الإسلامية بالمجلس المركزيّ، وقادةُ حزب المؤتمر، والرابطة الإسلامية في مجلس الدولة، وقادةُ الحزب القومي، والمجموعة الأوروبية في المجلس. وكان المشاركون الآخرون ممّن كانوا يشغلون وقتها مناصب رؤساء الحكومات الإقليمية، أو ممّن حصلوا على تلك المناصب مؤخّرا. حاولت منظّمة مَاهاصابْهَا الهندوسية أن تحصل على دعوة، لكن نائب الملك رفض طلبها.

طُلِب منّا أن نأتي قبل وقت قصير من موعد بدء االقمّة. استقبلنا نائب الملك في حديقة مقرّ إقامته الرسميّ حيث تمّ تقديمنا إليه بشكل رسمي. كانت صحّتي في غاية الوَهَنِ في ذلك الوقت، وكان من الصعب عليَّ أن أظلّ واقفا أكثر من دقائقَ معدودات. أخبرت السيد إيفان جنكينز السكرتير الشخصيّ لنائب الملك بهذا الأمر، فأخذني إلى ركنٍ وُضعت فيه أريكةٌ. بعد أن بقيت جالسا هناك بضع دقائق، عاد إليّ ومعه سيّدة قدمها إليّ على أنها عالمة عربيّة بارعة. حاولت أن أتكلّم معها باللغة العربيّة، لكنني تفطّنت إلى أن معرفة السيدة المسكينة باللغة العربيّة لم يكن يتجاوز حدود كلمَتَيْ: نعم ولا. ثم سألتها باللغة الإنجليزية لماذا تصوّر السكرتير الشخصي أنها تتكلّم بطلاقة. فقالت إنها أمضت بعض الشهور في بغداد، وأنها، أثناء عشاء ليلة البارحة، قالت لبعض

10 - الطوائف المجدولة: قبائل تُعتبر السكان الأصليين للهند، يُطلق عليها أيضا اسم آدفازي وهي تسمية سنسكريتيّة متكوّنة من كلمتين: آد تعني أصل، وفاز تعني يسكن. هؤلاء السكان الأصليّون أقليّة غير متجانسة في الهند، لكنهم يُعتبرون طائفة أساسيّة تتمتّع بالعديد من الامتيازات. (المترجمة)

المدعوين إن العربيَّ يستخدم عبارة "عَجِيبْ-عَجِيبْ" كلّما استغرب شيئا. وأضافت، ضاحكة، لا بدّ أن هذا فتَنَ الضيوف وخلق لديهم انطباعا بأنني عالمة عربيّة.

بعد بضع دقائق ظهر اللورد وايفل، وقال إنه آن الآوان كي نذهب إلى القاعة التي ستنعقد فيها القمّة. كانت الكراسي مصفوفة بطريقة تجعل كرسيَّ نائب الملك في الوسط. وبما أن حزب المؤتمر هو الحزب المعارض الأكبر جلس قادته على يسار نائب الملك. في حين جلس قادة الرابطة على يمينه، وربّما كان في هذا اعترافٌ ضمنيٌّ بأنهم يساندون الحكومة. استمرّت المفاوضات طوال اليوم، ولم تتخلّلها سوى استراحة الغداء. كانت القمّة مُغلقة، ولم تُدعَ إليها الصحافة. بعد الجلسة الأولى قلت للّورد وايفل إن العديد من التخمينات الجامحة ستروجِ حول مفاوضاتنا ما لم نمدّ الصحافة بشيءٍ رسميٍّ. لذلك فمن المفضّل أن نُصدر بلاغا صحفيا، لكن يجب أن يكون بلاغا تُجمِع عليه جميع الأطراف. قال إنه سيُعَدُّ تصريحٌ رسميٌّ بعد كلّ جلسة، وسيُجْمِع عليه كلّ المشاركين في القمّة قبل الإدلاء به. وبناء على ذلك، وصلتني مسودة في ذلك المساء أدخلت عليها تعديلا طفيفا واحدا أو تعديلين ثم أرجعتها. أُدخلت التعديلات قبل الإدلاء بالتصريح للصحافة. وتواصل الإجراء نفسه طيلة القمّة.

بعد أن بدأت القمة بقليل، صارت الخلافات بين المؤتمر والرابطة الإسلامية مكشوفة علانية. وحين أقبل اليوم الثاني كانت القمّة قد صادقت على عددٍ من المبادئ الأساسية مثل تمثيل الأقلّيات، ومساندة مجهود الحرب عن طيبِ خاطر، والاستمرار، حتى نهاية الحرب، في العمل بقانون المجلس التنفيذي الواقع تحت سلطة حكومة الهند. لكن ظهرت خلافات في ما يخصّ تكوين المجلس التنفيذيّ. كان طلب السيد جِنَّاه هو أن المؤتمر يستطيع أن يعيّن جميع الأعضاء الهندوس، أما الأعضاء المسلمون فيجب أن تُعيِّنهم الرابطة. نبّهتُ إلى أن المؤتمر لا يمكن إطلاقا أن يقبل طلبا كهذا. فقد كان يقارب دائما جميع المسائل السياسية من وجهة نظر قومية ولا يعترف بأيّ فصلٍ بين الهندوس والمسلمين في المسائل السياسية. ليس في وسع المؤتمر أن يوافق، في أي

ظرف من الظروف، على أن يكون منظّمة الهندوس وحدهم. لذلك ألححت على أنه يجب أن يُعطى المؤتمر حرّية تعيين أيّ هنديّ أراد بغضّ النظر عمّا إذا كان هندوسيّا أو مسلما أو مسيحيّا أو فارسيّا أو من السّيخ. ينبغي على المؤتمر أن يشارك على أساس القومية الهندية أو لا يشارك على الإطلاق. أما في ما يتعلّق بالرابطة الإسلامية فَلَها أن تُعيّن من تشاء.

انعقدت جلسة أخرى للقمّة صبيحة يوم 26 يونيو/ حزيران، غير أن الجلسة رُفعت قبل الغداء حتى يتمكّن المندوبون من التشاور في ما بينهم. عبّر السيد جِنّاه عن رغبته في إجراء محادثة غير رسميّة مع المؤتمر. عيّنت لهذا الغرض وجُوفيند جوفِنْد بالأَبَه بانتْ الذي فكّرت أنه سيكون الشخص المناسب للتفاوض مع السيد جِنّاه. تواصلت مفاوضاتهما بضعة أيام، لكن تبيّن، في النهاية، أنها فاشلة. خِيزِير حياة خان الذي حضر القمّة باعتباره رئيس حكومة بُنجاب التقاني العديد من المرّات خلال هذه القمّة. سُعدت حين وجدتُ أنّه كان قد اتّخذ موقفا عقلانيا جدّا من كل المسائل، وكان متعاونا ومشاركا في حلّ المشاكل ما إن تُطرَح.

كانت قمّة سِمْلا بمثابة كاسر أمواج في التاريخ السياسي الهندي. كانت هذه هي المرّة الأولى التي تفشل فيها مفاوضات لا بسبب المسألة السياسية الأساسية بين الهند وبريطانيا، بل بسبب المسألة الطائفيّة التي تفرّق بين مختلف الفصائل الهنديّة. إن استعادة الأحداث الماضية في تاريخ الرابطة الإسلاميّة ضروريّ حتى نفهم هذا التغيير. يمكن أن نميّز بوضوح ثلاث مراحل في موقف الرّابطة الإسلاميّة من المسائل السياسيّة.

تأسّست الرّابطة الإسلاميّة سنة 1906 في دَكّا بعد جلسة المؤتمر التربويّ الإسلاميّ التي انعقدت يوم عيد ميلاد المسيح. وهي تدين في وجودها إلى جهود نَوّاب مُشتاق حُسين. كنتُ حاضرا في هذه الجلسة وأتذكّر السببين الذين قُدّما لتأسيس هذه الرّابطة. ثمّة من قال إن أحد أهداف الرابطة سيكون تنمية الشعور بالولاء للحكومة البريطانية بين مسلمي الهند، وتقوية هذا الشعور.

والسبب الثاني هو تقديم مطالب المسلمين ضدّ الهندوس والجاليات الأخرى في ما يخصّ الخدمة تحت التاج، وبذلك تُحمى مصالح المسلمين وحقوقهم. يعني هذا أن قادة الرّابطة كانوا بطبعهم معارضين لمطلب الاستقلال السياسي الذي طرحه المؤتمر. كانوا يشعرون أنهم إذا شارك المسلمون في أي طلب من هذا القبيل، فإن البريطانيين لن يدعموا مطالبتهم بمعاملة خاصة في مجالي التعليم والخدمات. وفي واقع الأمر، كان أعضاء الرّابطة يصفون المؤتمر بأنه منظّمة متمرّدين خائنة ويعتبرون حتى القادة السياسيين المعتدلين من أمثال جُكْهالي والسيد فيروزشاه مهتا متطرّفَيْن. طوال هذه المرحلة، كانت الحكومة البريطانيّة دائما ما توظّف الرّابطة الإسلاميّة ضدّ مطالب المؤتمر.

دخلت الرّابطة الإسلاميّة المرحلة الثانية من نشاطاتها حين وجدت أن الحكومة كانت مضطرّة إلى أن تُجري بعض الإصلاحات نتيجة لضغط المؤتمر. تضايقت الرّابطة الإسلاميّة، بشكل ما، عندما رأت المؤتمر ينجز هدفه خطوةً، خطوةً. ظلّت خارج النضال السياسي، لكن ما إن يتمّ أيّ تقدّم، حتى تتقدّم بمطلب باسم الطائفة المسلمة. لاءَمَ برنامج الرّابطة الإسلاميّة هذا الحكومةَ ملاءمة كبيرة. والواقع أن هناك أسبابا تجعل المرء يعتقد أن الرّابطة كانت تتصرّف وفق رغبات البريطانيين. وقد تبنّت الموقف نفسه أثناء إصلاحات مُورْلي ومِنْتُو، ومخطّط مُونْتُفُورد للحكم الذاتي الإقليمي.

ثمّ جاءت المرحلة الثالثة في برنامج الرّابطة أثناء الحرب العالميّة الثانية. كان المؤتمر قد كسب الكثير من المهابة والقوّة. وبدا واضحا الآن أن الحكومة البريطانية سيكون عليها أن تعترف بحرّية الهند. كان السيد جِنَّاه قد أصبح الآن زعيم الرّابطة الإسلاميّة، وشعر بأن عليه أن يستغلّ أيّ خلاف بين المؤتمر والحكومة. كلّما تمّت مفاوضات بين المؤتمر والحكومة حول نقل السلطة، كان السيد جِنَّاه يظلّ صامتا في البداية. وإذا فشلت المفاوضات يصدر بيانا ضعيفا يدين فيه الطرفين ويقول فيه بما أن التسوية لم تتمّ، فلا حاجة للرّابطة الإسلاميّة بالتعبير عن رأي بخصوص العرض البريطاني. هذا ما فعله أثناء عَرْض أغسطس/ آب 1940، وعرضَيْ كريبس لسنة 1942. لكن قمّة سِمْلا

وضعته في وضعيّة لم يكن قد واجهها قَطُّ من قَبْلُ.

كما قلت سابقا، فشلت، إلى حدّ الآن، كلّ المفاوضات التي تمّت بين المؤتمر والحكومة حول مسائل سياسيّة. لم يكن المؤتمر مستعدّا لأن يقبل أيّ حلّ لا يضمن حريّة الهند. لذلك فشلت كلّ المفاوضات التي جرت بين المؤتمر والحكومة حول مسائل سياسيّة، ولم تصل المفاوضات إلى مرحلة مناقشة مسألة الطوائف أبدا. في قمّة سِملا، استطعتُ أن أقنع اللجنة التنفيذيّة للمؤتمر بقَبُول عرض اللورد وايفل. الآن وقد باتت المسألة السياسية بين الهند وبريطانيا مشرفة على الحلّ، انقضّ المؤتمر على مسألة تمثيل الطوائف في المجلس التنفيذي.

كنت قد شرحت سابقا أن المؤتمر قد وقف موقفا قوميّا في ما يخصّ هذه المسألة، في حين طالبت الرّابطة الإسلاميّة المؤتمرَ بأن يتخلّى عن طابعه القوميّ ويتصرّف كمنظّمة طائفيّة. وقف السيد جِنّاه موقفا غريبا وهو أن المؤتمر لا يستطيع أن يُعيّن إلا أعضاء المجلس التنفيذي الهندوس. سألت المشاركين في القمّة بأيّ حقٍّ يُملِي السيد جِنّاه أو الرّابطة الإسلاميّة على المؤتمر مَنْ يعيّن. إذا اقترح المؤتمر أسماء أشخاص مسلمين أو فُرس أو من السّيخ أو المسيحيين، فإن هذا سينقص عدد الممثّلين الهندوس، لكن ما شأن الرّابطة الإسلاميّة بهذا؟ وطلبت من اللورد وايفل أن يقول بشكل قاطع إن كان موقف الرّابطة الإسلاميّة يمكن أن يُعتبر موقفا منطقيّا.

لم يُعطِ اللورد وايفل جوابا مباشرا. لكن مضمون ما قاله هو أنه لا يمكنه قبول موقف الرّابطة الإسلاميّة ولا يمكن أن يعتبره موقفا منطقيّا. وقال، في الوقت نفسه، إن هذه المسألة يجب أن تُحسَمَ بين المؤتمر والرّابطة الإسلاميّة، ولن يكون من اللاّئق أن تقوم الحكومة أو أن يقوم هو شخصيّا بفرض حلٍّ على أيّ طرف من الطرفين.

انكشفت هذه الخلافات حول تركيبة المجلس التنفيذي بعد أن تمّ التوصل إلى حلّ في ما يخصّ المسألة السياسية. بعد أن تمّ قبول الإطار العامّ، جاء الوقت لتقترح الأحزاب أسماء ممثّليها. وبالطبع كان الاسم الأوّل في قائمة المؤتمر هو

اسم رئيس المؤتمر. أدرجنا أيضا اسمَيْ جواهرلال وصاردار باتل. دار نقاشٌ طويلٌ بيننا حول الاسمين الآخرين قبل أن نتوصّل إلى اتّفاق. كنت أَمْيَلَ إلى إدراج فارسيٍّ وهنديٍّ مسيحيٍّ.

لا بدّ من كلمة توضيحيّة تفسّر لماذا كنت أضغط لإدراج ممثّلين عن الأقلّيات. حين تمّ اعتقالنا في أغسطس/ آب 1942، حاولت الحكومة جاهدة أن تؤلّب بعض الأقلّيات على المؤتمر. كانت إحدى هذه الأقلّيات هي الأقلّية الفارسية. وهي طائفة صغيرة جدّا غير أنها تشغل مكانة مهمّة في الحياة القومية نظرا لأن أفرادها من المتعلّمين والأثرياء وذوي الكفاءات. أحسست أنّ ظلما قد وقع على أحد أفراد هذه الطائفة حين تمّ إقصاء ناريمان واختيار ب. ج. خير ليشغل منصب رئيس وزراء بُمباي. كنت قد أشرت إلى هذه الحادثة. تأثّر الفُرْسُ أيضا بأحد القرارات التي اتّخذها المؤتمر سنة 1937. عندما بدأ العمل بقانون الحظر في جميع أقاليم المؤتمر، كان تأثير هذا القانون على رجال الأعمال الفُرْس أكثر منه على أيّ أشخاص آخرين في أيّ طائفة أخرى. كانت تجارة الخمور تكاد تكون حكرا عليهم، وقد جعلهم الحظر يخسرون أعمالا تساوي كرور. غير أنّ الفُرْس لم يتأثّروا بهذين الحدثين، ورفضت طائفتهم أن ينساقوا وراء الألاعيب البريطانية. قام قادة الطائفة المهمّين والمرموقين، بالإجماع تقريبا، بتوقيع بلاغ يعلن بصريح العبارة أنهم كانوا وما زالوا مع المؤتمر في مسألة حرّية الهند، على الرغم من اختلافهم مع المؤتمر حول مسائل أخرى.

حين قرأت هذا البلاغ في معتقل أحمدناجار، انبهرت كثيرا وقلت لزملائي إن الفُرْس قدّموا خدمة جيّدة للهند بإصدار هذا البلاغ. كما اقترحت عليهم ضرورة أن نعترف بجميلهم على هذه الحركة. وعلى الرغم من أن الفُرْس طائفة صغيرة جدّا، شعرت أنه يجب أن يجدوا لهم مكانا في حكومة الهند المقبلة. لذلك أصررت، حين كنا نعدّ قائمة مرشحي المؤتمر للمجلس التنفيذي، على ضرورة إدراج اسم فارسيٍّ في القائمة التي يقدّمها المؤتمر. أعجب غاندي وأعضاء اللجنة التنفيذيّة بفكرتي، لكنهم شعروا أنه لن يكون من الممكن إدراج

اسم فارسي بما أن المؤتمر لا يمكن أن يعيّن إلا خمسة أشخاص. لكنهم وافقوا على ضرورة بذل قصارى الجهد حتى يُدرج فارسيٌّ في حكومة مقبلة. لم يكن بوسعي أن أوافق على هذا. قلت لهم إن المستقبل غير مضمون. ما دامت الفرصة سانحة الآن كي نعيّن الأشخاص الذين نختارهم، علينا إدراج فارسيٍّ في قائمتنا. بعد يومين من النقاشات، فازت فكرتي في نهاية المطاف.

تمسّكت أيضا بضرورة إدراج اسم مسيحيٍّ هنديٍّ ضمن قائمة المؤتمر. كنت على يقينٍ من أنه لا يمكن لأيّ جهة أخرى أن ترشّح ممثّلا لهذه الطائفة. سيكون للسّيخ وللطوائف الأخرى المعترف بها ممثّلون، في جميع الحالات، لكن لن يجد أيّ مسيحيّ مكانا له في الحكومة إلا إذا رعاه المؤتمر. ذكرت كذلك أنّ الطائفة الهنديّة المسيحيّة كانت دائما واقفة إلى جانب المؤتمر وكانت تقف موقفا قوميا في كلّ مشاكلنا السياسية.

كانت النتيجة هي أن القائمة التي قدّمها المؤتمر لم تكن تحتوي سوى على اسمين هندوسيين. وهذا دليل، إذا كنا نحتاج إلى دليل، على أنّ المؤتمر ليس منظّمة هندوسية. يمكن أن يُقال إن الهندوس، باعتبارهم الطائفة ذات الأغلبية في الهند، قد يعارضون هذا المقترح. فقد وقف هندوس الهند بثبات وراء المؤتمر ولم تتزعزع مواقفهم، حتى عندما علموا أن من بين الأسماء الخمسة الموجودة على قائمة المؤتمر ثمة ثلاثة رجال يمثّلون المسلمين والمسيحيين والفرس. حاولت منظّمة مَاهاصابْهَا الهندوسية أن تقيم الدنيا ولا تقعدها حول هذا القرار الذي اتّخذه المؤتمر، لكنها فشلت فشلا ذريعا كما يعلم الجميع. ومن مفارقات الدهر أنّ الرابطة الإسلاميّة كانت تعارض، هي الأخرى، إدراج المؤتمر اسم أحد المسلمين في قائمتها، مثلها في ذلك مثل مَاهاصابْهَا.

وأنا أستعيد شريط الأحداث بعد مضيّ عشر سنوات، لا أزال غير قادر على أن أمنع نفسي من الشعور بالدهشة أمام الوضعية الغريبة التي نشأت نتيجة موقف الرابطة الإسلاميّة. كانت القائمة التي أعدّها اللورد وايفِل بنفسه تتضمّن أربعة أسماء، إلى جانب خمسة أسماء من المؤتمر، وخمسة أسماء

من الرابطة الإسلاميّة. أحد الذين وردت أسماؤهم في قائمة اللورد وايفل هو ممثّل السّيخ، وممثّلان عن الأقليات المعترف بها، والرابع هو خيزير حياة خان الذي كان رئيس حكومة بُنجاب وقتها. ردّ جِنّاه ردّ فعلٍ عنيف على المقترح الذي بموجبه سيكون في المجلس التنفيذي مسلمان ليس هو من قام بتعيينهما. جاءني خِيزير حياة خان فطمأنته على أنّ المؤتمر لن يعترض على إدراج اسمه. وحدّثت اللورد وايفِل بهذا الأمر. لذلك، لو أن القمة لم تنفضّ بسبب معارضة جِنّاه لكانت النتيجة هي حصول المسلمين، وهم 25 % من مجموع سكّان الهند، على سبعة ممثّلين في مجلس يتكوّن من أربعة عشر عضوا. هذا يدلّ على كرم المؤتمر، ويسلّط الضوء على غباء الرابطة الإسلاميّة. كان من المفترض أن تكون الرابطة حامية لمصالح المسلمين، لكن بسبب معارضتها، حُرم مسلمو الهند من حصّة جوهرية في حكومة الهند غير المقسّمة.

بعد انتهاء القمّة، التقيت الصحافة، وشرحت العقبات التي تعيق مشاركة المؤتمر في القمّة. فقد جرى تقديم المقترحات إلينا فجأة. تمّ الإفراج عنّي وعن زملائي يوم 15 يونيو/ حزيران، وكان يتوجّب علينا أن نتّخذ قرارا فوريّا في ما يخصّ المخطّط. لقد أُلقي بنا في عالم جديد، ورغم ذلك قرّرت اللجنة التنفيذيّة المشاركة في القمّة. تبيّن لنا أن تغيّرات كبيرة قد حصلت على الصعيد العالمي، ولا بدّ أنّ هذه التغيّرات كانت لها تأثيرات على المسألة الهنديّة. كانت النتيجة الحتميّة لهذه التغيّرات هي جعل مسألة حرّية الهند وحرّية بلدان آسيوية أخرى تطفو على السّطح.

قلت للصحافة إنني أكّدت، خلال مفاوضاتي مع نائب الملك، على الطابع القومي لحزب المؤتمر. كما أوضحت له أن اللجنة التنفيذيّة للمؤتمر تبتغي المشاركة بجميع الأشكال المعقولة للمساعدة في حلّ المأزق الحالي. وبناء على ذلك، ورغم الظروف المعاكسة، جاء المؤتمر إلى سِمْلا للمشاركة في القمّة. لكن، مهما يكن القرار الذي تتّخذه اللجنة التنفيذيّة، فإنّه يتطلّب مصادقة لجنة مؤتمر كلّ الهند.

وكي أُطنب في ملاحظاتي حول بلدان جنوب شرق آسيا قلت أيضا إنه لو نجحت قمّة سِمْلاَ لكفّت الحرب عن كونها حرب بريطانيا ضدّ اليابان وأصبحت حرب الهند ضدّ اليابان. لم يكن هناك مجالٌ لوجود وجهتَيْ نظر حول مسألة تحرير بلدان جنوب شرق آسيا. سيكون من واجب الحكومة الجديدة في الهند أن تواصل الحرب ضدّ اليابان إلى أن يتمّ تحرير هذه البلدان. لكن لا يمكن للحكومة الهندية أن تكون طرفا إذا كانت النيّة تقتصر على إعادة هذه البلدان إلى حاكميها الأروبيين السابقين. لن نسمح باستخدام جنديّ هنديّ واحدٍ، أو بإنفاق فلسٍ واحدٍ للمحافظة على الوضع الراهن في بلدان جنوب شرق آسيا.

قلتُ للصحافة أيضا، الآن وقد تمّ الاتّفاق حول مسألة جوهرية هي مسألة نقل السلطة إلى أياد هنديّة فإن المؤتمر يستطيع أن يتمثّل حجم المجلس التنفيذي الجديد وقوّته. تأجّلت القمّة حتى يتسنّى للمحادثات السرّية وغير الرسمية بين الأطراف أن تتمّ. ويمكنني الآن أن أورد مقتطفات من التصريح الذي أدليت به:

لم تُسفر المباحثات عن أيّ نتيجة. ففي سياق المحادثات غير الرسمية كان الموقف الذي اتّخذه السيد جِنّاه هو أن الرابطة الإسلامية يمكنها، باسم المسلمين، أن تنتدب الأعضاء المسلمين في المجلس التنفيذي الجديد. تبيّن للمؤتمر أن مثل هذا الموقف لا يتماشى مع طابعه المستند إلى أُسسٍ قومية. عليكم أن تتذكّروا أن المسألة ليست مسألة مقاعد فحسب، بالنسبة إلينا على الأقلّ، بل إنها مسألة تمسّ مبدأً أساسيا. نحن مستعدّون لاستيعاب الرابطة الإسلامية إلى أبعد حدود ممكنة، لكن السيد جِنّاه اتّخذ موقفا لا توسّط فيه.

طلب نائب الملك من مختلف الجماعات أن

تمدّه بقوائم أسماء سيختار سعادَتُهُ منها أعضاء المجلس التنفيذي بعد استشارة رؤساء الأحزاب. رفض السيد جنّاه أن يمدّه بأسماء. وفي المحاورة التي دارت بيني وبين سعادته يوم 12 يوليو/ تمّوز، قال لي، في ما يخصّ مقاعد المسلمين، إنه ينوي إعداد قائمة ويطلب موافقة السيد جنّاه عليها. ثم أردف نائب الملك قائلا إنه فعل ما في وسعه لكنّه فشل في إقناع السيد جنّاه. لقد أصرّ السيد جنّاه على أن كلّ الأعضاء المسلمين يجب أن تعيّنهم اللجنة التنفيذية للرابطة. لم يستطع نائب الملك أن يوافق على هذا الأمر وشعر أنْ لا جدوى من مواصلة العَرْضِ في الوقت الحالي.

ثمّة نقطتان تولّدتا عن الوضع الراهن: النقطة الأولى هي أن موقف الرابطة الإسلامية كان السبب في فشل القمّة. النقطة الثانية المتولّدة عن رفض الرابطة الإسلامية هي أنه على اللورد وايفل أن يقرّر إن كان على القمّة أن تتواصل أو لا. قرّر سعادته أن لا تتواصل في الوقت الحالي. وما دمنا بصدد الحديث عن هذا الأمر عليَّ أن أكرّر ما قلته في القمّة: لا تستطيع الحكومة البريطانية أن تعفي نفسها من مسؤولية المشاكل الطائفية القائمة هنا. عليها أن تتّخذ، اليوم أو غدا، موقفا صارما عادلا مبنيّا على الإنصاف. ليس هناك من خيار آخر غير هذا. وحين نتوصّل إلى قرار علينا أن نمضي إلى الأمام قُدُما. أولئك المستعدون إلى المضيّ قُدُما يجب أن يُسمح لهم

بالمضيّ قُدُما، وأولئك الذين يرومون التخلّف عن الركب فَلْيتخلّفوا. لا شيءَ يُنجَزُ دون إصرارٍ. إن العقول المتذبذبة والخطوات المتردّدة لن تقودنا أبدا إلى الأمام على طريق التقدّم. علينا أن نفكّر قبل أن نخطو خطوة واحدة، لكن حين نتّخذ قرارا يكفّ التردّد عن كونه فضيلة ويصبح علامة ضَعْفٍ بَيِّنٍ.

أخبرت ممثلي الصحف بأنني لست نادما، بأي شكل من الأشكال، على موقف المؤتمر في هذه القمّة.

لقد فعلنا ما في وسعنا حتى نلبّي رغبات السيد جِنّاه، لكنه لم يكن في استطاعتنا أن نقبل إدّعاءه أن الرابطة الإسلامية هي الممثّل الوحيد لمسلمي الهند، والمنظمة الرسمية الناطقة باسمهم. لم يكن للرابطة أيّ وزارة في الأقاليم التي كانت أغلبية سكانها من المسلمين. كان للمؤتمر وزارة في إقليم الحدود. وفي بُنجاب توجد وزارة اتحادية. وفي السند كان السيد غلام حسين معتمدا تماما على مساندة المؤتمر، والأمر ذاته كان يحدث في أسّام. ولذا، ليس من الممكن أن يُدَّعى أن الرابطة الإسلامية تمثّل جميع المسلمين. فثمّة عددٌ كبيرٌ من المسلمين ليست لهم أيّ علاقة بالرابطة.

أودّ أن أشير، قبل أن أفرغ من هذا الفصل، إلى إحدى نتائج حركة "غادروا الهند". في هذه الفترة ظهرت، على الساحة الهندية، شخصيات جديدةٌ تطلّبها الوضع الجديد. من بينها السيدة آساف علي التي ذكرت سابقا، أنها قالت لي في صبيحة يوم 9 أغسطس/ آب 1942 على رصيف محطّة قطار بُمباي إنها لن تبقى مكتوفة اليدين. بعد أن تمّ اعتقالنا جابت البلد بأكلمه بُغْيَةَ تنظيم مقاومة تواجه الجهد الحربي البريطاني. لم تكن لتهتمّ بالفرق بين العنف واللاّعنف، بل كانت تعتمد أيّ طريقة تراها ناجعة. بعد وقتٍ وجيزٍ بدأت الحكومة تراقبها وتقوم ببعض المحاولات لاعتقالها. فمدّ العديد من الهنود

يَدَ العون للسيدة آساف علي. وكان من بين هؤلاء الهنود العديد من الضبّاط الحكوميين وأرباب المصانع الذين كانوا يُعتَبَرُون مساندين للحكومة يدينون لها عادةً بالولاء. ساعدها بعض رجال الأعمال من بُمباي وكلكوتا، حتى أنها أقامت في بيوت ضبّاط الخدمة المدنية الهندية، وضباط الجيش. كانت تستطيع أن تجمع أيّ مبلغٍ ماليٍّ تحتاج إليه، وواصلت تحرّكاتها طيلة فترة اعتقالنا.

حين تمّ الإفراج عنّي سنة 1945 جاءت لزيارتي سرّا. حدّثت اللورد وايفل عنها، فقال إنه لن يعتقلها بسبب نشاطاتها السابقة، لكن ماذا عن المستقبل؟ قلت للّورد وايفل إن الوضع السياسي قد تغيّر ومن غير المرجّح أن تواصل نشاطها التخريبي. وحين أيقنت أنه لن يتمّ اعتقالنا دعوتها إلى الخروج، ففعلت في النصف الأخير من عام 1945.

كانت نشاطاتها قد أصبحت معروفة إلى درجة أن نائب الملك استشهد بقضيتها في خطبة من خطبه حتى يشكّك في حسن نوايا المؤتمر في ما يخصّ موضوع اللاّعنف. قال، حين تكون زوجة أحد أعضاء اللجنة التنفيذية متورّطة في أعمال عنف، كيف يمكن للحكومة أن تصدّق تصريحات المؤتمر حول اللاّعنف عندما علمنا بهذه التطوّرات ونحن في معتقل أحمدناجار تنبّهت إلى أن آساف علي كان مغتمّا، لم يكن مغتمّا بسبب اعتقاله هو، بل كان قلقا بسبب الأخطار المحدقة بزوجته. حاولت أن أطمئنه قائلا له إنه لا ينبغي له أن يقلق عليها، بل على العكس من ذلك عليه أن يفخَرَ بأنها كانت تتحلّى بكلّ هذه الشجاعة، وبروح المبادرة من أجل قضيّة عادلة.

10 - انتخابات عامّة

بعد قمّة سِملا ألحّ الأطبّاء على نصحي بأن أذهب إلى كشمير طلبا للراحة. كانت صحّتي لا تزال واهنة، وكنت أجد صعوبة حتى في القيام بواجباتي العادية باعتباري رئيس المؤتمر. كان جواهرلال أيضا محتاجا إلى الراحة، وقرّر هو الآخر التوجه إلى كشمير. أمضيت شهرَيْ يوليو/ تمّوز وأغسطس/ آب في جولمارج. وبينما كنت هناك بلغني أن حزب العمّال حقّق فوزا غير مسبوق في الانتخابات العامة البريطانية، فأرسلت، على التوّ، رسالة تهنئة إلى آتلي وكريبس عبّرت فيها عن أملي في أن ينجز حزب العمّال، الآن وقد وصل إلى السلطة، الوعود التي ما فتئ يعطيها للهند طيلة السنوات التي قضاها في المعارضة. قال آتلي ردّا على رسالتي إن حزب العمّال سيفعل ما في وسعه حتى يصل إلى حلٍّ صائب لمشكلة الهند. وأرسل إليّ كريبس برقية جاء فيها أنه يأمل في أن لا يَخيبَ أملُ الهند. يمكن أن أضيف هنا أنّ تبادل البرقيات هذا، لم يعجب غاندي وجواهرلال. كانا يشكّكان في موقف حزب العمّال من الهند. أما أنا فقد كنت مقتنعا بأن حزب العمّال سيُقَارِبُ المشكلة الهندية من زاوية جديدة وكنت متفائلا بالنتيجة.

بعد هذا بقليل، أعلن نائب الملك أن الانتخابات العامة ستجري في الهند في الشتاء المقبل. هذا الأمر جعل من الضروري الدعوة إلى اجتماع اللجنة التنفيذية ولجنة مؤتمر كلّ الهند. كان لا بدّ للمؤتمر أن يقرّر ما هو الموقف الذي

سيتّخذه بعد فشل قمّة سِملاَ. كان البعضُ يميل إلى الدخول في تحرّك جديد، في حين كان البعض الآخر يرى أنه على المؤتمر أن يقاطع الانتخابات حتى إن لم يشرع في تحرّك جديد. أما أنا فكنتُ أرى أنْ لا مبرّر أصلا لهذين المقترحين. إذا كانت قمّة سِملاَ قد فشلت فلم يكن ذلك ذنْبُ البريطانيين. لقد كان سببُ الفشل طائفيا لا سياسيا.

كنت لا أزال في جولمارج حين حصل تطوّرٌ جديدٌ لم يحصل من قبلُ قَطُّ في تاريخ العالم. قصف الأمريكان هيروشيما وناكازاكي بقنابل ذرّية. قبل أن يتمّ استخدام هذه القنابل كان التقدير العام يشير إلى أن إلحاق الهزيمة بالمقاومة اليابانية سيتطلّب سنتين على الأقل. لكن بعد ما جرى في هيروشيما وناكازاكي تغيّر الوضع تماما. لم يكن لليابانيين ردٌّ على سلاح التدمير، هذا السلاح الجديد المخيف، واضطرّوا إلى أن يستسلموا استسلاما غير مشروط. كانت الحرب في أروبا قد انتهت فعلا. وفي غضون أسابيع قليلة وطأت أقدام الجيش الأمريكي الأرض اليابانية واحتُلت طوكيو. وأصبح الجنرال ماكارثر عَمَلِيا حاكم اليابان.

لا أزال مقتنعا بأنه لم يكن هناك داعٍ لقصف اليابان بالقنابل الذرية، فلقد دمّر هذا السلاح معنويات العدوّ تدميراً تامّا. والواقع أنه سلاح يهدّد بتدمير العالم. حين استخدم الألمان الغاز السام ضد البريطانيين، في الحرب العالمية الأولى، أدانهم الرأي العام العالمي إدانة شديدة. إذا كان الألمان وقتها مذنبين لا إنسانيين، كيف يمكن للمرء أن يغفر للأمريكان الذنب نفسه؟ أحسست أن استخدام القنابل الذرّية يتجاوز حدود التدمير المسموح بها، ولا يعود على الحلفاء بالفَخَارِ ولا بالبطولات. ولاحظت أيضا، بكلّ أسف، أن الحلفاء هلّلوا لهذا الحدث باعتباره انتصارا باهرا وكِدتَ لا تسمع كلمة احتجاج واحدة.

كانت صحّتي لا تزال في غاية الوَهَنِ، فشهر يوليو/ تمّوز وشهر أغسطس/ آب ليسا الفصل المناسب للإقامة في كشمير ولم أستفد كثيرا من إقامتي فيها. وبحلول شهر سبتمبر صار الطقس في غاية اللّطف فبدأت أتحسّن بسرعة.

عادت إليّ شهيّتي وصرت قادرا على التَرَيُّض. أنا متأكّد من أنه لو كان بإمكاني أن أبقى فيها شهرا آخر لاستعدت صحّتي تماما. غير أن الظروف اضطرتني إلى مغادرة كشمير. كانت اللجنة التنفيذية ولجنة مؤتمر كلّ الهند يحتاجان حضوري. وعند ما نزلت إلى السهول اختفى التحسّن المؤقت الذي شهدته صحّتي.

طوال هذه الشهور، كان الأمريكان يرسلون، جوّا إلى كشمير، أعدادا غفيرة من ضبّاط الجيش طَلَبا للراحة والاستجمام. كلّ أسبوعين كانت تُرسَلُ مجموعة جديدة من الضباط إلى سريناجار. أتى بعض هؤلاء الضبّاط لمقابلتي في منزلي. حين سمعوا أنه عليّ أن أعود إلى دلهي عرضوا عليَّ أن أسافر في طائرة خاصّة بأمر الجيش الأمريكي. أوصلتني الطائرة إلى دلهي يوم 10 سبتمبر، فقصدت بونا. اجتمعت اللجنة التنفيذية في بونا يوم 14 سبتمبر. وبعد أيام قليلة أُجِّل الاجتماع لينعقد في بُمباي. كانت هناك نقاشات حامية الوطيس داخل اللجنة التفيذية، وداخل لجنة مؤتمر كلّ الهند، حول خطّتنا السياسي الجديد. كانت الأغلبية، بما في ذلك غاندي، ترى أن نسخّر أنفسنا كليا لأعمال البناء بكل معنى الكلمة. كانوا يعتقدون أنه لا وجود لأمل كبير على الصعيد السياسي.

حاجَجْتُهُم قائلا لقد حدث تغيرٌ كبيرٌ في بريطانيا نتيجة تشكيل حكومة حزب العمّال. كان حزب العمّال يكنّ وِدّا دائما للهند، وفي ضوء هذا إنه ليفضّل أن نعطيه فرصة حتى يثبت نواياه الحسنة. كنتُ على اقتناع كلّي بأنه علينا أن نقوم بتحرّك جديد، بل علينا أن نشارك في الانتخابات العامة. كما نبّهت إلى أن قمّة سِمْلاَ كانت محاولة جدّية لحلّ مشكلة الهند. ورغم أنها قد فشلت فعلينا أن نثمّن الروح التي أبداها اللورد وايفل، وننتظر التطوّرات القادمة، الآن وقد أصبح حزب العمّال في السلطة. في نهاية المطاف، وبعد نقاشات كثيرة، اقتنع الجميع بوجهات نظري.

فكّرت في أنه من الضروري أن أتولّى قضية المساجين السياسيين. كانت

حكومة الهند قد أفرجت عن بعض الأعضاء لكن الآلاف من أعضاء المؤتمر العاديين كانوا لا يزالون رهن الاعتقال. آنَ انعقاد قمّة سِملاَ لم يكن واضحا بالنسبة إليّ ما هي الخطوة الموالية التي يجب أن نخطوها. لذلك لم أطرح في القمّة مسألة العفو العام على جميع المساجين السياسيين.

بعد القمّة حصل تغييران هائلان غيّرا كامل المشهد. التغيير الأوّل هو الفوز الساحق الذي حققه حزب العمّال في بريطانيا. والثاني هو إلقاء القنبلة الذرية وانتهاء الحرب. أصبح المشهد السياسي أكثر وضوحا على الصعيدين الوطنيّ والعالميّ. كنت مقتنعا بأنه علينا أن نتّبع سياسة مزدوجة. علينا، من ناحية، أن نحافظ على روح النضال حيّةً في صفوف الشعب الهندي، ومن ناحية ثانية، يجب أن نتجنّب أيّ خطوة متسرّعة. جرت الأحداث كما توقّعتُ. فبعد وقت قصير من انتهاء الحرب أعلن اللورد وايفل أن انتخابات عامّة ستُجرى في الهند. ما إن سمعت هذا الإعلان حتى أدركت أنه آنَ أوَانُ الإفراج عن المساجين السياسيين. بعد أن تمّ الإعلان عن انتخابات عامّة، لم يعد بالإمكان إيجاد تعلّة لإبقائهم رَهْنَ الاعتقال.

كتبتُ إلى اللورد وايفل من جولمارج وقلت له إنني لم أُثِرْ قضيّة المساجين السياسيين في سِملاَ لأن الوقت لم يكن ملائما. تغيَّرَ الوضع الآن. ما دامت الحرب قد انتهت، وما دامت الانتخابات العامّة قد أُعلنت يجب أن يصدر عفوٌ عامٌّ. إن هذا الأمر ضروريٌّ لمصلحة الشعب الهندي والحكومة. أما بالنسبة إلى المعتقلين أنفسهم فإنهم قد ظلّوا في المعتقلات سنينا، وهم على استعداد لأن يمكثوا فيها بضعة شهور أخرى. إن الاعتقال المتواصل لن يؤذيهم ولكنه سيقلّل من احتمال الوصول إلى حلّ. إذا كانت الحكومة ترغب في إيجاد مناخٍ سياسيٍّ جديدٍ فعليها أن تطلق سراح جميع المساجين السياسيين.

ردّ عليّ اللورد وايفل ببرقيّة. قال فيها إنه يتّفق معي في ما أراه، وإنه سيصدر أوامر لإخلاء سبيل المساجين السياسيين. غير أنه لم يصدر أمرا بالعفو العامّ، مما أدّى إلى الإفراج عن مساجين المؤتمر، في حين ظلت مجموعة

صغيرة من العمال اليساريين المنتمين إلى المؤتمر معتقلة. وهذه المجموعة تضمّ كلاً من جايابْراكاش نارايان، ورامانَنْدان ميشرا، وغيرهما.

لم تعجبني النتيجة التي أسفر عنها تدخّلي. لم أكن أرى سببا يجعل مجموعة صغيرة من اليساريين تظلّ رهينة السجون في حين يُفرج عن كلّ الآخرين. كانت لدى حكومة الهند شكوكٌ ضدّهم، لكن لا وجود لدليلٍ على أنهم تصرّفوا بشكل مختلف عن الشكل الذي تصرّف به بقية عمّال المؤتمر الذين شاركوا في تحرّك غادروا الهند. بعد أن اجتمعت لجنة مؤتمر كلّ الهند في بُمباي في شهر سبتمبر، كتبت رسالة طويلة مفصّلة للّورد وايفل، قلت فيها إذا لم يقع الإفراج عن هذه الحفنة من المساجين السياسيّين، فإن ذلك سيؤثّر على البلاد تأثيرا يُؤسَفُ له. إذا كان اللورد وايفل يريد أن يخلق مناخا ملائما في البلاد، ينبغي أنٍ يوافق على إصدار عفوٍ عامٍّ، ويطلق سراحهم. وأخيرا وافق اللورد وايفل، فأفرج عنهم كلّهم.

قرّرت لجنة مؤتمر كلّ الهند أن تقوم اللجنة التنفيذيّة بإعداد بيانٍ رسميٍّ للانتخابات تعرضه على لجنة مؤتمر كلّ الهند حتى تتدارسه وتصادق عليه. كما سمحت للّجنة التنفيذيّة بإصدار بيانٍ مبدئيٍّ باسم اللجنة المركزيّة للانتخابات. لم يكن من الممكن عقد أيّ اجتماع للجنة مؤتمر كلّ الهند لتدارس البيان في شكله الكامل نظرا لأنّ الانتخابات العامّة كانت وشيكة. لذلك أصدرت اللجنة التنفيذيّة البيان التالي:

البيان الانتخابي

ظلّ المؤتمر الوطني يناضل طيلة ستين سنة من أجل حريّة الهند. أثناء هذه السنوات الطويلة، كان تاريخه هو تاريخ الشعب الهنديّ الذي يرزح تحت نَيْرِ القيود التي تكبّله يحاول باستمرار أن يفكّ أسره. منذ بدايته صغيرا حتى كبُر تدريجيا وانتشر في عرض البلاد حاملا رسالة الحريّة إلى

جماهير شعبنا في المدن وصولا إلى أبعد القرى اكتسب السلطة والقوّة من جماهير الشعب هذه، وتحوّل إلى تنظيم ضخم هو رمزٌ حيٌّ نابضٌ لإرادة الحريّة والاستقلال لدى الهند. وهب نفسه، جيلا بعد جيل، لهذه القضية المقدّسة، وباسمها، وتحت رايتها، قدّم عدد لا يُحصى من مواطنينا ومواطناتنا أرواحهم وعانوا الأمرّين من أجل الوفاء بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم. دخل قلوب شعبنا بالعمل والتضحية؛ وبرفضه الخضوع لما يشينُ أمّتنا، شيّد حركة قويّة لمقاومة العدوان الخارجيّ.

إنّ مسيرة المؤتمر كانت، دائما، ولا تزال تتميّز بالجهد البنّاء في سبيل الشعب، وبالنضال المستمرّ في سبيل الحريّة. أثناء هذا النضال، واجه العديد من الصّعاب، ووجد نفسه، مرارا وتكرارا، ووجها لوجه، في مواجهة مع قوّة عسكريّة غاشمة لإمبراطوريّة عظمى. يتّبع المؤتمر أساليب سلميّة، ولم ينجح في البقاء رغم هذه الصراعات فحسب، بل أصبح بفضلها يتمتّع بقوّة جديدة. بعد الثلاث سنوات الأخيرة التي تميّزت بانتفاضة جماهيريّة غير مسبوقة تمّ إخمادها بوحشيّة وضراوة، نهض المؤتمر وهو يتمتّع بقوّة أكبر من ذي قبل، ويتمتّع بأكبر قدر من حبّ الناس الذين وقف معهم وسط العواصف والمحن.

وقف المؤتمر مدافعا عن تساوي الحقوق

والفرص لكلّ مواطن هندي، رجلا كان أو امرأة. ووقف مناديا بوحدة كلّ طوائف الهند وكلّ المجموعات الدينيّة، وبالتسامح والنوايا الحسنة بينها. لقد وقف من أجل حقوق الشعب الكاملة في النموّ والتطوّر حسب رغباته الخاصّة وعبقريّته الخاصّة. كما وقف أيضا، من أجل الدفاع عن حريّة كلّ مجموعة وكلّ رقعة من تراب الوطن في تنمية حياتها الخاصّة وثقافتها الخاصّة ضمن النطاق الأوسع، ولهذا الغرض ينبغي أن تكون هذه الأقاليم أو هذه المناطق الإقليميّة مبنيّة على أساس وحدة اللغة والثقافة، قدر الإمكان. ووقف مدافعا عن حقوق كلّ من يعانون من الجَوْر الاجتماعي ومن الحيْفِ الاجتماعي، مطالبا بأن تُزاح من أمامهم كلّ معيقات المساواة.

وضع المؤتمر تصوّرا لدولة حرّة، ديمقراطيّة، يضمن دستورُها الحقوق الأساسيّة والحريات المدنيّة لجميع المواطنين. هذا الدستور، في رأي المؤتمر، ينبغي أن يكون فدراليّا يمنح استقلاليّة كبيرة للوحدات التي تكوّن الفدراليّة وللهيئات التشريعية المنتخبة بموجب اقتراع عامّ للرّاشدين.

إنّ مائة وخمسين عاما وأكثر من الهيمنة الأجنبيّة قد أوقفت نموّ البلاد وخلقت مشاكل قاتلة تتطلّب حلاّ فوريّا. إنّ الاستغلال المفرط للبلاد والعباد أثناء هذه الفترة قد سحق الجماهير إلى درجة أن الناس قد بلغوا قاع

البؤس والمجاعة. لم تعانِ البلاد من التبعيّة السياسيّة والمهانة فحسب، بل عانت كذلك تدهورا اقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا وروحيًا. إنّ مسار الاستغلال هذا الذي تقوم به سلطة غير مسؤولة، طوال سنوات الحرب، وحتّى الآن، وهذا التجاهل التامّ للمصالح والرؤى الهنديّة قد بلغا ذرى جديدة: انعدام تامّ للجدارة في الإدارة يؤدّي إلى مجاعة فظيعة وتفشٍّ واسع للبؤس بين أفراد شعبنا. لا سبيل إلى حلّ أيّ مشكلةٍ من هذه المشاكل العاجلة إلا عبر الحريّة والاستقلال. يجب أن يكون محتوى الحريّة السياسيّة محتوى اقتصاديًا واجتماعيًا.

إنّ أكثر مشاكل الهند إلحاحا وأهميّة اليوم هو كيف نزيح لعنة الفقر، وننهض بمستوى الجماهير. لقد أولى المؤتمر عناية خاصّة لرفاهية هذه الجماهير وتطوّرها، وكرّس لها نشاطات بنّاءة. فقد كانت رفاهيّة الجماهير وتقدّمها مقياسه الذي يقيس به كلّ مقترح وكلّ تغيير، وقد أعلن أنّه يجب إزاحة كلّ عائق يقف في طريق خير جماهير بلادنا. ويجب تشجيع الصناعة والفلاحة والخدمات الاجتماعيّة والمرافق العامّة، وتطويرها، وتوسيع انتشارها بسرعة بُغْيَةَ زيادة ثروة البلاد، ومنحها القدرة على النموّ الذاتي دون الحاجة إلى التعويل على الآخرين. لكن يجب أن نضع نصب أعيننا الهدف الأهمّ والواجب الأقصى ألا وهو إفادة

جماهير شعبنا، ورفع مستواهم الاقتصادي والثقافي والروحي، والقضاء على البطالة، وزيادة كرامة الفرد. لهذا الغرض سيكون لزاما علينا أن نخطّط عملنا وننسّقه في مجال التقدّم الاجتماعي في جميع مختلف ميادينه، لنمنع تمركز الثروة والسلطة في يد أفراد أو جماعات، ونتصدّى للمصالح المكتسبة عدوّة المجتمع حتى لا تكبر ولا تسيطر اجتماعيا على الموارد المعدنيّة، ووسائل التنقّل والوسائل الأساسيّة للإنتاج وتوزيع الأراضي والصناعة وأقسام أخرى من النشاطات الوطنيّة، كي يمكن للهند الحرّة أن تنمو لتصبح تعاونيّة كمّنوالث.

في ما يخصّ الشؤون الدوليّة، يدعو المؤتمر إلى تكوين فدرالية عالمية للأمم الحرّة. وبانتظار أن تتشكّل فدراليّة من هذا القبيل، يجب أن تنمّي الهند علاقات صداقة مع كلّ الأمم، وخاصة منها جيرانها في الشرق والغرب والشمال. لقد كانت للهند علاقات تجاريّة وثقافيّة طيلة آلاف السنين مع الشرق الأقصى، وجنوب شرق آسيا، وآسيا الغربيّة، وينبغي لها، لا محالة، عندما تصبح حرّة، أن تجدّد هذه العلاقات وتنمّيها. إنّ الاعتبارات الأمنيّة إلى جانب التيارات التجاريّة الجديدة تتطلّب أيضا هذه العلاقات الوطيدة مع هذه المناطق. إنّ الهند التي قادت بمفردها كفاحا من أجل الحرّية على أساس اللاّعنف، ستضع كلّ ثقلها دائما في صفّ السلام والتعاون

في العالم. كما ستناصر حرية بقية الأمم والشعوب الخاضعة، لأنّ السلام لا يمكن أن يحلّ في العالم إلا على أساس هذه الحرية والقضاء على الإمبرياليّة في كلّ مكان.

صادقت لجنة مؤتمر كلّ الهند يوم 8 أغسطس/ آب 1942 على قرار أصبح شهيرا في حكاية الهند. يقف المؤتمر اليوم مدعوما بمطالبه وتحدياته. يواجه المؤتمر اليوم انتخابات المجلسين المركزي والإقليمي على أساس ذلك القرار، وبصرخة الحرب التي أطلقها.

إنّ المجلس التشريعي المركزي هيئة ليس لها سلطة أو نفوذ، وهي أشبه بهيئة استشاريّة لطالما تمّ تجاهل استشاراتها والاستهانة بها. لقد تجاوزها الزمن تماما، وهي ترتكز على امتيازات محدودة جدّا. سجلاتها الانتخابيّة مليئة بالأخطاء والحذف، ولا تُعطى فرصا للتصويب أو الإضافة. عددٌ كبيرٌ من مواطنينا لا يزالون في المعتقلات، والعديد ممن وقع الإفراج عنهم جُرِّدوا من حقّ الترشّح للانتخابات. ما زالت الاجتماعات العامّة ممنوعة في مناطق عديدة. لكن المؤتمر قرّر، بالرغم من كلّ هذه المعوقات والعقبات وغيرها، أن يترشّح للانتخابات ليثبت أن النتيجة الحتميّة للانتخابات، وإن كانت محدودة، يجب أن تكون إظهار التضامن المطلق في موقف الناخبين في ما يخصّ قضيّة الحريّة.

لذلك، في هذه الانتخابات، لا تهمّ المسائل الصغيرة، ولا يهمّ الأشخاص، ولا الصرخات التعصبية؛ أمر واحد يؤخذ بعين الاعتبار: حريّة وطننا واستقلاله، هذه الحريّة التي ستنبع منها كلّ حريّة أخرى لشعبنا.

لذلك يناشد المؤتمر الناخبين في انتخابات المجلس المركزي في جميع أنحاء البلاد أن يساندوا مرشّحي المؤتمر بشتّى الطرق في الانتخابات القادمة الحبلى بالعديد من الاحتمالات المستقبليّة. عديدةٌ هي المرّات التي قطع الشعب الهندي فيها على نفسه عهد الاستقلال، ولم يفِ بعهده بعد، ولا تزال القضيّة الحبيبة التي نهض من أجلها والتي كثيرا ما جمّعتنا، مطروحة على كاهلنا. لكن سيحين، قريبا، أوان وفائنا الكامل بعهدنا، لا عبر الانتخابات بل عبر ما سيأتي بعدها. إلى أن يحين ذلك الحين، هذه الانتخابات اختبارٌ صغيرٌ لنا، استعدادا للأشياء الأعظم القادمة. فليتقبّلْ كلّ الذين يحرصون على حريّة الهند واستقلالها ويتوقون إليهما هذا الاختبارَ بقوّة وثقة، ولنسرْ معا نحو الهند الحرّة التي تسكن أحلامنا.

كما كان متوقّعا عموما، أحرز المؤتمر نجاحا باهرا في الانتخابات في جميع الأقاليم باستثناء أقاليم البنغال، وبُنجاب، والسند. كان الوضع معقّدا في هذه الأقاليم الثلاثة. في البنغال، كانت الرابطة الإسلامية هي الحزب الكبير الوحيد، واستولت على نصف المقاعد تقريبا. في بُنجاب، كان الحزب الوحدوي والرابطة متعادلين، وأحرزا نفس عدد المقاعد تقريبا. في السند أيضا

حصلت الرابطة على عدد كبير من المقاعد، لكنها لم تنجح في نيل الأغلبيّة. هذه الأقاليم الثلاثة تسكنها أغلبيّة مسلمة، وكانت الرابطة الإسلاميّة قد قامت بحملة دعائيّة تحثّ على التعصّب الديني، والنزعة الطائفيّة. أدّى هذا الأمر إلى تعتيم المسائل السياسيّة إلى درجة أن المسلمين الذين اصطفّوا إلى جانب المؤتمر أو إلى أيّ لائحة أخرى وجدوا صعوبة كبرى في أن يلقوا آذانا صاغية من الشعب. فشلت كلّ مساعي الرابطة في الإقليم الحدودي بالشمال الغربي حيث توجد أكبر أغلبيّة مسلمة، وتمكّن المؤتمر من تشكيل الحكومة.

من الملائم في هذه المرحلة أن نستعرض الوضع السياسي في الهند مرّة أخرى. حين اندلعت الحرب العالمية الثانية، كان الشيوعيّون في حيرة من أمرهم ذلك أنّ هتلر وستالين أبرما معاهدة عدم اعتداء. كان الشيوعيّون في طليعة المهاجمين لهتلر والمُدينين للفلسفة النازيّة للعالم، إلى أن تمّ الاتّفاق النازي-السوفياتي. كان الشيوعيّون الهنود يعلمون علم اليقين أنّ ستالين قد ارتكب خطأ فادحا لكن لم تكن لديهم الشجاعة كي يُجاهروا بذلك ، مثلهم في ذلك مثل كلّ الشيوعيين في بقيّة أنحاء العالم. فلجأوا إلى وصف هذا التفاهم بأنه محاولة للحدّ من نطاق الحرب التي توصف بأنها حرب إمبرياليّة.

لم يكن لديهم حول ولا قوّة تقريبا. كانوا يحاولون أن يبرّروا موقفهم بالقول إن هتلر هو أهْوَنُ الشرَّيْن. وبالتالي لم يكونوا قادرين على مدّ يد العون للبريطانيين، وفي الحقيقة، لقد ساندوا بقوّة بقاء الهند على الحياد بين الطرفين. غير أنّ الشيوعيّين غيّروا موقفهم تغييرا جذريّا عندما اجتاح هتلر روسيا. أعلنوا أنّ هذه الحرب حرب الشعب، وانبروا يساندون البريطانيين. التحقوا جهارا، في الهند، بالدعاية الحربيّة وفعلوا كلّ شيء للمساعدة في جهود الحرب البريطانية. قبِل م. ن. رُويْ عَلَنًا أموالا من الحكومة وقام بحملة إشهاريّة داعمة للحرب. لقي الشيوعيون أيضا مساندة من الحكومة بأشكال مختلفة. رُفع الحظر على الحزب الشيوعي وساعد أعضاؤه في مواصلة الحملة الدعائية للحرب بطرق عديدة.

وبالمقابل أطلق المؤتمر حركة غادروا الهند. تمّ اعتقال أعداد كبيرة من أعضاء المؤتمر، في حين صار الشيوعيّون الذين كانوا معتقلين أو يعيشون في السريّة، ينشطون علانية في خدمة حزبهم. لم يكن لدى أعضاء المؤتمر تصوّر واضح لخطّة عملهم، حتى بعد أن وقع الإفراج عنهم بعد قمّة سِملا. ظلّوا ينتظرون قرارا من المؤتمر.

طرأ، في الأثناء، تغيّرٌ على الخدمات العامّة، وهو تغيُّرٌ جدير جدّا بالملاحظة. كانت قوات الدفاع قد جنّدت، أثناء الحرب، نسبة كبيرة من الشبّان القادمين من مختلف المقاطعات ومن طبقات اجتماعيّة مختلفة. تمّ التخلّي عن الممارسة البريطانية السابقة التي تقتضي بأن يقتصر التجنيد، نتيجة ضغط الحرب، على بعض الفئات المختارة دون غيرها. صدّق الشبّان الذين التحقوا بالقوى المسلّحة كلام بريطانيا بأنّ الهند ستكون حرّة بعد انتهاء الحرب. جعلتهم هذه القناعة يبلون بلاء حسنا طوال فترة المعارك. وتوقّعوا الآن وقد انتهت المعارك، أن تصبح الهند حرّة.

نُفخَتْ روح جديدة مفعمة بالوطنيّة في فروع القوات المسلّحة الثلاثة: البحرية والأرضية والجوّية. في الحقيقة، كان الحماس يملأ قلوب الجيوش حتى أنهم لم يستطيعوا أن يُخفوا سعادتهم كلّما التقوا أحد قادة المؤتمر. وحيثما حللتُ، طوال هذه الفترة، كان شبّانٌ من القوات المسلّحة يهبّون للترحيب بي، ويعبّرون لي عن تعاطفهم وإعجابهم دون مراعاة لردّة فعل ضبّاطهم الأروبيين. حين زرت كاراتشي، جاءت مجموعة من جنود البحرية لرؤيتي. عبّروا عن إعجابهم بسياسة المؤتمر، وأكّدوا لي أنهم سينضمّون إلى صفّي إذا أصدر المؤتمر الأوامر اللاّزمة. وإذا حدث خلاف بين المؤتمر والحكومة، سيصطفّون إلى جانب المؤتمر لا إلى جانب الحكومة. مئاتٌ من جنود البحرية عبّروا عن المشاعر ذاتها.

كانت هذه الأحاسيس منتشرة لا في صفوف الضباط فحسب، وإنما في صفوف مختلف الرّتب العسكريّة. قصدت لاهور جوّا في موضوع يخصّ تشكيل

الوزارة الإقليميّة. قرب المطار، كانت توجد مساكن مخصصة لفيْلَقٍ من قوات الجورخا[11] المتمركزة في لاهور. حين سمع الجنود أنني قد وصلت، اصطفّ المئات منهم وقالوا إنهم يريدون دارشاني[12]. حتّى رجال الشرطة عبّروا عن المشاعر نفسها. طيلة مجمل تاريخ الهند كانت الشرطة دائما أشرس مساندي النظام. والحقيقة أنهم يتعاطفون قليلا جدّا مع المشتغلين في المجال السياسي، وغالبا ما يتعاملون معهم بفظاظة. ها قد شهدت عواطفهم تغيّرا، ولم يتخلّفوا عن أيّ مجموعة أخرى في التعبير عن مشاعر الولاء للمؤتمر.

ذات مرّة، كنت مارّا بالقرب من لالْ بازار في كلكوتا، فعلقت سيّارتي في زحمة سير. تعرّف عليّ بعض رجال الشرطة، وأشاعوا الخبر في ثكناتهم التي كانت قريبة من هناك. ولم تكد تمضي دقائق حتّى هبّ إليّ جمْعٌ حاشدٌ من رجال الشرطة ورؤساء الشرطة وأحاطوا بسيّارتي. أدّوا لي التحيّة ولمس بعضهم قدمي. عبّروا كلّهم عن تقديرهم للمؤتمر، وقالوا إنهم سيتصرّفون حسب أوامرنا. وهناك حادثة أخرى أذكرها بوضوح. عبّر حاكم البنغال عن رغبته في لقائي. حين ذهبت إلى بيت الحاكم، أحاط بسيارتي رجال الشرطة الذين كانوا في الخدمة. وحين خرجت من السيارة جاؤوني وقدّموا لي التحيّة كلٌّ على حدة. أكّدوا لي جميعا أنهم سيتصرّفون حسب أوامري. ولمّا كنت قصدت دار الحاكم بناء على طلبه، فإنني وجدت من غير اللاّئق أن تُطلَقَ هتافات. غير أن رجال الشرطة لم يريدوا أن يسكتوا، ورفعوا هتافات على شرفي. كان هذا الأمر دليلا واضحا على أنهم صاروا يتعاطفون مع المؤتمر، ولم يعودوا يخافون من المجاهرة بهذا التعاطف. وإذا شاء الحاكم أن يعاقبهم على تعاطفهم مع المؤتمر، فقد كانوا مستعدّين لذلك.

11 - جورخا: إحدى مقاطعات النيبال الحديثة، شمال الهند. وتطلق التسمية على الذين جنّدتهم بريطانيا أثناء الحرب. يحظى الجندي الجورخي بمكانة كبيرة بسبب بسالته وولائه وضراوته في القتال. (المترجمة)

12 - دارشن: نظام فلسفي هندوسي بموجبه، يمنح دارشن المعلّم لمريديه أو الحاكم لرعاياه أو في سياق التعبّد. أصل الكلمة من اللغة السنسكريتية يعني رؤية. ويقصد بها المثول في حظرة الذات الالهية في الحج أو المعبد، أو رأية قدّيس أو المعلّم. مما يعني نظرة الخشوع والرهبة. حتّى يبارك الرّائي. (المترجمة)

من الطبيعيّ أنّه تمّ إبلاغ السلطات بهذه التطوّرات. تلقّت الحكومة تقارير مفصَّلة فأوصلتها إلى كاتب الدولة لشؤون الهند. أدرك البريطانيون أن شعلة الحرّية قد اتّقدت في نفوس الشعب الهندي بأكلمه لأوّل مرّة في تاريخ الهند. لم تعد الحرّية السياسية هي هدف المؤتمر فحسب، بل صارت هدف كلّ شرائح الشعب. والأهمّ من ذلك أن كلّ فصائل الخدمات، بما فيها الفصائل المدنية والعسكرية، كانت تحرّكها الحوافز نفسها. لم يعد هناك أيّ سرٍّ يتعلّق بهذا التّوق إلى الحرّية. أعلن الرجال وضبّاط قوات الدفاع، صراحةً، أنهم قد بذلوا دماءهم في الحرب على أمل أن تصير الهند حرّة بعد توقّف المعارك على جبهات القتال. وطالبوا بضرورة أن تُنْجِزَ بريطانيا ما وَعَدتْ.

بعد أن انتهت الانتخابات العامّة، أثيرت مسألة تشكيل الحكومة الجديدة في كلّ الأقاليم. صار من الضروري بالنسبة إليّ أن أزور عواصم الأقاليم، وأشرف على تشكيل الوزارات. كان الوقت المتاح لي قصيرا جدّا، لكن السفر جوّا ساعد على حلّ المشكلة. أثناء الحرب، وُضعت كلّ الخدمات الجويّة تحت مراقبة الحكومة. وكانت تراقب تخصيص المقاعد أيضا. أصدر اللورد وايفل تعليمات كي أُعطَى كلّ التسهيلات ممّا جعل زيارتي لجميع عواصم الأقاليم ممكنة.

حين جئت إلى بيهار لتشكيل الحكومة، وجدت الوضع معقّدا بسبب التنافسات بين مختلف المجموعات. أُضيفت إلى ذلك المشاكل الشخصيّة لأعضاء المؤتمر المهمّين. بعد أن فشلت قمّة سِمْلاَ، قام د. سيّد محمود بنشر بعض الإدّعاءات غير المبرّرة ضدّي. في تصريح أدلى به في باناراس، حمّلني مسؤوليّة فشل القمّة. لقد وافقت اللجنة التنفيذيّة للمؤتمر، حسب رأيه، على قبول مطالب الرابطة الإسلاميّة، ولكنّ المؤتمر غيّر رأيه ورفض قبول مطالب الرابطة بسبب إلحاحي لا غير. طبعا، هذا الكلام غير صحيح إطلاقا.

أسفت لأنّ د. سيّد محمود صرّح مثل هذا التصريح. لقد كان يعلم أنّني لم أتمكّن من إدراجه عضواً في اللجنة التنفيذيّة، بعد قمّة رامْجَرْه، إلا بعناء

شديد. حين اعتذر وأمَّنَ الإفراج عنه من معتقل قلعة أحمدناجار، سَخرَ منّي بعض زملائي لأنني أدرجته عضوا في اللجنة التنفيذيّة. صار د. محمود الآن يتصوّر أنه ما دام قد أدلى بهذه التصريحات الخاطئة ضدّي فلن أسمح بمشاركته في وزارة بيهار. لم يكن يعلم أنني، في أمور مثل هذه، لا أسمح قطّ لمشاعري الشخصيّة أن تؤثّر على حكمي. كنت قد تأسّفت لأنّه اعتذر لنائب الملك وقام بتصريحه ضدّي، لكنني التمست أعذارا لضعفه، وأرجعت ذلك إلى المناخ السائد في البلاد. في جميع الحالات، كنت قد عقدت العزم على أن تكون الكفاءة هي المعيار الوحيد في تشكيل الحكومة، ولن أسمح لادّعاءاته بأن تغيّر رأيي. حين تمّ إعداد القائمة، وتلوتُ الأسماء على مسامع أعضاء الحزب بدت الدهشة والفرحة واضحتين على د. سيّد محمود لوجود اسمه في القائمة.

كنت قد عقدت العزم على أن يكون موقفنا من الرابطة الإسلاميّة كريما في ما يخصّ مسألة تكوين الوزارات. حيثما تمّ إسقاط اسماء أعضاء المجلس من لائحة الرابطة، أرسلت في طلبهم ودعوتهم إلى التعاون في تشكيل الوزارات الإقليميّة. فعلتُ هذا في الأقاليم التي كان المؤتمر يتمتّع فيها بالأغلبيّة، وفعلته أيضا في الأقاليم التي كان فيها الحزب الكبير الوحيد. بلغني أنّ أعضاء من الرابطة الإسلاميّة في العديد من الأقاليم، ولا سيما في بيهَار وأسّام وبُنجاب، كانوا سيُسْعَدُون بالمشاركة في الوزارات، لكن السيّد جِنّاه لم يسمح لهم بقبول دعوتي.

كان الوضع صعبا لا سيما في بُنجاب. لقد كانت إقليما ذا أغلبية مسلمة، ولكن ما من حزب حاز فيها أغلبيةً واضحةً. كان الأعضاء المسلمون مقسّمين بين الحزب الوحدوي والرابطة الإسلامية. أجريت مفاوضات مع الفريقين. رفضت الرابطة دعوتي استجابة إلى تعليمات السيد جِنّاه، كما قلت سابقا. غير أنني استطعت أن أجري مفاوضات بشكل مَنَحَ فرصةً للحزب الوحدوي كي يشكّل الوزارة بمساندة المؤتمر. كان الحاكم شخصيّا ميّالا إلى الرابطة الإسلامية، لكنه وجد أنْ لا خيار أمامه سوى دعوة خِيزِير حياة خان رئيس الحزب الوحدوي ليشكّل الحكومة.

كانت هذه هي المرّة الأولى التي يصل فيها المؤتمر إلى الحكم في بُنجاب. كان يُنظَرُ إلى هذا التطوّر، حتى ذلك الحين، على أنه مستحيلٌ تقريبا. أعلنت الدوائر السياسية في جميع أنحاء البلاد أنني أثبتُّ براعةً وحنْكةً عظيمتين في المفاوضات التي أدّت إلى تكوين الوزارة في بُنجاب. هنّأني أعضاءٌ مستقلون من جميع أنحاء البلاد، تهانيا حارّة. هنّأتني صحيفة ناشونَل هيرالد، وهي الناطق الرسمي باسم مجلس الحزب الوحدوي، على الطريقة التي حسمت بها مسألة بُنجاب المعقّدة المستعصية على الحلّ، ووصلتْ إلى حدّ القول إن معالجتي للوضع كانت أوضح مثال على ما لديَّ من حِنْكةٍ سياسيّةٍ وخبرةٍ في المفاوضات أكثر مما يتمتّع به أيّ قائد آخر للمؤتمر.

سُررتُ بردّة الفعل الإيجابية التي عمّت البلاد. لكن ثمّة أيضا شيءٌ أحزنني. منذ البداية الأولى لنشاطاتي في المؤتمر كنّا، أنا وجواهرلال، أعزّ الأصدقاء. كنّا دائما متّفقين، وكان الواحد منّا يُعوّل على الآخر ويسانده. لم تطرح مسألة أيّ مزاحمة بيننا أو أيّ غيرة، وكنت أتصوّر أنها لن تُطرح أبدا. الواقع أن صداقتي بالعائلة بدأت منذ أيّام بانْديت موتيلال نهرو. كنت أنظر إلى جواهرلال، في البداية، على أنه ابن أخٍ، وكان هو يعتبرني صديقَ وَالدِه.

كان جواهرلال بطبيعته طيّبَ القلب لم تجل في نفسه أبدا مشاعر الغيرة. غير أن علاقاته الودّية معي لم تكن تعجب بعض أقاربه وأصدقائه. وكانوا يحاولون أن يزرعوا بيننا المشاكل ومشاعر الغيرة. لكن جواهرلال كان معتدّا بنفسه غاية الاعتداد، ولم يكن يتحمّل أن يرى غَيْرَهُ ينال الحظوة والإعجاب أكثر منه. كان جواهرلال يضعف أيضا أمام الاعتبارات النظريّة، فاستغلّوا ذلك الأمر لتأليبه عليَّ. تحدّثوا إليه قائلين إنّ تحالف المؤتمر مع الحزب الوحدوي كان خطأ مبدئيا. وقالوا إنّ الرابطة الإسلاميّة حركة جماهيريّة، وكان على المؤتمر أن يتحالف معها، لا أنْ يتحالف مع الحزب الوحدوي في بُنجاب. كان هذا هو الخطُّ الذي تبنّاه الشيوعيّون صراحةً، وكان جواهرلال متأثرا جزئيا برُؤاهم، ولعلّه قد تصوّر أنني كنت أضحّي بالمبادئ اليسارية حين عقدتُ حِلْفا مع الحزب الوحدوي.

كان أولئك الذين يريدون أن يزرعوا الشّقاق بيني وبين جواهرلال لا ينفكّون يقولون له إن المديح الذي كان ينهال عليّ أمرٌ يُلغي مصداقيّة بقية قادة المؤتمر بما في ذلك هو. إذا كانت صحيفته ناشونُل هيرالد تمدحني إلى هذا الحدّ، فإن ذلك سيجعلني أحقّق، قريبا، مكانة منقطعة النظير داخل منظّمة المؤتمر.

لا أعرف مدى تأثير محاولات الإقناع الكَيْديَّة هذه في ذهن جواهرلال لكنني لاحظت، أثناء اجتماع اللجنة التنفيذية في بُمباي، أنه شرع يعارض كلّ نقطة تردُ في خطّة عملي. قال جواهرلال إن السياسية التي انتهجتُها في بُنجاب سياسةٌ غير صائبة. ووصل به الأمر إلى حدّ أنه قال إنني تسبّبت في الحَطِّ من مكانة المؤتمر. فوجِئتُ وحزنتُ عند سماعي هذا الكلام. فما كنتُ قد فعلتُه في بُنجاب هو أنني أوصلت المؤتمرَ إلى سدّة الحكم، رغم أن الحاكم كان يعمل على تشكيل وزارة متكوّنة من أعضاء الرابطة الإسلامية. وبفضل جهودي، تمّ عزل الرابطة الإسلامية، وصار المؤتمر هو العنصر المحدّد في ما يخصّ شؤون بُنجاب رغم أنه كان يُمثِّلُ أقلّية. لقد تولّى خِيزِير حياة خان منصب رئيس وزراء بفضل مساندة المؤتمر، ومن الطبيعيّ أنه أصبح واقعا تحت تأثير المؤتمر.

أصرّ جواهرلال على أنه ليس من الصّواب أن يشارك المؤتمر في الحكومة دون أن يكون حائزا على الأغلبية، فهذا من شأنه أن يرغم المؤتمر على قبول حُلُولِ وسَط، وقد يصلُ به الأمر إلى التخلّي عن مبادئه. قلت إن تخلّي المؤتمر عن مبادئه خطرٌ غير وارد إطلاقا، لكنني بيّنتُ، في الوقت نفسه، أن اللجنة التنفيذية إن لم تقبل قراري الذي اتَّخَذتُه في لاهور فيمكنها أن تتبنّى أيّ سياسة جديدة ترتئيها. لم يعط المؤتمر أيّ ضمان للبقاء في الحكومة، ويمكنه أن يغادر متى شاء.

انبرى غاندي يدافع عن آرائي. قال إنه رغم حصول المؤتمر على أقليّة من الأصوات في بُنجاب، فإنه ضمن لنفسه أن يكون الصوت الحاسم في تكوين الوزارة وفي عملها، نتيجة المفاوضات التي خُضتُها. وأردف قائلا إنه لا يمكن أن

يكون هناك حلٌّ أفضل، من وجهة نظر المؤتمر، وإنه كان ضدّ أيّ تغيير في القرار الذي اتّخذتُه. عندما عبّر غاندي عن رأيه بكلمات حاسمة، اصطفّ كلّ أعضاء اللجنة التنفيذيّة في صفّي، وكان على جواهرلال أن يذعن.

المسألة الثانية التي طرحت على اللجنة التنفيذيّة هي مسألة المفاوضات مع بعثة الإدارة البريطانيّة. إلى حدّ الآن، كان رئيس المؤتمر هو الذي يمثّل المنظّمة كلّما جرت أيّ مفاوضات مع الحكومة. وعندما جاء ستافورد كريبس سنة 1942، أصرّ جواهرلال، بنفسه، على أن أكون أنا المفاوض الوحيد باسم المؤتمر. وفي سِمْلا أيضا كنت الممثّل الوحيد، وحتّى غاندي لم يشارك. أما في هذه المرّة فقد اتّخذ جواهرلال موقفا مغايرا. اقترح أن تُجرِي المفاوضات مع بعثة الإدارة البريطانيّة لجنةٌ مصغَّرةٌ تنبثق عن اللجنة التنفيذيّة، لا أن يجريها ممثّل فَرْدٌ.

فاجأني مقترحه. لم أتوقّع قطّ أن يثير جواهرلال مسألة مثل هذه. لكنني أحسست أنّ الأمر ينطوي على أزمة ثقة، وبالتالي اعترضت عليه. أشرت إلى أنّ رئيس المؤتمر كان دائما الممثّل الوحيد للمنظّمة، إلى حدّ الآن، وأنني لا أرى سببا يدعو إلى التغيير. إذا كانت اللجنة التنفيذيّة تشعر بأنها في حاجة إلى تغيير الأسلوب، فلها الحقّ في تطبيق ذلك بالطّبع، لكنني لن أكون طرفا في هذا القرار. والحقيقة أنني سأرى في ذلك تقليصا في مهامّ رئيس المؤتمر.

هنا أيضا ساندني غاندي. قال بوضوح إنه لا يرى من داعٍ لإجراء تغيير، إذا استطاع رئيس المؤتمر أن يكون الممثّل الوحيد للمؤتمر في المفاوضات التي جرت مع كريبس ومع وايفل، فلا داعي لتغيير ذلك الآن. لو تمّ الآن تعيين لجنة مصغّرة للتفاوض مع بعثة الإدارة البريطانيّة، فسيُستنتج من ذلك انعدام الثّقة برئيس المؤتمر. وبالإضافة إلى ذلك، لقد أثبتت التجربة أنه لا يمكن للمؤتمر أن يكون له ممثّل أفضل من رئيسه. وبالتالي فإن تعيين لجنة في هذه المرحلة لن يساعدنا، بل سيؤدّي إلى بثّ الفوضى في صفوف المنتسبين للحزب وفي صفوف الجمهور العريض.

عملت اللجنة التنفيذيّة بنصيحة غاندي، وعيّنت الرئيس، مجدّدا، ممثّلا وحيدا للمؤتمر. ربّما شعر جواهرلال أنه قد تمادى وترك أثرا سيئا في نفسي. كنت مقيما في بيت بهولابهاي دساي كما تعوّدتُ أن أفعل دائما. جاءني جواهرلال في اليوم الموالي في الصباح الباكر، وأكّد لي، بعواطف جيّاشة وبكلّ صدق، أنّ مقترحه لم يكن ينمّ، ولو للحظة واحدة، عن أيّ نقص في الثقة بقيادتي. كان هدفه الوحيد هو الشدّ على يديّ، فقد كان يتصوّر أنني سأجري المفاوضات بشكل أفضل إذا انضمّ إليّ بعض زملائي. اعترف صراحة أن قراءته للوضع كانت خاطئة، وعبّر عن رغبته في أن ننسى الواقعة بأكملها. سررتُ بكلامه الصّريح. فقد كنّا صديقين حميمين، وآذاني كثيرا أن يحصل بيننا خلافٌ.

كنت قد ذكرت سابقا أن البعض من ضبّاط الجيش البحريّ الهندي قد التقوني في كاراتشي. كان الميز العنصري من بين الأشياء التي اشتكوا منها، وقالوا إنّ كلّ احتجاجاتهم وشكاواهم ضدّ هذا الميز لم تُجْدِ نفعا. ظلّ سخطهم يتزايد إلى أن جاء يومٌ تفاجأت حين قرأت فيه في دلهي أنهم مرّوا إلى العمل المباشر. كانوا قد أخبروا الحكومة أنه إذا لم تتمّ الاستجابة إلى مطالبهم في تاريخ محدّد، فإنهم سيقدّمون استقالة جماعيّة. كان ذلك التاريخ قد انصرم، فعقدوا اجتماعا جماهيريّا عامّا في بُمباي تنفيذا لقرارهم السابق. سرعان ما أهاج الخبر حماسة البلاد، وعلى الفور انضمّت إليهم أغلبيّة الناس. تضايقت الحكومة أيضا، فاستدعت فرقا عسكريّة بريطانيّة، ووضعت كلّ سفن الأسطول الهندي تحت إِمْرَةِ ضبّاطٍ ورجالٍ بريطانيين.

كان من الواضح، بالنسبة إليّ، أنّ هذا الوقت ليس وقتا مناسبا لتحرّك جماهيري أو عمل مباشر. علينا الآن أن نراقب سير الأمور ونواصل المفاوضات مع الحكومة البريطانيّة. لذلك شعرت أنّ هذا التحرّك من جانب ضبّاط البحرية الهندوس خطأ. إذا كانوا يشكون من الميز العنصري فلم يكن هذا الشرّ مقتصرا عليهم، فهو مُتَفشٍّ في جميع فصائل الجيش والقوّات الجويّة. كانوا معذورين في احتجاجاتهم على الميز العنصري، لكن اللجوء إلى العمل

المباشر بدا لي غير حكيم.

تبنّت السيدة أسّاف علي قضيّة ضبّاط البحريّة وصارت تساندهم بحماس. جاءت إلى دلهي لتكسب مساندتي. قلت لها إن الضبّاط لم يتصرّفوا بحكمة، وعليهم أن يعودوا إلى العمل دون قيد أو شرط. اتّصل بي مكتب المؤتمر في مومباي طلبا للنّصح، وأرسلت إليهم برقيّة في الاتّجاه نفسه. كان صاردار فالّبهاي باتل، بدوره، في بُمباي فاستشارني. قلت له إن الخطوات التي أقدم الضبّاط على فعلها خاطئة، وعليهم أن يعودوا إلى العمل. سألني صاردار باتل ماذا عساهم يفعلون إذا رفضت الحكومة إعطاءهم فرصة العودة إلى العمل. فقلت له، حسب قراءتي للوضع، إنّ الحكومة ستسمح لهم بمزاولة العمل. وإذا أثارت الحكومة أيّ مشاكل، فسنلجأ إلى الفعل الملائم.

كان من المفترض أن أسافر إلى بشاور في اليوم الموالي بسبب أمر يتعلّق بتشكيل الوزارة هناك. غير أنني أجّلت موعد سفري، وطلبت لقاء القائد الأعلى فورا. قابلني اللورد أوتشنلك في دار البرلمان على الساعة العاشرة صباحا في اليوم الموالي. أبلغته بأمرين:

لم يوافق المؤتمر على الحركة التي أقدم ضبّاط البحريّة على فعلها، ونصحهم بأن يعودوا إلى العمل دون قيد أو شرط. غير أنّ أعضاء المؤتمر متخوّفون من أن يدفع الضباط الثمن غاليا. إذا اتّخذت الحكومة أيّ إجراء عقوبي، فإنّ المؤتمر سينضمّ إلى صفّ هؤلاء الضبّاط.

يجب تدارس الميز العنصري وبقيّة المآسي التي يعاني منها ضبّاط البحريّة وإبطالها.

تكلّم اللورد أوتشنلك بروح مفعمة بالصداقة. في الواقع كانت نبرته أكثر ودّية مما توقّعت. قال إنه لن يكون هناك عقوبة إن عادوا إلى العمل دون قيد أو شرط. أمّا في ما يخصّ الميز العنصري، فقد وعد أن يفعل ما بوسعه لإبطاله كلّيا. أرضتني إجاباته، فأدليت فورا بتصريح ناشدت فيه ضبّاط البحريّة أن

يعودوا إلى القيام بواجبهم، وطمأنتُهم بأنه لن يقع إيذاؤهم.

كان لانتفاضة ضبّاط البحريّة في بُمباي مدلول خاصّ في سياق الظّروف الراهنة. كانت هذه هي أوّل مرّة منذ سنة 1857 يعلن فيها فيلقٌ من القوات المسلّحة انتفاضة علنيّة على البريطانيين حول مسألة سياسيّة. لم تكن الانتفاضة حدثا منفصلا، فقَبْلَها كان سوبهاس تشادرا بوس قد قام بتكوين الجيش الوطني الهندي من مساجين الحرب. هاجم هذا الجيش الهندَ سنة 1944، وكاد في مرحلة ما أن يستولي على إمْفَالْ. بعد استسلام اليابان، أعادت بريطانيا احتلال بورما واعتقلت العديد من ضبّاط الجيش الوطني الهندي. لم يعلنوا توبتهم عن الانضمام إلى الجيش الوطني الهندي، وكان البعض منهم مهدّدا بأن يُحاكم بتهمة الخيانة العظمى. أقنعتْ كلّ هذه التطوّرات البريطانيين بأنه لم يعد بوسعهم الاستمرار في التعويل على القوات المسلّحة، إلا إذا تمّ التوصّل إلى حلّ مرضٍ للمسألة الهنديّة.

سمعت، للمرّة الأولى، أنّه قد تمّ إلقاء القبض على ضبّاط جيش الهند عندما كنتُ في جولمارج بعد قمّة سِملا. جاءني السيّد بْراتاب سِنْغ القاضي في محكمة بُنجاب العليا يَوْماً وهو في غاية الانفعال، وأخبرني أنّه قد تمّ اعتقال بعض الضبّاط الهنود الذين كانوا قد حاربوا البريطانيين تحت إمرةِ سوبهاس تشادرا بوس. أظنّ أنّ أحد أقارب القاضي كان متورّطا في القضيّة فلقد كان هذا القاضي قلقا جدّا على مصير هؤلاء الشبّان.

كانت ذهنيّته ذهنيّة موظّف تقليديّ. لذلك شَعُرَ بأنّ أيّ تدخّل يقوم به المؤتمر قد يزيد وضع هؤلاء المعتقلين تفاقما. فاقترح أن لا يتدخّل المؤتمر في قضايا الجيش الوطني الهندي، وكانت حجّته على ذلك أن القضيّة ستبقى، بهذه الطريقة، بعيدة عن السياسة. قلت له إنّ تصوّراته خاطئة تماما. فإذا لم يتدخّل المؤتمر في هذه القضيّة، ستصبّ الحكومة جام غضبها على ضبّاط الجيش الوطني الهندي، وستحكم على بعضهم بالإعدام. كان من بين هؤلاء الشبّان خيرة شبابنا، وكان اعتقالهم أو موتهم سيكون خسارة فادحة للوطن.

فاتّخذت قرارا فوريًا يقضي بأن يكون المؤتمر لسان دفاع ضبّاط الجيش الوطني الهندي، وعلى الفور أدليت بتصريح أعلنت فيه ذلك.

حسب رؤيتي للمسألة أحسست أن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تتذمّر من تصرّف هؤلاء الضبّاط. كان جزءٌ من الجيش الهندي قد أُرسل إلى بورما وسنغافورا. وحين احتلت اليابان هاتين المنطقتين تركت الحكومة البريطانية الجيش الهندي يواجه قدره وحيدا. وحقيقة الأمر أن ضابطا بريطانيا هو الذي سلّم الجيش الهندي إلى البريطانيين. لو أن الهنود ظلّوا مكتوفي الأيدي، لظلّوا إلى حدّ الآن مظطرّين، باعتبارهم مساجين حرب، إلى القيام بأعمال شقّ الطرقات أو بأعمال أخرى في المصانع من شأنها أن تساعد اليابانيين في جهد الحرب. وبذلك سيكونون قد تحوّلوا إلى لعبة في يد اليابانيين، وربما يكونون قد تحوّلوا إلى أدوات للاستيلاء على الهند وتسليمها إلى اليابان. انتهجوا نهجا مختلفا تماما، وقرّروا أن يقاتلوا من أجل حرّية الهند ما داموا مساجين في أيدي اليابانيين، ولم يكن في وسع الحكومة البريطانية أن تساعدهم بأيّ شكل من الأشكال. وحتى لو انضمّوا، تحت الإكراه، إلى صفّ اليابانيين لكان الممكن أن نجد تبريرا لهذا الفعل. والواقع أنهم فعلوا أفضل من ذلك. كان قيامهم بتشكيل جيش منفصل يحافظ على هويته باعتباره جيش تحرير للهند أفضل اتجاه يمكن للأحداث أن تسلكه في ضوء تلك الظروف. وبهذه الطريقة ضمنوا أنه إذا تمّ طرد البريطانيين من الهند لن تكون البلاد محتلّة من قبل الجيوش اليابانية، بل من قبل الجيش الوطني الهندي. لذلك لم أرَ سببا يدعو إلى مقاضاة أعضاء الجيش الوطني الهندي.

أعلن المؤتمر أنه إذا قرّرت الحكومة أن تقاضي ضبّاط الجيش الوطني الهندي فيجب أن تكون المحاكمة علنية، وينبغي أن يتّخذ المؤتمر كل الترتيبات الضرورية حتى تكون محاكمتهم محاكمة عادلة. كتبتُ إلى اللورد وايفل، في هذا الخصوص، وحثثتُهُ على أن يقبل وجهة نظر المؤتمر. وافق اللورد وايفل، وأصدر أوامر بأن تجرى محاكمة علنية للضبّاط في راد فورت (القلعة الحمراء). أثارت المحاكمات حماسا جماهيريا كبيرا واستمرّت بضعة شهور. وفي النهاية أفرج

عن جميع الضبّاط، إما امتثالا لأوامر المحكمة، أو بسبب عفوٍ أصدره نائب الملك.

كان هناك القليل من الضبّاط لم يفرج عنهم في البداية أو تأجّل قرار الإفراج عنهم. فأدّى ذلك إلى غضب شعبيٍّ عارم، وإلى تنظيم مظاهرات في مختلف أرجاء البلاد. حين زرتُ لاهور لتكوين وزارة بُنجاب، خرج الطلاّب في مظاهرة حاشدة. جابت المسيرة أرجاء البلاد إلى أن بلغتْ البيت الذي كنت أقيم فيه. كان الوقت قرابة منتصف النهار حين وصل الطلاّب وطلبوا الالتقاء بي. منذ البداية كنت أشعر أنه لم يكن هناك مبرّر لهذه المسيرات. خاطبتُ الطلاّب في لهجة شديدة وقلت لهم إنّ المسيرات ليست في محلّها إطلاقا في ضوء الموقف الذي اتّخذه المؤتمر. كنّا قد اتّخذنا قرار الدفاع عن المعتقلين وضمان الإفراج عنهم. كانت كلّ السُّبُل القانونيّة والدستوريّة تُستخدم لهذا الغرض، والمسيرات غير المرخّص لها تُعيق القضيّة بدل أن تساعد على حلّها. كان مجمل المستقبل السياسي للهند محلَّ نقاش. تشكّلت حكومة بريطانيّة جديدة تنتمي الأغلبيّة الساحقة من أعضاء برلمانها إلى حزب العمّال. وقد كانوا وَعدوا بإيجاد حلٍّ للمشكلة الهنديّة، ويجب أن يُعطوا فرصة لاتّخاذ الإجراءات اللاّزمة. لذلك قرّر المؤتمر أن لا يكون هناك تحرّك في الوقت الحالي، وكان على البلاد أن تنتظر وترى التعليمات التي تصدر عن المؤتمر.

قلت سابقا إنّ المسيرات قد عمّت جميع أرجاء الهند. في كلكوتا حدثت أعمال عُنْف أثناء بعض هذه المسيرات. وفي دلهي حاول الناس إضرام النار في المباني الحكوميّة ودمّروا ممتلكات عمومية. حين عدتُ إلى دلهي علّق اللورد وايفل على هذه الأحداث قائلا إنها لم تكن متماشية مع ما تعهّد به المؤتمر من أن المشكلة السياسية في الهند ستحلّ في مناخ سلميٍّ. لم يكن بإمكاني إلاّ أن أعترف بأن تذمُّرَهُ كان مبرّرا. أرسلت في طلب كل أعضاء اللجنة التنفيية في دلهي وقلت لهم إن المؤتمر يواجه أزمة عصيبة. في كل الحركات الوطنية تأتي مرحلة يضطرّ القادة فيها إلى أن يقرّروا ما إذا كان عليهم أن يسايروا الجماهير أو أن لا يفعلوا. بدا وكأن الهند قد وصلت إلى هذه المرحلة. إذا كان المؤتمر يؤمن بأن مشكلة الهند يمكن أن تحلّ بالأساليب السلميّة وحدها،

فعلى أعضاء المؤتمر أن يكونوا مستعدّين لإيصال تلك الرسالة إلى الشعب وأن يتصرّفوا في ضوئها. قلت لهم إنني شخصيا لم أكن مستعدًّا أن أسير على نهج الحدّ الأدنى من المقاومة. فأنا أرى أن ما حدث في دلهي خطأ. وأردفت قائلا إنني سأحاول أن أوجّه الرأي العام وأقوده ولن أكتفي باتّباع عامّة الناس. وإذا لم يعجبهم موقفي فعليهم، وقتها، أن يعثروا على شخص آخر يقودهم.

11 - بعثة مكتب الحكومة البريطانية

حين عدت في شهر فبراير / شباط سنة 1946 لتقييم الوضع السياسي في الهند، تبيّن لي أن البلد كان قد شهد تغيّرا جذريا. كانت هندٌ جديدةٌ كلّ الجدّة قد وُلِدَتْ. اشتعلت جذوة جديدة مفعمة بالتوق إلى الحرّية في قلوب الناس سواء كانوا من موظّفي الدولة أو من غير موظّفي الدولة. وكان هناك تغيّرٌ طرأ على ذهنية البريطانيين أيضا. ومثلما توقّعت منذ البداية، كانت حكومة حزب العمّال تدرس المسألة الهنديّة بذهنية تتماشى مع متطلّبات المرحلة. فبعد تولّيها السلطة بقليل، أرسلتْ بعثة إلى الهند زارت البلاد في شتاء 1946-1945. سُعدتُ حين أدركت من محادثاتي معهم أنّهم لاحظوا التغيّر الذي طرأ على مزاج البلاد. كانوا مقتنعين بأنّه لم يعد بالإمكان تأجيل حريّة الهند، ولا بدّ أنّ التقرير الذي رفعوه إلى حكومة حزب العمّال قد قوّى من عزم هذه الحكومة على تطبيق حلّ سريع وودّي.

كنت أستمع إلى الرّاديو على الساعة 9.30 مساء يوم 17 فبراير / شباط 1946 حين سمعت الإعلان عن القرار البريطاني الجديد. كان اللورد باثك-لورنس قد أعلن للبرلمان أن الحكومة البريطانيّة سترسل بعثة حكوميّة إلى الهند للتفاوض مع ممثّلي الهند في ما يخصّ مسألة حريّة الهند. كما تمّ إعلان هذا الخبر أيضا في البرنامج المفصّل الذي ورد في خطاب نائب الملك في اليوم نفسه. كانت البعثة ستتكوّن من اللورد باثك-لورنس كاتب الدولة للشؤون الهنديّة،

والسير ستافورد كريبس رئيس مجلس التجارة، والسيد أ. ف. ألكزندر اللورد الأوّل للأميراليّة. وفي غضون نصف ساعة، وصل ممثّل أسوشييتد برسّ وسألني عن ردّة فعلي.

قلت له إنني سُعدتُ باتّخاذ حكومة الحزب العمّالي خطوة حاسمة. كما أسعدني أيضا ورود اسم السير ستافورد كريبس ضمن قائمة القادمين، فقد سبق أن أجرى معنا مفاوضات، فضلا عن أنّه صديق عزيز.

أضفت قائلا ثمّة شيء واضح وضوح الشمس بالنسبة إليّ، وهو أنّ الحكومة البريطانيّة الجديدة لا تتفادى المسألة الهندية، بل تواجهها بجسارة.

أدلى السيد آتلي يوم 15 مارس 1946 بتصريح في مجلس العموم حول الوضع في الهند. كان هذا التصريح غير مسبوق إطلاقا في تاريخ العلاقات الهنديّة البريطانية. أقرّ السيد آتلي صراحةً أنّ الوضع قد تغيّر تماما وهو يتطلّب مقاربة جديدة. تأثّرت الهند تأثّرا بالغا عند إعلانه أن كلّ محاولة للمواصلة في استخدام الأساليب القديمة لن تقود إلى حلّ بل إلى طريق مسدود.

إن بعض النقاط التي أثارها السيد آتيل في خطابه تستحقُّ تنويها خاصّا هنا. فلقد اعترف بأنّ الطرفين قد اقترفا أخطاء، وأضاف أنّ عليهما الآن أن ينظرا إلى المستقبل، لا أن يعزفا على قيثارة الماضي. بيّن أنه ليس من الجيّد تطبيق حلول الماضي على الوضع الحالي، فمزاج سنة 1946 ليس مزاج سنة 1920، أو 1930، أو حتّى سنة 1942. وأردف قائلا إنّه لا يريد أن يركّز على الخلافات بين الهنود. فرغم كلّ الخلافات والانقسامات، ظلّ الهنود موحّدين يجمع بينهم تَوْقُهُم إلى الحرّية. كان هذا هو المطلب الضمني لكلّ أفراد الشعب الهندي سواء كانوا من الهندوس أو المسلمين أو المرثا، وسواء كانوا من رجال السياسة أو من الموظفين. اعترف السيد آتلي صراحة أنّ فكرة القوميّة مافتئت قوّتها تزداد حتّى أنّها تغلغلت في صفوف الجنود الذين أبلوا بلاء حسنا في الحرب. قال السيد آتلي أيضا، إذا كانت توجد صعوبات اجتماعيّة واقتصاديّة في الهند، فلا يمكن أن يحلّها غير الهنود. وخلص إلى الإعلان عن أن البعثة

الحكوميّة إلى الهند قد أقبلت إلى الهند بروح إيجابية، وهي عاقدة العزم على النجاح.

وصلت البعثة الحكوميّة إلى الهند يوم 23 مارس. كان ج. س. جُبْطَا قد لعب دور المضيف للسيّد ستافورد كريبس حين قدم إلى الهند في مناسبة سابقة. قال لي إنّه كان ذاهبا إلى دلهي للقاء كريبس، فحمّلته رسالة موجّهة إلى السيد كريبس أرحبّ فيها بعودته إلى الهند من جديد.

وصلت دلهي يوم 2 أبريل/ نيسان 1946. تراءى لي أن أهمّ موضوع يجب التفكير فيه في هذه المرحلة ليس المسألة السياسية بين الهند وبريطانيا، بل المشكلة الطائفيّة في الهند. فقد أقنعتني قمّة سِمْلا أن المسألة السياسية كانت قد وصلت إلى مرحلة الحلّ، في حين أنّ الخلافات الطائفيّة لا تزال قائمة. ثمّة شيءٌ لا يمكن لأيّ شخص أن ينفيه، وهو أنّ المسلمين، باعتبارهم طائفة، كانوا شديدي القلق بشأن مستقبلهم. صحيح أنهم كانوا يشكّلون الأغلبيّة الساحقة في بعض الأقاليم. وبالتالي لم تكن لديهم مخاوف على المستوى الإقليمي في هذه المناطق. غير أنهم كانوا أقليّة في الهند كاملة، وكانوا يتخوّفون من أن موقعهم ومكانتهم لن يكونا مضمونين.

فكّرت في هذا الأمر بشكل متواصل وأنا قَلِقٌ. و في النهاية، توصّلت إلى استنتاج مفاده أن دستور الهند يجب أن يكون فدراليا بسبب طبيعة القضية. وبالإضافة إلى ذلك، يجب أن يكون مصاغا بطريقة تضمن الاستقلال الذاتي التامّ للأقاليم في ما يخصّ أكبر عدد ممكن من المواضيع. كان علينا أن نوفّق بين مطالب الاستقلال الذاتي للأقاليم والوحدة القومية. كان يمكن تحقيق هذا الأمر بالوصول إلى صيغة مُرضِية لتوزيع السلطات والمهامّ بين الحكومة المركزية والحكومات المحلية. يمكن أن تكون بعض هذه السلطات والمهامّ مركزية بالأساس، أما البعض الآخر فيمكن أن يكون إقليميا بالأساس، في حين يمكن توزيع السلطات التي يمكن أن تكون إقليمية أو مركزية بالتّراضي.

كانت الخطوة الأولى هي وضع خطّة، بموجبها يتم الإعلان عن أن مسؤولية

الحكومة المركزية لا تشمل، بالأساس، إلا أقلّ عدد ممكن من المواضيع. ولا بدّ لهذه المواضيع أن تكون خاضعة إلى حكومة الوحدة. وبالإضافة إلى ذلك يجب أن يكون هناك عددٌ من المواضيع التي يمكن أن يتمّ التعامل معها على المستوى المركزي إذا كانت الأقاليم ترغب في ذلك، وهذه المواضيع يمكن أن نسمّيها القائمة الاختيارية للحكومة المركزية. ويمكن لأيّ إقليم، إن هو رغبَ، أن يفوّض سلطاته، في ما يخصّ أحد هذه المواضيع أو كلّها، إلى الحكومة المركزية.

كان من الواضح، بالنسبة إليّ، أن الدفاع والاتصالات والشؤون الخارجية مواضيع لا يمكن أن تُعالج كما يجب إلا إذا وقع تناولها على مستوى كلّ الهند. وأيّ محاولة لتناولها على مستوى إقليميٍّ ستضيّع المسعى وتدمّر أسس الحكومة الفدرالية. وبالطبع ستكون بعض المواضيع الأخرى مسؤولية إقليمية، لكن ستكون هناك قائمة مواضيع ثالثة على المجلس التشريعي الإقليمي أن يقرّر هل يحافظ عليها باعتبارها مواضيع إقليمية أو يفوّضها إلى الحكومة المركزية.

كلّما فكّرت أكثر في الأمر اتّضح لي أكثر أن المشكلة الهندية لا يمكن أن تحلّ بانتهاج أيّ مسلك آخر. إذا صغنا دستورا يجسّد هذه المبادئ فإنه سيضمن للأقاليم ذات الأغلبية المسلمة أن تكون كل المواضيع، باستثناء ثلاثة، من مشمولات تلك الأقاليم نفسها. هذا الأمر من شأنه أن يبدّد كلّ مخاوف المسلمين من سيطرة الهندوس. وعندما تتبدّد هذه المخاوف من الراجح أن الأقاليم ستدرك أنه من مصلحتها أن تفوّض بعض المواضيع الأخرى أيضا إلى الحكومة المركزية. سُررتُ أيضا لأن هذا الحلّ، بصرف النظر عن الاعتبارات الطائفية، هو أفضل حلٍّ سياسيٍّ بالنسبة إلى بلد مثل الهند. الهندُ بلدٌ شاسعٌ، وعدد سكّانه كبيرٌ، وهم مقسَّمون إلى مجموعات غير متجانسة تعيش في أقاليم مختلفة. كان من الضروري أن نضمن للأقاليم أكبر قدرٍ ممكنٍ من الاستقلال الذاتي حتى في ما يخصّ الشؤون العامة التي تتعلّق بالملاءمة الدستورية والإدارة العملية.

اتّضحت الصورة في ذهني تدريجيا، وصارت واضحة تماما عندما وصلت

البعثة الحكومية إلى الهند. غير أنني لم أكن قد ناقشتها مع زملائي بَعْدُ. لم أشعر بضرورة فعل ذلك ما دامت اللجنة التنفيذية قد منحتني كل الصلاحيات للتفاوض مع البعثة الحكومية. فكّرت أنه ينبغي عليّ أن أوضّح موقفي بكلمات بَيِّنَةٍ لا يُداخِلُها لبْسٌ حين يأتي الوقت المناسب.

التقيت بأعضاء البعثة الحكومية يوم 6 أبريل/ نيسان 1946. كانت البعثة قد أعدّت بعض الأسئلة للنقاش. يتعلّق السؤال الأول بالمشكلة الطائفية في الهند. حين سألني أعضاء البعثة كيف سأتعامل مع الوضع الطائفي، أشرت إلى أنني كنت قد وجدتُ الحلّ. وما إن قلتُ إنه ينبغي أن تكون للحكومة المركزية قائمة تحتوي على أقلّ عددٍ ممكن من المواضيع الإجبارية، وقائمة إضافية تحتوي على مواضيع اختيارية، حتى قال اللورد باثِك-لورنس: "الحقيقة أنك تقترح حلاً جديدا للمشكلة الطائفية."

أبدى السير ستافورد كريبس اهتماما خاصا بمقترحي وناقشني طويلا. وفي نهاية المطاف، بدا وكأنه راضٍ، هو الآخر، على مُقاربتي.

اجتمعت اللجنة التنفيذية يوم 12 أبريل/ نيسان عندما قدّمت تقريرا عن مفاوضاتي مع البعثة الحكومية. شرحت شرحا تفصيليا الحلّ الذي اقترحته في ما يخصّ المشكلة الطائفية. كانت هذه هي المرّة الأولى التي يجد فيها غاندي وزملائي فرصة مناقشة خطّتي. كانت اللجنة التفيذية متشكّكة في خطّتي، في البداية، وأثار الأعضاء كلّ أنواع المصاعب والشكوك. توصّلت إلى تفنيد اعتراضاتهم ووضّحت النقاط التي دارت شكوكهم حولها. وفي النهاية اقتنعت اللجنة التنفيذية بصواب مُقترَحي، وعبّر غاندي عن موافقته الكلّية على هذا الحلّ.

أثنى عليَّ غاندي قائلا إنني وجدت حلاً لمشكلة كانت تؤرّق الجميع حتى ذلك الحين. قال إن الحلّ الذي اقترحته كفيلٌ بأن يبدّد حتى مخاوف أشدّ الأعضاء طائفيّة في الرابطة الإسلامية، وهو، في الوقت نفسه، حلّ أملته نظرة قومية لا انعزالية. ألحّ غاندي على أن الدستور الفدرالي وحده يمكن أن يكون

ناجعا في بلد مثل الهند. ورحّب، من هذا المنظور أيضا، بالحلّ الذي اقترحتُه وقال إن هذا الحلّ قد بيّن بوضوح آثار الحكم الفدرالي في السياق الهندي دون أن يبتدع مبدأ جديدا.

سألني صاردار باتل إذا كان ينبغي أن تكون الحكومة المركزيّة مقتصرة على مواضيع ثلاثة لا غير. وقال إنّ هناك بضعة مواضيع مثل العُملة والماليّة يجب أن تتبع مجال النشاط المركزيّ، نظرا لطبيعة الموضوع. وأردف قائلا إنه لا يمكن تطوير التجارة والصناعة إلا على أساس تشريك كلّ الهند، وكذلك هو الشأن بالنسبة إلى السياسة التجاريّة.

لم يكن عليّ أن أردّ على اعتراضه. تبنّى غاندي نفسه وجهة نظري وردّ على صاردار. قال إنه ليس هناك من داعٍ لتصوّر أن الحكومات الإقليميّة ستختلف عن الحكومة المركزيّة في ما يخصّ مسائل مثل العملة والجمارك. سيكون في مصلحة هذه الحكومات أن تتبع سياسة موحّدة في ما يخصّ هذه الأمور. وبالتالي فلا داعي للإصرار على إدراج العُملة أو الماليّة في القائمة الإجباريّة للمواضيع المركزيّة.

كانت الرابطة الإسلاميّة قد تكلّمت للمرّة الأولى عن احتمال تقسيم الهند في قرار لاهور. في ما بعد صار يُطلَق على هذا القرار اسم قرار باكستان. كانت الغاية من الحلّ الذي اقترحتُه هي مواجهة مخاوف الرابطة الإسلاميّة. بعد أن ناقشت مخطّطي مع زملائي ومع أعضاء البعثة الحكوميّة، شعرت أنّ الأوان قد آن الآن لعرضه على الوطن. وهكذا أصدرتُ، يوم 15 أبريل/ نيسان 1946، بيانا أتناول فيه مطالب المسلمين وأقلّيات أخرى. الآن وقد صار تقسيم الهند حقيقة مرّت عليها عشر سنوات، أعود للنظر إلى البيان، وأجد أنّ كلّ ما قلته وقتها قد جرى. ولأن هذا البيان يضمّ آرائي حول حلّ لمشكلة الهند، أشعر أنه ينبغي أن أورد نصّه كاملا. هذا ما قلته في السابق، وهذا ما سأظلّ أقوله:

لقد درستُ مشروع باكستان، كما قدّمته الرابطة الإسلاميّة، من كلّ جوانبه. باعتباري

هنديًا، تناولتُه من زاوية آثاره على مستقبل الهند ككلّ. وباعتباري مسلما، تدارست تداعياته المحتملة على مصائر مسلمي الهند.

قلّبت الأمر من جميع جوانبه. ووصلت إلى استنتاج أنّ هذا المشروع مضرٌّ لا بالهند ككلّ فحسب، بل هو مضرٌّ بالمسلمين خاصّة. فهو يخلق مشاكل أكثر مما يحلّها.

وأعترف أن التسمية في حدّ ذاتها، تسمية باكستان، لا تتماشى مع مبادئي.[13] فهي توحي بأنّ هناك بعض المناطق في العالم طاهرة، في حين أنّ بقيّة المناطق غير طاهرة. وهذا التقسيم للأراضي إلى طاهرة وغير طاهرة ليس إسلاميا، بل هو أقرب إلى البراهمانية التي تقسم العباد والبلاد إلى مقدّس ومدنّس، وهذا تقسيم ينكر روح الإسلام نفسها. لا يعترف الإسلام بمثل هذه التقسيمات، وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا."[14]

وبالإضافة إلى ذلك، بدا لي أنّ مشروع باكستان رمز للانهزاميّة، وقد وُضِعَ قياسا على مطالبة اليهود بوطن قوميّ. إنّه اعتراف بأنّ مسلمي الهند غير قادرين على الصمود في الهند

13 - باكستان: أصل التسمية بكْستان وهي تعني في اللغتين الأُرديّة والفارسيّة أرض الأنقياء أو أرض الطهارة، أضيف حرف إ لتسهيل النطق فصارت تنطق بَاكِسْتان. أوّل من أطلق هذا الاسم هو ناشط في حركة تدعو إلى تأسيس دولة باكستان سنة 1934، اسمه شوفاري رحمت علي. (المترجمة)

14 - ورد الحديث الشريف مترجما إلى اللغة الإنجليزيّة ونصّه الحرفيّ بالإنجليزية هو: « جعل الله العالم كلّه مسجدا لي.» (المترجمة)

كلّها، وسيكتفون بالانسحاب إلى ركنٍ مخصّص لهم مقتصر عليهم.

يمكن للمرء أن يتعاطف مع طموح اليهود إلى أن يكون لهم وطن قوميّ، فهم مشرّدون في أنحاء العالم، ولا يمكن أن يكون لهم صوت فاعل في الإدارة في أيّ مكان. لكن وضع مسلمي الهند مختلف تماما. فهم أكثر من 90 مليونا، وهم من ناحية الكمّ، ومن جهة الكيف، عنصر مهمّ في الحياة السياسية في الهند، إلى درجة أنهم قادرون على التأثير بشكل حاسم في جميع مسائل الإدارة والسياسة. وقد زادت الطبيعة في مساعدتهم بتجميعهم في مناطق معيّنة.

في مثل هذا السياق، تفقد المطالبة بباكستان كلّ قوّة. باعتباري مسلما، لست مستعدّا لأن أتنازل، ولو للحظة واحدة، عن حقّي في اعتبار كلّ الهند أرضي، وفي المشاركة في حياتها السياسية والاقتصاديّة. بالنسبة إليّ، من الجبن المحض أن أتخلّى عن تراثي وأن أكتفي بفُتَاتٍ منه.

إنّ خطّة باكستان التي أعدّها السيد جِنّاه، كما يعلم الجميع، مبنيّة على نظريّته الداعية إلى أمّتين. يتمثّل طرحه في أنّ الهند تضمّ العديد من القوميّات المبنيّة على أساس الاختلاف في الدين. يمثّل الهندوس والمسلمون أكبر هاتين الأمّتين، وبالتالي يجب أن تكون لكلّ أمّة منفصلة منهما، دولة منفصلة. وحين قال د. إدوارد ثومبسن مرّة

إلى السيد جِنَّاه إنّ الهندوس والمسلمين يعيشون جنبا إلى جنب في الآلاف من المدن والقرى والأرباض، ردّ السيد جِنَّاه قائلا إنّ هذا الأمر لا يغيّر في شيء حقيقة أنهما قوميّتان مختلفتان: أمّتان، حسب السيد جِنَّاه، تواجه إحداهما الأخرى في كلّ مدينة وقرية وكَفْرٍ، وهو يتمنّى أن يُقسما إلى دولتين.

إنني مستعدّ أن أتغاضى عن كلّ الجوانب الأخرى للمسألة، وأحكم عليها من وجهة نظر مصالح المسلمين فحسب. بل إنني سأمضي في الشّوط بعيدا، وأقول إذا كان من الممكن البرهنة على أنّ مخطّط باكستان يمكن أن ينفع المسلمين بأيّ شكل من الأشكال، سأكون مستعدّا لقبوله أنا شخصيّا، وسأعمل كذلك على أن يقبله الآخرون. لكن حقيقة الأمر أنّني، حتّى إذا تناولت الأمر من وجهة نظر المصلحة الطائفيّة للمسلمين بالذات، فإنني مضطرّ لأن أستنتج أنّه لا يمكن أن ينفعهم أبدا، ولا يمكن أن يبدّد مخاوفهم.

فلنتأمّل، بعيدا عن العواطف، العواقب التي ستحصل إذا فَعَّلنَا خطّة باكستان. سيتمّ تقسيم الهند إلى دولتين، إحداهما ذات أغلبيّة مسلمة والأخرى ذات أغلبيّة هندوسيّة. في دولة الهندوستان، سيظلّ 3.5 كرور مسلم موزّعين على أقليات صغيرة منتشرة في الأرض. سيكونون أضعف مما هم عليه اليوم، عندما يكونون ضمن

أقاليم ذات أغلبيّة هندوسيّة، سيكون 17% منهم في الأقاليم المتّحدة، و12% في بيهار، و9% في مَدراس. طيلة ما يناهز الألف عام، كانت هذه المناطق أوطانهم، وقد بنوا فيها مراكز حضاريّة وثقافيّة إسلاميّة ذائعة الصّيت.

سيستيقظون بين ليلة وضحاها ويكتشفون أنهم أصبحوا أجانب غرباء. زد على ذلك تخلّفهم على الصّعيد الصناعيّ، والتعليميّ، والاقتصاديّ؛ سيجدون أنفسهم تحت رحمة ما سيصبح مملكة هندوسيّة محض.

ومن ناحية أخرى، سيكون وضعهم في دولة باكستان ضعيفا وغير حصين. ليس هناك مكان في باكستان يكونون فيه أغلبيّة تُقارَن بأغلبيّة الهندوس في الدول الهندوستانيّة.

في الواقع، ستكون أغلبيّتهم طفيفة إلى درجة أنّ ما يتمتّع به غير المسلمين، في هذه المناطق، من تطوّر على الصّعيد الاقتصاديّ، والتعليمي، والسياسيّ سيرجّح الكفّة. وحتى لو لم يكن الأمر كذلك، وتمتّعت باكستان بأغلبيّة ساحقة مسلمة، فإنّها بالكاد تستطيع حلّ مشكلة المسلمين في هندوستان.

إنّ وجود دولتين متنازعتين لا يقدّم حلاً لمشكلة أقليات كلّ منهما، بل إنّه حين يكرّس نظام الرهائن المتبادلة، لايخلّف غير العقوبات والثارات. وبالتالي فإنّ خطّة باكستان لا تقدّم

أيّ حلٍّ لمشاكل المسلمين. ولا تستطيع أن تصون حقوقهم حيث يكونون أقليّة، ولا تضمن لهم، باعتبارهم مواطنين باكستانيين، مكانة في الأعمال الهنديّة أو العالميّة تضاهي المكانة التي تقدر دولة كبيرة مثل الوحدة الهنديّة أن توفّرها لهم.

قد يعترض مُعْتَرِضٌ ويقول إذا كانت باكستان ضدّ مصالح المسلمين أنفسهم إلى هذه الدرجة، فلماذا افتتن بها كلّ هذا العدد منهم إذن؟ يكمن الجواب عن هذا السؤال في موقف بعض الطائفيين المتعصّبين من الهندوس. فقد تفطّن الهندوس، عندما بدأت الرابطة الإسلاميّة تتحدّث عن باكستان، إلى أنّها تُنذر بمؤامرة كارثيّة هدفها تجميع المسلمين، وشرعوا يعترضون عليها خِشْيَةَ أن يكون وراءها تحالف بين مسلمي الهند وعبر الولايات الهنديّة المسلمة.

لعب هذا الاعتراض دور الحافز للمنتسبين إلى الرابطة. حاججوا بمنطق بسيط، رغم أنه لا يمكن الدفاع عنه، وقالوا إذا كان الهندوس يعارضون باكستان إلى هذا الحدّ، فلا بدّ أنّ فيها مصلحة للمسلمين. سادت المناخَ نَوْبَةٌ انفعاليّة جعلت التهدئة المنطقيّة مستحيلة، وجرفت وراءها، خاصّة، مَنْ هُمْ أصغر سنًّا وأكثر قابليّة للتأثّر من بين المسلمين. غير أنني لا أشكّ لحظة في أنّه حين تنتهي هذه النوبة، ويتمّ التفكير في المسألة بعيدا عن الانفعالات، سيتبرّأ من باكستان

أولئك الذين يساندونها الآن، هم بدورهم، باعتبارها مضرّة بمصالح المسلمين.

إنّ الصيغة التي نجحتُ في جعل المؤتمر يقبلها تحافظ على أيّ ميزة يمكن أن تكون في خطّة باكستان، وفي الوقت نفسه، تتفادى جميع سلبياتها وعواقبها. إنّ أساس باكستان هو الخوف من تدخّل المركز في المناطق ذات الأغلبيّة المسلمة، باعتبار أنّ الهندوس سيكونون أغلبيّة في الحكومة المركزيّة. يبدّد المؤتمر هذا الخوف بمنح الوحدات الإقليميّة حكما ذاتيًا تامًا، وتمكين الأقاليم من جميع السلطات التكميليّة. كما جهّز المؤتمر قائمتيّ مهامّ مركزيّة، إحداهما إلزاميّة، والثانية اختياريّة، حتى يتسنّى لأيّ وحدة إقليميّة أن تمارس جميع مهامّها بنفسها، إذا رغبت في ذلك، باستثناء حدّ أدنى يُمنح للمركز. يتبيّن هكذا أنّ خطّة المؤتمر تضمن الحرّية الداخليّة للأقاليم ذات الأغلبيّة المسلمة، حتى تنمو بالشكل الذي تريده وتكون قادرة، في الوقت ذاته، على التأثير في المركز في جميع القضايا التي تمسّ الهند ككلّ.

إنّ وضع الهند يجعل كلّ محاولات تشكيل حكومة مركزيّة موحّدة محاولات منذورةً للفشل؛ ومنذورةٌ للفشل، هي الأخرى، كلّ محاولات التقسيم. بعد تدارس جميع جوانب القضيّة، توصّلتُ إلى أنّ الحلّ الوحيد لا يكون إلا على

الطريق الذي ترسمه الصيغة التي يطرحها المؤتمر؛ فهي الصيغة التي تُفسح المجال لتطوّر الأقاليم، ولتطوّر الهند بأكملها. إنّ الصيغة التي يطرحها المؤتمر تبدّد خوف الأغلبيّة المسلمة الذي بُعِثَتْ خطّة باكستان لتسكينه. ومن ناحية أخرى، تتفادى مساوئ خطّة باكستان التي ستضع المسلمين في وضع أقليّة تحت حكومة هندوسيّة محض.

أنا من الذين يعتبرون هذا الفصل الحالي المتّسم بالوجع والشّقاق مرحلةً انتقاليّة في تاريخ الهند. أعتقد، جازما، أنها ستختفي عندما تتحمّل الهند مسؤوليّة مصيرها بنفسها. يذكّرنا هذا بقول السيد جلادستون إنّ أفضل علاج لخوف المرء من الماء هو أن تلقي به فيه. الهند أيضا يجب أن تتحمّل المسؤوليات، وتسيّر شؤونها الخاصّة قبل أن تتبدّد مخاوفها وشكوكها تماما.

عندما تنجز الهند مصيرها، ستنسى فصل الرّيبة والنزاعات الطائفيّة، وتواجه مشاكل الحياة العصريّة من وجهة نظر عصريّة. لا شكّ أن الخلافات ستستمرّ، لكنها ستكون خلافات اقتصاديّة لا طائفيّة. سيتواصل التنازع بين الأحزاب السياسيّة، لكنه سيكون غير مرتكز على الدين، بل على القضايا الاقتصاديّة والسياسيّة. ستكون الطبقة الاجتماعيّة، لا الطائفة أساس الولاءات، وتُكيّف السياسة على ذلك الأساس.

وإن حاجَجَني أحدٌ وقال إن هذا مجرّد قَدَرٍ قد لا تبرّرُهُ الأحداث، سأقول، على أيّ حال، إن التسعة كرور من المسلمين يشكّلون عاملا لا مجال لتجاهله، ومهما كانت الظروف، هم أقوياء بما يكفي ليصونوا مصيرَهم الخاصّ.

كانت الرابطة قد قطعت شوطا كبيرا على طريق الانفصال منذ قانون لاهور الصادر سنة 1939، وهو قانونٌ يشار إليه عامة بقانون الباكستان. غير أنّ هذا القرار لم يوضّح ما هو هذا المطلب بالضبط. كانت صياغته ملتبسة وقابلة لأكثر من تأويل، ولكن المضمون العام كان واضحا. كانت الرابطة الإسلاميّة تطالب بأن تصبح الأقاليم ذات الأغلبيّة المسلمة متمتّعة بالاستقلال التامّ. حين ساند سِكَنْدار حياة خان هذا القرار، أعطاه التأويل نفسه. ولكن قادة الرابطة الإسلاميّة كانوا الآن يعطون مطلبهم معنًى حافًا أوسع بكثير. تكلّموا كلاما فضفاضا حول تقسيم البلاد وإقامة دولة مستقلّة للمناطق ذات الأغلبيّة المسلمة. لم تكن البعثة الحكوميّة مستعدّة لقبول هذا المطلب. على العكس من ذلك، كانت البعثة تميل إلى حلٍّ يتماشى بعض الشيء مع النّهج الذي كنتُ قد اقترحته.

استمرّت المفاوضات حتّى موفّى شهر أبريل/ نيسان تقريبا. عُقدت اجتماعات مع البعثة، وأجرت البعثة أيضا نقاشات دارت بين أعضائها. في غضون ذلك، أخذت البعثة راحة وقصدت كشمير. كان الصيف قد حلّ، وكانت الحرارة في دلهي ترتفع أكثر، فأكثر. كنت أهفو إلى قسط من الراحة، وفكّرت في البداية في الذهاب إلى كشمير. والحقيقة أنني راسلت صديقا لي هناك، غير أنني حين علمت أنّ البعثة ذاهبة إلى هناك، غيّرت برنامجي. فكّرت أنّ إقامتي في كشمير قد تؤوّل على أنها تعني أنني أرغب في التواصل مع أعضاء البعثة والتأثير على حكمها. نتيجة لهذا الأمر قصدت مُسُّوري بدل كشمير.

عادت البعثة إلى دلهي يوم 24 أبريل/ نيسان، واستعرض أعضاؤها

المفاوضات الدستوريّة مع نائب الملك. بعد نقاشات عديدة، دعاني السير ستافورد كريبس إلى محادثة غير رسميّة تخصّ المسائل التي أثيرت. ويوم 27 أبريل/ نيسان أصدرت البعثة بيانا جاء فيه أنها تفضّل إجراء المزيد من المحادثات غير الرسميّة بُغْيَةَ التوصّل إلى تسوية تقوم على الاتّفاق بين الأطراف الرئيسية. لذلك دعت البعثة رئيسيّ المؤتمر والرابطة الإسلاميّة لتعيين ممثّلين عن المجلس التنفيذي لكلّ كتلة كي يلتقوا مع أعضاء البعثة، ويواصلوا المفاوضات في سِمْلا. تبعا لذلك، عيّنتُ جواهرلال وصاردار باتل زميلين لي لتمثيل المؤتمر. أعدّت الحكومة إجراءات إقامتنا بسِمْلا. لم يكن غاندي أحد عناصر الكتلة المشاركة في المفاوضات مشاركة رسميّة، لكنّ البعثة دعته إلى الذهاب إلى سَمْلا حتى يكون طلبُ مشورته متيسّرا. استجاب غاندي لدعوتهم، ونزل في فيلا مانور حيث عقدنا اجتماعات غير رسميّة كي يتمكّن غاندي من حضورها.

بدأت المحادثات في سِمْلا يوم 2 مايو/ أيار، واستمرّت إلى غاية 12 مايو/ أيار. أجرينا العديد من الاجتماعات غير الرسميّة إلى جانب القمّة الرسمية. كنت أنزل بـ«رتريت»، وقد جاء أعضاء من البعثة للقائي هناك في مناسبات عديدة.

عدنا إلى دلهي بعد ما يقارب الأسبوعين. أجرى أعضاء البعثة الحكوميّة المزيد من المحادثات في ما بينهم، وصاغوا مقترحاتهم، وقام السيد آتلي بالإعلان عنها في مجلس العموم يوم 16 مايو/ أيار. تمّ أيضا إصدار وثيقة[15] تضمّ الخطّة، وجاء فيها أنّ بعثة الحكومة البريطانية إلى الهند تعتبر هذا الأمر أفضل طريقة لضمان تأسيس دستور جديد وسريع للهند. أرفقت برنامج البعثة الحكوميّة (ملحق رقم 5)، وبمقدور القرّاء الذين يهمّهم الأمر أن يقارنوه بالمخطّط الذي صغته في بياني بتاريخ 15 أبريل/ نيسان.

كنت أميل إلى البقاء في سِمْلا لمواصلة مباحثاتنا حول مخطّط البعثة

15 - تسمّى هذه الوثيقة ورقة بيضاء. وهي وثيقة، على عكس الورقة الخضراء التي يطلق عليها أيضا اسم وثائق التشاور. (المترجمة)

الحكوميّة. قلت للّورد وايفل إنه سيكون من الأفضل مواصلة مداولاتنا في سِمْلا فالمناخ في دلهي غير ملائم للتدارس الهادئ الدّقيق للمسائل الهامّة المطروحة. قال اللورد وايفل إنّ مقرّ الحكومة موجود بدلهي، ومن الراجح أن يتأثّر العمل سلبا إن هو ظلّ بعيدا وقتا طويلا. كان تعليقي هو أنّ دلهي لم تكن تشكّل أيّ صعوبة بالنسبة إليه لأنّ مقرّ إقامة الملك مكيّف، ولم يكن يغادره على الإطلاق. لكن الأمر كان مختلفا بالنسبة إلينا نحن وأعضاء البعثة الحكوميّة. سيكون صعبا جدا علينا في الأتون الذي تحوّلت إليه دلهي الآن. أجاب اللورد وايفل إنها مسألة بضعة أيّام فقط.

اتّضح في ما بعد أننا أمضينا ما تبقّى من شهر مايو/ أيار وكامل شهر يونيو/ حزيران في دلهي. تلك السنة كانت الحرارة مرتفعة بشكل استثنائيّ. شعر أعضاء البعثة الحكوميّة بهذا الأمر، وخاصّة اللورد باثِك-لورنس الذي أُغمي عليه ذات يوم بسبب الحرارة. كان نائب الملك قد رتّب لي غرفة مكيّفة ومن المؤكّد أنّ هذا ساعدني، لكن الطقس كان قائظا إلى درجة أنّ الجميع كانوا يرغبون في إيصال المفاوضات إلى حلّ سريع. من سوء الحظّ أنّه لا يمكن للخلافات بين المؤتمر والرابطة الإسلاميّة أن تحلّ بهذه السهولة، وفشلت النقاشات في إيجاد أيّ حلٍّ.

كان لدينا ما يكفي من المتاعِب مع البعثة الحكوميّة ومخطّطها، لكن متاعبَ جديدة انضافت إليها بسبب التطوّرات في كشمير. كان المؤتمر الوطني يناضل بقيادة الشيخ عبد الله من أجل أن يحصل شعب كشمير على حقوقه السياسيّة. نادى بشعار غادروا كشمير ورفع قضيّته إلى البعثة الحكوميّة. كان يطالب بأن يضع ماهاراجا كشمير حدّا لتفرّده بالحكم، ويمنح الشعب حكما ذاتيّا. ردّت حكومة الماهاراجا باعتقال الشيخ عبد الله وزملائه. قبل أن يحصل هذا الأمر بقليل، وقع تشريك أحد أعضاء المؤتمر الوطني إلى الحكومة، وبدا وكأنه يمكن الوصول إلى حلٍّ وَسَطٍ. بدّد اعتقال الشيخ عبد الله ورفاقه هذه الآمال.

كان جواهرلال حريصا دائما على الاهتمام بنضال كشمير من أجل حكومة تمثيليّة. حين حصلت هذه التطوّرات شعر بأنّ عليه أن يذهب إلى كشمير. تمّ التفكير، أيضا، في ضرورة اتّخاذ بعض التدابير للدفاع عن قادة المؤتمر الوطني. طلبتُ من أسّاف علي أن يفعل ذلك. قال جواهرلال إنه سيرافق أسّاف علي، وهكذا غادر كلاهما. انزعجت حكومة الماهاراجا من هذا القرار وأصدرت حضرا لدخولهما كشمير. حين غادرا رَوَلْبِنْدي واقتربا من كشمير، تمّ إيقافهما في أوري. رفضا أن يقبلا بالحضر، فاعتقلتهما حكومة كشمير. وبطبيعة الحال خلق هذا الأمر ضجّة كبيرة في البلاد.

لم يسعدني ما كان يحدث من تطوّرات. وفيما كنتُ مستاء ممّا أقدمت حكومة كشمير على فعله، فكّرت أن الوقت ليس مناسبا للدخول في خصومة جديدة في كشمير. خاطبتُ نائب الملك وقلت له إن حكومة الهند ينبغي أن تنظّم لي مكالمة تلفونية مع جواهرلال. كان جواهرلال معتقلا في مكان مُعَدٍّ لاستراحة المسافرين، فاتصّلت به على الخطّ الهاتفي بعد بعض الوقت. أخبرت جواهرلال أن عليه، حسب رأيي، أن يعود إلى دلهي في أقرب وقت ممكن. لن يكون من اللائق به أن يصرّ على دخول كشمير في المرحلة الراهنة. أما في ما يخصّ مشكلة كشمير فأكّدت له أنني سأتكفّل بالأمر بنفسي باعتباري رئيس المؤتمر. سأعمل أيضا على الإفراج عن الشيخ عبد الله وزملائه، لكن ينبغي أن يعود جواهرلال حالا.

رفض جواهرلال، في البداية، لكنه وافق بعد نقاش قصير، لأنني طمأنته على أنني سأتولّى شخصيا قضيّة كشمير. التمست من اللورد وايفل أن يرسل طائرة لتقلّ جواهرلال وأسّاف علي. كانت الساعة حوالي السابعة مساء حين قدّمت طلبي، لكنه أرسل الطائرة في تلك الليلة ذاتها. وصلت الطائرة إلي سريناجار حوالي الساعة العاشرة ليلا، وعادت إلى دلهي، وعلى متنها جواهرلال وأسّاف علي، على الساعة الثانية صباحا. كان موقف اللورد وايفل في هذا الأمر كلّه لطيفا جدّا، فأكبرت ذلك أيّما إكبار.

كنت قد ذكرت سابقا أنّ البعثة الحكوميّة نشرت مشروعها يوم 16 مايو/ أيار. وهو مشروع يشبه، في جوهره، ذاك الذي سطّرتُهُ في بياني الصادر يوم 15 أبريل/ نيسان. طرح مخطّط البعثة الحكوميّة أن لا تتبع الحكومة المركزيّة بشكل إلزاميّ إلا مواضيع ثلاثة، وهي الدفاع والشؤون الخارجيّة والاتصالات. وهذا ما اقترحته في خطّتي. غير أن البعثة فعلت شيئا آخر. قسّمت البلاد إلا ثلاث مناطق: المنطقة (أ)، والمنطقة (ب)، والمنطقة (ج)، ذلك أن أعضاء البعثة الحكوميّة شعروا بأنّ ذلك الأمر قد يشيع شعورا أكبر بالطمأنينة في صفوف الأقليات. ستشمل المنطقة (ب) بُنجاب، والسند، والإقليم الحدودي بالشمال الغربي، وبلوشستان البريطانيّة. ستقطن هذه المنطقة أغلبيّة مسلمة. وستكون للمسلمين في المنطقة (ج) التي تشمل البنغال وأسّام أغلبية ضعيفة مقارنة بالآخرين. تصوّرت البعثة الحكوميّة أنّ هذا الإجراء كفيلٌ بأن يمنح الأقليّة المسلمة كامل التطمينات، ويبدّد كلّ مخاوف الرابطة الإسلامية المشروعة.

كانت البعثة قد قبلت أيضا فكرتي التي ترى أنّ أغلب المواضيع يجب أن يتمّ التعامل معها على المستوى الإقليمي. وهكذا سيمارس المسلمون استقلاليّة تكاد تكون تامّة في الأقاليم ذات الأغلبيّة المسلمة. ولن تنظر الحكومة المركزيّة سوى في بعض المواضيع المحدّدة. هنا أيضا كان المسلمون ضامنين للأغلبيّة في المنطقتين (ب) و(ج)، وسيتمكّنون من تحقيق كلّ آمالهم المشروعة. أما في ما يخصّ الحكومة المركزيّة، فلم تكن هناك غير ثلاثة مواضيع لا يمكن إدارتها إقليميا نظرا لطبيعتها. ولما كانت خطّة البعثة الحكوميّة شبيهة في روحها بخطّتي، والإضافة الوحيدة التي أضافتها هي إقامة المناطق الثلاث، شعرت بأنه ينبغي أن نقبل المقترح.

كان السيد جِنّاه، في البداية، معارضا تماما للخطّة. كانت الرابطة الإسلاميّة قد ذهبت بعيدا في المطالبة بدولة منفصلة مستقلّة، إلى درجة أنه لم يعد بإمكانها أن تعود أدراجها. كان أفراد البعثة قد عبّروا بشكل واضح لا يقبل اللبس أنهم لا يقدرون إطلاقا أن ينصحوا بتقسيم البلاد، وتأسيس

دولة مستقلّة. كرّر اللورد باثِك-لورنس والسير ستافورد كريبس مرّات عديدة قولهما إنه لا يمكن تصوّر كيف يمكن لدولة مثل الباكستان التي تنوي الرابطة الإسلاميّة تأسيسها أن تنعم بالنموّ والاستقرار. وأحسّا أنّ الصيغة التي اقترحتُها أنا، وهي الصيغة التي تمنح الأقاليم أكبر قدر ممكن من الحرّية ولا تبقي تحت سلطة الحكومة المركزيّة سوى ثلاثة أمور، هي الحلّ الوحيد. قال اللورد باثِك-لورنس، أكثر من مرّة، إن قبول صيغتي سيعني أنّ الأقاليم ذات الأغلبيّة المسلمة ستُفوّضُ، في البداية، ثلاثة مواضيع لا غير للحكومة المركزيّة، وبذلك يضمن المسلمون لأنفسهم استقلاليّة تامّة. و من جهة أخرى ستقبل الأقاليم ذات الأغلبيّة الهندوسية طواعية نقلَ بضعة مواضيع أخرى إلى سلطة الحكومة المركزيّة. اعتبرت البعثة الحكوميّة أنه لن يوجد ضرر في هذا. ففي ظلّ حكم فدرالي حقيقي، يجب أن تكون للوحدات المتّحدة حريّة أن تقرّر عدد المواضيع التي تُنقل سلطتها للحكومة المركزيّة وطبيعة هذه المواضيع. (المهامّ)

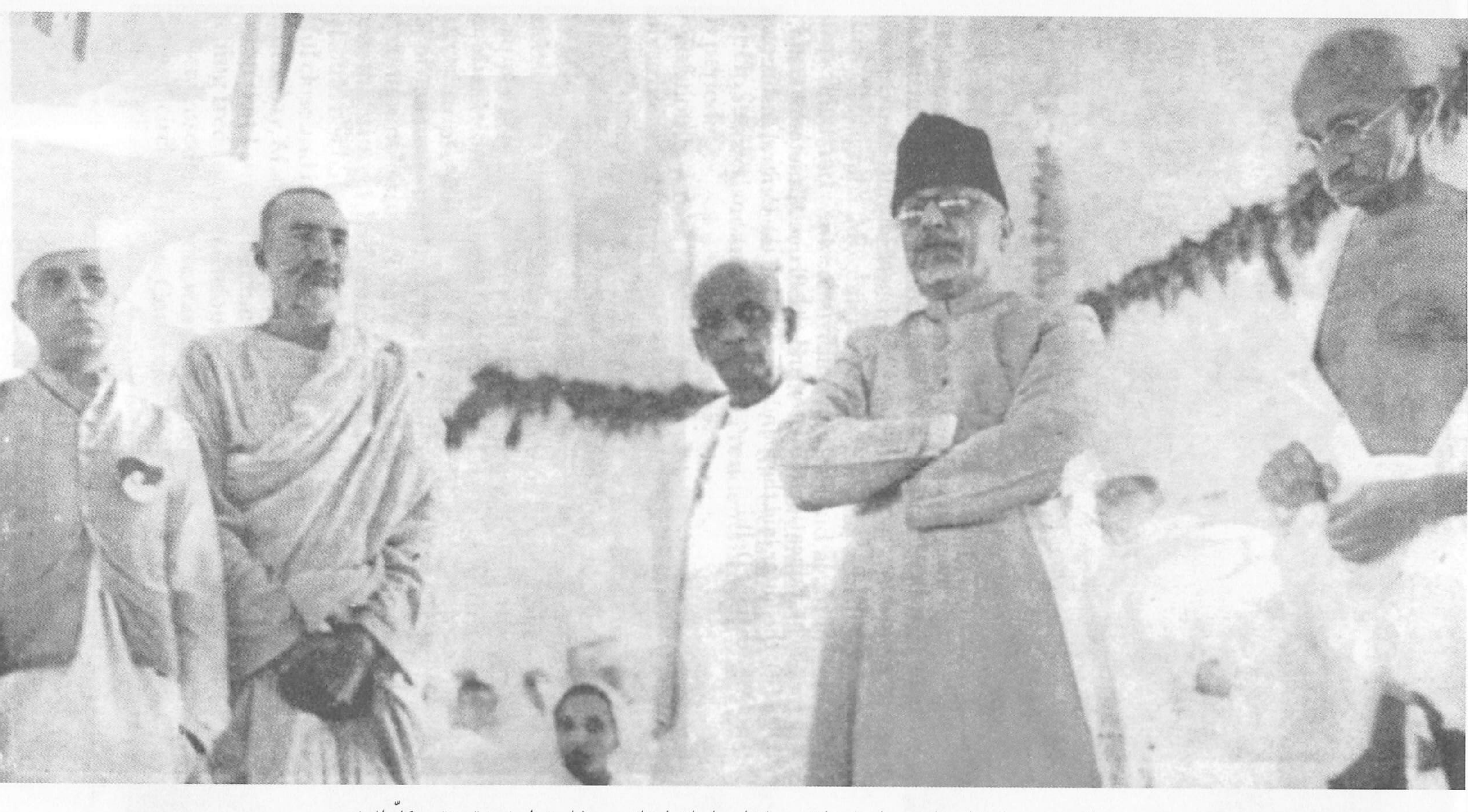
اجتمع مجلس الرابطة الإسلاميّة طيلة ثلاثة أيام قبل التوصّل إلى قرار. وكان على السيد جِنّاه أن يعترف، في اليوم الأخير، بأنّه لا يمكن التوصّل إلى حلّ لمشكلة الأقليات أَعْدَلَ من الحلّ الذي تطرحه خطّة البعثة الحكوميّة. وفي جميع الحالات، لم يكن بإمكانه أن يحصل على شروط أفضل. قال للمجلس إنّ المخطط الذي قدّمته البعثة هو أقصى ما يمكننا تأمينه. وبالتالي، نصح الرابطة الإسلاميّة بقبول المخطّط، وصوّت المجلس لصالحه بالإجماع.

التقاني بعض قادة الرابطة الإسلاميّة وأنا لا أزال في مُسُّوري، وعبّروا لي عن ذهولهم وعن دهشتهم الشديدة. قالوا لي بشكل صريح إذا كانت الرابطة جاهزة لقبول خطّة البعثة الحكوميّة، لماذا أطلقت صرخة دولة مستقلّة وأضلّت المسلمين؟ ناقشت الموضوع معهم بالتفصيل. واضطرّوا في النهاية إلى الاعتراف بأنه لم يكن يمكن لمسلمي الهند، مهما كانت رؤى الرابطة الإسلاميّة، أن ينتظروا أيّ شروط أفضل من تلك التي تعرضها خطّة البعثة الحكوميّة.

كنت قد أشرت في مناقشاتنا في اللجنة التنفيذيّة إلى أنّ خطّة البعثة

الحكوميّة شبيهة في جوهرها بالمخطط الذي صغته. وبالتالي لم تجد اللجنة التنفيذيّة صعوبة كبيرة في قبول أهمّ حلّ سياسيّ ورد في الخطّة. لكن ظلت هنا مسألة تتعلّق بعلاقة الهند بالكمنوالث. طلبت من البعثة أن تترك هذا القرار للهند. كنت أرى أنّ هذا هو السبيل الوحيد الكفيل بأن يؤدّي إلى حلّ عادل. قلت لهم أيضا إنني أرى أنه إذا تُرك هذا الأمر للهند، فليس من المستبعد أن تقرر الهند البقاء في الكمنوالث. أكّد لي السير ستافورد كريبس أنّ الأمر سيكون كذلك. فتُرك القرار، في خطّة البعثة الحكوميّة، للهند المستقلّة وهذا ما سهّل قبولها. وبعد مفاوضات مطوّلة، قبلت اللجنة التنفيذيّة في قرارها الصادر يوم 26 يونيو/ حزيران خطّة البعثة الحكوميّة للمستقبل، لكنها وجدت نفسها غير قادرة على أن تقبل صيغة الحكومة الانتقاليّة التي وردتْ في المقترح.

كان قبول كلّ من المؤتمر والرابطة الإسلاميّة بخطّة البعثة الحكوميّة حدثا رائعا في تاريخ حركة التحرير في الهند. فهو يعني أن مشكلة حريّة الهند الصعبة قد تمّ حلّها عبر المفاضات والاتّفاق، لا بأساليب العنف والخلاف. وبدا أيضا أنّ الخلافات الطائفيّة قد صارت جزءا من الماضي. عمّ شعور بالفرحة العارمة جميع أرجاء البلاد، وتوحّد كلّ الشعب حول مطلب الحرّية. فرحنا، غير أننا لم نكن ندري أنّ فرحتنا كانت سابقة لأوانها، وأنّ مرارة الخيبة كانت في انتظارنا.



بانديتجي وبادشاه خان وصاردار باتل ومولانا وماهاتما غاندي في اجتماع لجنة مؤتمر كلّ الهند



رجكوماري أمريت كور واللورد مَاوِنْتبَطِّنْ وحرمه المكرمة باميلا مَاوِنْتبَطِّنْ ومولانا آزاد وسفير الصين بالهند د. لو شيا لون أثناء حرق جثّة ماهاتما غاندي

وزير التربية الهندي برفقة الوزير الأوّل عندما وضع حجر الأساس للمعهد المركزي للتعليم بدلهي

12 - فاتحة التقسيم

الآن وقد بدا أن المسائل السياسيّة والطائفيّة قد حُلّت، جلب اهتمامي موضوعٌ جديدٌ. تمّ انتخابي رئيسا للمؤتمر سنة 1939. حسب القانون الأساسي للمؤتمر تدوم مدّة الرئاسة سنة واحدة. في ظروف عاديّة، كان سيتمّ انتخاب رئيس آخر سنة 1940. لكن الحرب اندلعت، ثمّ بدأ تحرّك ساتياغراها الفرديّة. عُلّقت النشاطات العاديّة، وتمّ اعتقالنا سنة 1940 ثم سنة 1942. كما تمّ إعلان المؤتمر منظّمة غير شرعيّة. وبالتالي لم يكن هناك مجال لانتخاب رئيس يخلفني، وبقيت رئيسا طوال هذه الفترة.

عادت الأمور الآن إلى الوضع الطبيعيّ. انبثقت، بشكل طبيعي، مسألة أنه ينبغي للمؤتمر أن يجري انتخابات جديدة، ويختار رئيسا جديدا. وما إن شرعت الصحافة في مناقشة هذا الموضوع حتّى نشأت مطالبة عامّة بإعادة انتخابي لدورة أخرى. كانت أهمّ حجّة في صالح إعادة انتخابي هي أنني اضطلعت بمهمّة إجراء المفاوضات مع كريبس، ومع اللورد ويفل، وأضطلع بها الآن مع البعثة الحكوميّة. كنت قد نجحت للمرّة الأولى، أثناء قمّة سِمْلا، في التوصّل إلى حلّ ناجع للمشكلة السياسيّة رغم أن القمة انفضّت، في النهاية، بسبب المسألة الطائفيّة. كان هناك شعور عامّ بين أعضاء المؤتمر بأنني ينبغي أن أُكلَّف بمهمّة إيصالهم إلى حلّ نهائيّ ناجع وأمكّنهم من تنفيذه، ما دمت قد خضت المفاوضات إلى حدّ الآن. عبّرت دوائر المؤتمر في البنغال، وبُمباي، ومدراس،

وبيهار، والأقاليم المتّحدة عن رأيها بصراحة وقالت إنه يجب أن يتمّ تكليفي بمسؤوليّة وضع الهند على طريقها.

غير أنني أحسست أنّ هناك بعض الاختلافات في الآراء في الدوائر الداخليّة للقيادة العليا في المؤتمر. بدا وكأن صاردار باتل وأصدقاؤه يريدونه أن يصبح رئيسا. صارت المسألة حسّاسة جدّا بالنسبة إليّ ولم أكن أستطيع، في البداية، أن أقرّر ماذا ينبغي عليّ أن أفعل. فكّرت في الأمر طويلا، وانتهيتُ إلى استخلاص أنني ما دمت قد بقيتُ رئيسا طيلة سبع سنوات من سنة 1939 إلى 1946، فعليّ الآن أن أنسحب. لذلك قرّرت أن لا أسمح بأن يقع اقتراح اسمي.

النقطة الثانية التي كان عليّ أن أحسمها تتعلّق باختيار خَلَف لي. كنت أتوق إلى أن يكون الرئيس القادم شخصا يوافقني الرأيَ ويواصل السياسة التي كنت أسلُكها. استنتجت، بعد أن وازنْتُ مليّا بين السلبيات والإيجابيات، أنّ انتخاب صاردار باتل في الوضع الراهن لن يكون محبّذا. وبدا لي، بعد أن أخذت كلّ الأمور بعين الاعتبار، أنّ جواهرلال ينبغي أن يصبح هو الرئيس الجديد. وبناء على هذا، أصدرت بلاغا يوم 26 أبريل/ نيسان 1946 أقترح فيه اسمَه للرئاسة، وأناشد فيه المؤتمر أن ينتخب جواهرلال بالإجماع.

تصرّفت وفْقَ أفضل ما أملته عليّ بصيرتي، لكن الطريقة التي سارت بها الأمور، منذ ذلك الحين، جعلتني أتفطّن إلى أنّ هذا القرار ربّما كان أكبر خطإ ارتكبته في حياتي. لم أندم على شيء فعلته في حياتي بقدر ما ندمت على انسحابي من منصب رئاسة المؤتمر في هذا المفترق الحسّاس. كان ذلك خطأ يمكن أن أنْعَتَهُ، إذا استعرتُ عبارة غاندي بكونه خطأ في حجم الهملايا.

كان الخطأ الثاني الذي اقترفته هو أنني لم أساند صاردار باتل عندما اتّخذت قرار عدم الترشّح. كنّا نختلف حول العديد من المسائل، لكنني متأكّد أنه إذا خلفني في رئاسة المؤتمر سيرى أن خطّة البعثة الحكوميّة كانت تُنَفَّذ بنجاح. لم يكن ليقترف أبدا الخطأ الذي اقترفه جواهرلال، ذلك الخطأ الذي مكّن السيد جِنّاه من تخريب الخطّة. لا يمكنني أن أغفر لنفسي هذا الخطأ

إطلاقا حين أفكّر أنني لو لم أقترفه، لكان من المحتمل أن يكون تاريخ العشر سنوات الماضية مختلفا.

أثار تصريحي بلبلةً في صفوف أعضاء المؤتمر وفي جميع أرجاء البلاد. سافر عدد من القادة المهمّين من كلكوتا وبُمباي ومدراس لإقناعي بسحب تصريحي والسماح بإدراج اسمي. ظهرت أيضا مناشدات في الصّحف تمضي في الاتجاه نفسه. لكني كنت قد اتّخذت قراري، ولم أكن أشعر أنّه يتوجّب عليَّ تغييره. كان ثمّة عامل زاد في قوّة قراري وهو وجهة نظر غاندي. فقد وافقني على أنه لا ينبغي أن أواصل شغل منصب الرئيس، غير أنه لم يكن راضيا تمام الرضى على اقتراحي ترشيحَ جواهرلال خلفا لي. ربّما كان يميل بعض الميْلِ إلى تعيين صاردار باتل، ولكنه لم يشر أيّ إشارة علنيّة إلى آرائه بعد أن صرّحتُ باسم جواهرلال. قام بعض الناس باقتراح اسميْ صاردار باتل وآشاريا كريبالاني، لكن تمّ قبول جواهرلال بالإجماع في نهاية المطاف.

كان مجلس المؤتمر الإسلامي قد قبل خطّة البعثة الحكوميّة. وكذلك فعلت اللجنة التّنفيذية للمؤتمر. لكن الأمر كان لا يزال يحتاج إلى موافقة لجنة مؤتمر كلّ الهند. ظننا أنّ هذا الإجراء سيكون إجراء شكليّا، فقد دأبتْ لجنة مؤتمر كلّ الهند على اعتماد جميع قرارات اللجنة التّنفيذية. تبعا لذلك، دُعيت لجنة مؤتمر كلّ الهند للاجتماع في بُمباي يوم 7 يوليو/ تمّوز 1946. وبعد اتّخاذ هذا القرار، لم يعد هناك من داعٍ لبقائي في دلهي. كانت الحرارة قد صارت لا تُحتمَل فعدتُ إلى كلكوتا يوم 30 يونيو/ حزيران. قصدت بُمباي يوم 4 يوليو/ تمّوز. كان صارات شَنْدْرا بوزي يستقلّ القطار نفسه. كان الرجال يتجمّعون بأعداد غفيرة في كلّ محطّة تقريبا، وكانت الشعارات التي يرفعونها تطالب أن أستمرّ في منصب رئيس المؤتمر. كان صارات بابو يأتي لرؤيتي عند كلّ محطّة كبيرة ويقول لي: "أنظر ماذا تريد الجماهير، ورغم ذلك فعلتَ ما فعلتَ."

اجتمعت اللجنة التّنفيذية يوم 6 يوليو/ تمّوز، وأعدّت مسودات قرارات لتتباحثها لجنة مؤتمر كلّ الهند. تناول القرار الأوّل خطّة البعثة الحكوميّة.

طُلِبَ منّي أن أقوم بتقديم هذا الموضوع لأنه قد يُلاقي معارضة شرسة من أعضاء المؤتمر الشيوعيين.

عندما اجتمعت لجنة مؤتمر كلّ الهند، دعوت جواهرلال إلى الاضطلاع بالمهمّة بدلا عنّي باعتباره رئيس المؤتمر. ثمّ قدّمت عرضا عن القرار الذي يخصّ خطّة البعثة الحكوميّة، وتحدّثت باقتضاب عن خطوطها الأساسيّة. عارضها الشيوعيّون بشراسة. كان الأعضاء الاشتراكيّون في طليعة المعارضين، ذلك أن اتّخاذ موقف متطرّف أصبح أسلوبا رخيصا لكسب الشعبيّة. اتّخذوا موقفا مسرحيّا غير واقعيٍّ. كان يوسف مِهارَلّي مريضا جدّا وقتها، لكنهم جلبوه في نقّالة لاستدرار أكبر قدْرٍ ممكن من تعاطف الجماهير. ولقد تكلّم هو الآخر ضدّ خطّة البعثة الحكوميّة.

شرحت في ردّي تبعات الخطّة بالتفصيل، وأشرت إلى أنّها تمثّل، في حقيقة الأمر، انتصارا عظيما للمؤتمر. قلتُ إنّ هذا يؤدّي إلى تحقيق الاستقلال دون ثورة عنيفة دمويّة. إنّ قبول الحكومة البريطانيّة المطلبَ القوميَّ الهنديّ نتيجةَ تحرّك غير عنيف ومفاوضات أمرٌ لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم. بلاد سكانها أربعون كرور[16] تحصل على استقلالها عبر المحادثات والتسوية لا نتيجة عمل عسكريٍّ. من هذا المنظور وحده، سيكون التقليل من قيمة نصرنا محضَ جنونٍ. وأضفت قائلا إن خطة البعثة الحكوميّة قد قبلت جَوهريا وجهة نظر المؤتمر. إنها تضمن وحدة الهند فيما هي تقدّم الضمانات الضروريّة للأقلّيات. وقف المؤتمر مع حرّية الهند ووحدتها، ووقف ضدّ النزوعات الانفصاليّة. أن يعتبر أشخاص مثل الاشتراكيين نصرَنا هزيمةً للمؤتمر فهذا أمرٌ يفوق طاقتي على الفهم.

كان لخطبتي تأثيرٌ حاسمٌ على الجمهورِ. وحين جرى التصويت، تمّت المصادقة على القرار بأغلبيّة ساحقة. وبذلك أعزِيتُ هذه المصادقة إلى قرار المؤتمر قبول خطّة البعثة الحكوميّة.

---

16 – كرور: عشرة آلاف حسب نظام الترقيم الهندي. (المترجمة)

بعد أيام قليلة وصلتني برقيتا تهنئة من اللورد باثك-لورنس والسير ستافورد كريبس. كانا سعيدين لأن المؤتمر قبل قراري، وقدّما لي التهاني على عرضي الجيّد لخطّة البعثة الحكوميّة.

جدَّ الآن أحد الأحداث المحزنة التي من شأنها أن تغيّر مجرى التاريخ. عقد جواهرلال مؤتمرا صحفيّا في بُمباي يوم 10 يوليو/ تمّوز، صرّح خلاله بتصريح غريب. سأله بعض ممثّلي الصحف إذا كانت مصادقة لجنة مؤتمر كلّ الهند على القرار تعني أنّ المؤتمر قد قبل الخطّة بأكملها، بما في ذلك تكوين حكومة انتقاليّة.

ردّ جواهرلال قائلا إنّ المؤتمر سيدخل المجلس التأسيسي "متحررا تماما من الاتّفاقيات، وحرّا ليواجه كلّ الوضعيات عندما تطرح."

ثمّ سأله ممثّلو الصحف إذا كان ذلك يعني أنّ خطّة البعثة الحكوميّة يمكن أن تشهد تحويرا.

أجاب جواهرلال جازما بأن المؤتمر قَبل أن يشارك في المجلس التأسيسي، وهو يرى نفسه حرّا في تغيير خطّة البعثة الحكوميّة أو تحويرها إذا رأى أنّ ذلك أفضل.

لم تكن الرابطة الإسلامية قد قبلت خطّة البعثة الحكوميّة إلا تحت الإكراه. وبالطبع، لم يكن السيد جِنَّاه سعيدا جدا بها. كان قد عبّر بوضوح، في خطابه أمام مجلس الرابطة، عن أنه نَصَحَ بالقبول لا غير لأنه لم يكن من الممكن الحصول على شيء أفضل. بدأ خصومه السياسيون ينتقدونه ويقولون إنه فشل في مسعاه. اتّهموه بأنّه تخلّى عن فكرة إنشاء دولة إسلامية مستقلّة. كما استهزؤوا به قائلين: إذا كانت الرابطة ترغب في قبول خطّة البعثة الحكوميّة التي ترفض حقّ المسلمين في تأسيس دولة مستقلّة، فلماذا قام السيد جِنَّاه إذن بكل هذه الجلبة حول دولة إسلامية مستقلّة؟

لم يكن السيد جِنَّاه سعيدا بنتيجة المفاوضات مع البعثة الحكوميّة. لذلك

كان لتصريح جواهرلال عليه وقعُ المفاجأة المذهلة. وعمد، في الحين، إلى الإدلاء بتصريح جاء فيه أنّ إعلان رئيس المؤتمر يتطلب إعادة النظر في الوضع كلّه. ومن ثمّ طلب من لياقات علي خان أن يدعو إلى اجتماع مجلس الرابطة، وأدلى بتصريح فحواه ما يلي: كان مجلس الرابطة الإسلاميّة قد قبل خطّة البعثة الحكوميّة في دلهي لأنه تأكّد لديه أن المؤتمر كان قد قبلها أيضا، وسيكون هذا المخطّط أساس الدستور الهندي في المستقبل. الآن بعد أن أعلن رئيس المؤتمر أن المؤتمر يمكنه أن يغيّر البرنامج حسب أغلبية أصوات المجلس التأسيسي، فإن ذلك يعني أنّ الأقلّيات ستصبح تحت رحمة الأغلبيّة. كان يرى أنّ تصريح جواهرلال يعني أنّ المؤتمر قد رفض خطّة البعثة الحكوميّة، وبالتالي ينبغي أن يكلّف نائب الملك الرابطة الإسلاميّة التي قبلت الخطّة بتشكيل الحكومة.

عقد مجلس الرابطة الإسلاميّة اجتماعا في بُمباي يوم 27 يوليو/ تمّوز. كرّر السيد جِنّاه، في كلمته الافتتاحيّة، مطالبته بباكستان باعتبارها الطريق الوحيد الذي بقي مفتوحا أمام الرابطة الإسلاميّة. صادق المجلس، بعد مباحثات دامت ثلاثة أيّام، على قرار رفْضِ خطّة البعثة الحكوميّة. كما قرّر المجلس اللجوء إلى العمل المباشر لبلوغ هدف إنشاء باكستان.

وتّرني هذا التطوّر الجديد أيما توتير. رأيت أن البرنامج الذي كنت قد بذلت قصارى جهدي من أجله كان يدمَّر على أيدينا. وشعرت بأن اللجنة التنفيذيّة يجب أن تجتمع حالاً لتستعرض الوضع. لم يكن جواهرلال موافقا في البداية، لكن حين أصررت، وافق. تبعا لذلك اجتمعت اللجنة التنفيذيّة يوم 8 أغسطس/ آب واستعرضت كلّ الوضع السياسي. بيّنتُ أننا إذا كنّا نريد إنقاذ الموقف، فعلينا أن نوضّح أنّ التصريح الذي أدلى به رئيس المؤتمر في المؤتمر الصحفي ببُمباي يعبّر عن رأيه الخاصّ، وليس خاضعا لقرار المؤتمر. وشرحت أنّ موقف المؤتمر قد عبّر عنه القرار الذي صادقتْ عليه لجنة مؤتمر كلّ الهند، ولا يستطيع أيّ شخص، حتى رئيس المؤتمر، أن يغيّره. جادل جواهرلال قائلا إنه لا يرى مانعا إذا رغبتْ اللجنة التنفيذيّة في التأكيد على أنّ المؤتمر قد قبل خطّة البعثة الحكوميّة، لكنه شعر أنه سيكون من المحرِج للمنظّمة وله شخصيّا

لو أصدر قرارا بأنّ تصريح رئيس المؤتمر لا يمثّل سياسة المؤتمر.

وجدت اللجنة التنفيذيّة نفسها بين نارين. فمن ناحية كانت مهابة رئيس المؤتمر في خطر، ومن ناحية ثانية، كانت التسوية التي تكبّدنا عناء شديدا لتحقيقها في خطر أيضا. إن عدم الاعتراف بتصريح الرئيس من شأنه أن يُضعف المؤتمر، لكن التخلّي عن خطّة البعثة الحكوميّة كفيلٌ بتدمير البلاد. حرّرنا، في النهاية، قرارا لا وجود فيه لأيّ إشارة إلى تصريح جواهرلال، لكنه يعيد تأكيد قرار لجنة مؤتمر كلّ الهند، هذا نصّه:

إنّ اللجنة التنفيذيّة تلاحظ، بكلّ أسف، أنّ مجلس الرابطة الإسلاميّة لكلّ الهند قد تراجع عن قراره السابق، وقرّر عدم المشاركة في المجلس التأسيسي. في هذه الفترة التي يتمّ فيها الانتقال السريع من مرحلة تبعيّة لقوّة أجنبيّة إلى الاستقلال التامّ، علينا أن نواجه العديد من المشاكل السياسية والاقتصاديّة الضخمة والمعقّدة ونبحث لها عن حلول، ندعو إلى أقصى حدّ ممكن من التعاون بين الشعب الهنديّ وممثّليه، حتّى تكون مرحلة التحوّل سلسَةً وفي مصلحة الجميع. تلاحظ اللجنة وجود اختلافات في الرّؤى والأهداف بين المؤتمر والرابطة الإسلاميّة. غير أنّ المؤتمر، في سبيل مصالح الوطن الكبرى ومن أجل حريّة كلّ الشعب الهندي، يناشد جميع من يسعون إلى حريّة البلاد وخيرها أن يتعاونوا على أمل أن يوصلنا تضافر الجهود إلى حلّ العديد من مشاكل الهند.

لاحظت اللجنة أنّه قد تمّ توجيه انتقادات

باسم المؤتمر الإسلامي تفيد بأنّ قبول المؤتمر بالمقترحات الواردة في تصريح 16 مايو/ أيار كان قبولا مشروطا. يريد أعضاء المؤتمر أن يوضّحوا أنّهم قد قبلوا الخطّة، رغما عن كونهم لم يقبلوا جميع المقترحات الواردة في التصريح ككلّ. وقد أوّلوا الخطّة بطريقة تحلّ التناقضات الموجودة فيها، وتملأ الفراغات حسب ما يتماشى مع المبادئ المطروحة في ذلك التصريح. إن أعضاء المؤتمر يعتقدون أنّ الحكم الذاتي الإقليميّ شرطٌ أساسيٌّ، ولكلّ إقليم الحقّ في أن يقرّر ما إذا كان يرغب في تكوين مجموعة أو الانضمام إلى مجموعة أو لا. ستُحسَم مسائل التأويل بالنهج المنصوص عليه في التصريح ذاته، وسينصح المؤتمر ممثّليه في المجلس التأسيسي بالتصرّف وفقا لذلك.

ما فتئ المؤتمر يركّز على سيادة المجلس التأسيسي، أي حقّه في أداء وظيفته، ووضع دستور للهند دون تدخّل أيّ قوّة أو سلطة خارجيّة. غير أنّ المجلس سيعمل، بطبيعته، ضمن الحدود الكامنة في صلب مهمّته، وبالتالي سيسعى إلى أكبر قدر ممكن من التعاون في وضع دستور للهند الحرّة يسمح بأكبر قدر ممكن من الحريّة والحماية لجميع المطالب والمصالح العادلة. صادقت اللجنة التنفيذيّة على هذا التصريح يوم 26 يونيو/ حزيران 1946 من أجل هذا الهدف، ومن أجل العمل في المجلس التأسيسي وإنجاحه،

> ثمّ صادقت عليه لجنة مؤتمر كلّ الهند يوم 7 يوليو/ تمّوز 1946. يلتزم الأعضاء بقرار لجنة مؤتمر كلّ الهند، وهم يعتزمون مواصلة عملهم داخل المجلس التأسيسي.
>
> يتمنّى المؤتمر أن تشارك الرابطة الإسلاميّة وكلّ المعنيّين الآخرين في هذه المهمّة العظيمة، خدمة لمصلحة الوطن الكبرى وخدمة لمصالحهم أيضا.

كنا قد طمحنا إلى أن ينقذ قرار اللجنة التنفيذيّة الموقف. لم يعد هناك الآن أيّ شكّ في أن المؤتمر قد قبل خطّة البعثة الحكوميّة بأكملها. إذا قبلت الرابطة الإسلاميّة هذا القرار، فيمكنها أن تعود إلى موقفها السابق دون أن تفقد شيئا من مهابتها. غير أنّ السيد جِنّاه رفض هذا الموقف وقال إنّ تصريح جواهرلال يعبّر عن طريقة التفكير الحقيقية للمؤتمر. حاجج قائلا إن كان يمكن للمؤتمر أن يتغيّر كلّ هذه المرّات والبريطانيون ما يزالون موجودين في البلاد والسلطة لم تنتقل إلى أيديه بعد، فأيّ ضمان لدى الأقلّيات أنه ما إن يغادر البريطانيون حتى يعود إلى الموقف الذي ورد في تصريح جواهرلال؟

أدّى قبول خطّة البعثة الحكوميّة بشكل لا لبْسَ فيه من قِبل اللجنة التنفيذيّة إلى ردّة فعل مباشرة من نائب الملك. فقد دعا جواهرلال يوم 12 أغسطس/ آب إلى تشكيل حكومة انتقاليّة مركزيّة مستخدما العبارات التالية:

> قام سعادة نائب الملك، بموافقة حكومة جلالته، بدعوة رئيس المؤتمر لتقديم مقترحات حتى تُكوّن حكومة انتقاليّة فورا. وقد قبل رئيس المؤتمر هذه الدعوة. سيتوجه بانديت جواهرلال نهرو إلى نيو دلهي قريبا لمناقشة هذا المقترح مع سعادة نائب الملك.

أدلى السيد جنَّاه ببلاغ، في ذلك اليوم نفسه، قال فيه "إن القرار الأخير الذي اتخذته اللجنة التنفيذية للمؤتمر وتمّت المصادقة عليه في وَرْضَة يوم 10 أغسطس/ آب لن يوصلنا إلى شيء، لأنه ليس سوى استعادة لموقف المؤتمر الذي كان قد اتّخذه منذ البداية، وهم يعيدون صياغته فحسب." كما رفض دعوة جواهرلال للتّعاون قَصْدَ تشكيل حكومة انتقالية. بعد ذلك التقى جواهرلال بالسيد جِنَّاه في منزله. لكن مناقشاتهما لم تسفر عن شيء، وتدهور الوضع بسرعة.

عندما اجتمع مجلس الرابطة في نهاية شهر يوليو/ تمّوز، وقرّر أن يمرّ إلى الفعل المباشر، سمح أيضا للسيد جِنَّاه بأن يفعل ما يريد من أجل تنفيذ البرنامج. أعلن السيد جِنَّاه يوم 16 أغسطس/ آب يوم العمل المباشر، لكنه لم يشرح بوضوح كيف سيكون البرنامج. كان التصوّر العامّ أن اجتماعا آخر لمجلس الرابطة الإسلامية سيعقد لتباحث التفاصيل. لكن ذلك لم يتمّ. ومن ناحية أخرى، لاحظت أن وضعية غريبة كانت تتنامى في كلكوتا. كانت الأحزاب السياسية قد نظّمت في السابق أياما مميّزة تتمّ فيها إضرابات وتُنظّمُ المسيرات وتُعقد الاجتماعات. بدا كأنّ يوم العمل المباشر الخاص بالرابطة من نوع مختلف. لستُ، في كلكوتا، شعورا عاما بأنّ الرابطة الإسلاميّة ستُهاجم أعضاء المؤتمر وتنهب ممتلكات المؤتمر يوم 16 أغسطس/ آب. وممّا زاد من حالة الهلع هذه أن الحكومة البنغاليّة أعلنت يوم 16 أغسطس/ آب يَوْمَ عطلة وطنيّة. احتجّ أعضاء حزب المؤتمر على هذا القرار في المجلس البنغاليّ، وحين تبّين أن لاجدوى من الاحتجاج، تظاهروا محتجّين على سياسة الحكومة التي تفعّل قرارا يتّخذه حزب ما عبر استخدام آليات حكوميّة. خيّم على كَلكوتا شعور عامّ بالقلق زاده عنفا الاقتناع بأنّ الحكومة واقعة تحت سيطرة الرابطة الإسلاميّة، وأنّ السيد ه. س. سُهْرَوَرْدِي كان رئيس الوزراء.

عَيّنت اللجنة التنفيذيّة للمؤتمر يوم 9 أغسطس/ آب لجنة برلمانية مصغَّرة متكوّنة منّي أنا، ومن صاردار فالّبهاي باتل ود. راجندرا برازاد. عقدنا اجتماعا يوم 13 أغسطس/ آب "لمناقشة مقترح لتشكيل حكومة انتقاليّة سيتمّ

عرضه على نائب الملك." ودعا جواهرلال اللجنة البرلمانيّة للاجتماع يوم 17 أغسطس/ آب. فسافرت إلى دلهي، جوّا، يوم 16.

كان يوم 16 أغسطس/ آب يوما أسودَ في تاريخ الهند. وقعت مدينة كَلكوتا العظيمة فريسةَ عمليات شَغَب عنيف لم يشهَدْ لها تاريخ الهند مثيلا: دمٌ مُرَاقٌ، وجَرِيمَةٌ، ورُعْبٌ. زُهِقَتْ مئات الأرواح، وجُرِحَ آلافُ الأشخاص، وخُرِّبت ممتلكاتٌ قيمتُها كرور من الروبيات. قادت الرابطة المسيرات، وعمدت إلى السّلب والنّهب وإحراق الممتلكات عمْداً. وسُرعان ما وقعت المدينة بأكملها فريسة لاقتتال الطائفتين.

كان صارات شاندرا بوز قد ذهب إلى الحاكم وطلب منه أن يتّخذ إجراءً على الفَوْرِ، لإعادة الوضع تحت السيطرة. أخبره، أيضا، أنني كنتُ وإيّاه مُلزَمَيْن بالذهاب إلى دلهي لحضور اجتماع اللجنة التنفيذيّة. فقال له الحاكم إنه سيرسل الجيش برفْقَتَنَا لحمايتنا. انتظرت بعض الوقت، لكن لم يأتِ أحدٌ. فانطلقتُ بمُفْرَدي. كانت الشوارع مُقْفِرَةً، وكان شبح الموت يخيّم على المدينة. وأثناء مروري بشارع ستراند رووْد، لاحظتُ أنّ عددا من سائقي العربات والحمّالين كانوا واقفين وبأيديهم هراوات. حاولوا أن يهاجموا سيّارتي. ولم يعيرونا أيّ اهتمام حتى عندما صرخ سائقي قائلاً إنّ هذه السيّارة سيّارة رئيس المؤتمر. كان عليّ أن أقتربَ رُوَيْداً، رُوَيْداً، قبل موعد إقلاع الطائرة بلحظات. وجدتُ فيْلَقاً هائلاً من الجنود ينتظرون داخل شاحنات. عندما سألتهم لماذا لم يكونوا يساعدون في إعادة استتباب الأمن، أجابوا قائلين إنّ الأوامر التي تلقّوها هي الاستعداد لا الإقدام على أيّ فعل. كان الجنود ورجال الشرطة في جميع أنحاء كلكوتا كلّها، لا يبدون حراكا، في حين كان رجالٌ ونساءٌ يُقتلون.

كان يوم 16 أغسطس/ آب يوما أسودَ لا بالنسبة إلى كلكوتا فحسب، بل بالنسبة إلى الهند بأكملها. فالمنعطف الذي اتّخذته الأحداث جعل من المستحيل تقريبا أن يُتَوَقَّعَ إيجاد أيّ اتّفاق بين المؤتمر والرابطة. كانت هذه أكبر مأساة في تاريخ الهند، وعليَّ أن أقول، بأسفٍ عميقٍ، إنّ جزءا كبيرا من المسؤوليّة في

هذا التطوّر يقع على عاتق جواهرلال. فقد فتح تصريحه المشؤوم بأنّ المؤتمر سيكون حرّا ليحوّر خطّة البعثة الحكوميّة، البابَ أمام مسألة التسوية السياسيّة والطائفيّة برمّتها. انتهز السيد جِنَّاه هذا الخطأ، وتراجع عن قرار الرابطة السّابق الذي ينصّ على قبول خطّة البعثة الحكوميّة.

إنّ جواهرلال أعزّ أصدقائي، ولا أحدَ يضاهيه في مساهمته في حياة الهند القوميّة. لكن عليَّ أن أقول، بكلّ أسف، إنّ هذه المرّة ليست هي المرة الأولى التي يسيءُ فيها إساءة كبيرة للقضية القومية. فقد أخطأ خطأً فادحا سنة 1937 عندما جرت انتخابات بموجب قانون حكومة الهند الصادر سنة 1935. عانت الرابطة الإسلامية في هذه الانتاخابات تراجعا كبيرا في مختلف أنحاء البلاد، باستثناء بُمباي والأقاليم المتّحدة. في البنغال قرّر حاكم الإقليم، عمليًا، تأسيس رابطة حكومية؛ لكن نجاح حزب كريشاك راجا بَلْبَلَ حساباته. أما في الأقاليم الأخرى ذات الأغلبية المسلمة مثل بُنجاب، والسند، والإقليم الحدودي بالشمال الغربي، فقد مُنِيَتْ الرابطة بالفشل نفسه. حصلت الرابطة على بعض المقاعد في بُمباي، لكن المكان الذي حقّقت فيه نجاحا باهرا هو الأقاليم المتحددة. ويعود الفضل في هذا النجاح إلى مساندة جمعية علماء الهند. كانت الجمعية قد ساندت الرابطة الإسلامية لأنها تصوّرت أن الرابطة الإسلامية ستتحالف مع المؤتمر بعد الانتخابات.

كان شَوْضَارِي خالقُ الزَّمان، ونوّاب إسماعيل خان قائدَا الرابطة الإسلامية في الأقاليم المتحدة وقتها. عندما وصلتُ إلى لوكناوْ بُغْيَةَ تشكيل الحكومة، تحدّثت إلى كِلَيْهِمَا. أكّدا لي أنهما لن يتحالفا مع المؤتمر فحسب، بل سيدعمان برنامج المؤتمر. ومن الطبيعي أنهما توقّعا أن يكون للرابطة الإسلامية نَصيبٌ في الحكومة الجديدة. كان الوضع المحلّي يقتضي أنْ لا يشارك أحدٌ منهما في الحكومة بمفرده. فإما أن يشاركا معا، أو أنْ لا يشارك أيّ واحد منهما. لذلك كان يحدوني الأمل في أن تتمّ دعوتهما إلى المشاركة في الحكومة. لو كانت الوزارة ستكوّن من سبعة أعضاء لا غير، فسيكون اثنان منهما من أعضاء الرابطة الإسلاميّة، وسيكون بقيّة الأعضاء من المؤتمر. سيكون

حضورِ المؤتمر أكثر بروزا في وزارة تتكوّن من سبعة أعضاء. وبعد مناقشات معي، أُعِدَّتْ مذكّرة تقضي بأن يتحالف حزب الرابطة الإسلاميّة مع المؤتمر ويقبل برنامجه. وقّع هذه الوثيقة كلٌّ من نوّاب إسماعيل خانقائِدًا وشَوْضَارِي خالقُ الزَّمان، وغادرتُ لوكناوْ إلى باتنا ذلك أن حضوري كان ضروريا لتشكيل الحكومة في بيهار.

عدت إلى عبد الله باد بعد ذلك بأيّام قليلة، فوجدت، ويا للأسف الشديد، أن جواهرلال قد أرسل خطابا إلى نوّاب إسماعيل خانقائِدًا وشَوْضَارِي خالقُ الزَّمان مفاده أنّه لا يمكن إلا لواحِدٍ منهما فقط أن يكون عضوا في الحكومة. قال إنه يتوجّب على حزب الرابطة الإسلاميّة أن يقرّر من منهما سيكون عضوا، ولكن، في ضوء ما قلته سابقا، لم يكن أيٌّ منهما في وضع يسمح له بالمشاركة في الوزارة بمفرده. لذلك عبّر كلّ منهما عن أسفه وقالا إنهما غير قادرَيْنِ على قبول عرض جواهرلال.

كان هذا التطوّر أكثر التطوّرات شُؤْما. لو تمّ قبول عرض التحالف الذي تقدّمت به الرابطة الإسلامية لأصبحت، عمليّا، جزءا من المؤتمر. مدّتْ فعْلَةُ جواهرلال الرابطة الإسلامية في الأقاليم المتحدة بنَفَسٍ جديدٍ في الحياة. كلّ الطلاّب الذين يدرسون السياسة الهندية يعلمون أن الرابطة أعادت هيكلة نفسها في الأقاليم المتحدة. استغلّ السيد جِنَّاه بالكامل الفرصة التي أتاحها هذا الوضع، وشنّ هجوما أوصل إلى تأسيس باكستان في نهاية المطاف.

تبيّن لي أن بُورْشُوطَّمْدَاسْ تَنْدُون كان له دور قيادي في الأمر كلّه. لم أكُنْ أُكِنُّ الكثير من الاحترام لآرائه. لكنني أقنعت جواهرلال بأن يغيّر مواقفه. قلت له إنه أخطأ خطأ كبيرا عندما لم يُشْرِك الرابطة في الوزارة. كما حذّرته من أن نتيجة فِعْلَتِهِ ستمدّ الرابطة الإسلامية بروح جديدة، وبالتالي ستضع عقبات جديدة في طريق حرّية الهند. لم يوافقني جواهرلال الرأيَ، وأصرّ على أن موقفه كان صائبا. حاجَجَنِي قائلا إنه ليس بإمكان أعضاء الرابطة الإسلامية، باعتبارهم 26 عضوا فقط، أن يحصلوا على أكثر من مقعدٍ واحدٍ

في الوزارة. وحين أدركت أن جواهرلال كان متماديا في عناده، ذهبتُ إلى وَرْضة طالبا النُّصْحَ من غاندي. حين شرحتُ له الوضع كلَّه وافقني الرّأيَ، وقال إنه سيشير على جواهرلال بأن يغيّر موقفه. ثمّة شيءٌ يجب أن أقوله للشهادة وهو أن جواهرال شرح له الأمر من زاوية مغايرة فانْصَاعَ غاندي لجواهرلال، ولم يتعامل مع المسألة كما كان يجب عليه أن يفعل. كانت النتيجة أن التسوية لم تتمّ في الأقاليم المتحدة، وأن السيّد جِنّاه استغلّ الوضع استغلالا تامّا وحَشَدَ الرابطة كلّها ضدّ المؤتمر. بعد الانتخابات كان العديد من مناصريه على وشك أن ينفضّوا من حوله، لكنه صار الآن قادرا على استيعابهم.

كان خطأً سنة 1937 وَخيماً بما فيه الكفاية. وكان ثمنُ خَطَإ سنة 1946 أكثر فداحةً. لعلّه باستطاعة المرء أن يقول، دفاعا عن جواهرلال، إنه لم يتوقّع أبدا أن تلجأ الرابطة الإسلامية إلى الفعل المباشر. أنا شخصيّا حاولت أن أفهم ما الذي أحدث هذا التغيير في السيد جِنّاه. لعلّه كان يأمل أن تعيد الحكومة البريطانية طرح المسألة كلّها وتُجري مفاوضات جديدة عندما ترفض الرابطة الإسلامية خطّة البعثة الحكومية. لقد كان محاميا، ولعله شعر بأنه لو أجريت مفاوضات جديدة، فقد يحصل على بعض المكاسب، إن هو أصرّ على مطالبه. لكن تبيّن أن حساباته كانت خاطئة. فالحكومة لم تمنح السيد جِنّاه فرصة مباحثات جديدة.

كان السير ستافورد كريبس يراسلني طيلة هذه الفترة كلّها. كنت قد كتبتُ إليه قائلا إن البعثة الحكومية أجرت مباحثات مع المؤتمر والرابطة الإسلامية طيلة أكثر من شهرين، وتوصّلت، في النهاية، إلى وضع خطّة قبلها كلٌّ من المؤتمر والرابطة. من المؤسف أن الرابطة تراجعت عن ذلك الموقف، لكن المسؤولية في هذا الأمر تُلقى على عاتق الرابطة. غير أن هذا الأمر لا يجب أن يؤدّي إلى إعادة طرح السؤال كلّه من جديد، لأن ذلك سيعني أن مفاوضاتنا مع البريطانيين لم يكن بإمكانها أن تصل إلى أيّ غاية، بل سيكون لها وَقْعٌ عكسيٌّ تماما على الرأي العام، وستخلق مشاكلَ جديدةً. ردّ السير ستافورد كريبس

قائلا إنه يوافقني الرأيَ وهو يرى أنه على الحكومة أن تتبنّى الموقف نفسَه. جرت الأحداث كما توقّعتُ. كنت قد ذكرت سابقا أن نائب الملك أصدر يوم 12 أغسطس/ آب 1946 بلاغا يدعو فيه جواهرال إلى تشكيل الحكومة الانتقالية.

التقينا في دلهي يوم 17 أغسطس/ آب وشَبَحُ الاضطرابات يخيّم على كلكوتا وأماكن أخرى. لم يكن السيد جِنّاه ميّالا إلى قبول دعوة جواهرلال إلى المشاركة في الحكومة، والواقع أنه قد تمّ استلام ردّه الرافض للدّعوة يوم 16. أعاد جواهرلال عرضه الداعي إلى التحالف، وقال إن الباب سيكون دائما مفتوحا أمام الرابطة الإسلامية. لكن جِنّاه لم يَلِنْ.

13 - الحكومة الانتقالية

كنت قد قلت إن المؤتمر أوكَل إلى اللجنة البرلمانية مهمّة تشكيل الحكومة الانتقالية. تبعا لذلك التقينا، أنا وجواهرلال، وباتل، وراجندرا برازاد يوم 17 مارس. ضغط زملائي عليّ ضغوطات شديدة حتى أنضمَّ إلى الحكومة الانتقالية. وكان هذا رأيُ غاندي أيضا. كانت المسألة حسّاسة بالنسبة إليَّ، لكنني توصّلت، بعد إمعان النظر، إلى نتيجة مفادها أنه يجب عليَّ أن أبقى خارج هذه الحكومة. لذلك أوصيت بإشراك آساف علي في الوزارة. عندما سمع آساف علي بهذا الأمر أصرّ، هو الآخر، على أنه يجب عليَّ أن أشارك في الحكومة. لكنني امتنعتُ. قال العديد من أصدقائي، وما زالوا يقولون، إن قراري كان خاطئا. كانوا يشعرون بأن مصلحة البلاد واللحظة العصيبة التي كنّا نمرّ بها تتطلّب مشاركتي في الحكومة. ومنذ ذلك الحين، ما انفكَكْتُ أفكّر في الأمر ولست متأكّدا اليوم أنني كنتُ على صواب. لعلّه كان بإمكاني أن أساعد الوطن أكثر لو أنني انضممتُ إلى الحكومة ولم أبقِ خارجها. لكنني أعترفُ الآن أن الانضمام إلى الحكومة وقتها كان يمنح مجالا أكبر للعمل.

أثناء قمّة سِملا مارستُ ضغوطات قويّة لإشراك فارسيٍّ في الوزارة. الآن والمؤتمر منشغلٌ بتشكيل الحكومة، مارست ضغوطاتي حتى يتمّ قبول وجهة نظري. وبعد مناقشة الأمر وافق زملائي. وبما أن الطائفة الفارسيّة متمركزة في بُمباي رأينا أن صاردار باتل سيكون أفضل من يشير علينا بمن نختار ممثّلا

للفُرس. تبعا لذلك تركنا الخيار له. وبعد مضيٍّ بعض الوقت، اقترح اسم السيد س. هـ. بْهابْها. تبيّن لنا، في ما بعد، أن السيد بْهابْها كان صديق ابن صاردار باتل ولا يمكن، بأيّ شكل من الأشكال، أن يُنظر إليه باعتباره قائدا أو حتى ممثّلا للطائفة الفارسية. اتّضح أن اختيارنا كان خاطئا. وبعد انقضاء بعض الوقت انسحبَ من الحكومة.

قرّرنا أيضا أنه ينبغي أن تتضمّن الحكومة رجل اقتصاد ذا خبرةٍ ليكون أوّل عضو هنديٍّ في المالية. وقع اختيارنا على د. جون ماطْهايْ رغم أنه لم يكن على صلةٍ بالمؤتمر بأيّ شكل من الأشكال. والواقع أنه لم يكن هناك إصرارٌ حقيقيٌّ على إشراك أعضاء الحزب عند تشكيل الحكومة الانتقالية.

لم تصب الرابطة الإسلامية بالإحباط فحسب، وإنما جُنَّ جُنُونُها. شعرت بأن البريطانيين تخلّوا عنها. حاولت أن تنظّم مظاهرة كبيرة في دلهي وفي أماكن أخرى، لكن محاولاتها باءت بالفشل. ورغم ذلك، سادت المرارة والقلق مجمل أرجاء البلاد. وشعر اللورد وايفل أن عليه أن يُقنع الرابطة بالانضمام إلى الحكومة، فأرسل في طلب السيد جِنَّاه. جاء السيد جِنَّاه إلى دلهي وعقد معه عددا من الاجتماعات. وفي نهاية المطاف، قرّرت الرابطة الإسلامية أن تنضمّ إلى الحكومة الانتقالية يوم 15 أكتوبر.

أثناء هذه الفترة، التقيت اللورد وايفل العديد من المرّات. قال لي إذا لم تشارك الرابطة في الحكومة فإن تطبيق خطّة البعثة الحكومية سيختلّ. أشار إلى أن الاضطرابات الطائفيّة مازالت متواصلة، ورجّحَ أنها ستستمرّ إلى أن تنضمَّ الرابطة إلى الحكومة. قلت له إن المؤتمر لم يكن لديه أبدا أيّ اعتراض على مشاركة الرابطة. والواقع أنني حثَثْتُ الرابطة، مرّات عديدة، على أن تشارك في الحكومة. وقد ناشد جواهرالال، قبل انضمامه إلى الحكومة وبعد انضمامه إليها، السيد جِنَّاه كي يكون متعاونا.

أصدرتُ، في هذه المرحلة، بلاغا آخر أشير فيه إلى أن مُقترَح البعثة الحكومية قد بدَّدَ جميع المخاوف المشروعة للرابطة الإسلامية، وأعطاها

الحرّية المطلقة للعمل داخل المجلس التأسيسي وللتعبير عن وجهة نظرها. تبعا لذلك، لم يعد للرابطة أيّ تعلّة لمقاطعة المجلس التأسيسي. حين التقيت اللورد وايفل، بعد ذلك، أخبرني أنه أعجب جدّا بموقفي وأرسل نسخة من بلاغي إلى لِياقات علي طالبا منه أن يطلع عليه السيد جِنّاه.

يجب عليّ، في هذه المرحلة، أن أسوق بعض الملاحظات حول المرشّحين الذين أرسلهم السيد جِنّاه إلى المجلس التنفيذي. فإلى جانب لِياقات علي، وهو أهمّ قادة الرابطة الإسلامية وأكثرهم تجربةً، نجد خواجا ناظم الدين من البنغال، ونواب إسماعيل خان من الأقاليم المتحدة. كان من تحصيل الحاصل أنه في صورة ما إذا قبلت الرابطة الانضمام إلى الحكومة فسيكون هؤلاء الرجال الثلاثة ضمن مرشّحي الرابطة. طوال قمّة سِمْلا كانت هذه الأسماء الثلاثة هي التي تُذْكَر وتُستعاد المرّة تلو الأخرى. الآن وقد قرّرت الرابطة أن تشارك في الوزارة صار السيد جِنّاه يتصرّف بشكلٍ غريب. لم يقف كلّ من خواجا ناظم الدين ونواب إسماعيل خان موقفا متطرّفا في النزاعات بين المؤتمر والرابطة. وبطبيعة الحال لم يحظ هذا الأمر بإعجاب جِنّاه. تصوّر أنهما لن يكونا طَوْعَ بنَانه، لذلك قرّر أن لا يدرج اسميهما في قائمته. لكن لو أن هذا الأمر ذاع قبل الأوان لأثار زَوْبَعَةً في صفوف الرابطة الإسلامية. لذلك دفع مجلس الرابطة إلى إصدار قرار تفويض السلطة الكاملة إليه.

عندما سَلّمَ قائمته إلى اللورد وايفل، أدرج فيها أسماء لياقات علي، وشُنْدْريجار، وعبد الربّ نِشْتار، وغَزانْفَر علي، وجوجندرا ناث مَنْدال. سأقول كلمة منفصلة عن ج. ن. مندال. كان المرشحون الثلاثة الآخرون للرابطة مجهولين تماما. كانوا من الجياد السود[17] النكرات الذين بالكاد يعلم أحد عنهم شيئا، بما في ذلك أعضاء الرابطة أنفسهم. صحيح طبعا أنّ الرابطة لم

17 - الجواد الأسود: يستخدم هذا التعبير في اللغة الإنجليزيّة للدلالة على شخص يكون نكرة، ثمّ يطلع إلى الواجهة فجأة. أوّل من استخدمه بنيامِن ديزرائلي في روايته الدوق الشاب في سياق سباق الخيل. استخدم المصطلح في سياق السياسة الأمريكيّة سنة 1844 لوصف دجايمس ك. بولك الذي لم يكن معروفا، لكنه فاز في الانتخابات رغم ترشّح نخبة من رجال السياسة المعروفين وقتها. (المترجمة)

يكن لها إطلاقا دور في النضال السياسي، وبالتالي فإن لديها عدد قليل من القادة ذوي المكانة القوميّة. ورغم ذلك فإن من بين أعضائها إداريّون متمرّسون مثل خواجا ناظم الدين ونواب إسماعيل خان. غير أنه تمّ استبعادهما لصالح المريدين المخلصين للسيد جِنّاه.

يوم 25 أكتوبر/ تشرين الأول تمّ الإعلان عن أسماء أعضاء الرابطة الإسلاميّة المشاركين في الحكومة الانتقاليّة والمهامّ التي أُسندت إليهم. كان خواجا ناظم الدين ونواب إسماعيل خان وقادة آخرون للرابطة الإسلاميّة ينتظرون الإعلان، على قلَقٍ، في الفندق الإمبراطوري. كانوا متأكّدين تماما من أنّ أسماءهم ستكون مدرجة في القائمة، وكذلك كان مناصروهم. تبعا لذلك، تجمّع عددٌ كبيرٌ من أعضاء الرابطة الإسلاميّة المحمّلين بأكاليل الورد وباقات الزهور. عندما تمّ الإعلان عن الأسماء ولم يرد اسم أيٍّ منهم فيها، يمكن للمرء أن يتخيّل مدى شعورهم بالخيبة والغضب. لقد سكب السيد جِنّاه ماءً مثلّجا على آمالهم.

وهناك شيءٌ آخر أكثر سخافةً فعلته الرابطة الإسلاميّة، وهو إدراج اسم جوجندرا ناث مَنْدال في قائمتها. كان المؤتمر قد عيّن في المجلس التأسيسي هندوسيّا، ومسلما، وواحدا من السّيخ، وفارسيّا، وممثّلا عن الطوائف المجَدْولة ومسيحيّيْن، ولكن نظرا للحدود التي كان يعمل في إطارها، لم يتمكن المؤتمر إلا من إدراج اسم ممثّلٍ واحدٍ عن الطوائف المجَدْولة. تصوّرت الرابطة الإسلاميّة أنها ستضع المؤتمر في موقف مخجل بتعيين ممثّل ثانٍ عن الطوائف المجَدْولة وبهذه الطريقة تثبت لهذه الطوائف أنها صديقتها أكثر من المؤتمر. لم يتفطّن السيد جِنّاه إلى أنّ صنيعَهُ هذا لا يتماشى مع ادّعائه السابق أنّ المؤتمر ينبغي أن لا يُعيّن إلا الهندوس، وأن الرابطة الإسلاميّة ينبغي أن لا تُعيّن إلا المسلمين. إلى جانب ذلك تسبّب اختياره للمعيّنين في الهَزْلِ والغضب. عندما شكّل السيد سُهْرَوَرْدِي وزارة الرابطة الإسلاميّة في البنغال، كان غير المسلم الوحيد في وزارته هو جوجندرا ناث مَنْدال. كان يكاد يكون نكرة في البنغال وقتها، ولم تكن لديه أيّ مكانة في مجمل السياسة الهنديّة. لا أعرف ما هو شعور اللورد وايفل

حيال هذا الأمر، لكن عندما تمّ تعيين جوجندرا ناث مَنْدال ممثّلا للرابطة الإسلاميّة، تمّ تعيينه عضو قانون. كان أغلب كتّاب حكومة الهند بريطانيين. وكان للسيد مَنْدال أيضا كاتب بريطانيّ كان يشكو كلّ يوم، تقريبا، من صعوبة العمل مع عضو مثل مَنْدال.

الآن وقد وافقت الرابطة على الانضمام إلى الحكومة، أصبح على المؤتمر أن يعيد تشكيل الحكومة، وأن يستوعب ممثّلي الرابطة الذين عليهم أن يقرّروا من منهم سيغادر الحكومة. كان ثمّة شعور بأنه يجب أن يستقيل كلّ من صَرات شندرا بوز، والسير صَفات أحمد خان، وسياد علي زَهير، لترك المكان للمعيّنين من قِبل الرابطة. أما في ما يخصّ المهامّ، فقد اقترح اللورد وايفل أن توكل إحدى أهمّ المهام إلى ممثّل عن الرابطة. اقترح أن نتخلّى لهم عن وزارة الداخليّة، لكن صاردار باتل الذي كان وزير الداخليّة، وقتها، عارض المقترح بشدّة. كان رأيي أنّ مسألة القانون والنظام مسألة إقليميّة بالأساس. في المشهد الذي ترسمه خطّة البعثة الحكوميّة، ليس للمركز دورٌ كبيرٌ في هذا المجال. يعني هذا أنّ وزارة الداخليّة في الحكومة المركزيّة لن تكون لها قيمة كبيرة في التشكيلة الجديدة. لذلك كنت مع الموافقة على مقترح اللورد وايفل، لكن صاردار باتل تعنّت وقال، إذا نحن أصررنا، فالأفضل عنده أن يغادر الحكومة على أن يترك هذه الوزارة.

ثمّ تدارسنا بدائل أخرى. اقترح رافي أحمد كِدْواي أن نعطي الرابطة الإسلاميّة وزارة الماليّة. مما لا شكّ فيه أن وزارة الماليّة من أهمّ الوزارات، لكنها موضوع تقنيّ للغاية، ولم يكن لدى الرابطة أيّ عضو قادر على إدارتها بنجاعة. قال كِدْواي إن الرابطة سترفض هذا العرض بسبب الطبيعة التقنيّة للوزارة. إذا حصل هذا، فلن يخسر المؤتمر شيئا. أمّا إذا قبل عضو الرابطة أن يكون وزير الماليّة، فسرعان ما سيجعل نفسه أضحوكة. وفي كلتا الحالتين، سيكون المؤتمر كاسبا.

انقضّ صاردار باتل على المقترح، وسانده مساندة كليّة. حاولت أن أبيّن أن الماليّة مفتاح الحكومة، وأننا سنواجه مصاعب كبرى إذا صارت المالية في

يد الرابطة. فعارض صاردار باتل قائلا إنّ الرابطة لن تستطيع أن تُدير وزارة المالِيّة، وبالتالي سترفض العَرْض. لم يَرُقْ لي القرار، لكن بما أن الآخرين كلّهم وافقوا، استسلمتُ. وبالتالي تمّ إعلام نائب الملك بأنّ المؤتمر يتخلّى عن وزارة الماليّة للرابطة الإسلاميّة.

عندما أخبر اللورد وايفل السيد جَنَّاه بالخبر قال له إنه سيعطيه الجواب في اليوم الموالي. يبدو أن السيد جَنَّاه كان متردّدا بعض الشيء في ما يخصّ العرض. كان قد قرّر تعيين لِياقات علي على رأس ممثّلي الرابطة في المجلس، لكنه يشكّ إن كان لِياقات قادرا على تدبّر الماليّة بنجاعة. سمع بعض الموظّفين المسلمين في وزارة الماليّة الخبر، وفي الحين اتّصلوا بالسيد جَنَّاه. قالوا له إنّ عرض المؤتمر كسبٌ مفاجئ ويعتبر نصرا عظيما للرابطة. لم يكونوا يتوقّعون أبدا أن يوافق المؤتمر على التخلّي عن وزارة الماليّة للرابطة. عندما تسيطر الرابطة على وزارة الماليّة، ستصير لها كلمة تقولها في كلّ وزارات الحكومة. وأكّدوا للسيد جَنَّاه أنه عليه أن لا يخشى شيئا، وأنهم سيساعدون السيد لِياقات علي حتى يضمنوا أن يؤدّي وظيفته على أكمل وجه.

قبل السيد جنَّاه العرض. وهكذا أصبح لِياقات علي وزير الماليّة. وسرعان ما تفطّن المؤتمر إلى أنه أخطأ خطأً فادحا بالتخلّي عن وزارة الماليّة للرابطة الإسلاميّة.

يضطلع وزير الماليّة، في جميع البلدان، بدور مفتاح في الحكومة. كانت هذه المكانة أكبر في الهند لأنّ الحكومة البريطانية كانت تعتبر وزير الماليّة حافظَ مصالحها. هذه الوزارة كان يتولّاها دائما وزيرٌ بريطانيٌّ يُؤتى به إلى الهند خصّيصا. يمكن لوزير الماليّة أن يتدخّل في كلّ الوزارات وأن يُملِي السياسة. حين عُيِّن لِياقات علي وزيرا للماليّة تحصّل على مفتاح الحكومة. صار كلّ مقترح تتقدّم به أيّ وزارة يخضع إلى فحص دقيق في إدارته. وبالإضافة إلى ذلك، كان له حقّ الفيتو. لم يكن يمكن تعيين عامل مكاتب دون موافقة وزارته.

كان صاردار باتل يرغب بشدّة في الاحتفاظ بوزارة الداخليّة. لكنّه أدرك

الآن أنه أصبح لعبة في يد الرابطة حين وهبها وزارة الماليّة. كلّ مقترح يتقدّم به صاردار باتل، إما أن يرفضه لياقات علي، أو يُدخل عليه تحويرات تجعل من الصعب التعرّف عليه. ونتيجة تدخّله المستمرّ صار من الصعب على أعضاء المؤتمر أن ينجزوا أعمالهم بنجاعة. فاندلعت الخلافات في صلب الحكومة، وظلّت تتفاقم.

حقيقة الأمر، أنّ الحكومة الانتقاليّة تمّ تشكيلها في مناخ من الرّيبة والشكّ بين المؤتمر والرابطة. أثّر عدم ثقة الرابطة بالمؤتمر على تكوين المجلس التأسيسي الجديد، حتى قبل أن تنضمّ الرابطة إلى الحكومة. حين تكوّن المجلس في سبتمبر 1946، طرحت مسألة من سيتولّى وزارة الدفاع. سيظلّ الجميع يذكرون أنّ الخلاف حول وزارة الدفاع كان أحد أسباب فشل بعثة كريبس. تمنّى المؤتمر أن يتولّاها أحد أعضائه الثقات، غير أنّ اللورد وايفل أشار إلى أن هذا الأمر قد يسبّب مشاكل. أراد أن يبقى الدفاع بعيدا كلّ البعد عن السياسة الطائفيّة. لو عُيّن أحد أعضاء المؤتمر وزيرا للدفاع لأعطيت الرابطة ذريعة لاختلاق تُهَم لا أساس لها من الصحة. وأوضح، في الوقت ذاته، أنه حتى إذا انضمّت الرابطة إلى الحكومة، فلن يقبل بأن يُعيّن أحد أعضائها في هذا المنصب. اقترح أن لا يكون وزير الدفاع هندوسيا ولا مسلما. كان بَلْدف سينغ وقتها وزيرا في بُنجاب، وبناء على مقترح اللورد وايفل، وافقنا على أن يتولّى هو مهمّة الدفاع.

سأذكر هنا حادثة أخرى صغيرة لأبيّن المدى الذي بلغته الرّيبة والشكّ في أذهان معيّني الرابطة الإسلاميّة. بعد أن جرى تشكيل الحكومة الانتقاليّة، تمّ الاتّفاق على أن يُعقد اجتماع غير رسميٍّ بين الأعضاء قبل أن تبدأ الاجتماعات الرسميّة لمجلس الوزراء. كان هناك شعور بأنه إذا أجرى الأعضاء مناقشات غير رسميّة في ما بينهم، فإنّ ذلك سيساعد في تطوير الميثاق الذي ينصّ على أنّ نائب الملك ليس سوى رئيس دستوريٍّ. كانت هذه الاجتماعات تُعقد بالتداول في غرف مختلف أعضاء المجلس، لكن كثيرا ما كان جواهرلال يدعو الأعضاء الآخرين إلى تناول الشاي. كانت الدعوات دائما ما تُرسل عبر سكرتير

جواهرلال الشخصيّ. بعد أن انضمّت الرابطة الإسلاميّة إلى الحكومة، أُرسلت الرسالة المعتادة إلى جميع أعضاء المجلس بمن فيهم معيّني الرابطة الإسلاميّة عبر سكرتير جواهرلال الشخصيّ. اعترض لِياقات علي على هذا الأمر وقال إنّه يشعر بالإهانة لأنّ سكرتير جواهرلال الشخصيّ يدعوه إلى شرب الشاي، زيادة على أنه لم يوافق على أن يكون لجواهرلال الحقّ، باعتباره نائب رئيس المجلس، في عقد مثل هذه الاجتماعات غير الرسميّة. ورغم أنه رفض أن يُمنح جواهرلال هذا الحقّ، شرع لِياقات علي نفسه يعقد مثل هذه الاجتماعات غير الرسميّة مع معيّني الرابطة الإسلاميّة. هذه حادثة بسيطة، غير أنها تبيّن إلى أيّ مدى كان ممثّلو الرابطة الإسلاميّة مستعدّين للوصول في لا تعاونهم مع المؤتمر.

في النصف الأخير من شهر أكتوبر، اتّخذ جواهرلال خطوة لم يكن لها من داعٍ، وقد عارضتُها وقتها. لكنّ طبيعته تجعله يتصرّف بشكل اندفاعيّ. إنّه منفتحٌ عادة على آراء الآخرين، لكنه يتّخذ أحيانا قرارا دون أن يأخذ جميع الوقائع بعين الاعتبار. وما إن يفعل ذلك، حتى يستمرّ قُدُما دون مراعاة النتائج.

كانت أغلبيّة سكّان الإقليم الحدودي بالشمال الغربي من المسلمين. كان المؤتمر يسيطر على الوزارة سنة 1936. كان خان عبد الغفّار خان والـ"خُدَاي خِدْمَتْكَار"[18] التابعون له هم السبب الرئيسي في هذه الوضعيّة السعيدة. في الحقيقة، كنّا قد أصبحنا نعوّل على خان عبد الغفّار خان وأخيه د. خان صاحب في جميع المسائل المتعلّقة بالإقليم الحدوديّ. وكان غاندي يقول، مازحا، إنّ الأخوين خان هما حافظا ضميره في ما يخصّ المسائل الحدوديّة.

وما لبث غاندي، بعد تشكيل الحكومة الانتقاليّة، أن أصدر أوامر بإيقاف القصف الجوّي على القبائل في جنوب وزيرستان. وفي الأثناء، كانت تصله تقارير رسميّة مفادها أنّ نسبة كبيرة من الناس في الإقليم الحدودي قد تألّبوا

18 - خُدَاي خِدْمَتْكَار: ترجمتها الحرفيّة عن اللغة الهنديّة: خَدَمُ الله. وهو اسم أُطلق على حركة هنديّة تنبذ العنف وتناضل من أجل تحرير الهند من نير الاستعمار البريطاني بأسلوب سلميّ. (المترجمة)

ضدّه وضدّ الأخوين خان. كانت المكاتب المحليّة لا تكفّ عن تكرار أنّ المؤتمر قد فَقَدَ قدرا كبيرا من شعبيّته المحليّة، وأنّ الشعب قد عَدَلَ عن موالاة المؤتمر وصار يُوالي الرابطة. كان جواهرلال يرى أنّ هذه التقارير كاذبة، وأنّها من اصطناع الضبّاط البريطانيين المعادين للمؤتمر. لم يوافق اللورد وايفل على رأي جواهرلال رغم أنه لم يقبل كلّ ما ورد في التقارير الرسميّة. وكان يرى أن الإقليم الحدودي مُقَسَّمٌ بالتساوي تقريبا بين الأخوين خان والرّابطة الإسلاميّة. كان التصوُّرُ السائد في دوائر المؤتمر هو أنّ الأغلبيّة الساحقة من الجماهير كانت تقف في صفّ الأخوين خان. فقال جواهرلال إنه سيقوم بجولة عبر مجمل الإقليم الحدوديّ ليقيّم الوضع بنفسه.

عندما بلغني الأمر، قلت لجواهرلال إنّ عليه أن لا يقوم بعمل متسرّع. كانت هناك عصابات في كلّ إقليم، وكان هناك فصيلٌ يقف ضد الأخوين خان. كان جواهرلال قد اتّخذ قراره، ولم يدعمه بعدُ. إنّ قيامه بجولة في الحدود في هذه المرحلة سيعطي العناصر المنشقّة فرصة تنظيم معارضتهم للمؤتمر. ولما كان أغلب الضبّاط، بدورهم، ضدّ المؤتمر، فسيتضامنون مع هذه العناصر المعارضة إن لم يساندوهم عمليّا. وبالتالي فمن الأفضل أن يؤجّل زيارته حتى وقت مناسب أكثر. ساند غاندي أيضا رأيي هذا، لكن جواهرلال أصرّ وقال إنه سيذهب مهما كانت النتائج.

من المؤكّد أنّ الأخوين خان كانا على حقٍّ عندما قالا إنّ قسما كبيرا من السكّان في الحدود كانوا يقفون في صفّهما. لكنهما بالغا في تحديد مدى تأثيرهما. وهذا أمر طبيعي، فالواحد منّا كثيرا ما يكون تقييمه لقوّته مبالغا فيه. ربّما كانا يرغبان في إبهارنا أيضا، فيُظهران الحدود ملتفّة حول المؤتمر، في حين كان الشّقاقُ يعمّ بقيّة الأقاليم. لكن كانت هناك، في الحقيقة، مجموعة ضخمة تقف ضدّ الأخوين خان. وقد زاد وجود د. خان صاحب في منصب رئيس الوزراء هذه المعارضة قوّة إضافيّة. كانت لديه فرصة كسب الإقليم بأكمله، لكنه قام بأخطاء ضاعفت من قوّة المعارضة.

كان بعض هذه الأخطاء ذا طبيعة ذاتيّة واجتماعيّة بحت. البشتوني الحدودي مشهور بكرمه. فهو يرغب في اقتسام آخر قطعة خبز لديه مع ضيفٍ، ومائدته مفتوحة للجميع. وهو يتوقّع أن يُقابَلَ كرمُهُ بكرم مماثلٍ، خاصّة من الذين يشغلون مناصب مرموقة في المجتمع. لا شيء ينفّر البشتون أكثر من البُخل وقلّة الكرم. ولسوء الحظ هذا الأمر هو الذي جعل الأخوين خان يخيّبان ظنّ أتباعهما.

كان الأخوان خان ثريّين لكنهما، للأسف، كانا بخيلين بطبعهما. نادرا ما يدعوان أحدا إلى مائدتهما. وحتى إذا زارهما أحدٌ وقت الشاي أو العشاء لا يقترحان عليه البقاء لتناول وجبةٍ. وشمل بخلهما حتى المبالغ الماليّة التي يحصلان عليها من الآخرين. وضع المؤتمر تحت تصرّفهما مبالغ مالية طائلة، أثناء الانتخابات العامّة، لكن الأخوين خان أنفقا منها أقلّ ما يمكن. عديدون هم المرشّحون الذين خسروا الانتخابات بسبب نقص التمويل، وحين علموا أنّ الأموال كانت مخزونة عند الأخوين خان، صاروا ألدّ أعدائهما.

في إحدى المناسبات، جاءني وفدٌ من بيشاور في كلكوتا في موضوع ذي صلة بأموال الانتخابات. ولما كان الوقت وقت الشاي، قدّمت لهم شايا وبسكويتا. نظر عدّد من أعضاء الوفد إلى البسكويت بتعجّب. تناول أحدهم حبّة بسكويت وسألني عن اسمها. بدا أنّ البسكويت أعجبهم، ثمّ أخبروني أنهم كانوا قد رأوا بسكويتا كهذا في منزل د. خان صاحب، لكنه لم يقدّم أبدا بسكويتا أو حتى كوب شاي لأيّ واحدٍ منهم.

كان الوضع الفعليُّ سنة 1946 هو أنّ الأخوين خان لم يكونا يتمتّعان بالمساندة التي كنّا نتصوّرها في دلهي. عندما قدم جواهرلال إلى بيشاور واكتشف ذلك أصيب بصدمة غير سارّة. كان د. خان صاحب وقتها رئيس وزراء الإقليم، وكانت الوزارة وزارة المؤتمر. سبق أن ذكرت أن الضبّاط البريطانيين كانوا يقفون ضدّ المؤتمر، وقد أثاروا لدى الناس مشاعر مضادّة للوزارة. حين هبط جواهرلال في المطار، وجد آلافا من البشتون متجمهرين حاملين راياتٍ

سوداءَ، وهم يهتفون بشعارات معادية. كان د. خان صاحب نفسه، والوزراء الذين جاؤوا لاستقبال جواهرلال، تحت حماية الشرطة التي بدت غير مجدية على الإطلاق. عندما خرج جواهرلال رُفعت شعارات مناهضة له، وحاول بعض الناس المتجمهرين أن يعتدوا على سيارته. توتّر د. خان صاحب إلى درجة أنه أخرج مسدّسه وهدّد بإطلاق النار. لم تُفسح الجموعُ الطريق إلاّ تحت هذا التهديد. وكان على السيارات أن تسير تحت حماية الشرطة.

وفي اليوم الموالي غادر جواهرلال بيشاور، وذهب في زيارة إلى مناطق القبائل. حيثما حلّ، وجد عددا كبيرا من الناس ضدّهُ. كان ملوك وزيرستان مسؤولين، إلى حّد كبير، عن المظاهرات التي نُظّمت ضدّه. كانت سيارته تُرْمَى بالحجارة في بعض الأماكن حتى أن حجرا أصاب جبينه. بدا د. خان صاحب وزملاؤه عديمي الحيلة تماما. فأمسك جواهرلال بزمام الأمور. لم يبدُ عليه أيّ ضعف أو خوْف، وأبدى شجاعة كبيرة. ترك تصرّفه الجَسُورُ هذا أثرا بالغا في صفوف البشتون. وبعد عودته عبّر له اللورد وايفل عن أسفه عن كلّ ما جرى، وعن رغبته في أن يُفتَحَ تحقيقٌ حول تصرّف الضبّاط. لم يوافق جواهرلال على أن تُتَّخذَ ضدّهم إجراءات. فأثار هذا الموقف إعجاب اللورد وايفل، وأنا أيضا أعجبت به.

كانت الرابطة الإسلامية قد قبلت خطّة البعثة الحكومية في ترتيباتها القريبة المدى والبعيدة المدى. والواقع أن السيد جِنّاه ربما يكون قد ظنّ أنه سيُطلَبُ منه أن يُشكّل الحكومة، لأن المؤتمر قد رفض مقترحات الحكومة الانتقالية في حين أن الرابطة قبلته. لذلك خرج عن طوْرِه حين صرّح نائب الملك بأنه سيعيّن حكومة بالوكالة متكوّنة من ضبّاط، بما أن المباحثات المتعلّقة بتشكيل حكومة انتقالية ممثّلة قد فشلت، على أن تُستأنَفَ المفاوضات حول تشكيل الحكومة الانتقالية بعد انتخاب المجلس التأسيسي. عبّر نائب الملك أيضا عن سعادته لأن عمليّة سَنِّ دستورٍ يمكن أن تتمّ بموافقة أكبر حزبين وموافقة الدول. سيذكُرُ القرّاءُ أن جواهرلال أدلى في بُمباي، بعد هذا بقليل، بتصريح منَحَ جِنّاه فرصة رفض خطّة البعثة الحكومية جملة وتفصيلا. نتيجة لذلك قام

أعضاء الرابطة بمقاطعة المجلس التأسيسي، والواقع أن الرابطة كانت غالبا ما تعارض كلّ ما يفعله المؤتمر.

قبل كلٌّ من المؤتمر والرابطة الإسلامية، في البداية، خطّة البعثة الحكومية مما يعني أنهما قَبلا خطّة المجلس التأسيسي. في ما يخصّ المؤتمر كان لايزال يؤيّد خطّة البعثة الحكومية. الاعتراض الوحيد الذي صدر من جانب المؤتمر أبداه بعض قادة أسّام. كانوا مسكونين بخوف من البنغاليين لا تفسيرَ له. قالوا إذا تمّ دمج البنغال وأسّام فإن المنطقة كلّها ستصبح تحت هيمنة المسلمين. أعلن قادة أسّام عن هذا الاعتراض مباشرة بعد أن أعلنت البعثة الحكومية عن خطّتها. كان غاندي قد قبل، في البداية، خطّة البعثة الحكومية وأعلن أن "مُقترَحَ البعثة الحكومية يحمل البذور الكفيلة بأن تحوّل أرض الأشْجَانِ هذه إلى أرضٍ لا شَجَنَ فيها ولا عذاب." وأردف قائلا في صحيفة هاريجان:

> بعد أربعة أيّام من الدراسة والتمعّن في الورقة التي أصدرتها البعثة الحكومية ونائب الملك نيابة عن الحكومة البريطانية، صرتُ على يقينٍ من أنّ هذه الورقة هي أفضل وثيقة يمكن أن تصدر عن الحكومة البريطانية في ظلّ هذه الظروف.

غير أن جوبينات باردولويّ رئيس وزراء أسّام تمادى في معارضته وقدّم مذكّرة إلى اللجنة التنفيذية للمؤتمر يعارض فيها فكرة دمج أسّام والبنغال التي تمّ اقتراحها في تصريح البعثة الحكومية.

شعرنا في اللجنة التنفيذية أنه ينبغي أن لا نعيد فتح موضوع الدّمج. قمنا بإثارة مسألة مشاركة الأروبيين في انتخابات المجلس التأسيسي بُغْيَةَ الاستجابة إلى معارضة بعض زملائنا من أسّام، وخاصة من حيث المبدأ. كتبتُ إلى نائب الملك أن المؤتمر قد يرفض جميع مقترحات البعثة الحكومية إذا شارك الأعضاء الأروبيون في المجلس التشريعي للبنغال وأسّام في انتخابات المجلس التأسيسي،

سواء بالتصويت أو بالترشّح. لاقى هذا الاعتراض قبولاً، فقد صرّح الأروبيون في مجلس البنغال أنهم لا يريدون أن يكونوا ممثّلين في المجلس التأسيسي المُقتَرَح. لكن، أثناء ذلك، غيّر غاندي رأيه ومنح مساندته لباردولويْ. كان جواهرلال متفّقا معي على أن مخاوف قادة أسّام لا مبرّر لها، وحاول جاهدا أن يُجَيِّرَهُم لصالحه. من سوء الحظ أنهم لم يصغوا إلى جواهرلال ولا إليَّ، خاصة أن غاندي صار الآن في صفّهم، وأصدر بلاغات تساند موقفهم. لكن جواهرلال ظلّ ثابتا ومنَحَنِي مساندته الكلّية.

كنت قد قلت سابقا إن رفض الرابطة لخطّة البعثة الحكومية قد سبّب لنا قلقا شديدا. وذكرتُ أيضا الخطوة التي اتّخذتها اللجنة التنفيذية تجاه معارضة الرابطة. تتمثّل هذه الخطوة في المصادقة، يوم 10 أغسطس/ آب، على قرار ذكرنا فيه بوضوح أننا رغم عدم رضانا عن بعض المقترحات الواردة في خطّة البعثة الحكومية فإننا نقبل الخطّة كَكُلٍّ. غير أن هذا الأمر لم يُرضِ السيد جِنّاه، فقد أعلن أن اللجنة التنفيذية لم تصرّح بَعْدُ بشكل حاسم أن الأقاليم ستنضمّ إلى المجموعات المُزْمَعِ إنشاؤها وفق ما ورد في خطّة البعثة الحكومية. كانت الحكومة البريطانية واللورد وايفل متفقين، بصفة عامة، مع الرابطة في ما يخصّ هذه النقطة بالذات.

أعترفُ، وأنا أنظر إلى الوراء بعد عشر سنوات، أن في ما قاله السيد جِنّاه بعضٌ من قُوَّة. كان كلٌّ من المؤتمر والرابطة طرفين في الاتّفاقية، وقد قبلتْ الرابطة الخطّة على أساس تقسيم السلطة بين المركز والأقاليم والجماعات. لم يكن المؤتمر حكيما، ولا على صواب، حين أثار الشّكوك. كان عليه أن يقبل الخطّة بشكل لا لبْسَ فيه ما دامت تسعى لتحقيق وحدة الهند. منح التردُّدُ السيد جِنّاه فرصة تقسيم الهند.

كنتُ، طوال الوقت، أحاول أن أسوّي الخلافات عبر المناقشات، وكان اللورد وايفل يساند جهودي المبذولة في هذا الاتجاه إلى أبعد حدّ. كان هذا أحد الأسباب التي جعلته يرغب في إشراك الرابطة الإسلامية في الحكومة، ويرحّب

بالتصريح الذي أدليت به في هذا الخصوص. كان يؤمن، صادقا، أنه لا يمكن أن يوجد حلٌّ أفضل لمشكلة الهند من ذلك الحلّ الوارد في خطّة البعثة الحكومية. قال لي مرّات عدّة، حتى من وجهة نظر الرابطة الإسلامية لا يمكن أن يوجد حلٌّ أفضل. وافقته الرأيَ بطبيعة الحال، ذلك أن خطّة البعثة الحكومية كانت مرتكزة إلى حدّ بعيد على البرنامج الذي كنتُ قد صغتُهُ في بلاغي الصادر يوم 15 أبريل/ نيسان.

السيد آتلي أيضا كان له اهتمام شخصيّ بالتطوّرات في الهند. دعا اللورد وايفل وممثّلين عن المؤتمر والرابطة يوم 26 نوفمبر 1946 إلى لقاء في لندن في محاولة أخرى لحلّ المأزق. لم يكن المؤتمر يرغب في قبول الدعوة، في البداية. وفي الواقع، لقد أعلم جواهرلال اللورد وايفل أنه لا طائل من وراء الذهاب إلى لندن لمواصلة المناقشات. فقد تمّ تقليبُ الأمر في المسائل ذات الصلة المرّة تلو الأخرى، وفتْحُها ثانية سيضرّ أكثر ممّا ينفع.

لم يوافق اللورد وايفل على رأي جواهرلال، وناقش الأمر بتفصيل أكثر معي. قال لو تواصل موقف الرابطة الإسلاميّة الحالي، لن تتضرّر الإدارة فحسب، بل إنّ إيجاد حلٍّ سلميٍّ للمشكلة الهنديّة سيصير أصعب فأصعب. وحاجج قائلا إن ميزة إجراء محادثات في لندن هي أنّ القادة سيتمكّنون من اتّخاذ موقف أكثر موضوعيّة ونزاهة. كما أنهم سيتحرّرون من الضغوط المحليّة ومن التدخّلات المستمرّة لأتباعهم. ركّز اللورد وايفل أيضا على أن السيد آتلي كان دائما صديقا للهند، وقد يكون تشريكه في المباحثات مفيدا.

اعترفت بقوّة حجج اللورد وايفل وأقنعت زملائي بأن يغيّروا رأيهم. تقرّر وقتها أن يذهب جواهرلال نيابة عن المؤتمر. وذهب السيد جِنّاه ولِياقات علي نيابة عن الرابطة، في حين مثّل بَلْدف سينغ السّيخ. جرت المباحثات ما بين يومي 3 و 6 ديسمبر دون أن تسفر عن أيّ نتائج.

دار الخلاف الأوّل حول تأويل التّعابير التي تخصّ الدّمج في خطة البعثة الحكوميّة. بادر السيد جِنّاه قائلا إنّ المجلس التأسيسي ليس من حقّه أن

يغيّر بنية الخطّة. إن الدّمج نقطة أساسية في الخطّة وأيّ تغيير يخصّ الدّمج سيحدث تغيّرا في أسس الخطّة. كانت الخطّة نفسها تنصّ على أنه يمكن أن ينسحب أيّ إقليم بعد الانتهاء من سنّ الدستور. قال السيد جِنّاه إنّ هذا الأمر كفيلٌ بأن يطمئن كلّ إقليم لا يرغب في الانضمام إلى المجموعة التي وقع دمجه فيها. من جهة أخرى، رأى قادة المؤتمر في آسّام أنه يمكن لإقليم ما أن يبقى خارجا منذ البداية. لا داعي لأن تنضمّ الأقاليم إلى مجموعة، ويمكنها أن تسنّ دستورها بشكل مستقلّ. بعبارة أخرى، يرى السيد جِنّاه أن الأقاليم يجب أن تدمج في البداية داخل المجموعة، ويمكنها أن تنسحب، في ما بعد، إن هي شاءت. أما قادة المؤتمر في أسّام فيرون أنه يمكن للأقاليم أن تبدأ باعتبارها وحدات منفصلة في البداية، ويمكنها أن تنضمّ إلى المجموعة، في ما بعد، إن هي شاءت. وقالت البعثة الحكوميّة إنّ تأويل الرابطة لهذه النقطة صائبٌ.

حاجَجَ السيد جِنّاه قائلا إنه أقنع الرابطة بقبول الخطّة على أساس تقسيم السلطة بين المركز والأقاليم والمجموعات. لم يوافق قادة المؤتمر في أسّام، وبعد قليل من التردّد، أعطى غاندي مساندته للتأويل الذي تقدّم به قادة المؤتمر في أسّام، كما قلت سابقا. وحتّى أكون منصفا عليّ أن أعترف أن السيد جِنّاه كان على صوابٍ إجمالا في خصوص هذه النقطة. كانت المصلحة والعدالة تقتضيان أن يقبل المؤتمر الخطّة بشكل لا لبْسَ فيه.

أصدرت الإدارة البريطانيّة يوم 6 ديسمبر بيانا يدعم موقف الرابطة الإسلاميّة في ما يخصّ الدّمج، ولكن ذلك لم يسدّ الشرخ الحاصل بين المؤتمر والرابطة. عُقد أوّل اجتماع للمجلس التأسيسي يوم 11 ديسمبر 1946. وأثير سؤال من سيكون رئيس المجلس. رأى كلّ من جواهرلال وصاردار باتل أنّه يجب تعيين رئيس من خارج الحكومة. حثّني كلاهما على قبول المنصب، لكنني لم أكن ميّالا إلى القبول. عندها، تمّت مناقشة عدد من الأسماء الأخرى، لكن لم يتمّ التوصّل إلى اتّفاق. وفي النهاية، تم اختيار د. راجندرا برازاد رغما عن أنه كان مشاركا في الحكومة.

كنت قد قلت سابقا إن غاندي وزملائي حثّوني على الانضمام إلى الحكومة الانتقاليّة عندما جرى تشكيلها في سبتمبر 1946. غير أنني كنت أشعر أنه على واحد من القادة الكبار للمؤتمر على الأقلّ، أن يبقى خارج الحكومة. تصوّرت أن ذلك سيسمح لي بتقييم الوضع بصورة موضوعيّة. لذلك، جئت بأسّاف علي إلى الحكومة. وبعد أن انضمّت الرابطة إلى الحكومة الانتقاليّة، نشأت خلافات جديدة داخل المجلس التنفيذي. من هنا جاء طرح موضوع مشاركتي في الحكومة من جديد. صار غاندي يضغط عليّ أكثر من ذي قبل كي أنضمّ إلى الحكومة. قال لي صراحة إنه من واجبي أن أنضمّ إلى الحكومة خدمة لمصلحة الوطن، مهما كانت أفكاري أو مشاعري الشخصيّة. قال إن بقائي خارج الحكومة ثبت أنه مضرٌّ. كان جواهرلال يقرّ الرأي نفسه، وضغط عليَّ، هو الآخر، إلى درجة أنه لم يكن في وسعي إلاّ القبول. اقترح غاندي أن التربية هي، بالنسبة إليَّ، أحسن وزارة أتولاّها، وأن في ذلك خدمة للمصلحة القوميّة الحقيقية. قال إنّ نمط التعليم في المستقبل مسألة أساسيّة بالنسبة إلى الهند الحرّة. تبعا لذلك، تولّيت يوم 15 يناير / كانون الثاني 1947 وزارة التربية بدل شري راجاغوبالاشاري الذي كان وزير التربية حتى ذلك الحين.

ستكون السياسة التي انتهجتها والبرنامج الذي اتبعته في مجال التربية منذ استلمت مهامي موضوع دراسة منفصلة. إن آرائي حول مسائل مختلفة تخصّ التربية والتعليم قد جُمعت وصدرت على حدة. لذلك لا أريد أن أقول شيئا عنها في هذا الكتاب. سأقتصر هنا على تناول الوضع السياسي العامّ في البلاد. هذا الوضع الذي صار يزداد صعوبة ودقّة، يوما بعد يوم، بسبب الخلافات بين المؤتمر والرابطة.

كنتُ قد قلت إنّ أعضاء الرابطة في المجلس التنفيذيّ كانوا يحبطوننا في كلّ خطوة. كانوا داخل الحكومة، ورغم ذلك كانوا ضدّها. حقيقة الأمر أنهم كانوا يفسدون كلّ حركة نقوم بها. كانت سلطات وزير الماليّة تتوسّع وتبلغ أقصاها، وكانت صدمة أخرى في انتظارنا حين قدّم لِياقات علي ميزانيّة العام الموالي.

كانت سياسة المؤتمر المعلنة تقوم على ضرورة إلغاء التفاوت الاقتصادي، وإحلال نمط اشتراكي بدل المجتمع الرأسمالي. كان هذا أيضا هو الموقف الوارد في البيان الانتخابي للمؤتمر. إلى جانب ذلك، أدلينا، أنا وجواهرلال، بتصريحات حول المكاسب التي جناها رجال الأعمال وأرباب الصناعات طيلة سنوات الحرب. كان من المعلوم لدى الجميع أنّ جزءا من هذه المداخيل قد طُمِرَ تحت الأرض، وأفلت من الضرائب على الدّخل. كان ذلك يعني أنّ الدولة قد حُرمتْ من جزء كبير من مواردها، وشعرنا أنّ حكومة الهند ينبغي أن تتّخذ إجراءات صارمة لاستعادة الضرائب المتخلّدة في الذمّة ولم يتمّ دفعها.

ضبط لِياقات علي ميزانيّة توهم ظاهريا بأنها تقوم على تصريحات المؤتمر، لكنها كانت، في حقيقة الأمر، طريقة للتشكيك في سمعة المؤتمر. تمّ له ذلك بتغيير مسار مَطْلَبَيْ المؤتمر وفق نسق غير عمليّ. اقترح تدابيرَ ضريبيّة كفيلة بأن تُفْقِرَ كلّ الأثرياء، وتلحق ضررا بالغا بالتجارة والصناعة. وتقدّم، في الوقت نفسه، بمقترَح يقضي بتعيين لجنة لتتقصّى الحقائق بشأن الضرائب التي لم يتمّ دفعها واسترجاعها من رجال الأعمال.

كنّا جميعا نتُوقُ إلى زيادة العدالة في الثروات، ونحرص على أن تتمّ محاسبة كلّ المتهرّبين من دفع الضرائب. لذلك لم نكن ضدّ مقترح لِياقات علي من حيث المبدأ. عندما أثار لِياقات علي الأمر في المجلس الوزاريّ، قال صراحةً إنّ مقترحاته مبنيّة على تصريحات قادة مسؤولين في المؤتمر. واعترف أنه لولا التصريحات التي أدلينا بها، أنا وجواهرلال، لما فكّر في الأمر أبدا. غير أنّه لم يقدّم تفاصيل تجعلنا نتّفق معه على أسس عامّة من حيث المبدأ. وعندما ضمن الموافقة المبدئيّة، تمادى في ضبط ترتيبات معيّنة لم تكن متطرّفة، ولكنها مدروسة كي تؤذي الاقتصاد الوطني.

فاجأت مقترحات لِياقات علي البعض من زملائنا مفاجأة كبيرة. كان البعض منهم متضامنين، سرّا، مع أرباب الصناعات. وكان البعض الآخر يشعر صادقا أنّ مقترحات لِياقات علي المحدّدة مبنية على اعتبارات سياسية لا

اقتصاديّة. كان صاردار باتل وسري راجاجوبالاشاري خاصّة أشرس المعارضين لميزانيّته، لأنهما اعتبرا أن لياقات علي كان منشغلا بمضايقة أرباب الصناعات ورجال الأعمال، أكثر مما هو منشغل بخدمة مصالح البلاد. اعتقدا أنّ هدفه الأوّل هو الإضرار بطائفة رجال الأعمال، ذلك أنّ أغلبهم من الهندوس. قال راجاجي بصَريح العبارة، في مجلس الوزراء، إنه يعترض على مقترحات لِياقات علي، وأوحى أنّ هذه المقترحات كانت مبنيّة على اعتبارات طائفيّة. نبّهتُ زملائي إلى أنّ المقترحات كانت متماشية مع الأهداف المُعلَنَة للمؤتمر. وبالتالي لم يكن بإمكاننا معارضة المبادئ، بل ينبغي أن نتدارسها مرتكزين على مزاياها، وأن نساندها ما دامت تُسايِرُ مبادئنا.

كان الوضع صعبا ودقيقا كما ذكرتُ سابقا. كانت الرابطة الإسلامية قد قبلت خطّة البعثة الحكومية في البداية، ثم عادت ورفضتها. كان المجلس التأسيسي مجتمعا، لكن الرابطة قاطعته رغم أن البلد كلّه كان موحّدا حول مطلب الحرّية. كان الشعب يتوقُ إلى بلوغ الاستقلال من ناحية، ومن ناحية أخرى، ولسوء حظّنا، لم يكن هناك حلٌّ للمشكلة الطائفية. كانت خطّة البعثة الحكومية تهبنا الحلَّ الوحيدَ، ورغم ذلك لم نستطع أن نتوصّل إلى حلٍّ يحسم خلافاتنا.

شعرت حكومة حزب العمّال في بريطانيا أنها تواجه مأزقا. هل تسمح باستمرار الوضع الراهن، أم هل تخطو خطوة إلى الأمام بمبادرة شخصية منها؟ كان رأي السيد آتلي أننا بلغنا مرحلة صار فيها التشويق غير مرغوبٍ فيه إطلاقا. كان لا بدّ من أخذ قرارٍ قاطعٍ. فقرّر السيد آتلي أن تحدّد الحكومة البريطانية تاريخا لانسحاب القوّة البريطانية من الهند. لم يوافق اللورد وايفل على الإعلان عن تاريخ محدّد. كان يرغب في أن نتمسّك بخطّة البعثة الحكومية لأنه يعتبرها الحلّ الوحيد الممكن لمشكلة الهند. كما كان يرى أن الحكومة البريطانية ستفشل في مهمّتها إذا نقلت السلطة السياسية قبل حلّ المسألة الطائفية. بلغت الانفعالات في الهند ذُراها إلى درجة أنها شملت

أشخاصا جديرين بالثقة. إن انسحاب السلطة البريطانية في مناخ مثل هذا سيؤدّي، حسب رأي اللّورد وايفل، إلى أعمال شغَب وفوضى عارمة. لذلك نصح بضرورة المحافظة على الوضع الحالي، وببذل الجهود كلّها لتسوية الخلافات بين الحزبين الكبيرين. كان على اقتناع تامٍّ بأنه إذا انسحب البريطانيون دون أن يسبق ذلك تفاهمٌ بين المؤتمر والرابطة، فإن الأمر سيؤدّي إلى خطر كبير، ولن يجدي نفعا.

لم يوافق السيد آتلي. قال ما إن يعيّن تاريخٌ حتى تُنقَل المسؤولية إلى أيادٍ هندية. وما لم يتمّ هذا الأمر فلن يكون هناك أيُّ حلٍّ. كان السيد آتلي يخشى أن يفقد الهنود ثقتهم بالحكومة البريطانية إذا استمرّ الوضع الحالي. وكانت الأوضاع في الهند لا تسمح للبريطانيين بالمحافظة على السلطة دون جهدٍ لم يكن الشعب البريطاني على استعداد لِبَذْله. لم يكن هناك سوى بديلين، إمّا الحكم بقبضةٍ من حديد والقضاء على كلّ شغب، أو نقل السلطة إلى الهنود. كانت الحكومة قادرة على أن تحكم، لكنها تحتاج إلى جهدٍ قد يتداخل مع إعادة إعمار بريطانيا. كان البديل الآخر يتمثل في تحديد تاريخٍ لنقل السلطة، وبذلك تُلقى المسؤلية برمّتها على عاتق الهنود.

لم يكن اللورد وايفل مقتنعا. استمرّ في المحاججة قائلا لو أدّت الخلافات الطائفية إلى أعمال عنفٍ فلن يغفر التاريخ للبريطانيين. كان البريطانيون قد حكموا الهند طيلة أكثر من مائة سنة، وسيكونون مسؤولين إذا اشتعلت نارُ الفِتْنَةِ والعنفِ والفوضى بسبب انسحابهم. وحين تبيّن له أنه لا يمكنه أن يُقنع السيد آتلي قدّم استقالته.

وأنا أنظر إلى الأحداث بعد عشر سنوات، أتساءل أحيانا مَنْ كان على صوابٍ. كانت الظروف، وقتها، معقّدةً والوضع دقيقاً إلى درجة أنه كان من العسير على المرْءِ أن يُصدر حكما واضحا. كان قرار السيد آتلي محكوما بتصميمه على مساعدة الهند لبلوغ استقلالها. و كان بإمكان أيّ شخص لديه أدنى ميولات إمبريالية أن يستغلّ ضعف الهند بكلّ سهولة. وفي الحقيقة

إن الخلافات بين الهندوس والمسلمين كانت دائما تُسْتَغَلُّ من قبل الحكومة البريطانية. كانت هذه هي حجّتهم الكبرى ضدّ مطالبة الهند باستقلالها. وكان السيد آتلي مُصمِّما على أن لا يوجّه أحدٌ تُهمةً كهذه إلى حكومة حزب العمّال.

علينا أن نُقرَّ بأنه لو لم تكن نواياهُ صادقةً، ولو أنه أراد أن يستغلّ الخلافات بين الهندوس والمسلمين، لتمكّن من فعل ذلك بسهولة. كان يمكن للبريطانيين أن يحكموا هذه البلاد طيلة عشرية أخرى رغم معارضتنا، وكانت ستحدث فيها، طبعا، أعمال عُنف وصدامات. كانت مشاعر الهنود قد استُفِزَّتْ إلى درجة أن الحكم البريطاني سيكون مهدّدا في كل مرحلة. لكن البريطانيين كانوا يستطيعون، لو أنهم أرادوا، أن يواصلوا سيطرتهم بضع سنوات أخرى، وذلك باستغلال الخلافات الهندية. علينا أن لا ننسى أن الفرنسيين ظلّوا في الهند الصينية طيلة ما يقارب عشر سنوات، رغم أن فرنسا أضعف بكثير من بريطانيا. وبالتالي علينا أن نُنْصِفَ حكومة حزب العمّال. لم تكن ترغب في استغلال ضعف الهند لمصلحتها. سيشرّفها التاريخ لأنها وقفت هذا الموقف. وعلينا، بدون أيّ تحفّظ عقلي، أن نعترف بهذا الأمر.

من ناحية أخرى لا يستطيع المرْءُ أن يجزم بأن اللورد وايفل كان على خطإ. فالمخاطر التي توقّعها كانت حقيقية، وأكّدت الأحداث الموالية أن قراءته للوضع كانت صائبة. من الصّعب أن نجزم أيّ الاحتمالين كان سيكون الأفضل بالنسبة إلى الهند، الاحتمال الذي تبنّاه السيد آتلي أو الاحتمال الذي اقترحه اللورد وايفل. لو تمّ العمل بنصيحة اللورد وايفل ووقع تأجيل حلّ مشكلة الهند سنةً أو سنتين، ربّما كانت الرابطة الإسلامية ستتعبُ من المعارضة. حتى لو لم تتّخذ الرابطة موقفا أكثر إيجابية فإن جماهير المسلمين في الهند من المحتمل أن تتبرّأ من الموقف السلبي للرابطة الإسلامية. وربما كان من الممكن تفادي حصول مأساة تقسيم الهند. لا يمكن للمرْءِ أن يجزمَ، لكن سنة أو سنتين لا تمثّل شيئا في تاريخ أمّة. ربما سيقرّر التاريخ أن السياسة الأكثر حكمة كانت تكمن في العمل بنصيحة اللورد وايفل.

عندما رحل اللورد وايفل أدليت بتصريح يبيّن رأيي فيه. كنتُ أعرف أن جواهرلال وزملائي الآخرين كانوا لا يوافقونني الرأيَ. كانوا ضدّ اللورد وايفل، لكنني اعتبرت أنه من واجبي أن أطرح أمام الناس تقييمي لدور اللورد وايفل. هذا ما قلتُه:

أثار تقرير السيد آتلي بخصوص الهند مشاعر مختلطة في نفسي. من ناحية، كنت ممتنّا لأنّه تبيّن لي أنّ قراءتي للوضع في شهر يونيو/ حزيران 1945 قد أكّدتها الأحداث. وفي الوقت ذاته، لا أستطيع أن أمنع نفسي من الشعور بالأسى لأنّ اللورد وايفل الذي افتتح عهدا جديدا في تاريخ العلاقات بين الهند وبريطانيا ينسحب الآن من المشهد.

أيّام قمّة سِملا، كان الشكّ والرّيبة في النوايا البريطانيّة ينتابان الجميع. أعترف أنني أنا أيضا كنت متحاملا، وأنّ أحداث السنوات الثلاث الأخيرة خلّفت في نفسي مرارة. كنت في ذلك المزاج عندما سافرت إلى سِمّلا لحضور القمّة، لكنني حين التقيت اللورد وايفل، شَهِدتُ تغيّرا مفاجئا في الرأي. وجدته رجلا صارما، وعسكريا صريحا، يتجنّب الإطناب في الكلام، ومباشرا في مقاربته وفي تعبيره. لم يكن مراوغا مثل رجال السياسة، بل دخل مباشرة في صلب الموضوع، وخلق في الذهن انطباعا يوحي بصدقٍ شديد لامس قلبي. لذلك شعرت أنّه من واجبي أن أنصح البلاد بتبنّي منهج بنّاء بُغْيَةَ تحقيق

هدفها السياسي. منذ ذلك الحين، ورغم المناخ العامّ الذي تسوده الريبة والاعتراض، لم أحِدْ عن هذا المسار. يعلم الجميع أنه، منذ قمّة سِملا الأولى، كانت هناك محاولات من داخل المؤتمر ومن خارجه أيضا، في أربع مناسبات مختلفة على الأقلّ، لإجراء تحرّك متهوّر ودفع المؤتمر إلى اللجوء إلى العمل المباشر، غير أنني كنت أعي أنّ هذا التصرّف غير حكيم في ضوء الموقف التوفيقيّ للحكومة البريطانيّة.

مارست كلّ ما لنفوذي من تأثير لأحافظ على مسار المؤتمر راسخا. وأنا الآن أشعر بالرضا لأنّ قراءتي للوضع لم تكن خاطئة. لقد فشلت قمّة سِملا، لكن سُرعان ما أجريت الانتخابات العامّة في إنجلترا، واستلم حزب العمّال السلطة، وأعلن أنّه سيواصل عمليّا ما كان قد وعد الهند به. وقد أثبتت الأحداث، منذ ذلك الوقت، أنّ إعلانهم كان صادقا.

لا أعرف ما هي المراسلات التي تمّت بين اللورد وايفل وحكومة جلالة الملك خلال الأسبوعين أو الثلاث الماضية. بالطبع كانت هناك أسباب وراء استقالته. قد نختلف معه في تقييمه للوضع. لكننا لا نستطيع أن نشكّك في صدقه ونزاهة غايته. ولا يمكنني أن أنسى أنّ الفضل في تغيير المناخ في العلاقات الهنديّة البريطانيّة اليوم، يعود إلى الخطوة الجسور التي

اتّخذها في شهر يونيو/ حزيران 1946. بعد فشل بعثة كريبس، قرّرت حكومة تشترشل أن تجمّد المشكلة الهنديّة طوال فترة الحرب. ولم يكن للرّأي العام الهندي أيّ وسيلة للوصول إلى الخارج، وقد تعمّقت المرارة بعد الأحداث التي تلَتْ 1942. يرجع الفضل في فتح الباب المغلق إلى اللورد وايفل. فرغم المعارضة التي أبدتها الحكومة الائتلافيّة في البداية، نجح في إقناعها بأن تقدّم عرضا جديدا للهند. فكانت قمّة سِمْلا نتيجة لذلك. لم تنجح القمّة، لكن كلّ ما تلاها كان تناميا طبيعيّا للخطوة المقدامة التي كان اللورد وايفل قد اتّخذها.

أنا واثقٌ من أنّ الهند لن تنسى أبدا هذا المعروف للُورد وايفل، وحين يحين الأوان الذي يقوم فيه مؤرّخو الهند الحرّة بتقييم العلاقات بين بريطانيا والهند، سيُسجَّل للُورد وايفل فضْلُهُ في افتتاح صفحة جديدة في هذه العلاقات.

أُقيمَ عشاءٌ تلك الليلة ودّع اللورد وايفل، خلاله، أعضاء المجلس التنفيذي لنائب الملك. من الواضح أنه تأثّر بما جاء في تصريحي وقال لصديقٍ: «يسعدني أن أقول ثمّة في الهند رجلٌ واحدٌ على الأقلّ حاول أن يفهم موقفي.»

قبل رحيله بيوم ترأس الاجتماع الأخير لمجلسه. وبعد أن فرغ من هذه المهمّة، أدلى بتصريحٍ موجزٍ كان له وقعٌ بالغٌ في نفسي. قال اللورد وايفل: «لقد أصبحت نائبا للمَلك في زمنٍ عصيبٍ دقيقٍ. حاولتُ أن أقوم بواجبي على أفضل وجْه. غير أن الوضع تطوّر ممّا جعلني أستقيلُ. سيحكم التاريخ هل أنني تصرّفت تصرّفا صائبا حين استقلتُ بسبب هذه المسألة. غير أنني أناشدكم أن

لا تتّخذوا قرارا متسرّعا. أنا مَدينٌ لكم كلّكم للتعاون الذي لمسته منكم.»

بعد هذه الكلمة جمع اللورد وايفل أوراقه بسرعة، ومضى في حال سبيله دون أن يعطي أيّا منّا فرصة أن يقول أيّ شيءٍ. وفي اليوم الموالي غادر دلهي.

14 - بعثة مَاوْنْتبَطْنْ

ذاع صيتُ اللورد مَاوْنْتبَطْنْ أوّل ما ذاع أثناء سنوات الحرب. كان قد أمضى بعض الوقت في الهند، ثم نقل قيادته العامّة إلى سيلان. عندما استقال اللورد وايفل عُيّن اللورد مَاوْنْتبَطْنْ نائبا للملك وحاكما عامّا. كانت حكومة حزب العمّال قد زوّدته، قبل مجيئه، بمعلومات ضافية فجاء ومعه تعليماتٌ من السيد آتلي تنصُّ على أن السلطة يجب أن تُنقلَ قبل يوم 30 يونيو/ حزيران 1948.

وصل إلى دلهي يوم 22 مارس، وأدّى اليمين الدستورية باعتباره نائبا للملك وحاكما عامّا يوم 24. وبعد حفل أداء اليمين مباشرة، ألقى خطبة قصيرة ركّز فيها على الحاجة إلى التوصّل إلى حلٍّ في غضون الأشهر القليلة القادمة. بعد ذلك بقليل، أجريتُ محادثتي الأولى مع اللّورد مَاوْنْتبَطْنْ. أخبرني، منذ الاجتماع الأوّل، أنّ الحكومة البريطانيّة مصمّمة تماما على نقل السّلطة. قبل أن يحصل هذا الأمر، كان لا بدّ من تسوية المسألة الطائفيّة، لذلك رغب في أن تتمّ محاولة أخيرة حاسمة لحلّ المشكلة. اتّفق معي على أنّ الخلافات بين المؤتمر والرابطة قد تقلّصت الآن. ودمجتْ خطّة البعثة الحكوميّة أسّامَ والبنغالَ. وقال المؤتمر إنه لن يتمّ إجبار أيّ إقليم على الانضمام إلى مجموعة، وبإمكان كلّ إقليم أن يختار، عن طريق التصويت، إن كان يرغب في الانضمام إلى مجموعة أو لا. قال المؤتمر إنه كان قد قَبِلَ خطّة البعثة الحكوميّة على أساس أن تنتخب المجموعة ككلّ، ولا يمكن لإقليم أن ينسحب إلاّ بعد أن يتمّ سنُّ الدستور. وواصل

المؤتمر حجاجه قائلا إنّ أيّ تغيير في مقترحات الخطّة سيترتّب عليه رفض الخطّة بأكملها. وعلى هذا الأساس رفض المؤتمر خطّة البعثة الحكوميّة.

لا يمكن لأحدٍ أن يفهم لماذا أَوْلَتْ الرابطة كلّ هذا الاعتبار لمسألة أسّام، فلم تكن أسّام إقليمًا ذا أغلبيّة مسلمة. لو أنّ المعيار الذي تمّ تطبيقه هو معيار الرابطة لما كان هناك من داعٍ فعليّ إلى إكراه أسّام على الاندماج مع البنغال. ومهما كان السبب، فإنّ الرابطة كانت على حقٍّ شكليًا، رغمٍ أن موقفها كان ضعيفا معنويًا وسياسيا. ناقشت المسألة مع اللورد مَاوْنْتبَطْنْ في مناسبات عديدة. شعرت بأنّ الخلاف بين المؤتمر والرابطة قد بلغ حدًّا لم يَعُد يمكن التوصّلِ معه إلى حلٍّ إلاّ بوساطة طرف ثالث. كان رأيي أنه يمكن أن نترك الأمر للّورد مَاوْنْتبَطّنْ. فليتّفق المؤتمر والرابطة على إحالة المسألة إليه، وليقبلا بتحكيمه. لكن، لم يقبل جواهرلال ولا صاردار باتل هذا المقترح. لم تعجبهما فكرة التحكيم في مسألة قوميّة، فلم ألحّ أكثر من ذلك.

أثناء ذلك، كان الوضع يتدهور كلّ يوم. كانت أعمال الشّغب في كلكوتا تتلوها أعمال شغب في نواخالي وبيهار. وبالتالي كان ثمّة اضطرابٌ في بُمباي. وبُنجاب التي ظلّت هادئة حتّى الآن، ظهرت فيها علامات توتّرٍ وصراعٍ. قدّم مالك خِيزِير حياة خان استقالته من منصب رئيس وزراء بُنجاب يوم 2 مارس. خرجت مظاهرات ضدّ باكستان في لاهور يوم 4 مارس سقط أثناءها 13 قتيلا، وسقط العديد من الجرحى. وامتدّت الصراعات الطائفيّة إلى مناطق أخرى من الإقليم، وحصلت أعمال شغبٍ كبيرةٍ في أمريتسار، وتاكسيلا، وروالبندي.

كانت المشاعر الطائفيّة تتصاعد من ناحية. ومن ناحية أخرى، كانت الإدارة تصبح متراخية. لم تعد قلوب الأوروبيين العاملين في الدوائر الحكوميّة ميّالة إلى أعمالهم. فقد صاروا الآن مقتنعين بأنّه ما إن يمرّ وقتٌ وجيزٌ، حتّى تُنقل السّلطة إلى يد الهنود. وبالتالي لم يعودوا يكترثون بشغلهم، بل صاروا يكتفون بتمضية وقتهم دون عمل يذكر. قالوا للناس صراحة إنهم لم يعودوا مسؤولين عن الإدارة. أدّى هذا إلى إشعال نار الفتنة في صفوف الجماهير،

وأدّى إلى انعدام الثقة.

زادت الأزمة بين المؤتمر والرابطة في المجلس التنفيذي الوضعَ تفاقُما. أصيبت الحكومة بالشّلل من كثرة تنازع أعضاء المجلس مع بعضهم البعض. كانت الرابطة تتولّى الماليّة، وكانت مفاتيح الإدارة في يدها. سيتذكّر الجميع أنّ صاردار باتل هو المتسبّب الوحيد في حصول هذا، لأنّ شغفه بالاحتفاظ بوزارة الداخليّة جعله يُهدي وزارة الماليّة للرابطة الإسلاميّة. كان هناك موظّفون ذوو كفاءات عالية، وإداريون مسلمون في وزارة الماليّة قدّموا كلّ أشكال المساعدة لِلياقات علي. وبفضل مساعدتهم، تمكّن من رفض كلّ طلب يتقدّم به أعضاء المؤتمر في المجلس التنفيذي أو تأجيله. تفطّن صاردار باتل إلى أنّه رغما عن كونه وزير الداخليّة، فإنه لا يستطيع أن يخلق منصبَ عامل مكاتب دون موافقة لِياقات علي. كان أعضاء المجلس في حيرةٍ من أمرهم لا يدرون ماذا يفعلون.

تولّدت وضعيّة مؤسفة حقيقةً نتيجة تصرّفنا الأحمق الذي منح وزارة الماليّة للرابطة الإسلاميّة. استغلّ اللورد مَاوْنْتبَطّنْ الوضع استغلالا كاملا. وبسبب الشّقاق بين الأعضاء، استحوذ على السلطة كاملةً بشكل تدريجيٍّ سريع. حافظ على شكل منصب حاكم عام دستوري، لكنه بدأ، في الواقع، يلعب دورَ الوسيط بين المؤتمر والرابطة ليشقّ طريقه الخاصّ. بدأ يخطّ منعرجا جديدا للمشكلة السياسية أيضا، ويحاول أن يفرض على المؤتمر والرابطة الإسلامية كليهما حتميّة إنشاء باكستان. دافع عن قضية باكستان، وزرع بذور الفكرة في عقول أعضاء المؤتمر في المجلس التنفيذي.

يجب أن يُسجّلَ أن الرجل الأوّل الذي سلَّمَ بفكرة مَاوْنْتبَطّنْ هو صاردار باتِل. كانت باكستان بالنسبة إلى جِنّاه، وربما حتى اللحظة الأخيرة، مجالَ مساومة، لكنه تجاوز الحدود في صراعه من أجل إنشاء باكستان. ضايقت فِعْلَتُهُ صاردار باتِل وأزعجته إلى درجة أنه صار الآن يؤمن بالتقسيم. كانت مسؤولية تسليم وزارة المالية إلى الرابطة الإسلامية مسؤولية صاردار. لذلك كان أكثر من اغتاظ من عجزه أمام لِياقات علي. وحين أوحى اللورد مَاوْنْتبَطّنْ

بأن التقسيم قد يوفّر الحلّ للخلاف الحالي، لاقت فكرته هَوًى في نفس صاردار باتل. وفي الواقع كان صاردار باتل مع التقسيم بنسبة 50 بالمائة، حتى قبل أن يظهر مَاوْنْتبَطْنْ في المشهد. كان مقتنعا بأنه لا يمكن أن يعمل مع الرابطة الإسلامية. وقال صراحةً إنه كان مستعدّا للاستحواذ على قسم من الهند إذا تخلّص من الرابطة الإسلامية. ربما لن يكون من التجنّي أن نقول إن صاردار فالّبهاي باتل هو الذي كان السبب في تقسيم الهند.

كان اللورد مَاوْنْتبَطْنْ في منتهى الذكاء، وكان بإمكانه أن يقرأ ما يجول في عقول كلّ زملائه الهنود. وفي اللحظة التي لمس فيها أن باتل كان ميّالا إلى فكرته وظّف كلّ سحره وقوّة شخصيته لكسب صاردار. وكان في محادثاته الخاصّة يشير إلى باتل على أنه حبّة كستناء: قشرةٌ صلبةٌ من الخارج ولبٌّ ليّنٌ ما إن تكْسِرَ القشرة. كان أحيانا يقول لي في نبرة مازحة إنه تكلّم مع حبّة الكستناء، وإنّ حبّة الكستناء اتّفقت معه حول جميع المسائل.

حين اقتنع صاردار باتل، غيّر اللورد مَاوْنْتبَطْنْ اتجاه تركيزه إلى جواهرلال. لم يكن جواهرلال جاهزا لقبول الفكرة في البداية، وكان ردّ فعله ضدّ فكرة التقسيم عنيفا. واصل اللورد مَاوْنْتبَطْنْ إصراره إلى أن تهاوت معارضة جواهرلال شيئا، فشيئا. ولم يمرّ شهرٌ على قدوم اللورد مَاوْنْتبَطْنْ حتى صار جواهرلال، وهو المعارضُ الشّرسُ للتقسيم، قابلا للفكرة على الأقلّ، إن لم يكن مناصرا لها.

كثيرا ما تساءلتُ كيف تسنّى للُورد مَاوْنْتبَطْنْ أن يسيطر على جواهرلال. فجواهرلال رجلُ مبادئ، لكنه انفعاليٌّ أيضا، وسهْل الانقياد والخضوع للتأثيرات. أظنّ أن العامل المسبّب لهذا التغيّر هو شخصية السيدة مَاوْنْتبَطْنْ. فلم تكن فائقة الذكاء فحسب، بل كانت تتحلّى بطبع جذّاب وَدُود إلى أبعد الحدود. كانت معجبة بزوجها إعجابا كبيرا، وكانت تحاول، أحيانا كثيرة، أن تشرح أفكاره لأولئك الذين لا يتّفقون معه في البداية.

كان هناك شخصٌ آخر مسؤول عن التغيّر الي طرأ على جواهرلال، وهو هنديٌّ اسمه كريشنا منّن كان يعيش في لندن منذ مطلع العشرينات. كان جواهرلال قد التقاه أوّل مرّة في نهاية العشرينات، ووجد فيه الشخص الذي يبدي إعجابا كبيرا بمواقف جواهرلال. كلّنا نحبّ المعجبين بنا. لكن، ربما كان جواهرلال يبالغ قليلا في حبّ المعجبين به. وبعد ذلك بقليل، في بداية الثلاثينات، أرسل حزب العمّال بعثةً إلى الهند برئاسة الآنسة إلِنْ ويلكنْسُن. كان كريشنا منّن ملحقا بالبعثة، وزار الهند. كما أنه كان مهتمّا بنشاطات البعثة الهندية في لندن. أثناء هذه الفترة كانت علاقاته تقتصر على الأشخاص الذين كانوا يعتبرون شيوعيين أو «رفاق سفر»[19]. وعندما رجع جواهرلال إلى لندن عاود كريشنا منّن اتصاله به وأعاد تأكيد ولائه له.

وعندما انتهت الحرب اقترح كريشنا منّن أن يُمَوّلَ ليقوم بحملة إعلامية باسم الهند في لندن. وعندما هاجم هتلر روسيا، اتّصل بالسفارة السوفياتية في لندن. أرسل إلينا العديد من الرسائل جاء فيها أنه كان يلتقي بالسفير السوفياتي، باعتباره ممثّل جواهرلال الشخصيّ. أرسل كل أنواع المقترحات لضمان المساعدات الوديّة للهند. كما أعدّ مخطّطات تطلب تمويلا من المؤتمر. كان جواهرالال منبهرا به، وطلب مني أن أمنحه بعض المال. قمت بذلك، وطرحت الأمر على اللجنة التنفيذية. قال لي غاندي وصاردار باتل، بصراحة، إنهما لم يعجبا بما قمتُ به. لكنهما لن يقولا شيئا ما دمت قد دفعت المال عن حسن نيّة. لكنهما طلبا منّي أن لا أدفع أيّ مبلغ آخر. وأشارا إلى أن الهنود في لندن كانوا منقسمين انقساما حادّا في حكمهم على كريشنا منّن. كان لديه بعض المناصرين، لكن كان هناك حشدٌ من المعارضين الذين يلهجون ضدّه بجميع أصناف التّهم. إن الانطباع العام الذي حصل لديّ هو أن سلوكه لم يكن فوق الشّبهات. لذلك لم أكن أستطيع أن أثق به ثقة كاملة. أثبتت الأحداث الموالية أن

---

19 - «رفيق سفر»: تعبير يُستخدم للدلالة على شخص يساند الشيوعيّة، دون أن يكون منتميا للحزب الشيوعي ويحمل بطاقة عضويّة في الحزب. اكتسبت هذه العبارة معان حافّة تهجينيّة في أمريكا في السنوات 1940 و1950. (المترجمة)

غاندي وصاردار كانا على حقٍّ في شكّهما بكريشنا منُنْ. لم يكن جديرا بالثقة، حتى إن نحن ترفّقنا به، ولم يكن يهتمّ كثيرا للطريقة التي تُنفَقُ بها الأموال العامة. بل إن نظرة أغلب الناس إليه كانت أسوأ بكثير، فهم يعتبرونه مخادعا صرفا.

عندما تشكّلت الحكومة الانتقاليّة، أراد جواهرلال أن يعيّن كريشنا منُنْ مفوّضا ساميا في لندن. لم يوافق اللُّورد وايفل. وقالت الحكومة البريطانيّة، ناصحةً، إنّ تعيينه لن يكون لائقا لأنّه يُعتبر مُساندا للشيوعيين. بعد رحيل اللُّورد وايفل بقليل، جاء كريشنا منُنْ إلى الهند ونزل عند جواهرلال. فأدرك اللُّورد مَاوْنْتبَطْنْ، على الفور، أنّ لجواهرلال نقطة ضعف تجاه كريشنا منُنْ، ومن الممكن أن يُؤثّر فيه. كان اللُّورد وايفل قد عارض تعيين كريشنا منُنْ، لكن اللُّورد مَاوْنْتبَطّنْ قرّر أن يصبح عُرَّابَهُ، ودعاه إلى بيت نائب الملك في مناسبات عديدة. كانت لكريشنا منُنْ ميولات شيوعيّة، لكنه عندما رأى كم أنّ اللُّورد مَاوْنْتبَطّنْ لطيفٌ معه، ولاحظ أنه يمكن أن يساعده في الحصول على منصب، انقلب إلى مناصر للبريطانيين بين عشيَّة وضُحاها. انبهر اللُّورد مَاوْنْتبَطّنْ بمشاعره الوديّة تجاه البريطانيين. شعُر اللُّورد مَاوْنْتبَطّنْ أنّ كريشنا منُنْ سيكون ذا نفع في مساعدته على إقناع جواهرلال بقبول مخطّطه الرامي إلى تقسيم الهند. أنا على يقين من أنّ كريشنا منُنْ أثّر في تفكير جواهرلال في ما يتعلّق بهذه المسألة. ولم أتفاجأ حين علمتُ، بعد ذلك بقليل، أنّ اللُّورد مَاوْنْتبَطّنْ عرض على جواهرلال مساعدته إن هو أراد أن يعيّن كريشنا منُنْ مفوّضا ساميا في لندن.

شعرت بأسى عميق عندما أدركت أنّ اللُّورد مَاوْنْتبَطّنْ كان يفكّر في تقسيم الهند وقد أقنع جواهرلال وباتل. تبيّن لي أنّ البلاد كانت تمضي باتّجاه خطر كبير. إنّ تقسيم الهند لن يكون مضرّا بالمسلمين فحسب، بل بالوطن بأكمله. كنت ولا أزال مقتنعا أنّ خطّة البعثة الحكوميّة هي أفضل حلٍّ من جميع النواحي. فهي تحمي وحدة الهند، وتمنح كلّ طائفة فرصة التصرّف بحرّية وبكرامة. حتى من وجهة نظر طائفيّة، لم يكن بإمكان المسلمين أن يتوقّعوا أفضل من ذلك. كانوا سيحصلون على استقلال داخليّ تامٍّ في الأقاليم التي

تتشكّل أغلبيّةُ سكّانها من المسلمين. و كان تمثيلُهم سيكون تمثيلا مُرْضيا أكثر حتى في الحكومة المركزيّة. مادام يوجد تحاسدٌ طائفيٌّ وشكوكٌ، ستتمّ حماية مواقعهم بما فيه الكفاية. كنت مقتنعا، أيضا، بأنه لو تمّت صياغة دستور الهند الحرّة على هذا الأساس، وطُبّقَ الدستور بنزاهة بعض الوقت، ستختفي الشّكوك والظنون الطائفيّة بسرعة. كانت مشاكل البلاد الحقيقيّة مشاكل اقتصاديّة لا طائفية، والاختلافات بين الطبقات لا بين المجموعات. وما إن تصبح البلاد حرّة حتى يدرك الهندوس، والمسلمون، والسّيخ الطّبيعة الحقيقية للمشاكل التي واجهتهم، وتُحلّ المشاكل الطائفيّة.

فعلتُ ما بوسعي لأقنع زميليَّ بأن لا يخْطُوَا الخطوة الأخيرة. تفطّنت إلى أنّ باتل كان يؤيّد التقسيم إلى درجة أنه كاد يصبح غير مستعدٌّ حتّى لسماع أيّ وجهة نظر أخرى. تجادلت معه طيلة أكثر من ساعتين. لفتُّ انتباهه إلى أننا إذا قبلنا تقسيم الهند، فقد نخلق مشكلة دائمة للهند. إنّ التقسيم لن يحلّ المشكلة الطائفيّة، بل إنه سيجعلها سِمَةً دائمة للبلاد. كان جنّاه قد رفع شعار الأمّتين. إنّ قبول التقسيم معناه قبول ذلك الشّعار. لكن كيف يمكن للمؤتمر أن يقبل بتقسيم البلاد على أساس هندوس ومسلمين؟ وبدل أن يبدّد التقسيم المخاوف الطائفيّة، سيجعلها دائمةً، بخلق دولتين مبنيّتين على البغض الطائفي. وحالما تنبثق دولتان مبنيّتان على البغضِ الطائفيِّ لا أحد يعلم إلى أين سيؤدّي الوضع.

تفاجأتُ وتألّمتُ عندما ردّ عليّ باتل قائلا هناك أمّتان في الهند، شئنا هذا أم أبينا. لقد صار مقتنعا الآن بأنّه لا يمكن الجمعُ بين المسلمين والهندوس في أمّة واحدة. ولم يكن هناك من حلٍّ غير الاعتراف بهذا الأمر. فهذا هو الأسلوب الوحيد الكفيل بأن يجعلنا نضع حدّا للنزاع بين الهندوس والمسلمين. وأردف قائلا إذا كان أَخَوان لا يستطيعان أن يجتمعا، يتفرّقان. وبعد أن يفترقا ويأخذ كلّ منهما نصيبه، يصبحان صديقين. أمّا إذا وقع إكراهُهُمَا على العيش معا، فإنهما سيتخاصمان كلّ يوم. من الأفضل أن تجري معركة واحدة نظيفة ينتج عنها فراقٌ، بدل التّشاحن اليوميّ. تفاجأت لأنّ باتل قد أصبح الآن مساندا

لنظريّة الأمّتين أكثر من جِنّاه. ربما كان جِنّاه هو من رفع راية التقسيم، لكن رافع راية التقسيم الحقيقيّ الآن هو باتل.

ثمّ التفتُّ إلى جواهرلال. لم يؤيّد في كلامه التقسيم مثلما فعل باتل. وفي حقيقة الأمر، لقد اعترفَ جواهرلال بأنّ التقسيم بطبيعته خطأ. غير أنّه فقد آماله في العمل المشترك بعد تجربته في قيادة أعضاء الرابطة في المجلس التنفيذي. فلم يكن باستطاعة هؤلاء الأعضاء أن يتّفقوا حول أيّ مسألة. كانوا يتشاجرون كلّ يومٍ. سألني جواهرلال، وهو يائسٌ، هل من بديل آخر عن قبول التقسيم.

تكلّم جواهرلال بحزنٍ، لكنه لم يترك في ذهني أدنى شكٍّ في كيفية تفكيره. لقد كان واضحا أنه كان يقترب، يوما بعد يوم، من التوصّل إلى استنتاج مفاده أنْ لا وجودَ لبديلٍ رغم مقْته لفكرة التقسيمٌ. لقد اعترف بأنه من المؤكّد أن التقسيم لم يكن الحلّ الأفضَل، والحقُّ أنه ليس حلاًّ جيّدا على الإطلاق. لكنه قال إن الظروف كانت تقود في ذلك الاتجاه بشكل لا مفرَّ منه.

وبعد بضعة أيّام، زارني جواهرلال مرّة أخرى. بدأ بمقدّمة مطوّلة ركّز فيها على أنه لا ينبغي لنا أن ننغمس في التفكير المفعم بالآمال، بل علينا أن نواجه الواقع. وفي نهاية المطاف دخل جوهر الموضوع، وطلب منّي أن أتخلّى عن معارضتي للتقسيم. قال إنه صار أمرا لا مفرّ منه، والحكمة تقتضي أن لا نعارض ما ليس منه بدّ. وقال أيضا إنه لن يكون من الحكمة أن أعارض اللّورد مَاوْنْتبَطِنْ في ما يخصّ هذه المسألة.

قلت لجواهرلال لا يمكنني أن أقبل وجهات نظره على الإطلاق. كنتُ أرى بوضوح أننا شرعنا نأخذ القرار الخاطئ تلو الآخر. وبدل أن نُراجِعَ خطواتنا، ها نحن الآن نغرق أكثر في قاع المستنقع. كانت الرابطة الإسلاميّة قد قبلت خطّة البعثة الحكوميّة، ولاح في الأفق حلٌّ مُرْضٍ للمشكلة الهنديّة. كانت هذه هي المرحلة التي أدلى فيها جواهرلال بتصريحه المشؤوم في مؤتمر صحفي في

بُمباي. وحين أعلن، باعتباره رئيس المؤتمر، أنّ المؤتمر لم يقبل سوى المشاركة في المجلس التأسيسي، منح السيد جِنّاه فرصة التراجع عن قبول خطّة البعثة الحكوميّة.

جادلتُ قائلا إنّ خطأنا الثاني حصل عندما اقترح اللُّورد وايفل إعطاء وزارة الداخليّة للرابطة الإسلاميّة. لم يكن ذلك سيؤدّي إلى صعوبة لا يمكن تخطّيها، لكننا قدّمنا وزارة الماليّة بأيدينا إلى الرّابطة الإسلاميّة بسبب إصرار باتل على الاحتفاظ بوزارة الداخليّة. هذا هو سبب المصاعب التي نواجهها حاليّا. جَدَّ الآن وضعٌ جديدٌ وجدنا فيه أنفسنا نتحوّل إلى أشدّ المساندين للتقسيم. حذّرتُ جواهرلال من أنّ التاريخ لن يغفر لنا إذا قبلنا التقسيم. سيكون الحكم أنّ الهند قد وقع تقسيمها لا بيد الرابطة الإسلاميّة، بل بيد المؤتمر.

الآن وقد أصبح صاردار باتل وجواهرلال يساندان التقسيم، ظلّ غاندي أملي الوحيد. أثناء ذلك، كان غاندي يقيم في باتنا. كان قد أمضى بضعة شهور في نُواخالي حيث أثّر تأثيرا كبيرا في المسلمين المحلّيين، وخلق مناخا جديدا في الوحدة بين الهندوس والمسلمين. توقّعنا أن يأتي إلى دلهي ليلتقي بمَاوْنْتبَطْنْ، ووصل فعلا يوم 31 مارس. ذهبت لزيارته على الفور، وكانت ملاحظته الأولى هي التالية: «لقد أصبح التّقسيم يتهدّدنا الآن. يبدو أنّ فالّبهاي ونهرو نفسه قد استسلما. هل ستقف معي؟ أم أنك تغيّرت أنت أيضا؟»

أجبته قائلا: «كنت ولا أزال ضدّ التقسيم. لم أعارض التقسيم يوما في حياتي أكثر ممّا أعارضه اليوم. غير أنّني حزين لأنّ جواهرلال نفسه وباتل أيضا قَبِلا الهزيمة، وحسب عبارتك أنت: لقد ألقيا سلاحهما. أنت الآن أملي الوحيد. إذا وقفت ضدّ التقسيم، قد نقدر على إنقاذ الموقف. لكن إذا أذعنت له، ستضيع الهند.»

قال غاندي: «أيّ سؤال هذا! إذا رغب المؤتمر في قبول التقسيم، فسيكون ذلك على جثّتي. لن أوافق على تقسيم الهند ما دمت حيّا. ولن أسمح، إن

استطعت، أن يقبل به المؤتمر.»

في ذلك اليوم نفسه، التقى غاندي باللورد مَاوْنتبَطْن. ثمّ رآه في اليوم الموالي، يوم 2 أبريل/ نيسان. ثمّ جاءه صاردار باتل بعد أن عاد من لقائه الأوّل مع اللورد مَاوْنتبَطْن واختلى به طيلة أكثر من ساعتين. ماذا حدث أثناء هذا الاجتماع، لا أعرف. لكنني عندما التقيت غاندي مجدّدا، تلقّيت أكبر صدمة في حياتي عندما أدركتُ أنّه تغيّر. لم يصبح بَعْدُ مع التقسيم بشكل واضح، لكنه لم يعد يتكلّم ضدّه بعنف. ما فاجأني وصدمني أكثر من ذلك هو أنه بدأ يكرّر الحُجَجَ نفسها التي كان صاردار باتل قد استعملها سابقا. ناشدته طيلة أكثر من ساعتين، لكنني لم أستطع أن أؤثّر فيه.

في النهاية قلت بكآبة: «إذا كنت، حتّى أنت، قد تبنّيت هذه المواقف، فإنني لا أرى أملا في تخليص الهند من الكارثة.»

لم يردّ غاندي على تعليقي، غير أنّه قال إنه كان قد اقترح بَعْدُ أن نطلب من جِنّاه أن يشكّل الحكومة ويختار أعضاء المجلس الوزاريّ. قال إنّه أخبر اللورد مَاوْنتبَطْن بالأمر، وأنّ اللورد مَاوْنتبَطْن أعجب بالفكرة أيّما إعجاب.

عرفت أنّ الأمر كان كذلك. عندما التقيت اللورد مَاوْنتبَطْن بعد أن كلّمه غاندي بيوم، أخبرني أنه لو قبل المؤتمر مقترح غاندي، فإنّه لا يزال من الممكن إنقاذ البلاد من التقسيم. كان اللورد مَاوْنتبَطْن مقتنعا بأنّ عرضا كهذا من المؤتمر سيقنع الرابطة الإسلاميّة، وربّما سيكسب ثقة جِنّاه. من سوء الحظّ أن هذا التحرّك لم يستطع أن يشهد تقدّما لأنّ كلاّ من جواهرلال وصاردار باتل عارضاه بعنف. والحقّ أنّهما أجبرا غاندي على سحب المقترح.

ذكّرني غاندي بذلك، وقال إنّ الوضع بلغ الآن مبلغا أصبح معه التقسيم لا مفرّ منه. والمسألة الوحيدة التي يمكن الحسم فيها هي الشكل الذي ينبغي أن يأخذه التقسيم. هذه هي المسألة التي أصبحت تُنَاقَشُ الآن صباحا، مساءً، في معسكر غاندي.

فكّرت في الأمر كلّه مليّا. كيف غيّر غاندي رأيه بهذه السّرعة؟ في رأيي أنّ ذلك قد تمّ تحت وقع تأثير صاردار باتل. كان باتل قد قال جهارا إنّه ليس ثمّة من مخرج غير التقسيم. فقد أثبتت التجربة أنه من المستحيل العمل مع الرابطة الإسلاميّة. وهناك اعتبارٌ آخر قد يكون لعب دورا إلى جانب صاردار باتل. كان اللّورد مَاوْنْتبَطْنْ قد قال إنّ المؤتمر لم يوافق على أن تكون الحكومة المركزيّة ضعيفة إلاّ تلبية لمعارضات الرابطة. وهكذا مُنحت الأقاليم استقلالاً ذاتيّا إقليميا تامّا. لكن وجود حكومة مركزيّة ضعيفة في بلد تقسّمه اللغة والطائفة والثقافة إلى هذا الحدّ، من شأنه أن يشجّع على الميولات الانشقاقيّة. لو لم تكن الرابطة الإسلاميّة موجودة، لاستطعنا أن نبرمج لحكومة مركزيّة قويّة ونسنّ دستورا مرغوبا فيه من وجهة نظر تحقيق الوحدة الهنديّة. نصحنا اللّورد مَاوْنْتبَطْنْ قائلا إنّه من الأفضل التخلّي عن بعض الأجزاء الصغيرة من الشمال الغربي والشمال الشرقي، ثمّ بناء هند قويّة متماسكة. كان صاردار منبهرا بحجّة أنّ التحالف مع الرابطة الإسلاميّة سيعرّض وحدة الهند وقوّتها للخطر. بدا لي أنّ هذه الحُجج لم تبهر صاردار باتل فقط، بل بهرت جواهرلال أيضا. والحجّة نفسها التي كررها صاردار باتل واللّورد مَاوْنْتبَطْنْ هي التي أضعفت معارضة غاندي للتقسيم.

تركّز جهدي طوال الوقت على إقناع اللّورد مَاوْنْتبَطْنْ باتّخاذ موقف صارم في ما يخصّ خطّة البعثة الحكوميّة. ما دام غاندي يوافقني الرأيَ، لم أكن قد فقدتُ الأمل. أمّا الآن وقد ارتدّ غاندي، فقد أدركت أنّ اللّورد مَاوْنْتبَطْنْ لن يوافق على مقترحي. من المحتمل أيضا أنّ اللّورد مَاوْنْتبَطْنْ لم يكن منشدّا كثيرا إلى خطّة البعثة الحكوميّة بسبب أنّ الفكرة ليست من ابتداعه هو. كان يريد أن يذكره التاريخ على أنّه الرجل الذي حلّ المشكلة الهنديّة. إذا جاء هذا الحلّ عبر خطّة هندسها هو، فإنّ ذلك سيزيد من مفاخره. لذلك ليس مفاجأ أنّه ما إن لمس معارضة لخطّة البعثة الحكوميّة، حتّى رغب في تعويضها بخطّة تقسيم أعدّها حسب أفكاره الخاصّة.

الآن وقد بدا التقسيم مقبولا عموما، اكتسبت مسألة البنغال وبُنجاب

أهميّة جديدة. قال اللُّورد مَاوْنتبَطْنْ مادامت القسمة ستتمّ على أساس المناطق ذات الأغلبيّة السكّانية المسلمة، وما دامت هناك مناطق في كلّ من البنغال وبُنجاب نسبة المسلمين فيها ضعيفة جدّا، فإنّ هذين الإقليمين يجب أن يُقسّما أيضا. غير أنّه نصح قادة المؤتمر بعدم إثارة هذه المسألة في هذه المرحلة، وأكّد لهم أنّه هو الذي سيقوم بذلك في الوقت المناسب.

قبل أن يرحل غاندي إلى باتنا، ناشدته للمرّة الأخيرة. تضرّعت إليه قائلا إنّ الوضع الراهن قد يُسمح له بأن يستمرّ سنتين. إنّ السلطة الواقعيّة قد أصبحت بعْدُ في يد الهنود، وإذا تأجّل الاعتراف القانوني بنقل السلطة سنتين، قد يتمكّن المؤتمر والرابطة من الوصول إلى تسوية. كان غاندي نفسه قد اقترح هذا قبل بضعة شهور، وذكّرته أنّ فترة سنتين ليست فترة طويلة في تاريخ أمّة. إذا انتظرنا سنتين، ستُجْبَر الرابطة الإسلاميّة على التوصّل إلى تفاهم. أدركت أنه لو تمّ اتّخاذ قرار الآن، فلا مفرّ من التقسيم، لكن قد يظهر حلٌّ أفضل بعد سنةٍ أو سنتين. لم يعارض غاندي مقترحي، ولم يبدِ أيّ تحمّس له.

وحين حان الحينُ، كان اللُّورد مَاوْنْتبَطْنْ قد أعدّ مقترحاته الخاصّة حول تقسيم الهند. وقرّر أن يسافر إلى لندن للمناقشة مع الحكومة البريطانيّة، كي يضمن موافقتها على تلك المقترحات. كان يشعر أيضا أنّه قادر على كسب دعم المحافظين لمخطّطه. كان المحافظون قد عارضوا مقترح البعثة الحكوميّة لا سيما على أساس أنها لم تستجب إلى مطلب الرابطة الإسلاميّة الداعي إلى تقسيم الهند. الآن وقد بنى اللُّورد مَاوْنْتبَطْنْ مقترحه على تقسيم البلاد، فمن الطبيعي توقّع دعم السيد تشرتشل.

بعد أن أنهت اللجنة التنفيذيّة للمؤتمر جلستها المنعقدة يوم 4 مايو/ أيار، ذهبتُ إلى سِمْلا. بعد بضعة أيّام، وصل اللُّورد مَاوْنْتبَطْنْ أيضا. كان يريد أن ينعم بقسط من الراحة قبل السّفر إلى لندن. وكان يخطّط لأن يعود إلى دلهي يوم 15 مايو/ أيار، ويسافر إلى لندن يوم 18. فكّرت في القيام بمحاولة أخيرة لإنقاذ خطّة البعثة الحكوميّة، تبعا لذلك، التقيت به ليلة 14 مايو/ أيار بمقرّ

إقامة نائب الملك.

دارت بيننا مناقشات دامت أكثر من ساعة. ناشدته أن لا يقبرَ خطّة البعثة الحكوميّة. قلت له إنه ينبغي لنا أن نتحلّى بالصبر لأنّ الأمل في أن تنجح الخطّة ما زال موجودا. وإذا تسرّعنا وقبلنا القسمة، فسنؤذي الهند أذى دائما. إذا تمّ تقسيم البلاد، لا أحد يمكن أن يتنبّأ بالتبعات، ولن يكون هناك مجال للتراجع.

أخبرت اللُّورد مَاوْنْتبَطْنْ أيضا أنّ السيد آتلي وزملاءه لن يتخلّوا بسهولة عن خطّة أعدّوها بأنفسهم بعد عناء شديد. إذا كان اللُّورد مَاوْنْتبَطْنْ قد وافق أيضا وأكّد على الحاجة إلى الحذر، فمن الراجح أنّ مجلس الوزراء لن يمانع. إلى حدّ الآن كان المؤتمر هو الذي ما فتئ يصرّ على أنّ الهند يجب أن تُحرَّرَ فورا. والآن ها أنّ المؤتمر هو الذي يطالب بأن يتمّ تأجيل حلّ المشكلة السياسيّة سنةً أو سنتين. لا أحد بالطبع يمكن أن يلوم البريطانيين إذا استجابوا لطلب المؤتمر. قمت كذلك بلفْتِ انتباه اللُّورد مَاوْنْتبَطْنْ إلى جانب آخر من المسألة. إذا تصرّف البريطانيون بعجالة الآن، سيستنتج الملاحظون المستقلّون غير المنحازين، بشكل طبيعيّ، أنّ بريطانيا ترغب في منح الحرّية للهند في ظروف لا يستطيع الهنود فيها أن يستفيدوا كما ينبغي من هذا التطوّر. إنّ التسرّع والتقسيم ضدّ إرادة الهند سيثير الرّيبة حول عدم صدق النوايا البريطانيّة.

أكّد لي اللُّورد مَاوْنْتبَطْنْ أنّه سيقدّم صورة كاملة وصحيحة للإدارة البريطانيّة. وسيقدّم تقريرا أمينا عن كلّ ما سمعه ورآه طيلة الشهرين السابقين. كما أنه سيقول للإدارة البريطانيّة إنّ قسما كبيرا من المؤتمر يرغب في تأجيل التسوية سنةً أو سنتين. وأكّد لي أنّه سيخبر السيد آتلي والسير ستافورد كريبس بوجهات نظري حول الأمر. ستكون كلّ هذه المعطيات أمام الحكومة البريطانيّة عندما تتّخذ قرارها النهائيّ.

طلبتُ من اللُّورد مَاوْنْتبَطْنْ أيضا أن يأخذ بعين الاعتبار العواقب المحتملة التي ستنجرّ عن تقسيم البلاد. فمن غير أن يكون هنا تقسيم، ثمّة أعمال شغب

في كلكوتا، ونواخالي، وبيهار، وبُمباي وبُنجاب. هاجم هندوسٌ مسلمين، وهاجم مسلمون هندوسا. إذا تمّ تقسيم البلاد في مناخ كهذا ستسيل أنهارٌ من الدماء في مختلف أنحاء البلاد، وسيكون البريطانيّون هم السّبب في هذه المذبحة.

أجاب اللُّورد مَاوْنْتبَطّنْ دون أن يتردّد لحظة: «أطمئنك تماما بخصوص هذه المسألة على الأقلّ. سأعمل على أن لا يراق دمٌ ولا يُثار شغبٌ. أنا عسكريّ، ولست مدنيّا. ما إن يتمّ قبول التقسيم قبولا مبدئيّا، حتّى أُصدرَ أوامر تمنع حدوث اضطرابات طائفيّة في أيّ مكان من البلاد. وإذا حدث أدنى اضطراب، سأتّخذ إجراءات تَئِدُ المشكلة في مهْدِها. لن أستخدم الشرطة المسلّحة. بل سأصدر أوامر للجيش وللقوات الجويّة للتصرّف، وستستخدم الدبّابات والطائرات للقضاء على كلّ من تسوّل له نفسه أن يحدث قَلاقِلَ.»

أعطاني اللُّورد مَاوْنْتبَطّنْ انطباعا بأنه ذاهبٌ إلى لندن دون أن تكون لديه صورة نهائية واضحة عن التقسيم، ودون التخلّي نهائيا عن خطّة البعثة الحكوميّة. لكن الأحداث الموالية جعلتني أغيّر تقييمي للوضع. أقنعتني الطريقة التي صار يتصرّف وفقها، بعد ذلك، بأنه كان قد اتّخذ قراره، وكان مسافرا إلى لندن ليقنع الإدارة البريطانيّة بقبول مخطّطه للتقسيم. كانت الغاية من كلماته هي تبديد شكوكي لا غير. ولم يكن هو نفسه يصدّق ما يقوله لي.

العالم كلّه يعلم عاقبة إعلان اللُّورد مَاوْنْتبَطّنْ الشّجاع. عندما وقع التقسيم بالفعل، سالت أنهارٌ من الدماء في مناطق عديدة من البلاد. سُفكت دماءُ الأبرياء رجالاً ونساء وأطفالاً. كان الجيش الهندي منقسما، ولم يكن بالإمكان فعل شيء لوضع حدّ لقتل الأبرياء هندوسا ومسلمين.

15 - نهاية حلم

كان لديّ بصيصُ أملٍ في أن لا تقبل إدارة حزب العمّال بسهولة رفض خطّة البعثة الحكوميّة. فقد أعدّها ثلاثة من أعضاء الإدارة هم، في الآن نفسه، أعضاء مهمّون في الحركة العمّاليّة. صحيح أن اللُّورد باثِك-لورنس كان وقتها قد استقال من منصب كاتب دولة للشؤون الهنديّة، لكن السير ستافورد كريبس، والسيد ألكزندر لا يزالان عضوين في الإدارة البريطانيّة. لذلك كان أملي أن يقوما بمحاولة أخيرة لإنقاذ خطّتهما. ولذلك تملّكني الأسى عندما سمعت، بعد وصول اللُّورد مَاوْنْتبَطْنْ إلى لندن بقليل، أنّ الإدارة البريطانيّة قد قبلت المخطّط الذي اقترحه.

لم تُنشر تفاصيل مخطّط اللُّورد مَاوْنْتبَطْنْ بعْدُ، لكنني كنت أعرف أنه ينوي تقسيم الهند. عاد إلى دلهي يوم 30 مايو/ أيار، ويوم 3 يونيو/ حزيران أجرى مباحثات مع ممثّلين عن المؤتمر والرابطة الإسلاميّة. ويوم 3 يونيو/ حزيران صدرت وثيقة ورقة بيضاء تشرح كلّ تفاصيل المخطّط. ستجدون نصّ تصريح الحكومة البريطانيّة في الملحق رقم 5، ولا يسعني إلا أن أقول إنّ أشدّ ما كنت أخشاه قد وقعَ. كان الملْمَح الإيجابي الوحيد هو الإعلان عن أنّ السلطة ستُنقل إلى أيادٍ هنديّة يوم 30 يونيو/ حزيران 1948، لكن هذا الأمر كان قد أعلنه السيدُ آتلي ولم يكن يعني انطلاقة جديدة. كان ثمن حريّة الهند هو تقسيمها إلى دولتين.

إنّ نشر هذا التصريح يعني انتهاء كلّ الآمال في صَوْن وحدة الهند. كانت هذه هي المرّة الأولى التي تمّ فيها استبعاد خطّة البعثة الحكوميّة وقبول التقسيم رسميًا. توصّلت، أثناء محاولتي تفسير السبب الذي جعل حكومة حزب العمّال تغيّر موقفها، إلى نتيجة مؤلمة مفادها أنّ هذه الحكومة أقدمت على هذه الفعلة بدافع حماية المصالح البريطانيّة لا الهنديّة. لطالما كان حزب العمّال متعاطفا مع المؤتمر، وصرّح قادته علانية، مرّات عديدة، بأنّ الرابطة الإسلاميّة كتلةٌ رجعيّةٌ. إن إذعانها لمطلب الرابطة الإسلاميّة، في رأيي، إنما تمّ حرصا على حماية المصالح البريطانيّة أكثر منه رغبةً في إرضاء الرابطة الإسلاميّة. لو أنّ الهند نالت حريّتها وهي موحّدة حسب خطّة البعثة الحكوميّة، لكان من المستبعَد أن تحافظ بريطانيا على مكانتها في حياة الهند الاقتصاديّة والصناعيّة. إنّ دولة تحكمها الرابطة الإسلاميّة ستمنح البريطانيين مجال تأثيرٍ دائم. وكان هذا مرتبطا أيضا بالتأثير في موقف الهند. عندما تكون قاعدة بريطانيّة موجودة على حدود الهند، سيكون على الهند أن تنتبه إلى مصالح بريطانيا أكثر ممّا كانت ستفعل في ظروف أخرى.

ظلّت مسألة بقاء الهند داخل الكمّنوالث، بعد حصولها على حريّتها، مسألة مفتوحة منذ وقت طويل. كانت خطّة البعثة الحكوميّة قد تركت حسم هذه المسألة للهند الحرّة. وكنت قد قلتُ للسير ستافورد كريبس وقتها إنّ الهند الحرّة قد تختار بمحض إرادتها أن تبقى جزءا من الكمّنوالث. سيغيّر تقسيم الهند تغييرا جوهريًا الوضع لصالح بريطانيا. فدولة جديدة تشكّلت بطلب من الرابطة الإسلاميّة ملزمةٌ بالبقاء في الكمّنوالث. وإذا قامت الباكستان بذلك، ستضطرّ الهند إلى أن تفعل الشيء نفسه. من المؤكّد أنّ كلّ هذه العوامل كان لها وزنها عند حكومة حزب العمّال: لقد تعهّدت بمساندة حريّة الهند، غير أنها لم تستطع أن تنسى أن المؤتمر كان يقف دائما ضدّ البريطانيين، أثناء النضال السياسي، في حين كانت الرابطة تقف دائما في صفّهم. عندما اقترح اللّورد مَاوْنْتبَطْنْ تقسيم الهند وتأسيس دولة نزولا عند رغبة الرابطة الإسلاميّة، حُظي المقترح بردّ فعل متعاطف من قِبَل العديد من أعضاء إدارة حزب العمّال.

لا بدّ أنّ اللّورد مَاوْنتبَطّنْ قد ركّز، حسب تفسيري، على هذه النقطة عندما التقى بالحزب المحافظ. لم يعجب تشرتشل يوما بخطّة البعثة الحكوميّة. فوجد خطّة مَاوْنتبَطّنْ أقرب إلى هواه، ونزل بثقله يساندها. لا بدّ أنّ هذا الأمر قد أثّر، بدوره، في حكومة حزب العمّال، ذلك أنّ مساندة المحافظين كفيلة بأن تجعل تمرير فاتورة حريّة الهند أسهل بكثير.

اجتمعت اللجنة التنفيذيّة للمؤتمر يوم 3 يونيو/ حزيران وتدارست الوضع الجديد. كانت إحدى أولى النقاط التي أثيرت هي مستقبل الإقليم الحدودي بالشمال الغربي. خلقت خطّة مَاوْنْتبَطّنْ وضعا غريبا بالنسبة إلى الحدود. كان خان عبد الغفّار خان وحزبه يساندان المؤتمر ويعارضان الرابطة دائما. وكانت الرابطة تعتبر الأخوين خان عدوّيها اللدودين. ورغم معارضة الرابطة، تمكّن الأخوان خان من تشكيل حكومة حزب المؤتمر في الحدود، واستمرّت هذه الحكومة في العمل. سيضع التقسيم الأخوين خان وحزب المؤتمر في وضع حرج للغاية. في حقيقة الأمر، سيلقي التقسيم بالأخوين خان وحزبهما الـ"خُدَاي خِدْمَتْكَار" (خَدَمُ الله) تحت رحمة الرابطة.

كنت قد قلت إنّ انقلاب غاندي مع خطّة مَاوْنْتبَطّنْ سبّب لي صدمةً ولوعةً. تكلّم الآن علانية في اللجنة التنفيذيّة مؤيّدا التقسيم. بما أنني كنت قد خمّنت ما يجول بخاطره، فلم يأخذني كلامه على حين غرّة، لكن يمكن للمرء أن يتخيّل موقف خان عبد الغفّار خان. لقد صُعق، حتى أنه لم يقوَ على أن ينبس بكلمة مدّة دقائق. بعد ذلك، ناشد اللجنة التنفيذية وذكّرها بأنه لطالما ساند المؤتمر. ولو تخلّى المؤتمر عنه الآن، ستكون ردّة الفعل فظيعة. سيضحك منه أعداؤه، وحتّى أصدقاؤه سيقولون عندما كان المؤتمر يحتاج الحدود كان يساند الـ"خُدَاي خِدْمَتْكَار"، أما إذا رغب المؤتمر في إجراء تسوية مع الرابطة، فإنّه يتراجع عن رفضه للتقسيم دون أن يستشير الحدود وقادتها. قال خان عبد الغفّار خان، مرارا وتكرارا، إنّ إقليم الحدود سيعتبر ذلك خيانة إن رمى المؤتمر بالـ"خُدَاي خِدْمَتْكَار" للذئاب.

تأثّر غاندي بالمناشدة، وقال إنه سيثير الموضوع مع اللُّورد مَاوْنْتبَطْنْ. وفعل ذلك عندما التقى نائب الملك، وقال له إنه لن يستطيع مساندة مخطّطات التقسيم إلا متى اطمأنّ على أنّ الرابطة الإسلاميّة ستتعامل مع الـ"خُدَاي خِدْمَتْكَار" بنزاهة. كيف أمكنه أن يتخلّى عن أولئك الذين وقفوا دائما إلى جانبه في أيّام المحن والضغط؟

قال اللُّورد مَاوْنْتبَطّنْ إنّه سيناقش الأمر مع السيّد جِنّاه. ونتيجة هذه المحادثة، عبّر السيّد جِنّاه عن رغبته في لقاء خان عبد الغفّار خان. تقابلا في دلهي، غير أن الأحاديث لم توصل إلى نتيجة. ولم يكن الأمر مفاجأة. ما دام المؤتمر قد قبل التقسيم، فأيّ مستقبل بقي لخان عبد الغفّار خان وحزبه؟ كانت خطّة مَاوْنْتبَطّنْ مبنيّة على مبدإ مفاده أنّ الأقاليم ذات الأغلبيّة المسلمة ينبغي أن تُفصَل وتكوّن دولة منفصلة. كان المسلمون يشكّلون أغلبيّة سكّان الحدود. وبالتالي، كان يجب عليها أن تصبحَ جزءا من باكستان. جغرافيّا أيضا، كانت الحدود تقع ضمن المواقع المقترَحة لتكوّنَ باكستان. وفي الحقيقة، لن تكون لها أيّ نقطة اتّصال مع الهند.

كان اللُّورد مَاوْنْتبَطّنْ قد قال إنّ الأقاليم ستُمنَح فرصة الاختيار. وأعلن أنّ الحدود أيضا ستُمنَح فرصة اختيار مصيرها على أساس حقّ تقرير المصير. وعلى هذا الأساس اقترح أن يتمّ استفتاءٌ للآراء لاتّخاذ قرار ما إذا كانت الحدود ستنضمّ إلى باكستان أم إلى الهند. انضمّ د. خان صاحب الذي كان لا يزال يشغل منصب رئيس وزراء الحدود إلى اجتماع اللجنة التنفيذيّة في هذه المرحلة. كان اللُّورد مَاوْنْتبَطّنْ قد أعلمه بنيّته إجراء استفتاء شعبيّ، وسأله إن كان لديه أيّ اعتراض. كان د. خان صاحب يشغل منصب رئيس وزراء لأنه ادّعى أنّه يحظى بتأييد الأغلبيّة. وبالتالي، لم يكن باستطاعته أن يعارض مقترح الاستفتاء العامّ. غير أنّه أثار مسألة جديدة. قال إذا كان سيجرى استفتاء شعبيّ، فإنّ بشتون الحدود ينبغي أن يُمنحوا الحقّ في اختيار بشتونستان دولةً خاصّة بهم.

حقيقة الأمر أنّ الأخوين خان لم يكونا يتمتّعان في الحدود بالقوّة التي ادّعيا أنّهما يتمتّعان بها. تضاءل تأثيرهما عندما بدأت الاضطرابات بسبب التقسيم. الآن وقد صارت باكستان تلوح في الأفق، ومُنّيت الأقاليم ذات الأغلبيّة المسلمة بفرصة تكوين دولة مستقلّة، سَرَتْ ثورة انفعاليّة في أرجاء الحدود. ازدادت قوّة الحركة من أجل باكستان بنشاط الضبّاط البريطانيين الذين ساندوا باكستان علنا، وأقنعوا أغلب شيوخ القبائل في الحدود بالوقوف في صفّ الرابطة الإسلاميّة.

رأى د. خان صاحب أنّ فرصته الوحيدة للإبقاء على منصبه القياديّ في الحدود هو إثارة المطالبة ببَشتونستان. كان العديد من البشتون سيفضّلون دولةً صغيرة خاصّةً بهم، فقد كانوا يخشون سيطرة بُنجاب. غير أنّ اللّورد مَاوْنْتبَطّنْ لم يكن مستعدّا لسماع أيّ مطلب جديد. كان يريد أن يدفع بمخطّطه إلى الأمام في أسرع وقت ممكن، ومسألة بشتونستان حرّة لم تحظ حتّى بأن تناقش بالتّفصيل.

ولأنّ هذه الفرصة كانت هي الفرصة الأخيرة التي يشارك فيها الأخَوان خان في النقاش مع المؤتمر، يمكنني في هذه المرحلة أن ألخّص باقتضاب ما حصل لهما مباشرةً قبل التقسيم وبعده. عندما تفطّنا إلى أنّ المؤتمر قد أصبح الآن ملتزما بالتقسيم، لم يعرفا ماذا يفعلان. لم يكن باستطاعتهما رفض الاستفتاء العامّ، فذلك سيعني الاعتراف بعدم مساندة شعبهما لهما. فعادا إلى بيشاور، وبعد التشاور مع أصدقائهما، رفعا شعار استقلال الحدود.

كانت اللجنة التنفيذيّة للمؤتمر قد صادقت على قرار مؤتمر الحدود الذي يسمح لخان عبد الغفّار خان بأن يتّخذ أيّ إجراء يراه ضروريّا للتعامل مع الوضع في الإقليم. صار مؤتمر الحدود يطالب الآن بتأسيس دولة بشتونيّة مستقلّة لها دستورٌ مُصاغ على أساس التصوّر الإسلامي للديمقراطيّة والمساواة والعدالة الاجتماعيّة. قال خان عبد الغفّار خان مفسّرا موقفه، إنّ بشتون الحدود لهم تاريخهم الخاصّ المنفصل، وهذا التاريخ لا يمكن صيانته إلا إذا

كانت لهم الحرّية المطلقة لإدارة مؤسساتهم الخاصّة وتطويرها. لذلك طالب بأن لا يقوم الاستفتاء على أساس الاختيار بين الباكستان والهند، ولكن ينبغي أن يكون هناك بديل ثالث وهو بَشْتونستان مستقلّة. هذه الطريقة، لا غير، يمكنها أن تجعل الاستفتاء نزيها وممثّلا حقّا لرغبة الشعب. إذا لم يتمّ هذا، سيصبح الاستفتاء بلا معنى لأنّ البشتون سيضيعون وسط بقيّة العناصر المكوّنة لباكستان. هناك بعض الأسباب التي تدفع إلى الاعتقاد أنه لو شمل الاستفتاء مسألة بَشْتونستان حرّة، ربّما صوّت لصالحه عددٌ كبيرٌ، إن لم نقل أغلبيّة الحدوديين. كانوا يخشون أن تستوعبهم بُنجاب، وهذا الأمر وحده كان كفيلا بأن يجعلهم يميلون نحو التصويت ضدّ باكستان.

لكن لم يكن السيد جنّاه ولا اللّورد مَاوْنْتبَطْنْ مستعدّين لقبول هذا الطلب. أوضح اللّورد مَاوْنْتبَطْنْ أنّ إقليم الحدود لا يمكنه أن يشكّل دولة منفصلة مستقلّة، لكن يجب أن ينضمّ، إمّا إلى الهند أو إلى باكستان. عندها أعلن الأخوان خان أنّ حزبهما لا يمكنه أن يشارك في الاستفتاء، وناديا البشتون إلى مقاطعته. غير أنّ معارضتهما لم تُجْدِ نفعا. تمّ الاستفتاء، وصوّتت أغلبية الشعب لصالح باكستان. لو لم يقاطع الأخوان خان الاستفتاء، ولو عمل أنصارهما بجديّة، لا يمكن لأحد أن يعلم عِلْمَ اليقين ماذا كانت ستكون النتيجة. غير أن النتيجة كانت في صالح الرابطة الإسلاميّة، وقبلتها الحكومة البريطانيّة على الفور.

بعد أن تمّت القسمة بالفعل، عدّل الأخوان خان موقفهما تماشيا مع متطلّبات الوضع. أعلنا أنّ مطالبتهما ببشتونستان حرّة لا يعني تأسيس دولة منفصلة، وإنّما الاعتراف بالحكم الذاتي التامّ للحدود باعتبارها جزءا من باكستان. شرحا أنّهما يرميان إلى دستور باكستاني يضمن الاستقلال الداخلي الإقليمي التامّ لوحداتها، وبذلك يضمنون حياة اجتماعيّة وثقافيّة آمنة للبشتون. بدون هذه الإجراءات الوقائيّة، ستسيطر بُنجاب على باكستان كلّها وتحرم البشتون وأقليات أخرى من حقوقهم المشروعة.

علينا أن نعترف أنّ هذا المطلب الذي تقدّم به الأخوان خان منطقيٌّ

جدّا. وهو يتماشى مع القرار الذي صادقت عليه الرابطة الإسلاميّة نفسها في لاهور، ولم تحوّره أبدا. وبالتالي لم يكن لدى السيد جِنّاه أيّ تبرير عندما اتّهم الأخوين خان بأنّهما يريدان الانفصال عن باكستان. في الواقع، لقد كان خان عبد الغفّار خان قد أجرى العديد من المحادثات معه في كاراتشي، وفي مرحلة ما، بدا وكأنه سيتمّ التوصّل إلى حلّ. قال بعض الملاحظين في باكستان إنّ جِنّاه انبهر بصدق خان عبد الغفّار خان، وعقد العزم على الذهاب إلى بيشاور ليلتقي به هو وأعضاء لجنته التنفيذية. غير أن ذلك لم يحصل. فسرعان ما سمّم أعداء الأخوين السياسيين ذِهْنَ جِنّاه، وحفزوه ضدّهما. كان خان عبد القيّوم خان الذي كان قد شكّل الوزارة في الحدود، معارضا بطبعه لأيّ مصالحة بين جِنّاه والأخوين خان. لذلك تصرّف بشكل يجعل أيّ تفاهُم مستحيلا. وحقيقة الأمر أن هذه الحكومة تصرّفت بدون أدنى لياقة أو عدالة، وسحقت الـ"خُدَاي خِدْمَتْكَار" باستخدام كلّ أصناف الاجراءات غير القانونية وغير العادلة. تمّ دَوْسُ الديمقراطية وصارت القوّة، اليوم، تحصيلا حاصلا. اعتُقل خان عبد الغفّار خان، ود. خان صاحب، وكلّ قادة الـ"خُدَاي خِدْمَتْكَار" الآخرين دون أيّ تهمة قانونية، ودون أيّ محاكمة. قبعوا في السجن طيلة ستّ سنوات تقريبا. أصبح ثأر خان عبد القيّوم خان مريرا إلى درجة أن البعض من أعضاء الرابطة الإسلامية شعروا بالقَرَف، وقالوا إمّا أن تتمّ مقاضاة الأخوين خان أو يقع الإفراج عنهما. غير أن كلّ هذه الجهود باءت بالفشل. فالقمع الخارج عن القانون كان يُمارس باسم القانون.

اجتمعت لجنة مؤتمر كلّ الهند يوم 14 يونيو/ حزيران 1947. حضرتُ العديد من الاجتماعات، لكن هذه الجلسة هي أغرب جلسة شاء حظّي السيء أن أحضرها. صار المؤتر الذي ما فتئ يناضل من أجل وحدة الهند وحرّيتها يتدارس الآن قرارا رسميّا بتقسيم البلاد. أثار بانديت جُوفيند بالاَّبَه بانتْ القرار، وبعد أن تحدّث في شأنه صاردار باتل وجواهرلال، كان على غاندي أن يتدخّل.

كان من المستحيل، بالنسبة إليّ، أن أقبل هذا الاستسلام الخسيس من جانب المؤتمر. قلت في كلمتي بوضوح إنّ القرار الذي وصلت إليه اللجنة التنفيذيّة هو نتيجة لأكثر التطوّرات شؤما. التقسيمُ مأساة على الهند، والشيء الوحيد الذي يمكن قوله بصدده هو أننا كنّا قد فعلنا ما بوسعنا لتفادي التقسيم لكننا فشلنا. والآن لم يعد أمامنا خيار، وإذا كنّا نريد الحرّية هنا والآن، علينا أن نرضخ لقرار تقسيم الهند. لكن يجب أن لا ننسى أنّ الأمّة واحدة، وثقافتها واحدة، وستظلّ واحدة. لقد فشلنا سياسيًا، وبالتالي صرنا نقسّم البلاد. ينبغي أن نقبل هزيمتنا، ولكن ينبغي، في الوقت ذاته، أن نضمن أنّ ثقافتنا لا تقسّم. إذا أدخلنا عصا في الماء، قد يبدو لنا أننا قسمنا الماء، لكن الماء يظلّ على حاله، ولحظة نَسْحَب العصا، حتّى أثر القسمة يختفي.

لم يعجب كلامي صاردار باتل. فكرّس كلمته كلّها تقريبا في محاولة دحْض ما قلتُه. حاجَجَ قائلا إنّ قرار التقسيم لم ينبع من الفشل ولا من الإكراه، لكنه القرار الحقيقيّ الوحيد في ظلّ الظروف الراهنة في الهند.

كان ثمّة بعض عناصر الملهاة حتّى في خضمّ هذه المأساة العظمى. كان هناك مجموعة من الأعضاء داخل المؤتمر يدّعون أنّهم قوميّون لكنهم في حقيقة الأمر طائفيّون جدّا في تصوّراتهم. كانوا دائما يحاججون أنّ الهند ليس لها ثقافة موحّدة ويعلنون أنّه مهما قال المؤتمر، فإن الحياة الاجتماعيّة للهندوس تختلف تماما عن الحياة الاجتماعيّة للمسلمين. ربّما كان أكثر الأعضاء حديثا هو شري بورُشُطّمْداس تَنْدون. وكانت المفاجأة أنه صعد إلى المنصّة باعتباره أكبر مدافع عن الوحدة الهنديّة.

وقف شري تَنْدون ضدّ القرار بشراسة، والدافع الذي قدّمه هو أنّه لا يمكن الفصل بين حياة الهند القوميّة وحياتها الثقافيّة. وافقته على ما قاله. لم يكن لديَّ شكٌّ في أنّ ما قاله الآن صحيح. لكنني لم أستطع أن أنسى أنه هو وزملاؤه قد أمضوا حياتهم في معارضة وجهة النظر هذه. كان من الغريب أن نراهم اليوم يطلقون، في الرمق الأخير، صرخةَ لا لتقسيم الهند.

بعد مناقشات اليوم الأوّل، كان هناك شعور قويّ ضدّ قرار اللجنة التنفيذيّة. لم تقدر مهارة مَاوْنْتبَطّنْ في الإقناع، ولا بلاغة صاردارباتل أن تقنع الناس بالموافقة على هذا القرار. وكيف لهما أن ينجحا في ذلك وهو قرارٌ يتنكّر، بمعنى ما، لكلّ ما كان المؤتمر قد قاله منذ تأسيسه؟ تبعا لذلك، صار لا بدّ أن يتدخّل غاندي في النقاش. ناشد الأعضاء أن يساندوا اللجنة التنفيذيّة. وقال إنه كان يقف دائما ضدّ التقسيم، ولا يستطيع أحدٌ أن ينكر ذلك الأمر. لكنه شعر أنّ وضعا جديدا قد خُلِقَ الآن لم يعد يترك بديلا آخر. قال إنّ الواقعيّة السياسيّة تقتضي قبول خطّة مَاوْنْتبَطّنْ، وناشد الأعضاء أن يقبلوا القرار الذي تقدّم به بانديت بانت.

عندما قُدِّم القرار للتصويت، صوّت 29 عضوا لصالحه، و15 ضدّه. حتّى مناشدة غاندي لم تَقْوَ على إقناع عددٍ أكبر من الأعضاء بالموافقة على تقسيم البلاد.

لا شكّ في أنّ المصادقة على القرار قد تمّت، لكن كيف كانت حال أفئدة الشعب؟ امتلأت كلّ القلوب بالضّغينة أمام فكرة التقسيم. بالكاد كان يُمكن لأحدٍ أن يقبل هذا القرار دون تحفّظات أخلاقيّة. حتّى أولئك الذين قبلوا التقسيم كانت كلّ عواطفهم ضدّه. كان هذا الأمر مؤذيا بما فيه الكفاية. لكنّ الحملة الدعائيّة الطائفيّة الغادرة التي كانت تُوسّع من دائرة انتشارها كانت أشدَّ منه أذيّةً. صار يُقال جهارا في دوائر المؤتمر إنّه لا داعي لأن يخشى الهندوس الموجودون في باكستان شيئا، فسيكون هناك أربعة كرور ونصف من المسلمين في الهند، ولو تمّ أيّ اضطهاد للهندوس في باكستان، فإنّه سيكون على مسلمي الهند أن يدفعوا الثمن.

عارض الأعضاء القادمون من السِّند القرارَ بشراسةٍ أثناء اجتماع حزب المؤتمر الوطنيّ الهنديّ. مُنِحُوا جميع أشكال التطمينات. وقيل لهم في المباحثات الخاصّة، رغم أنّ ذلك لم يتمّ في العَلَن، إنهم إذا أحسّوا أيّ ضَيْمٍ أو مهانةٍ في باكستان، ستقابِل الهندُ الأذى بِمِثْلِهِ وتؤذي المسلمين في الهند.

صُعِقْتُ حالما أصبحت واعيا بمثل هذه المقترحات. أدركت، للتوّ، أنّ هذا الشعور المعادي يشكّل خطرا يمكن أن تنجرّ عنه تبعات بعيدة المدى. فهو يعني أنّ التقسيم كان يُقْبَلُ على أساس وجود رهائن في كلٍّ من الهند وباكستان، وأنّ هؤلاء الرهائن سيتحمّلون مسؤوليّة أمن الأقليّة الطائفية الموجودة في البلد الآخر. بدت لي فكرة استخدام الأخذ بالثأر أسلوبا في حماية حقوق الأقليّات، فكرة وحشيّة. وقد أثبتت الأحداث الموالية صدق توقّعاتي. فقد نبع شلاّل الدم الذي سال بعد التقسيم على جانبي الحدود الجديدة من هذا الإحساس بوضع الرّهينة والثأر.

أدرك بعض أعضاء المؤتمر مدى خطر مثل هذه النظريّات. أذكر بالخصوص كيران شَنْكار رُويْ وهو أحد قادة المؤتمر في البنغال، فقد كان أوّل من أحاطني علما بالأمر. وتكلّم أيضا مع أشاريا كريبالاني الذي كان رئيس المؤتمر في ذلك الوقت، وقال له إنّ هذه النظريّة من أشدّ النظريّات خطورة. وما إن نسمح لهذا الشعور أن ينمو حتّى يقود إلى قمع الهندوس في باكستان والمسلمين في الهند وقتلهم. ولكن لا أحد أعار كلام كيران شَنْكار رُويْ أيّ اهتمام. بل إنّ العديدين سخروا منه بسبب مخاوفه. وقالوا له أيضا عندما تقسَّم الهند، علينا أن نقبل نظريّة الرهائن. وحاججوا أنّ هذه هي الطريقة الوحيدة التي تضمن حماية هندوس باكستان. لم يقتنع ك. ش. رُويْ، وجاءني وهو موشكٌ على البكاء. لم يقبل أبدا التطمينات التي قدّمها بعض قادة المؤتمر، وعاش ليرى أسوأ مخاوفه تتحقّق.

كان البريطانيّون قد حدّدوا في البداية فترة خمسة عشر شهرا لإتمام الترتيبات اللاّزمة لنقل السلطة. في حقيقة الأمر، كان السيد آتلي قد قال صراحة يوم 20 فبراير / شباط 1947 إنّ الحكومة البريطانيّة قد عقدت العزم على تفعيل نقل السلطة إلى أيادي مسؤولين هنود في تاريخ لا يتجاوز يونيو/ حزيران 1948. غير أنّ أحداثا كثيرة قد حدثت ما بين يوم 20 فبراير / شباط ويوم 3 يونيو/ حزيران. الآن وقد تمّ قبول خطّة التقسيم، أعلن اللورد مَاوْنْتبَطّنْ

أنّه ينبغي تفعيل المخطط في أسرع وقت ممكن. ربّما كانت دوافعه مختلطة. فمن ناحية كان يتمنّى أن ينقل البريطانيّون المسؤوليّة إلى أيادي الهنود في أسرع وقت ممكن. ومن ناحية أخرى ربّما كان يشعر أنّ التأجيل قد يتسبّب في عوائق جديدة ستعرقلُ خطّته. فقد أظهر مصير خطّة البعثة الحكوميّة أنّ تأجيل التطبيق قد أدّى إلى بروز شكوكٍ، وأدّى، في نهاية المطاف، إلى رفض الخطّة.

حدّد اللورد مَاوْنْتبَطْنْ لنفسه مدّة ثلاثة أشهر يقوم خلالها بإنجاز مهمّة تقسيم الهند. لم تكن تلك مهمّة سهلة، وأنا عبّرت جهارا عن شكوكي في إمكانيّة إنجاز خطّة بهذا القدر من التعقيد في مدّة وجيزة كهذه. يجب أن أثني على اللورد مَاوْنْتبَطْنْ للفعالية والاقتدار اللذان أدار بهما مهمّته. كان لديه حرصٌ كبيرٌ على التفاصيل وسرعةٌ كبيرةٌ في الفهم إلى درجة أنّ جميع المشاكل حُلّت في أقلّ من ثلاثة أشهر، وفي أغسطس/ آب 1947 قُسّمت الهند إلى دولتين.

سأعطي مثالا عن الأسلوب البارع الذي انتهجه اللورد مَاوْنْتبَطْنْ في حلّ مختلف المشاكل الصعبة التي واجهته والمرتبطة بتأسيس دولتين. ما إن انتشر خبر تقسيم الهند، حتّى بدأ الهندوس والمسلمون يطالبون بمطالب مبالغ فيها. وقعت بعض أعمال الشغب المتفرّقة عبر أرجاء البلاد. المذبحة الكبيرة التي وقعت في كلكوتا سنة 1946 تلتها أعمال شغب في نواخالي وبيهار. كانت أعمال الشغب قد بدأت في بُنجاب منذ شهر مارس. بعد أن كانت الاضطرابات في البداية محصورة في لاهور، انتشرت وسرعان ما مزّقت المعارك مناطق كبيرة داخل روالْبِنْدِي وحولها. في حقيقة الأمر، لقد تحوّلت لاهور إلى أرض معركة، يتنازعها الطائفيّون الهندوس والمسلمون. بذل ممثّلون عن الهندوس والسّيخ قصارى جهودهم لإقناع المؤتمر بأنّ لاهور يجب أن تظلّ جزءا من الهند. أشاروا إلى أنّ حياة بُنجاب السياسيّة والاقتصاديّة متمركزة في لاهور، وإذا صارت لاهور جزءا من باكستان، فإنّ بُنجاب ستصاب بشللٍ دائم. لذلك مورست العديد من الضّغوطات على المؤتمر حتّى يجعل من لاهور قضيّة. لم يوافق المؤتمر على مقترحهم، وقال إنّه يجب حسم المسألة حسب رغبات الشعب.

ظنّت بعض فصائل المسلمين والهندوس والسّيخ أنّ مسألة لاهور يمكن أن تُحسم باللجوء إلى العنف. كان الهندوس، عموما، هم الطبقة التي لديها ممتلكات داخل لاهور وحولها. اعتقد المسلمون أنّهم قادرون على إلحاق أكبر أذى بالهندوس عندما يدمّرون ممتلكاتهم ويهاجمونهم على الجبهة الاقتصاديّة. فأضرموا النار في المصانع والبيوت، ونهبوا ممتلكات غير المسلمين بشكل عشوائيّ. ردّت بعض فصائل الهندوس في لاهور بقتل مسلمين. كان الهندوس أثرياء، وتصوّروا أنّ مثل هذه الهجومات قد تجعل المسلمين يفرّون من لاهور، مما يضمن لهم أغلبيّة هندوسيّة. قيل جهارا إنّ بعض القادة الكبار للأحزاب الطائفيّة كانوا متورّطين، بشكل مباشر أو غير مباشر، في هذا النزاع الذي يعتدي فيه طرفٌ على الممتلكات، فيقوم الآخر بإزهاق الأرواح. وهكذا صار الجميع يعلمون كما أصبحوا مقتنعين بأنّ قادة الرابطة الإسلاميّة الإقليميين والمركزيين كانوا ينظّمون هجومات ضدّ الهندوس. وبالمقابل، كان قادة منظّمة الماهاصبها الهندوسيّة متّهمين بتأليب الهندوس ضدّ المسلمين.

جَدَّ في كَلكوتا وضعٌ يكاد يكون مماثلا. أصرّ مناصرو الرابطة الإسلاميّة على أنّ كَلكوتا يجب أن تتبع باكستان، في حين كان كلّ من يقف ضدّ الرابطة يهفو إلى أن تبقى كَلكوتا جزءا من الهند.

في ظلّ هذا الوضع، استغلّ اللورد مَاوْنْتبَطْنْ الفرصة لتقسيم بُنجاب والبنغال. اتُّخِذَ قرارٌ بأن تُجرى انتخاباتٌ في المجلس التأسيسي تحسم مسألة ما إذا كانت الأقاليم ستقسّم أصلا أم سيتمّ ضمّها كاملة، إمّا إلى الهند أو إلى باكستان. صوّت مَجْلِسَا كلٍّ من البنغال وبُنجاب لصالح التقسيم، فصار من الضروري أن نقرّر ما سَيَحُدُّ بين الإقليمين الجديدين. عيّن اللورد مَاوْنْتبَطْنْ لجنة حدود لتهتمّ بهذه المسألة، وطلب من السيد رادكْلِفْ أن يتولّى المهمّة. كان السيد رادكْلِفْ في سِمْلا وقتها. فقبل التعيين، لكنه اقترح أن يبدأ دراسة الموضوع في بداية شهر يوليو/ تمّوز. أشار إلى أنّه سيكون من الصعب إجراء دراسة ميدانيّة في بُنجاب في حرارة شهر يونيو/ حزيران، وفي جميع الحالات

فإنّ إجراءها في شهر يوليو/ تمّوز يعني تأجيلها ثلاثة أو أربعة أسابيع. قال له اللورد مَاوْنْتبَطّنْ إنّه ليس مستعدًا للتأجيل يوما واحدا، ولا مجال لقبول أيّ مقترح يخصّ التأجيل ثلاثة أو أربعة أسابيع. فتمّ تطبيق أوامره. هذا المثال يعطي فكرة عن العجلَة والسّرعةِ التي كان اللورد مَاوْنْتبَطّنْ يعمل بها.

المشكلة الثانية التي صادفت اللورد مَاوْنْتبَطّنْ هي تقسيم الأمانة العامّة وممتلكات حكومة الهند. كانت هناك صعوبات حتّى مع الأقاليم التي كانت قد انضمّت كاملةً إلى إحدى الدولتين. فقد كان يجب فصل سجلات الأقاليم التي صارت تتبع باكستان، وإرسالها إلى باكستان. كان الأمر أكثر صعوبة بالنسبة إلى الأقاليم التي تمّ تقسيمها. أشرف اللورد مَاوْنْتبَطّنْ شخصيّا على أغلب الترتيبات، وكانت اللجنة التي عيّنها للغرض تحلّ كلّ مشكلة ما إن تُطرح.

في ما يخصّ الجيش، تقرّر أن يكون لباكستان ربعه، فيما تكون للهند ثلاثة أرباعه. طُرحت مسألة ما إذا كان ينبغي أن يُقسّمَ الجيش الآن، أو يشتغل طيلة سنتين أو ثلاث سنوات تحت قيادة موحّدة. نصح ضبّاط الجيش أن تبقى الأركان العامّة مشتركة طيلة هذه الفترة. أبهرتني حجّتهم، وساندتهم. كانت لديَّ أسبابي الخاصّة إلى جانب الأسباب التي قدّمها اللورد مَاوْنْتبَطّنْ. كنت أخشى أن تتلو التقسيم اضطرابات وأعمال شغب. شعرت بأنّه، في سياق كهذا، يمكن لجيش موحّد أن يحمي الهند جيّدا. كانت الأمور واضحة في ذهني: يجب أن لا نُدخل الانقسامات الطائفيّة إلى الجيش إذا كنّا نريد أن ننقذ الموقف. إلى حدّ الآن لم تكن قد وُجدت قطُّ أيّ مشاعر طائفيّة داخل الجيش. إذا أبعدنا الجيش عن السياسة، ضمنّا انضباطه وحياده. لذلك حثثتُ على خيار الجيش الموحّد، وأرغبُ في أن أشير إلى أنّ اللورد مَاوْنْتبَطّنْ ساند موقفي مساندة كليّة. أنا على يقين من أنه لو ظلّ الجيش موحّدا، لأمكننا تفادي أنهار الدم التي سالت بعد الاستقلال مباشرة.

يؤسفني أن أقول إنّ زملائي لم يوافقوني الرأيَ، وعارضوني بشدّة. كان أكثر ما فاجأني هو معارضة راجندرا برازاد. لقد كان داعية للسلام، متشبّثا

باللاّعنف. وها هو الآن يأخذ بزمام المبادرة في الإصرار على تقسيم الجيش. قال إذا تمّ تقسيم الهند إلى دولتين، فإنّ جيشا موحّدا لا ينبغي أن يستمرّ ولا يستطيع أن يستمرّ يوما واحدا.

أظنّ أنّ ذلك القرار كان خطيرا. فقد قُسّمَ الجيش على أساس الطوائف. ذهبت الوحدات المسلمة إلى باكستان، وبقي الهندوس والسّيخ في الهند. حقَنَتْ هذه الفعْلَةُ سمّ الطائفيّة في صفوف الجيش الذي ظلّ، حتّى ذلك الحين، سالما منه. وعندما سالت دماء الأبرياء رجالا ونساء على جانبَي الحدود بعد يوم 15 أغسطس/ آب، ظلّ الجيش متفرّجا سلبيّا. والأسوأ من ذلك أنّ بعض عناصر الجيش شاركوا أحيانا في النّزاع.

قال لي اللورد مَاوْنْتبَطّْنْ، بنبرة أقرب إلى الحزن منها إلى الغضب، إنّ عناصر من الجيش الهندي أرادت أن تشارك في قتل مسلمين في شرق بُنجاب، غير أنّ الضباط البريطانيّين صدّوهم بصعوبة. هذه رواية اللورد مَاوْنْتبَطّْنْ للخبر، لكنني لست متأكّدا من مدى صحّة هذا الخبر عن الضباط البريطانيين. أمّا ما أعرفه معرفة شخصيّة فهو أنّ عناصر من جيش الهند السابق قتلوا، قبل تقسيمه، هندوسا وسيخا في باكستان ومسلمين في الهند. تكدّر صفو الأسطورة الرائعة لجيش الهند، وحلّ العار محلّ سجلّ فخاره حتى الآن.

في ما يخصّ الخدمات، اقترحت أن لا يتم تقسيمها على أساس طائفيّ. لقد أجبرتنا الضرورة السياسيّة على قبول تقسيم البلاد، ولكن ليس هناك من داعٍ لاجتثاث جذور مسؤولي الحكومة من مواطنهم. شعرت بأنّه يجب الإبقاء على الموظّفين في أقاليمهم. وبالتالي ينبغي أن يبقى الموظّفون القادمون من غرب بُنجاب، ومن السند أو شرق البنغال، مهما كانت طائفتهم، في باكستان. كما ينبغي أن يخدم الموظّفون الذين ينتمون إلى الأقاليم الهنديّة الهندَ بصرف النظر عن كونهم هندوسا أو مسلمين. كانت فكرتي هي أننا إذا استطعنا أن نجعل الانفعالات الطائفيّة بعيدة عن الخدمات، على الأقلّ، فسنحافظ على مناخ أفضل في كلتا الدولتين. هكذا تكون الإدارة بمنأى عن الانفعالات الطائفيّة

وتشعر الأقلّيات في كلتا الدولتين بأمانٍ أكبر. يؤسفني أن أقول إنّ تضرّعاتي ذهبت سُدًى. فقد اتُّخذ قرارُ مَنْح جميعِ موظّفي الدّولة الحقَّ في أن يختاروا بين الانضمام إلى الهند أو إلى باكستان. كانت النتيجة أنّ جميع الهندوس والسّيخ، بدون استثناء تقريبا، اختاروا الانضمام إلى الهند، في حين اختار المسلمون باكستان.

ناقشت هذه المسألة بالتفصيل مع اللورد مَاوْنْتبَطْنْ؛ ونبّهتُ إلى مدى خطورة تقسيم الجيش والخدمات على أساس طائفيّ. وافقني اللورد مَاوْنْتبَطْنْ الرّأيَ وفعل ما بوسعه ليدعم موقفي. لم يحظ بأيّ قسطٍ من النّجاح في ما يتعلّق بالجيش. أمّا في ما يتعلّق بالمدنيّين، فقد كانت النتيجة الوحيدة لمساعيه هي أنّ الموظّفين صار لديهم الحقّ في الاختيار إما بشكل دائم أو مؤقّت. لن تكون هناك أيّ مشكلة بالنسبة إلى أولئك الذين سيختارون بشكل دائم. ومُنح أولئك الذين اختاروا الخيار المؤقّت حقّ مراجعة قراراهم في غضون ستّة أشهر. تعهّدت كلتا الدّولتان باسترداد أولئك الذين يختارون أن يراجعوا قراراتهم بهذه الطريقة. يجب عليّ أن أقول، للأسف الشّديد، إنّ منكودي الحظّ الذين اختاروا الوضع المؤقّت، لم تتمّ معاملتهم بنزاهة في كلتا الدّولتين.

يؤسفني أيضا أن أقول إنّ الرابطة الإسلاميّة تصرّفت بحُمق، وبعمى، حتّى في مسألة ممارسة الخيار. حثّت كلّ المسلمين على اختيار باكستان وترك الهند. في ذلك الوقت، كان عدد كبير من المناصب الرئيسيّة في يد المسلمين. حثّتهم الرابطة الإسلاميّة جميعا على أن يغادروا الهند. أولئك الذين لم يبدوا موافقة حقيقيّة شعروا بالخوف من كلّ ما بلغهم عمّا سيكون مصيرهم ما إن يصل المؤتمر إلى سلطة لا منازع له فيها. ولمّا كانت إشاعات مثل هذه تثير بعضا من التوتّر بين الموظّفين المسلمين، فقد حثثتُ حكومة الهند على إصدار منشور يوضّح موقفها. وافقني مَاوْنْتبَطْنْ وجواهرلال الرأي موافقة تامّة، وبالفعل تمّ إصدار منشور يُطَمْئِن الموظّفين من المسلمين والأقليات الأخرى أنّهم إذا بقوا للعمل في الهند لن ينالوا حقوقهم فحسب، بل إنّهم سيعامَلون بكرم.

كانت نتيجة هذا المنشور أنّ عددا من الموظّفين المسلمين في الأمانة العامّة المركزيّة استعادوا ثقتهم، وقرّروا البقاء في الهند. عندما علم قادة الرابطة الإسلاميّة بهذا الأمر، شرعوا في التحقيق حول الموظّفين الحكوميين الذين يرغبون في البقاء. كانوا، من ناحية، خائفين مما يخبّئه لهم المستقبل، ومن ناحية أخرى كانوا مُهَدَّدين بأنّهم إذا ظلّوا في الهند، ستعتبرهم الرابطة الإسلاميّة وحكومة باكستان أعداء، وتضايقهم بجميع أشكال المضايقات.

كان العديد من هؤلاء الموظّفين الحكوميين قادمين من أقاليم كانت ستصبح جزءا من باكستان. حين أدركوا أنّ الرابطة الإسلاميّة تتوعّد بأن تثأر من أقاربهم وممتلكاتهم في باكستان، انزعجوا كثيرا. كان يوجد، في وزارتي ذاتها، عددٌ من الموظّفين المسلمين الذين يشغلون مناصب مرموقة، كانوا قد اختاروا البقاء في الهند لقوّة الضمانات التي أعطيتها لهم، لكن عندما كشفت الرابطة الإسلاميّة عن تهديداتها ضدّ عائلاتهم وممتلكاتهم، جاؤوا إليّ باكين وقالوا: "كنّا قد قرّرنا البقاء في الهند، لكن بعد تهديد الرابطة الإسلاميّة، من المستحيل علينا فعل ذلك. إنّ أفراد عائلاتنا في غرب بُنجاب، ولا يمكننا أن نسمح بأن يتعذّبوا. وبالتالي فنحن مجبرون على اختيار باكستان."

لم تكن فِعْلَةُ الرابطة الإسلاميّة المتمثّلة في إخراج كلّ الموظّفين الحكوميين المسلمين من الهند حمقاء فحسب، بل كانت مُؤذيةً أيضا. لقد كانت، في الواقع، أشدّ إيذاء للمسلمين منها للهند ككلّ. الآن وقد تمّ قبول التقسيم وبدأ تأسيس باكستان، بدا بوضوح أنّ المسلمين سينعمون بجميع الحظوظ في الدولة الجديدة. وبالإضافة إلى ذلك، لو عمل بعض المسلمين في الهند فإن هذا لن يكون في مصلحتهم الشخصية فحسب، بل سيكون كسبا للطائفة بأكملها. لو وُجِدَ مسلمون في بعض مناصب القرار لأعطى ذلك الأمر ضمانا أكثر للطائفة ولبدّد العديد من مخاوفها اللاّمنطقية. كنتُ قد ذكرتُ سابقا كَمْ أن الرابطة قد تصرّفت بشكل أحمق حين أصرّت على التقسيم. إن موقف الرابطة تجاه الموظّفين الحكوميين المسلمين كان مثالا آخر على ذلك الحمق.

قُرِّر أن يتمّ تفعيلُ السلطة الهندية يوم 15 أغسطس/ آب 1947. فقرّرت الرابطة أن يكون تأسيس باكستان قبل ذلك التاريخ بيوم أي يوم 14 أغسطس/ آب. وقع حدثٌ غير سارّ حتى عند ميلاد السلطتين. كانت الاتفاقية تنصّ على أن كلّ سلطة يمكنها أن تختار حاكمها العامّ، وكانت العديد من السلط قد عيّنت أحد مواطنيها في هذا المنصب. وبالتالي كانت الهند حرّة في أن تختار هنديّا كي يكون أول حاكم عامّ دستوريٍّ للهند. غير أننا شعرنا أنه من الأفضل أن لا نحدث تغييرا مفاجئا، وشعرنا أن تعيين اللورد مَاوْنْتبَطِّنْ سيؤدّي إلى استمرارية في السياسة والإدارة. فكّرنا أيضا أنه في المراحل الأولى، سيكون هناك حاكمٌ عامّ واحدٌ لجميع السلط، ويمكن إجراء أيّ تغيير في ما بعد. وكان التفكير السائد عموما أن باكستان ستتأثر بالاعتبارات نفسها.

لذلك أعلنا أن اللورد مَاوْنْتبَطِّنْ هو خيارنا لتولّي منصب حاكم عامّ. توقّعنا أن ترشّحه الرابطة، لكن الرابطة أحدثت المفاجأة، في اللحظة الأخيرة، وذلك بأن اقترحت أنه ينبغي تعيين السيد جِنّاه أوّل حاكم عامّ لباكستان. ما إن سمع اللورد مَاوْنْتبَطِّنْ هذا الخبر حتى قال لنا إن هذا التصرّف قد غيّر الوضع كلّه. اقترح علينا أن نغيّر قرارنا ونعيّن هنديّا. غير أننا لم نرَ داعيا لتغيير اختيارنا، وأكّدنا أن اللورد مَاوْنْتبَطِّنْ سيكون أوّل حاكم عامّ للسلطة الهنديّة.

16 - الهنــد المقسّمة

ها قد وصلتُ الآن إلى آخر فصل من فصول الحكاية التي أريد أن أسردها على مسامعكم. يوم 14 أغسطس/ آب ذهب اللورد مَاوْنْتبَطْنْ إلى كراتشي لتدشين السلطة الباكستانية. عاد في اليوم الموالي، وفي الساعة الثانية عشرة عند منتصف الليل يوم 15 أغسطس/ آب 1947 وُلِدت السلطة الهندية.

أصبحت البلاد حرّةً، لكن قبل أن يستمتع الناس بشعور الحرّية والنصر بالكامل، استيقظوا ليجدوا أن كارثة كبيرة قد رافقت حرّيتهم. أدركنا أيضا أنه سيكون علينا أن نواجه رحلةً طويلةً عسيرةً قبل أن نرتاح ونستمتع بثمار الحرّية.

كان المؤتمر قد قبل التقسيم، مثله في ذلك مثل الرابطة الإسلامية. وبما أن المؤتمر كان يمثّل كلّ الأمّة، والرابطة الإسلامية تتمتّع بمساندة أغلب المسلمين، فإنه من المفترض أن يعني هذا أن البلاد كلّها قد قبلت التقسيم. لكن الوضع الحقيقي كان مختلفا تماما. حين نظرنا إلى الوطن، قبل التقسيم وبعده مباشرة، وجدنا أن القبول لم يحصل إلاّ في قرار اللجنة التنفيذية للمؤتمر وفي سجلّ الرابطة الإسلامية. إن الشعب الهندي لم يقبل التقسيم. والحقيقة أن قلوب الناس وأرواحهم قد انتفضت ضدّ الفكرة في حدّ ذاتها. قلتُ سابقا إن الرابطة الإسلامية تتمتّع بمساندة العديد من الهنود المسلمين، لكن كان ثمة قسمٌ كبيرٌ من الطائفة يعارض الرابطة دائما. وبطبيعة الحال، حَزَّ في نفوسهم قرار تقسيم البلاد. أما الهندوس والسّيخُ فقد كانوا جميعا ضدّ التقسيم. ورغم

أن المؤتمر قد قبل الخطّة فإن معارضتهم لم تهدأ وإنْ قليلاً. الآن وقد صار التقسيم واقعا أصيب المسلمون، حتى مَنْ كان منهم تابعا للرابطة الإسلامية، بالهَلَع من النتيجة التي آلت إليها الأمور، وبدأوا يقولون علانية إن هذا ليس ما عَنَوْهُ بالتقسيم.

حين أعيدُ النظر في الوضع بعد عشر سنوات، أدركُ أن الأحداث قد أكّدت ما قلتُه وقتها. فقد اتّضح لي، منذ ذلك الوقت، أن قادة المؤتمر لم يقبلوا التقسيم بذِهْنٍ حرٍّ منفتح. كان البعض قد قبله بسبب الغضب الشديد والتعنّتِ، وآخرون بسببِ شعورٍ باليأسِ. إن الرجال لا يستطيعون أن يحكموا بموضوعية حين يسيطر عليهم السُّخط أو الخوف. من أين لدعاة التقسيم الذين تصرّفوا تحت تأثير العاطفة أن يرَوْا عواقب ما كانوا يفعلون؟

كان صاردار باتل هو أكبر الداعمين للتقسيم من بين أعضاء المؤتمر. حتى هو لم يكن يعتقد أن التقسيم هو أفضل حلٍّ للمشكلة الهندية. نزل بثقله لصالح التقسيم بسبب سخطه وكرامته الجريحة. كان يجد نفسه مقموعا في كلّ خطوة يخطوها لأن لياقات علي خان، باعتباره وزير المالية، كان يستخدم الفيتو على مقترحاته. لذلك قرّر، في غمرة غضبه، أنه إذا لم يكن هناك حلٌّ آخر، فليتمّ قبول التقسيم. كان مقتنعا أيضا أن دولة باكستان الجديدة لم يكن بإمكانها أن تحيا ولا أن تدوم. واعتقد أن قبول تأسيس باكستان سيلقّن الرابطة الإسلامية درسا مريرا. فستنهار باكستان في وقت قصير. وسيكون على الأقاليم التي انفصلت عن الهند أن تواجه مصاعبَ وأهوالاً. ربّما كان صاردار باتل يأمل في أن يضطرّوا إلى الرجوع إلى الهند. عليَّ أن أعترف أيضا، أنه قد تكوّنت لديه أحكامٌ مسبقةٌ قوّية ضدّ الرابطة الإسلامية إلى درجة أنه لن يتأسّف لو أن المسلمين الذين اتّبعوا الرابطة سيألمون.

حصل الامتحان الحقيقيّ لموقف الشعب تجاه تقسيم البلاد يوم 14 أغسطس/ آب 1947 عندما تكوّنت باكستان المستقلّة. لو أن الشعب الهندي قَبِلَ التقسيم طواعيةً فمن المؤكّد أن الهندوسَ والسّيخ في بُنجاب، والحدود،

والسّند، والبنغال، يمكنهم أن يُهَلِّلُوا بالطريقة نفسها التي هللّ بها مسلمو هذه المناطق. أظهرت التقارير التي تلقّيناها من الأقاليم ضحالة الادّعاء أن قبول المؤتمر للتقسيم يعني قبول الشعب الهندي للتقسيم.

كان يوم 14 أغسطس/ آب يوم بَهْجَةٍ بالنسبة إلى مسلمي باكستان. وبالنسبة إلى الهندوس والسّيخ كان يومَ نَحِيب. لم يكن هذا شعور أغلب الناس فحسب، بل كان أيضا شعور القادة المهمّين في المؤتمر. كان أشاريا كريبالاني وقتها رئيس المؤتمر، وهو رجل من السّند. أصدر بيانا يوم 14 أغسطس/ آب جاء فيه إنّ هذا اليوم يوم حُزْنٍ وتدميرٍ للهند. هذا الشعور عبّر عنه الهندوس والسّيخ جهارا عبر أرجاء باكستان. كان الوضع غريبا حقّا. كانت منظّمتنا القوميّة قد اتّخذت قرارا لصالح التقسيم، لكن الشعب كلّه كان حزينا بسبب التقسيم.

هناك سؤال يُطرح بشكل طبيعيّ. ما دام التقسيم قد أثار كلّ مشاعر الغضب والحزن هذه في قلوب الهنود، لماذا قبلها الشّعب الهنديّ؟ لماذا لم تتمّ معارضته بشكل أكبر؟ لماذا تمّ كلّ هذا التسرّع في اتّخاذ قرارٍ يراهُ الجميع تقريبا خاطئا؟ ما دام التوصّل إلى الحلّ السليم للمشكلة الهنديّة قبل يوم 15 أغسطس/ آب لم يتمّ، لماذا نأخذ القرار الخطأ ثمّ نحزن عليه؟ لقد قلت، مرارا وتكرارا، إنه من الأفضل أن ننتظر حتّى التوصّل إلى حلّ ملائم. فعلت ما بوسعي لكن أصدقائي وزملائي لم يساندوني، لسوء الحظّ. السبب الوحيد الذي يمكنني أن أجده لعَمَاهم الغريب عن الوقائع هو أنّ الغضب أو الخوف قد أعْمَى أبصارَهم. وربّما كان لتحديد التاريخ، يوم 15 أغسطس/ آب، مفعول السّحر ونوّمهم تنويما مغناطيسيا حتى يقبلوا كلّ ما يقوله اللورد مَاوْنْتبَطّنْ.

كانت المأساة تختلط بالملهاة على نحو لا يمكن تفسيره. فبعد التقسيم، كانت الوضعيّة الأكثر سخافة هي وضعيّة قادة الرابطة الإسلاميّة الذين ظلّوا في الهند. رحل جِنّاه إلى كاراتشي حاملا رسالة إلى أتباعه مفادها أنّ البلاد قد وقع تقسيمها الآن، وينبغي أن يصبحوا مواطنين موالين للهند. بثّت رسالة

الوداع هذه في نفوسهم إحساسا غريبا بالضّعف وخيبة الأمل. جاء العديد من هؤلاء القادة للقائي بعد يوم 14 أغسطس/ آب. كان مُصابُهم مثيرا للشفقة. قالوا جميعا، ببالغ الأسى والغضب الشديد، إنّ جِنَّاه قد خدعهم وتخلّى عنهم.

لم أفهم، في البداية، ما يعنونه بقولهم إنّ جِنَّاه قد خدعهم. فقد طلب علانية تقسيم البلاد على أساس الأقاليم ذات الأغلبيّة المسلمة. قد أصبح التقسيم الآن حقيقة، وأصبحت المناطق ذات الأغلبيّة المسلمة في كلّ من الغرب والشرق أجزاء من باكستان. ما الذي يجعل هؤلاء الناطقين باسم الرابطة الإسلاميّة يقولون إنّهم قد خُدِعوا؟

تبيّن لي، وأنا أتحدّث إليهم، أنّ هؤلاء الرجال قد كوّنوا في أذهانهم فكرة عن التقسيم لا تمتّ إلى الواقع بصلة. لقد فشلوا في إدراك التبعات الحقيقيّة لنشأة باكستان. إذا كوّنت الأقاليم ذات الأغلبيّة المسلمة دولة منفصلة، فمن الواضح أنّ الأقاليم التي يشكّل فيها المسلمون أقليّة ستكون جزءا من الهند. كان مسلمو الأقاليم المتّحدة وبيهار أقليّة وسيبقون كذلك حتّى بعد التقسيم. ومن الغريب أنّ هؤلاء الأعضاء من الرابطة لإسلاميّة قد تمّ إقناعهم بشكل سخيف بأنّه ما إن تتشكّل باكستان، حتّى يُعتبَرَ جميع المسلمين، سواء جاؤوا من إقليم هم فيه أغلبيّة أو أقليّة، أمّة منفصلة وسيتمتّعون بحقّ تقرير مصيرهم. الآن وقد خرجت الأقاليم ذات الأغلبيّة المسلمة من الهند، وحتّى البنغال وبُنجاب وقع تقسيمهما، وغادر السيد جِنَّاه إلى كاراتشي، أدرك هؤلاء المغفّلون أنّهم لم يكسبوا شيئا من وراء تقسيم الهند، بل إنهم، في الواقع، قد خسروا كلّ شيء. كانت رسالة جِنَّاه التوديعيّة آخر قشّة على ظهر البعير. اتّضح لهم الآن أنّ النتيجة الوحيدة للتقسيم هي أنّ وضعهم، باعتبارهم أقليّة، صار أضعف بكثير من ذي قبل. وبالإضافة إلى ذلك، كانوا قد خلقوا، بفعلتهم الحمقاء، غضبا واستياء في نفوس الهندوس.

ظلّ أعضاء الرابطة لإسلاميّة يكرّرون أنهم قد أصبحوا الآن تحت رحمة الأغلبيّة الهندوسيّة. وكان من الطبيعي جدّا أنّ حزنهم وغمّهم على هذه

التطوّرات بالكاد أثارا بعض الشفقة عليهم. ذكّرتهم بما كنت قد قلته أثناء خطّة البعثة الحكوميّة. كنت قد حذّرت الهنود المسلمين في تصريحي الصادر يوم 15 أبريل/ نيسان 1946 بكلمات لا لبْسَ فيها. كنت قد قلتُ لو افترضنا أنّ التقسيم صار واقعا، سيستيقظون ذات يوم ليجدوا أنفسهم باقين في الهند أقليّةً صغيرةً ضئيلةً، بعد أن انضمّت الأغلبيّة المسلمة إلى باكستان.

وقع تنظيم برنامج خاصّ لفجر الاستقلال يوم 15 أغسطس/ آب. عند منتصف الليل اجتمعت اللجنة التأسيسيّة، وأعلنت أنّ الهند أصبحت الآن دولة حرّة مستقلّة. في اليوم الموالي اجتمع المجلس ثانية على الساعة التاسعة صباحا، وألقى اللورد مَاوْنْتبَطْنْ الكلمة الافتتاحيّة. غمرت الفرحة العارمة أرجاء المدينة بأكملها. حتّى أوجاع التقسيم نُسِيَتْ مؤقّتا. هبّ الملايين من الناس من داخل المدينة وخارجها ليرحّبوا بقدوم الحرّية. كان سيتمّ رفع علَم الهند الحرّة على الساعة الرابعة ظهرا. تدفّق الملايين رغم شمس أغسطس/ آب الحارقة، والواقع أنّهم ظلّوا ينتظرون طيلة ساعات تحت الشمس المرهِقَة. كانت الجماهير غفيرة إلى درجة أنّ اللورد مَاوْنْتبَطْنْ لم يتمكّن من الخروج من سيّارته، فألقى كلمته منها.

كانت الفرحة هذيانيَّةً تقريبا، لكنها لم تدم أكثر من 48 ساعة. بدأت أخبار الاضطرابات الطائفيّة في اليوم الموالي مباشرة تلقي بظلال كآبة عميقة على العاصمة. إنها أخبار القتل والموت والوحشيّة. وردت أخبارٌ تقول إنّ عصابات من الهندوس والسّيخ هاجمت قرى مسلمة شرق بُنجاب. كانوا يضرمون النار في المنازل ويقتلون الأبرياء، رجالا ونساء وأطفالا. ووردت الأخبار نفسها بالضبط، من غرب بُنجاب. كان المسلمون يقتلون الرجال والنساء والأطفال من طائفتي الهندوس والسّيخ دون تمييز. كانت بُنجاب كلّها، بشرقها وغربها، تتحوّل إلى مقبرة للتدمير والقتل. تسارعت وتيرة الأحداث. هرع وزراء بُنجاب إلى دلهي، الوزير تلو الآخر. تلاهم قادة المؤتمر الذين كانوا خارج الحكومة. كانوا كلّهم مروّعين من التطوّرات التي كانت تحصل. كما كانوا مصعوقين من

المدى الذي اتّخذته المذبحة، وقالوا، في يأس، ربّما لا شيء يستطيع أن يضع لها حدّا. سألناهم لماذا لم يستدعوا الجيش. فقالوا يائسين إنّ الكتائب المحتشدة في بُنجاب لم يعد من الممكن التعويل عليها، ولا يمكن أن نتوقّع منها أيّ مساعدة. وطالبوا بإرسال مساعدة عسكريّة من دلهي إلى بُنجاب.

في البداية، لم تكن هناك اضطرابات في دلهي. لكن مع اشتعال البلاد من حولنا بثورة وحشيّة، لم يكن من الممكن التفريط في الجيش الاحتياطي الموجود في دلهي. قرّرنا أن ندعو قوّات من الخارج لكن قبل أن تتمكّن القوّات من الوصول، وصل الاضطراب إلى العاصمة. ولأنّ خبر الجرائم في بُنجاب قد تلاه تدفّق اللاجئين القادمين من غرب بُنجاب، اندلع العنف في دلهي. تفشّت الجريمة في المدينة. لم تقتصر الاضطرابات على اللاجئين أو الجمهور العريض. حتّى المناطق التي لم يكن يسكنها سوى موظّفي الحكومة تورّطت فيها. حين وصلت إلى دلهي أخبار المذابح التي حصلت غرب بُنجاب، هاجمت عصابات جامحةً المسلمين. وكان السّيخ يلعبون دورا رئيسيا في تنظيم هذه الهجمات في دلهي.

كنت قد ذكرتُ سابقا مدى استيائي من الكلام الفضفاض للمذهب الخطير الداعي إلى الأخذ بالثأر واحتجاز الرّهائن. صرنا الآن في دلهي نشهد تطبيقا مروّعا لهذا المذهب. إذا كان مسلمو غرب بُنجاب مدانين بقتل هندوس وسيخ، لماذا يتمّ الانتقام من مسلمي دلهي الأبرياء؟ إنّ نظريّة الأخذ بالثأر واحتجاز الرّهائن هذه فظيعة إلى درجة أنّه لا يمكن لأيّ إنسان كريم أو سليم العقل أن يقول كلمة واحدة دفاعا عنها.

أصبح موقف الجيش الآن مسألة حرجة. قبل التقسيم كان الجيش بمعزل عن البغض الطائفي. عندما تمّ تقسيم البلاد على أساس طائفي، انتقل الفيروس الطائفي إلى الجيش. كانت أغلبيّة الكتائب الموجودة في دلهي من الهندوس والسّيخ. في غضون أيّام قليلة، تبيّن أنه لا يمكن التعويل عليهم لو تطلّب الأمر إجراء عمليّة كبرى، كي يستتبّ الأمن والقانون في المدينة. وبالتالي، اتّخذنا إجراءات لاستقدام جنود من الجنوب في وقت أسرع. فهم لم يتأثّروا

بتقسيم البلاد وحافظوا على انضباطهم العسكري. اضطلع الجنود الجنوبيّون بدور كبير في السيطرة على الوضع وإعادة الأمن إلى البلاد.

إلى جانب المدينة، في حدّ ذاتها، كانت توجد ضواح مثل كارول باغ، وودهي كولوني، وصابزي ماندي، وصاردار بازار، الأغلبيّة الساحقة من سكّانها مسلمون. لم تعد الحياة ولا الممتلكات آمنة في جميع هذه المناطق. ولم يعد من الممكن توفير حماية عسكريّة تامّة في ظلّ الظروف الموجودة. في مرحلة ما، ساء الوضع في هذه المناطق إلى درجة أنّ مالكي البيوت المسلمين لم يعد بإمكانهم أن يناموا ليلا، وهم واثقون أنهم سيظلّون على قيد الحياة في صباح اليوم الموالي.

خلال أيّام الإحراق والجريمة والشّغب هذه، جبتُ مختلف مناطق دلهي صحبة ضبّاط من الجيش. وجدتُ المسلمين يعانون من العجز التامّ، وقد انهارت معنويّاتهم انهيارا كلّيا. طلب العديد منهم اللجوء إلى منزلي. جاءتني عائلات كانت ثريّة وعريقة في المدينة، وقد صارت مُعْدمةً لا تملك من متاع الدنيا سوى الملابس التي ترتديها. لم يجرؤ البعض منهم أن يأتي في وضح النهار، فجيء بهم تحت حراسة العسكر عند منتصف الليل أو خلال الساعات الأولى من الصباح. سرعان ما امتلأ منزلي، فنصبتُ خياما في الفناء. احتشد رجالٌ ونساءٌ من جميع الأصناف والأوضاع، أثرياء وفقراء، صغارا وكبارا، يجمعهم الحرص على الحياة.

وسرعان ما تبيّن أنّ الأمن والقانون لن يستتبّا مجددا إلا بعد مرور زمن غير قصير. لم يكن من الممكن حماية المنازل المعزولة في مختلف مناطق المدينة. إذا نصبنا حراسة على منطقة، وقعت مهاجمة منطقة أخرى. فقرّرنا أن نجمّع المسلمين ونضعهم في مخيّمات محميّة. كان أحد هذه المخيّمات يقع في بورانا قيلا أو القلعة القديمة. لم تعد فيه بناية قائمة، ولم يبق منه غير المعاقل. سرعان ما امتلأت هذه المعاقل. وقع تجميع عدد كبيرٍ من المسلمين في القلعة وعاشوا فيها طوال أشهر الشتاء كلّها تقريبا.

كنت قد لُمْتُ اللورد مَاوْنْتبَطْنْ على الطريقة التي ساعد بها على إنجاز

التقسيم. غير أنني الآن أكيلُ له الثّناء على الطريقة التي عالج بها الأزمة التي واجهتنا. كنت قد أشرتُ سابقا إلى الطاقة والحيويّة اللتين أنجز بهما مهمّة تقسيم الهند الدقيقة الصعبة. وقد تصرّف بأكثر حيويّة ونشاط لاستعادة القانون والأمن في البلاد. أفادتنا خبرته العسكرية أيّما إفادة. لولا تجربته في مجال التكتيك السياسي، لكان من المحتمل أن لا ننجح في التغلّب على الصعوبات بهذه السرعة وبهذه النجاعة. قال إنّ الوضعَ وضعُ حرب، ويجب أن نتعامل معه على أنّه كذلك. تعمل المجالس الحربيّة، أثناء الحرب، على مدار الساعة. وعلينا أن نؤسّس مجلس عمليات يتّخذ قرارت فوريّة ويحرص على أن يتمّ تنفيذها. وتمّ تأسيس مجلس طوارئ متكوّن من بعض أعضاء مجلس الوزراء وبعض القادة العسكريين والمدنيين. كان المجلس يعقد اجتماعات يوميّا على الساعة 9.30 صباحا في قاعة الإدارة بدار الحكومة. كان اللورد مَاوْنْتبَطْنْ يترأس الاجتماعات. وكنا نتدارس الأوامر التي أُصْدِرت في الأربعة وعشرين ساعة الماضية، والإجراء الذي اتُّخذ. عمل هذا المجلس دون هوادة إلى أن عمّ السلام تماما من جديد. وكانت التقاريرالتي تصلنا في القلعة كلّ يوم تعطينا نظرة ثاقبة عن خطورة الوضع.

طوال هذه الفترة، كان غاندي يعاني من عذاب ذهنيّ فظيع. بذل قصارى جهده لاستعادة المشاعر الطيّبة بين الطوائف حتى يحمي حياة المسلمين وأرزاقهم. انتابه حزنٌ شديدٌ وعذابٌ ما بعده عذاب، عندما أدرك أنّ جهوده لم تلاقِ النجاح المرجو. كان كثيرا ما يرسل في طلبي وفي طلب جواهرلال وصاردار باتل، ويطلب منا أن نشرح الوضع في المدينة. كان يزداد همّا عندما يلمسُ خلافات بيننا حتى في خصوص ما كان يحدث فعلا.

في حقيقة الأمر، كانت هناك اختلافات في الموقف بين صاردار باتل من ناحية، وأنا وجواهرلال من ناحية أخرى. بدأ هذا الأمر يؤثّر على الإدارة المحليّة، وأصبح من الواضح أنّ القادة كانوا منقسمين إلى مجموعتين. المجموعة الكبرى تُجلّ صاردار باتل وتتصرّف بالشكل الذي تتصوّر أنّه يعجبه. ومجموعة صغرى

تجلّ جواهرلال وتجلّني وتحاول أن تطبّق أوامر جواهرلال. كان الرئيس المفوّض لدلهي مسلما واسمه خُرْشد أحمد وهو ابن صَاحِبْزادا أفتاب أحمد. لم يكن موظّفا حكوميا قويّا. إضافة إلى ذلك، كان يخشى أن يُعتبر داعما للمسلمين، إنْ هو اتّخذ موقفا صارما. نتيجة لذلك، لم يكن على رأس الإدارة إلا بالاسم شكليّا، لكن كلّ العمل كان يقوم به نائب المفوّض بمبادرة شخصيّة منه. كان نائب المفوّض هذا موظّفا حكوميا اسمه رَنْضاوا وهو من السّيخ غير أنه لم يكن يتبع العديد من تقاليد السّيخ وأعرافهم. فقد حلق لحيته وقصّ شعره والعديد من السّيخ يكادون يعتبرونه مهرطقا. شغل منصب نائب مفوّض حتّى قبل التقسيم. وقبل يوم 15 أغسطس/ آب كان هناك مقترَحٌ يقول إنه ما دام قد أتمّ فترة خدمته يمكن إرجاعه إلى بُنجاب. احتجّ العديد من المواطنين المرموقين في دلهي بشدّة على هذا المقترح، وخاصّة شريحة كبيرة من المسلمين. قالوا إنّ رَنْضاوا منصِفٌ وقويٌّ ومن الصعب أن نجد له بديلا مناسبا.

تبعا لذلك، استُبقِي رَنْضاوا، لكن يبدو أنه تغيّر، هو الآخر، تحت ضغط النزاع الطائفي الذي كان يجرف بُنجاب. تلقّيت العديد من التقارير التي تفيد بأنّه لم يكن يتّخذ إجراءات بالقوّة أو النجاعة اللازمة ضدّ المجرمين. المسلمون ذاتهم الذين التمسوا إبقاءه في السنة الماضية، جاؤوا الآن وقالوا إنّه لم يكن يمنح المواطنين المسلمين في دلهي حماية كافية. أُخبر صاردار باتل بهذا الأمر غير أنه لا يكاد يعير أدنى اهتمام لشكاوى مثل هذه.

كان صاردار باتل وزيرا للداخليّة، وبالتالي كانت إدارة دلهي تابعة له مباشرة. ولمّا كانت قائمة القتلى والحرائق قد صارت طويلة، فقد أرسل غاندي في طلب باتل وسأله عمّا كان يفعله لإيقاف هذه المجزرة. حاول صاردار باتل أن يطمئنه قائلا إنّ التقارير التي تلقّاها غاندي مبالغ فيها كثيرا. وحقيقة ما جرى، أنّ الأمر قد وصل به إلى حدّ القول إنّ المسلمين ليس لهم سبب يدعوهم إلى التذمّر أو الخوف. أتذكّر جيّدا مناسبة كنّا نجلس فيها ثلاثتنا مع غاندي. قال جواهرلال بحزن شديد إنه لا يستطيع أن يتحمّل هذا الوضع الذي يُقتل فيه

المسلمون في دلهي مثل الكلاب والقطط. شعر بالمهانة لأنّه يقف عاجزا ولايقدر على إنقاذهم. لم يكن ضميره يسمح له بأن يرتاح، فما الجواب الذي سيستطيع أن يعطيه عندما يشكو الناس من هذه الأحداث المروّعة؟ كرّر جواهرلال عدّة مرات إنه يجد الوضع لا يطاق، وضميره لا يسمح له بالراحة.

أُصبنا بالذهول من ردّ فعل صاردار باتل. في الوقت الذي كان فيه المسلمون يُقتلون في وضح النهار في دلهي، قال لغاندي، بكلّ هدوء، إنّ تذمّر جواهرلال لا يمكن فهمه على الإطلاق. ربّما تكون بعض الحوادث المنفصلة قد حصلت، لكن الحكومة كانت تفعل ما في وسعها لحماية حياة المسلمين وممتلكاتهم، ولا يمكن فعل أيّ شيء آخر. وحقيقة الأمر أنه عبّر عن استيائه من أن جواهرلال، باعتباره رئيس الوزراء، يعبّر عن عدم رضاه عمّا كانت حكومته تفعله.

ظلّ جواهرلال صامتا طيلة بضعة لحظات، ثمّ التفت إلى غاندي وهو يائسٌ، وقال إذا كانت هذه هي وجهات نظر صاردار باتل، فليس لديه تعليق.

هناك حادثةٌ أخرى حدثت في هذه الفترة تقريبا، وكشفت بشكل واضح طريقة تفكير صاردار باتل. لعلّه شعر بأنّ من واجبه أن يقدّم بعض التفسيرات للهجومات التي كانت تُشَنُّ على المسلمين كلّ يوم. لذلك صاغ نظريّة مفادها أنه تمّ اكتشاف أسلحة فتّاكة في أحياء المسلمين في المدينة. كان يلمّح إلى أنّ مسلمي دلهي قد جمّعوا أسلحةً لمهاجمة الهندوس والسّيخ، ولو لم يكن الهندوس والسّيخ قد لزموا الحذر منذ البداية، لدمّرهم المسلمون. استعادت الشرطة بضعة أسلحة من كارول باغ وصابزي ماندي. وجيء بهذه الأسلحة إلى دار الحكومة ووضعت في قاعة الانتظار لنقوم بفحصها. عندما عقدنا اجتماعنا اليومي، قال صاردار باتل إنه ينبغي أن نتوجّه أوّلا إلى قاعة الانتظار لنتفحّص الأسلحة التي وقع حجزها. عندما وصلنا وجدنا على الطاولة عشرات سكاكين المطبخ التي علاها الصّدأ، وخناجر جيب، وسكاكين قلم[20] بعضها بمقبض وبعضها الآخر بدون مقبض، ومسامير كبيرة جُمّعت من أسيجة بيوت قديمة، وبضعة أنابيب

20 - سكاكين طيّ تسمّى سكاكين قلم لأنها تستخدم عادة مبراةً لشحذ الريشة. (المترجمة)

ماء حديديّة رميت في النفايات. كانت هذه هي الأسلحة التي جمّعها مسلمو دلهي لإبادة الهندوس والسّيخ، حسب رأي صاردار باتل. تناول اللورد مَاوْنْتبَطْنْ سكّينا أو سكينين وقال مبتسما يبدو أنّ الذين جمّعوا هذه الأسلحة لديهم فكرة مدهشة عن التكتيكات الحربيّة لا سيما إذا كانوا يتصوّرون أنّه يمكن الاستيلاء بها على مدينة دلهي.

كنت قد قلتُ سابقا إنّ أغلبيّة مسلمي المدينة كانوا مجمّعين في بورانا قيلا. كان الشتاء يقترب الآن. عانى الآلاف الذين يعيشون في العراء من البرد بشكلٍ فظيع. لم يكن هناك تنظيمٌ جيّد لتوزيع الأكل ومياه الشرب. والأسوأ من ذلك، أنّ وسائل التخزين كانت غير موجودة أو غير ملائمة على الإطلاق. ذات صباح، أدلى د. زاكِر حسين بشهادة أمام مجلس الطوارئ، ووصف الوضع المُزري في الحصن القديم. قال إنّ هؤلاء الرجال والنساء المساكين قد تمّ إنقاذهم من موت مفاجئ ليتمّ دفنهم أحياء في قبر. طلب منّي المجلس أن أتفقّدَ الترتيبات، وأقترحَ التدابير اللاّزمة. قرر المجلس، في اجتماعه الموالي، أن تتمّ ترتيبات فوريّة في ما يخصّ مياه الشرب والصرف الصحّي. طُلب من الجيش أيضا أن يُعيرَ أكبر عدد ممكن من الخيام حتّى يتمكّن الناس من العيش تحت قماشٍ على الأقلّ.

كان حزن غاندي يتفاقمُ يوما بعد يوم. كانت الأمّة كلّها، في السابق، تأتمر بأدنى رغباته. أمّا الآن، فيبدو أنّ مناشداته الحارّة لا تجد آذانا صاغية. في النهاية لم يستطع أن يحتمل استمرار الوضع على هذه الحال، فناداني وقال إنّه لم يبق لديه سلاحٌ سوى الصوم إلى أن يعود السلام إلى دلهي. عندما ذاع خبر أنّ غاندي سيصوم إلى أن يعود السلام والأمن في دلهي، شعر العديد من أولئك الذين كانوا قد ظلّوا حتّى ذلك الوقت دون حراك، بالخزي. أحسّوا أنّه يجب أن يُمنع من الصوم بسبب سنّه ووضعه الصحّيّ. ناشدوه، في البداية، أن يتخلّى عن الفكرة، لكن غاندي ظلّ عنيدا.

كان ثمّة وِزْرٌ ثقيلٌ يؤرّق ذهن غاندي وهو موقف صاردار باتل. كان

صاردار باتل مقرّبا جدّا من غاندي ومحبّبا إلى نفسه، عزيزا عليه. في حقيقة الأمر، إنّ صاردار باتل مدينٌ لغاندي بحياته السياسيّة كلّها. كان من بين أهمّ قادة المؤتمر العديد من الذين كان لهم حضورٌ في الحياة السياسيّة قبل أن يظهر غاندي على الساحة. لكن هناك إثنان: صاردار باتل ود. راجندرا برازاد، هما صنيعة غاندي بالكامل.

كان للدكتور راجندرا برازاد سجلٌ أكاديميٌّ متألّقٌ والجميع يعتبرونه الرّجل الواعد الذي سيلمع نجمه سياسيا في بيهار. غير أنّه كان يهتمّ بمهنته أكثر، وربّما كان يشعر أيضا بأنّ الحظّ لم يحالفه كثيرا ضدّ قادةٍ من أمثال الأخوين إمام أو مظهر الحقّ. عندما جاء غاندي إلى بيهار، وجد القيادة السياسيّة في يد المسلمين، وفي البداية لم يلتحق به أيّ هندوسيّ من أيّ مرتبة كانت. بلغني من مصدر موثوق به أنّ د. صَشْدَنَنْدا سِنْها أقام مأدبة عشاء دعا إليها العديد من الهندوس المرموقين قَصْدَ الالتقاء بغاندي. قالوا لغاندي إنّ هندوس بيهار سينضمّون إلى حركة اللاّتعاون شريطة أن يعيّن هندوسيّا قائدا لها. قال غاندي إنه لا يستطيع أن يسلّم القيادة بحسب رغبته الشخصيّة لأيّ شخص. لكنه وعد بأنه إذا تقدّم هندوسي تتوفّر فيه المقدرة والشخصيّة سيمنحه المساندة اللاّزمة. عندها، تمّ اقتراح اسم بابو راجندرا برازاد على غاندي، أصبح بابو راجندرا برازاد، في غضون بضع سنوات، شخصيّة سياسيّة مرموقة في كامل الهند بفضل مساعدة غاندي ومساندته.

إنّ حالة باتل مثيرة للاهتمام أكثر. كان صاردار باتل، قبل حركة اللاّتعاون، واحدا من المحامين الكثيرين في غوجارات، ولا تكاد تذكر له أيّ أهميّة أو مكانة في الحياة الاجتماعيّة في البلاد. عندما استقرّ غاندي في أحمدآباد، انتشل باتل وكوَّنَهُ يَسِيراً يَسِيراً. أصبح باتل المناصر المخلص لغاندي، وكنت قد ذكرت سابقا كيف أنّ كلامه كان، في مناسبات عديدة، مجرّد رَجْع صدى لرغبات غاندي. إنّ غاندي هو الذي عيّنه عضوا في اللجنة التّنفيذيّة للمؤتمر. وبسبب غاندي، أيضا، أصبح رئيسا للمؤتمر سنة 1931. جُرح غاندي جرحا بليغا لأنّ باتل صار الآن ينتهجُ سياسةً هي النقيض تماما لكلّ ما يمثّله غاندي.

قال غاندي إنه رأى مسلمي دلهي يُقتلون أمام عينيْه. كان هذا الأمر يحدث في الوقت الذي كان فيه فالّبهبهاي، الذي سَوَّاهُ غاندي بيديه، يشغل منصب وزير الداخليّة في حكومة الهند ومسؤولا عن حفظ القانون والنظام في العاصمة. لم يفشل باتل في توفير الحماية للمسلمين فحسب، بل عمد أيضا ودون مُبالاة، إلى رفض أيّ شكوى تقدّم إليه في هذا الخصوص. قال غاندي إنه لم يعد يملكُ أيّ خيار الآن سوى استخدام سلاحه الأخير، وهو أن يصوم إلى أن يتغيّر الوضع. تبعا لذلك، شرع في صومه يوم 12 يناير/ كانون الثاني 1948. كان الصّوم موجّها، بمعنى ما، ضدّ موقف صاردار باتل، وكان باتل يعلم أنّ الأمر كان كذلك.

فعَلْنَا ما في وسعنا لإقناع غاندي بالعدول عن الصّوم. مساء اليوم الأوّل للصّوم، كنّا، أنا وجواهرلال وصاردار باتل نجلس بجانب غاندي. كان صاردار باتل مسافرا إلى بُمباي في صباح اليوم الموالي. تكلّم مع غاندي بشكل رسميّ وتذمّر من أنّ غاندي كان صائما بدون مبرّر. تذمّر أيضا لأنْ لا وجودَ لقضيّةٍ حقيقيّةٍ وراء هذا الصّوم. وحقيقة الأمر أنّ هذا الصوم سيؤدّي إلى توجيه تُهَم إلى صاردار باتل. قال صاردار باتل، في نبرة طافحة بشيء من المرارة، إنّ غاندي كان يتصرّف كما لو أن صاردار باتل مسؤول عن مقتل المسلمين.

ردّ غاندي بهدوئه المعتاد: "لستُ في الصين الآن، بل في دلهي. ولم أفقد عينيَّ وأذنيَّ. إذا سألتني أن لا أصدّق برهان سمْعِي وبَصَري، وقلت لي إنّ تذمّر المسلمين لا داعي له، فلن أتمكّن من إقناعك ولن تتمكّن من إقناعي. إنّ الهندوس والسّيخ إخوتِي. هم دمي ولحمي، وإذا كان الغيظ يعميهم الآن، فلن ألومهم. لكن، عليَّ أن أكفّر عن ذنبي عبر معاناتي الخاصّة، وأتمنّى أن يفتح صومي أعْيُنَهُمْ على الوقائع الحقيقيّة."

انزعج صاردار باتل من هذا الردّ، وخاطب غاندي بشكل فظّ. صُدِمْنا، أنا وجواهرلال من هذا الأمر، وتفاجأنا بتصرّفه، ولم نستطع أن نظلّ صامتين. قلت محتجّا: "فالّبهبهاي، ربّما أنت لا تدرك ما تفعل، لكننا نشعر في أعماقنا

كم أنّ موقفك مُهينٌ لغاندي وكم أنّك تُسيء إليه."

وقف صاردار باتل دون أن ينبس بكلمة، وتصرّف كما لو أنّه يريد الانصراف. أوقفته وقلت له إنّ عليه أن يلغي برنامجه ويظلّ في دلهي. لا أحد يعلم أيّ مسلك قد تأخذه الأحداث، ويجدر به أن لا يغادر ما دام غاندي صائما.

قال وهو يكاد يصرخ: "ما جدوى بقائي؟ غاندي ليس مستعدّا لسماعي. يبدو أنّه مستعدّ لتلطيخ أسماء الهندوس بالسّواد أمام العالم بأسره. إذا كان هذا هو موقفه، فلن أفيده في شيء. لا يمكنني تغيير برنامجي، وسأذهب إلى بُمباي."

أحزنتني نبرة باتل حزنا عميقا أكثر مما أحزنتني كلماته. قلت في نفسي كيف سيكون وقْعُها على غاندي؟ كان باتل صنيعةَ يَدِه، ولم يكن ليصبح شيئا دون مساندته، ورغم ذلك ها هو اليوم يخاطب غاندي بهذه النبرة. شعرنا أنْ لا جدوى من قول أيّ شيء آخر، وانصرف باتل.

لقد قسى قلب باتل على غاندي، لكن قلوب شعب دلهي لم تقسُ. ففي اللحظة التي انتشر فيها خبر شروع غاندي في الصّوم، لم تهتزّ المدينة فحسب، بل اهتزّت أعماق الهند كلّها. سرى التأثير في دلهي بسرعة الضوء. جاءت جماعات كانت تجاهر، حتى وقتٍ قريب، بمعارضتها لغاندي، وقالت إنّها مستعدّة لفعل أيّ شيء بغية إنقاذ حياة غاندي الغالية.

جاء مختلف أصناف الناس وقالوا لغاندي إنّهم سيعملون من أجل إعادة السلام إلى دلهي، لكن كلامهم لم يؤثّر فيه. مرّ يومان من النشاط المحموم. في اليوم الثالث، وقعت الدعوة إلى اجتماع عامّ لتدارس الوضع واستنباط تدابير من شأنها أن تقنع غاندي بالتراجع عن صومه.

زرت غاندي وأنا في طريقي إلى الاجتماع. قلت له إنّه ينبغي أن يضع شروطا لإيقاف صومه. سنطرحها على الناس ونقول لهم: إنه سيضع حدّا لصومه عندما تستجيبون لهذه النقاط.

قال غاندي: "هذه مساومة. شَرْطي الأوّل هو أن يُدعى كلُّ المسلمين الذين أُجبروا على مغادرة دلهي، بسبب هذه الهجومات التي قام بها الهندوس والسّيخ، إلى العودة ويجب إعادة توطينهم في ديارهم."

كان هذا الموقف جيّدا ونبيلا، لكنني أدركت أنّه ليس موقفا عمليّا. فبعد التقسيم، تعطّلت الحياة في البُنجابين. كان ملايين اللاجئين قد جاؤوا إلى الهند من غرب بُنجاب، والملايين قد غادروا شرق بُنجاب باتّجاه باكستان. كان الآلاف قد غادروا دلهي والعديد من اللاجئين استقرّوا في المنازل التي غادرها أصحابها المسلمون. لو كانت مسألة بضعة مئات لأمكن، ربّما، تحقيق رغبة غاندي. عندما يصل عدد الرجال والنساء المعنيين إلى عشرات الآلاف، فإن أيّ محاولة لتحقيق رغبة غاندي لا يمكنها إلا أن تخلق مشاكل جديدة. كان الهندوس والسّيخ الذين قدموا إلى دلهي هربا من غرب بُنجاب قد وقع اجتثاثهم مرّة، غير أنّهم الآن قد وجدوا لَهُم في دلهي بيتا بشكل من الأشكال. إذا طلبنا منهم اليوم أن يغادروا بيوتهم، إلى أين سيذهبون؟ إلى جانب ذلك، من المحتمل أنّ المسلمين الذين كانوا قد غادروا الهند إلى باكستان قد انتشروا في أرجاء مختلفة من البلاد. كيف يمكن إرجاعهم؟ لا يمكن إرجاع المسلمين، ولا يمكن أن نطلب من الهندوس والسّيخ أن يغادروا البيوت التي صاروا يعيشون فيها. إنّ محاولة تطبيق هذا الحلّ تعني، في الواقع، أن نقوم، بدل التهجير الأوّل الذي طَرَدَ المسلمين، بتهْجِيرٍ ثان نطرد به الهندوس والسّيخ.

أمسكت بِيَدِ غاندي وناشدته أن يتخلّى عن هذه النقطة. لن يكون عمليّا ولا مُبرَّرا أخلاقيا، ربّما، أن نطلب من الهندوس والسّيخ الذين استقرّوا الآن في دلهي أن يُعاودوا التشرّد من جديد. توسّلت إليه كي لا يصرّ على هذه النقطة، وكي يضع شرطه الأوّل الوقف الفوريّ للقتل والإحراق. يمكنه أيضا أن يصرّ على أن يُسمح للمسلمين الذين لم يغادروا الهند بالعيش الكريم، وأن يعود السلام والألفة ليسودا العلاقات بين جميع الطوائف. واقترحت أيضا أن يضع شرطا آخر يقضي بترميم أضرحة المسلمين وأماكن عبادتهم التي تمّ تدميرها أو انتهاك حرمتها وإصلاحها. فقد سبّب استيلاء غير المسلمين على مثل هذه

الأماكن حزنا ورعبا للمسلمين. يمكن لغاندي أن يطلب ضمانا بأن لا يتكرر أيّ اعتداء على الأماكن المقدّسة لأيّ طائفة.

لم يقبل غاندي في البداية، وظلّ يصرّ على الشروط التي وضعها هو. غير أنه في النهاية لاَنَ وقال إذا كانت الشروط التي وضعتُها ترضيني، فسيقبلها هو الآخر. شكرته على تثمينهِ لآرائي وتوسّلت إليه أن يقبل مقترحاتي.

بعد ذلك أملى غاندي الشروط التي يجب أن تتوفّر كي ينقطع عن الصّوم. وهي التالية:

1. يجب أن يوقف الهندوس والسّيخ فورا كلّ اعتداء ضدّ المسلمين، وأن يطمئنوا المسلمين على أنهم سيعيشون مع بعضهم البعض كالإخوة.
2. يجب على الهندوس والسّيخ أن يبذلوا قصارى جهدهم حتّى لا يغادر مسلمٌ واحدٌ الهندَ بسبب عدم الأمان على الأرواح والممتلكات.
3. يجب أن تتوقّف حالاً الغارات التي تتمّ على المسلمين في القطارات السائرة، ويجب أن يُمنَع الهندوس والسيخ الذين يشاركون فيها من فعل ذلك.
4. المسلمون الذين كانوا يقطنون قرب أضرحة أو دركاه[21] من أمثال نظام الدين أوليا، وخواجا قطب الدين بختيار كاكي، ونصير الدين شيراغ دهلوي، غادروا بيوتهم حزانى. يجب أن تعيدوهم إلى ديارهم ليستقرّوا فيها من جديد.

---

21 - دركاه: كلمة فارسيّة تعني مزار وليّ صالح. (المترجمة)

5. كانت دركاه قطب الدين بختيار قد خُرِّبت. كان يمكن أن تقوم الحكومة بإصلاح المزار وترميمه طبعا، لكن هذا لا يكفي غاندي. أصرّ على أن يقوم الهندوس والسّيخ بأعمال الإصلاح والترميم تكفيرا عن فعالهم.

6. أهمّ شيء هو الحاجة إلى تنقية القلوب. إن تلبية الشروط أقلّ أهميّة من هذا الأمر. يجب على قادة طوائف الهندوس والسّيخ أن يطمئنوا غاندي بخصوص هذه النقطة حتّى لا يضطرّ إلى الصّوم ثانية بسبب هذه المسألة.

وقال غاندي: "فليكن صومي هذا، هو الأخير."

أكّدت لغاندي أنه يمكن تلبية هذه النقاط. جئت إلى الاجتماع على الساعة 2.00 بعد الظهر، وعرضت الشروط على الجمهور. قلت لهم لقد اجتمعنا لنطمْئِنَ غاندي ونناشده أن يفكّ صومه. التسويات البسيطة لن تجدي نفعا معه، لكن إذا أراد شعب دلهي أن ينقذ حياة غاندي، يجب عليه تلبية الشروط التي وضعها. لقد أرسلني غاندي لأرى إن كان شعب دلهي سيمنحه هذا التعهّد.

حضر الاجتماع ما يقارب 20000 رجل وامرأة. صرخوا بصوت واحد: "سنلبّي رغبات غاندي حرفيّا. نتعهّد بحياتنا، وقلوبنا، ولن نعطيه أيّ سبب للحزن."

كنت لا أزال أتكلّم عندما نسخ بعض الحاضرين الشروط وشرعوا في تجميع تواقيع الحضور. وقبل أن ينتهي الاجتماع كان الآلاف قد وقّعوا الوثيقة. جمّع رَنْضاوا الذي كان لا يزال يشغل منصب نائب المفوّض مجموعة من قادة الهندوس والسّيخ وذهبوا إلى دركاه قطب الدين بختيار لإصلاح ما تمّ إتلافه. في الوقت ذاته، تعهّدت مجموعة من الجمعيات التي تعمل في دلهي بأن تنشط دوائرها من

أجل تلبية شروط غاندي. وحقيقة الأمر، أنهم أعلنوا أنّهم سيضطلعون بمسؤوليّة الحرص على أن تتمّ تلبية الشروط. وبحلول المساء استقبلتُ وفودا من جميع الأحزاب والجماعات ومن جميع أرجاء دلهي جاءت تطمْئِنُني على أنها قبلت شروط غاندي وينبغي عليَّ أن أطلب منه الآن أن يضع حدّا لصومه.

في صباح اليوم الموالي، دعوتُ إلى اجتماع القادة الممثّلين لدلهي. وصلنا إلى قرار مفاده أنّه يتوجّب عليهم أن يذهبوا جميعا إلى بيرلا هاوس، ويعطوا تعهّدهم الشخصي لغاندي. وصلتُ إلى بيرلا هاوس على الساعة العاشرة تقريبا، وقلتُ لغاندي إنني كنت راضيا تماما لأنّه قد تمّ تحقيق هدفه. غيّر صومه قلوبَ آلاف الناس، وأفهمهم، من جديد، معنى العدالة والإنسانيّة. وتعهّد الآلاف بأن تكون صيانة العلاقات الطيّبة بين الطوائف أهمّ أولويّاتهم. ناشدت غاندي أن يقبل التعهّدات ويضع حدّا لصومه.

سُرَّ غاندي طبعا، لكنه لم يستجب بعدُ إلى طلبنا. مرّ اليوم في النقاشات ومحاولات الإقناع. كان قد فقد قوّتَهُ ووزنَهُ وصار عاجزا عن الجلوس. كان متمدّدا على فراشه، لكنّه كان يسمع ما يقوله كلّ موفد من الموفدين الذين جاؤوا، ويحاول أن يقيّم مدى التغيّر الحقيقيّ الذي طرأ على القلوب. وفي النهاية قال إنّه سيعطي ردّه النهائيّ صبيحة اليوم الموالي.

اجتمعنا كلّنا في غرفته صباحا. كان جواهرلال موجودا هناك من قبل. وكان من ضمن القادمين زاهد حسين المفوّض السامي بباكستان الذي طلب الإذن لرؤيته. أرسل غاندي في طلبه، فانضمّ إلى المجموعة التي كانت تضمّ كلّ المجلس الوزاري باستثناء صاردار باتل. أشار غاندي إشارة فهمنا منها أنه ينبغي على الذين يرغبون في تكرار تعهّدهم أن يفعلوا ذلك الآن. وقف 25 قائدا من دلهي من جميع مذاهب الفكر السياسي الهندوس والسّيخ، الواحد تلو الآخر، وأقسموا أنهم سينجزون بأمانة الشروط التي وضعها غاندي. عندها، أشار غاندي إشارة، فصار الرجال والنساء من حولِه ينشدون الرمضون[22].

22 - الرمضون: نشيد يتلى في الصلاة وهو من الأناشيد المفضّلة لدى غاندي. (المترجمة)

جاءته حفيدته بكأس من عصير البرتقال، فأشار إليها أن تناولني الكأس. قرّبت الكأس من شفتيه، ووضع غاندي حدًّا لصومه.

بعد أن بدأ غاندي صومه، بدأ السيّد آرثر مور المحرّر السابق لصحيفة ستايتسمن، هو الآخر، صَوْما في فندق الأمبيريل. كانت أعمال الشغب التي قام بها الهندوس والمسلمون قد أثّرت فيه أيّما تأثير. قال لي إن تواصلت الاضطرابات، سيواصل صومه حتّى الموت. كان يعيش في الهند منذ زمن طويل حتّى أنّه تبنّاها وطنا له. وباعتباره هنديًا، كان يعتبر أنّ من واجبه أن يضع حدًّا للبؤس البشريّ وللإذلال الذي كان يحصل. قال إنّ الموت أحبّ إلى نفسه من المأساة التي ضربت الهند. فأرسلت إليه خطابا أعلمته فيه أنّ غاندي قد وضع حدًّا لصومه، وأنّ عليه أن يفعل الشيء ذاته.

حتّى بعد أن وضع غاندي حدًّا لصومه، تطلّب الأمر بضعة أيّام حتّى استعاد عافيته ببطء. عاد ساردار باتل من بُمباي، وذهب لزيارة غاندي. كنت حاضرا أنا بدوري أثناء اللقاء. لم تشعّ عظمة غاندي أبدا بالوضوح الذي تشعّ به في مثل هذه المناسبات. استقبل ساردار باتل بكثير من الودّ والطيبة. لم يكن يبدو على طلعته أيّ أثرٍ لأيّ ضغينةٍ أو غضب. كان واضحا أنّ باتل كان متضايقا، ومازال تعامله جافًا ورسميًا. لم يكن راضياً على غاندي، ولا على ما فعله غاندي بُغية استرداد المسلمين الشُّعُورَ بالأمن.

لم يكن ساردار باتل هو الشخص الوحيد الذي اتّخذ هذا الموقف من صوم غاندي. في الواقع، كان هناك مجموعة من الهندوس امتلأت نفوسهم بالنّقمة على غاندي منذ اللحظة التي بدأ فيها المفاوضات مع جنّاه بعد الإفراج عنه من معتقل بونا. كان غضبهم ينمو يوما بعد يوم. اتّهموه جهارا بالتفريط في ما يسمّونه المصالح المشروعة للهندوس. لم يكن هذا الأمر سرًّا، وكان منتشرا على نطاق واسع في البلاد. غير أنّ المسائل وصلت ذروتها بعد تقسيم الهند. ذهبت مجموعة من الهندوس تحت قيادة الماهاصبها والراشتريّا سْفَايَمْ سِفاكْ صَنْغ إلى حدّ القول، علانيةً، إنّ غاندي كان يساعد المسلمين ضدّ الهندوس.

نظّموا معارضة حتّى ضدّ اجتماع الصلاة الذي كانت تُتلى فيه آيات من القرآن (الكريم) إلى جانب العهد القديم والعهد الجديد، بالإضافة إلى النصوص الهندوسيّة المقدّسة. وبعد أن وصل إلى دلهي في شهر سبتمبر 1947، أثار بعض هؤلاء الرجال هَرَجاً حول اجتماعات الصلاة التي كان يقيمها، وقالوا إنّهم لن يسمحوا بتلاوة سُور من القرآن (الكريم) أو مقاطع من العهد القديم والعهد الجديد. وُزّعت المناشير والإعلانات لهذا الغرض. كما قاموا بتحريض الناس ضدّ غاندي واصفين إيّاه بأنّه عدوّ الهندوس. ذهب أحد المناشير إلى حدّ القول إن لم يغيّر غاندي أساليبه، يجب اتّخاذ خطوات لاغتياله.

أثار صوم غاندي سُخْطَ هذه الجماعات أكثر من ذي قبل. فقرّروا أن يفعلوا شيئا حياله. وما إن عاد إلى إقامة اجتماعات الصلاة حتى أُلقيت عليه قنبلة. من حسن الحظّ أنّ أحدا لم يصب بأذى، لكن الشعب، عبر أرجاء الهند، صُعق: فمن يجرؤ على أن يرفع يده ضدّ غاندي؟ شرعت الشرطة تحقّق في الأمر، ومن الغريب أنهم لم يتمكّنوا من معرفة من الذين زرعوا القنبلة، وكيف نجحوا في الدخول إلى بيرلا هاوس. ومن الغريب أيضا، أنه لم يتمّ اتّخاذ خطوات ناجعة لحماية حياته، حتى بعد هذه الحادثة. كشفت هذه الحادثة أن هناك مجموعة، رغم أنها صغيرة الحجم، مصمّمة على قتل غاندي. وبالتالي فمن الطبيعي أن نتوقّع أن تتّخذ الشرطة وإدارة التحقيقات الجنائيّة في دلهي إجراءات خاصّة لحماية غاندي. عليّ أن أقول، ويا لَعارنا وحزننا الأبديّين، إنّه لم يتمّ اتّخاذ حتى أبسط إجراء وقائيّ.

مرّت بضعة أيّام أخرى، وبدأ غاندي يستعيد عافيته رويدا، رويدا، فشرع مجدّدا يخطب في الجموع بعد الصلاة. كان آلاف الناس يحضرون هذه الصلوات، وكان غاندي يشعر أنّ هذه إحدى أنجع الطرق لإيصال رسالته إلى الناس.

في يوم 30 يونيو/ حزيران 1948 ذهبتُ لأزورَ غاندي على الساعة 2.30 ظهرا. كان هناك عددٌ من الأمور المهمّة أردت أن أناقشها معه فمكثْتُ عنده مدّة

أكثر من ساعة. ثمّ عدتُ إلى البيت. لكنني تذكّرت فجأة على الساعة 5.30 أنني لم آخذ نصيحته حول بضع نقاط مهمّة، فعدتُ إلى بيرلا هاوس، وتفاجأت عندما وجدت البوّابات مغلقة. كان الآلاف واقفين على العشب وتدفّق الحشدُ حتى بلغَ الشارع. لم أستطع أن أفهم ماذا كان يحصل، لكنهم جميعا أفسحوا لي الطريق عندما رأوا سيارتي. نزلتُ من السيارة عندما بلغتُ البوّابة، وصعدت إلى منزل غاندي. كانت أبواب الدار مغلقةً هي الأخرى. رآني أحد أهل الدار عبر زجاج النافذة، وخرج ليصطحبني إلى الداخل. وفيما أنا أدخل البيت، قال شخصٌ وهو يبكي: "تمّ إطلاق النار على غاندي، وهو الآن ممدّدٌ فاقد الوعي."

كان الخبر صادما ومفاجئا إلى درجة أنني كدت لا أفهم معنى الكلمات. شعرتُ بدوار وصعدت إلى غرفة غاندي. وجدته مسجّى على الأرض. كان وجهه شاحبا وعيناه مغمضتين. كان حفيداهُ يمسكان بقدميه ويبكيان. وسمعت في ما يشبهُ الكابوس: "لقد مات غاندي."

خـــــاتمة

كان اغتيال غاندي نهايةَ عَهْد. لا أستطيع إلى الآن أن أنسى كيف أننا فشلنا فشلا ذريعا في حماية حياة شخص قد يكون أعظم ابنِ أنجبته الهند الحديثة. بعد حادثة القنبلة، كان من الطبيعي أن نتوقّع أن تتّخذ الشرطة وإدارة التحقيقات الجنائيّة في دلهي إجراءات خاصّة لحماية غاندي. إذا تعرّض شخصٌ عاديٌّ إلى محاولة قتل، تأخذ الشرطة حيطة خاصّة. يحصل هذا حتى عندما يتلقّى أحدٌ رسائلَ تهديدٍ أو قَدْح. في حالة غاندي لم تكن هناك رسائل تهديدٍ وقدْح وتهديدات علنيّة فحسب، بل تمّ فعليًا إلقاء قنبلة عليه. كان الأمر يتعلّق بحياةِ أكبر شخصيّة في الهند الحديثة، ورغم ذلك لم يتمّ اتّخاذ أيّ إجراء ناجع. لم يحدث ذلك لأنه من الصّعب اتّخاذ مثل هذه الإجراءات. لم تكن اجتماعات الصلاة تقام في ساحة مفتوحة، بل على العشب في بيرلا هاوس. وهو مكان تحيط به الحيطان من كلّ جانب. لا يمكن أن يدخله أحدٌ إلاّ عبر البوّابة. أبسط ما كانت الشرطة تستطيع فعله هو مراقبة من يدخل من البوّابة، ومن يخرج منها.

بعد المأساة تبيّن من شهادة الحضور أنّ القاتل قد دخل بشكل مريب إلى أبعد حدٌ. كانت تصرّفاته وكلماته تستدعي أن تضعه إدارة التحقيقات الجنائيّة تحت المراقبة. لو اتّخذت الشرطة أيّ إجراء، لأمكن كشف أمره ونزع سلاحه. لقد جاء وهو يحمل مسدّسا، ولم يراقبه أحد. عندما وصل غاندي إلى اجتماع

الصلاة، وقف القاتل وفاتح غاندي قائلا: "جئتَ متأخّرا اليوم." ردّ غاندي قائلا: "نعم." وقبل أن يتمكّن من قول أيّ كلمة أخرى، انطلقت ثلاث رصاصات أودت بحياته الغالية.

أبرز ما كان ملحوظا في كلّ هذه الشؤون هو أنّ صاردار باتل كان قد انقلب ضدّ غاندي. لقد كان غير مُبَالٍ عندما صام غاندي بسبب مسألة أمن المسلمين.

شعر باتل أنّ هذا الصوم كان موجّها ضدّه. لهذا السبب رفض البقاء حتى عندما طلبت منه أن لا يذهب إلى بُمباي. كان لموقفه تأثيرٌ على الشرطة يؤسف له كثيرا. نظر الضبّاط المحلّيون إلى صاردار باتل، وحين رأوا أنه لم يصدر أوامر خاصة لحفظ أمن غاندي، لم يعتبروا أنه من اللاّزم اتّخاذ أيّ إجراء خاصّ.

كانت لامبالاة باتل أمام موت غاندي واضحة إلى درجة أنّ الجميع لاحظوها. وبطبيعة الحال كانت هناك موجة من الغضب بعد المأساة. اتّهم بعض الناس صاردار باتل جهارا بالتقصير أو بما هو أسوأ منه. أظهر جاياپْراكاش نارايان شجاعة كبيرة عندما أثار المسألة. أثناء الاجتماع الذي عقدناه في دلهي لنعبّر عن رُعْبِنا وحُزْنِنا على موت غاندي، قال جاياپْراكاش نارايان، بوضوح، إن وزير الداخليّة لا يمكنه التهرّب من مسؤولية هذا الاغتيال. وطُلِب من صاردار باتل أن يقدّم تفسيرا لكونه لم يصدر أوامر خاصة تنصّ على حفظ أمن غاندي في حين كانت هناك حملة علنيّة تشجّع الناس على قتله، وقد تمّ فعلا إلقاء قنبلة عليه.

طرح السيد بروفولاّ شَنْدرا غوش القادم من كلكوتا المسألة نفسها. كما أدان حكومة الهند لفشلها في إنقاذ حياة غاندي الغالية. وأشار إلى أنّ صاردار باتل مَدينٌ بمكانته السياسية لغاندي، كما أن صاردار باتل مشهور بأنه وزير داخليّة قويّ وناجع. كيف يفسّر أنه لم يتمّ بذل أيّ جهد لإنقاذ حياة غاندي؟

قابل صاردار باتل هذه التّهم بطريقته الخاصّة التي تميّزه. لا شكّ أنه

تفاجأ كثيرا، لكنه استاء أيضا من الطريقة التي كان الناس يتّهمونه بها جهارا. عندما عُقد اجتماع حزب المؤتمر البرلماني، قال إنّ أعداء المؤتمر كانوا يحاولون تقسيم المنظّمة بِكَيْلِ هذه التّهم إليه. كرّر تأكيده على ولائه لغاندي، وقال إنّ الحزب ينبغي أن لا يتأثّر بهذه التّهم، وينبغي أن يبقى قويّا وغير منقسم أثناء الوضع الخطير الذي انجرّ عن موت غاندي. لم تذهب مناشدته سُدًى. فقد أكّد له العديد من أعضاء حزب المؤتمر أنهم سيقفون إلى جانبه.

كانت الحوادث المنفصلة في مختلف أرجاء البلاد تظهر كم أنّ سمّ الطائفيّة قد انتشر في الفترة الأخيرة. عمَّ تأثير عمليّة الاغتيال البلد بأكمله، لكن الناس كانوا، في عدد قليل من المدن، يوزّعون الحلوى ويحتفلون ليعبّروا عن فرحتهم. قيل هذا الكلام خاصة عن قَرْيَتَيْ جواليور وجايبور. صعقتُ عندما سمعتُ أن الحلويات توزّع في هاتين القريتين علانية، وأن الصَّفاقة وصلت ببعض الناس إلى حدّ الاحتفال جهارا. غير أنّ فرحتهم لم تدم طويلا. كان الحزن يغمر البلد بأكمله، فانصبّ جام غضب الشعب على كلّ من يمكن اعتبارهم أعداء غاندي. طيلة الأسبوعين أو الثلاثة أسابيع التي تلت المأساة لم يستطع قادة منظّمة مَاهاصابْهَا الهندوسية ومنظمة راشتريا سوايامسيفك[23] أن يخرجوا من بيوتهم ويقابلوا الناس. كان د. شياما برازاد مُوكرْجي، وقتها، رئيس منظّمة مَاهاصابْهَا الهندوسية ووزيرا في الحكومة الاتّحاديّة. لم يجرؤ على الخروج من بيته، وبعد مرور بعض الوقت استقال من المَاهاصابْهَا. لكن الأوضاع تحسّنت رويدا، رويدا، وبعد مضيّ بعض الوقت هدأ الناس.

تمّت مقاضاة القاتل جودسي، لكن إدانته تطلّبت وقتا طويلا. قضت الشرطة بضعة أشهر حتى أكملت التحقيق، فقد بدا أنّ مؤامرة كبيرة قد دُبّرت لاغتيال غاندي. كان ردّ الفعل الشعبي وقت إيقاف جودسي دليلا على أنّ قسما من الهندوس قد سمّمتهم العصبيّة الطائفيّة. أدانت الأغلبية الساحقة من الشعب الهندي جودسي وقارنتْهُ بيهوذا، لكن بعض النساء من عائلات محترمة

23 - راشتريا سوايامسيفك: اسم منظّمة هندوسيّة انفصالية، ومعناها في اللغة الهنديّة: منظّمة القوميين المتطوّعين. (المترجمة)

أرسلن إليه قميصا من الصوف قُمْنَ بحياكته من أجله. كما تكوّنت حركة تطالب بإطلاق سراحه. لم يدافع مناصروه عن فِعْلَته علنا. قالوا ما دام غاندي كان يؤمن باللاّعنف، يجب أن لا يُعْدَمَ قاتلُهُ. وأرسلوا برقيّة إلى جواهرلال كتبوا له فيها إنّ إعدام جودسي سيكون ضدّ مبادئ غاندي. لكنّ القانون أخذ مجراه الخاصّ، وأكّدت المحكمة العليا حكم إعدامه.

بالكاد مرّ شهران على موت غاندي حين أصيب صاردار باتل بنوبة قلبيّة. حسب تفسيري لقد جرى ذلك نتيجة الصدمة التي تلقّاها. طالما كان غاندي على قيد الحياة، كان غضب باتل منه باقيا على حاله. وعندما اغتيل غاندي، واتّهم الناس صاردار باتل علانية بالتقصير وعدم النجاعة، شعر بصدمة عميقة وأحسّ بالمهانة. إلى جانب ذلك، لم يستطع أن ينسى أنّه مدينٌ لغاندي بكلّ شيء. ومن المؤكّد أن المودّة والاحترام اللذين كان غاندي دائما يكنّهما له قد جعلا وضعه أصعب. تفاعلت هذه العوامل في ذهنه إلى أن أصابته جلطة. عاش بعدها أربع سنوات، لكنه لم يتعافَ أبدا.

هكذا ظفرت الهند بحرّيتها، لكنها خسرت وحدتها. بُعثت للوجود دولةٌ جديدةٌ اسمها باكستان. إنّ الرابطة الإسلاميّة هي التي خلقت باكستان، وبطبيعة الحال، أصبح حزب الرابطة الإسلاميّة هو القوّة المسيطرة في هذه الدولة الجديدة. كنت قد شرحتُ سابقا كيف أنّ الرابطة الإسلاميّة شُكّلت بالأساس لمعارضة المؤتمر. وبالتالي لا نكاد نعثر فيها على أيّ عضو قد شارك في تحرير البلاد. لم يقدّم أعضاؤها أيّ تضحيات، ولم يجرّبوا قواعد السلوك النضالية. كانوا إما موظفين حكوميين متقاعدين، أو رجالا جيء بهم إلى الحياة الاجتماعيّة تحت وصايةٍ بريطانيّة. كانت النتيجة أنّ السلطة أُوكلَت، عندما تأسست الدولة الجديدة، إلى أشخاص ليس لديهم خبرة في العمل الحكومي ولم يقدّموا تضحيات. إن العديد من قادة الدولة الجديدة من الأنانيّين الذين جاؤوا إلى الحياة الاجتماعيّة من أجل مصالح شخصيّة لا غير.

كان أغلب قادة الدولة الجديدة قادمين من الأقاليم المتّحدة، وبيهار،

ويُمباي. وفي أغلب الأحيان، كانوا لا يتكلّمون حتّى لغة المناطق التي تكوّنت منها باكستان الآن. وبالتالي كانت هناك فجْوةٌ بين الحاكم والمحكوم في الدولة الجديدة. هؤلاء القادة الذين عيّنوا أنفسهم كانوا يخشون من أنه إذا أجريت انتخابات حرّة، فإن أمل أغلبهم في المحافظة على المنصب ضئيلٌ جدّا. وبالتالي كانت غايتهم هي تأجيل الانتخابات أطول وقت ممكن، وتعزيز ثرواتهم وسلطاتهم في البلاد. مرّت عشر سنوات ولم يوضع دستورٌ إلاّ مؤخّرا. وحتّى هذا الدستور لا يبدو نهائيّا، فهم يقترحون، بين الحين والآخر، إدخال تحويرات عليه. ولا أحدَ يعرف متى ستُجْرَى الانتخابات الأولى في ظلّ الدستور الجديد، وما إذا كانت ستُجْرَى أصلا.

كانت النتيجة الوحيدة التي انجرّت عن تأسيس باكستان هي إضعاف موقف المسلمين في شبه القارّة الهنديّة. أضعف المسلمون الذين ظلّوا في الهند والبالغ عددهم ٤٥ مليون نسمة. ومن ناحية أخرى ليس هناك أيّ دليل على أنّه يمكن أن تؤسّس حكومة قويّة وناجعة في باكستان. وإذا ناقش المرْءُ المسألةَ من وجهة نظر طائفة المسلمين، هل يمكن لأحد اليوم أن ينكر أنّ باكستان كانت، بالنسبة إليهم، تطوّرا مشؤوما يؤسف له؟ حقيقة الأمر أنني كلّما فكّرت في الأمر أكثر، ازددت اقتناعا بأنّ تأسيس باكستان لم يحلّ أيّ مشكل. لقائل ما أن يقول إنّ العلاقات بين الهندوس والمسلمين قد ساءت في الهند إلى درجة أنه لم يعد هناك بديل عن التقسيم. كان هذا هو موقف أغلب مناصري الرابطة الإسلامية، وبعد التقسيم تبنّى العديد من قادة المؤتمر مواقف شبيهة. كلّما ناقشت الموضوع مع جواهرلال أو صاردار باتل بعد التقسيم، كان هذا هو التبرير الذي يدعمان به موقفهما. غير أننا إذا أعدنا التفكير في الأمر بهدوء، نجد أن تحليلهما ليس صحيحا. أنا على يقين من أنّ المخطط الذي أعددتُه بمناسبة قدوم البعثة الحكوميّة وقبلته البعثة إلى حدّ كبير، كان حلاّ أفضل من جميع النواحي. أنا متأكّد من أنّ مستقبلا أكثر أمانا وأمجادا كان ينتظرنا لو بقينا ثابتين ورفضنا القبول بالتقسيم.

هل يمكن لأحد أن ينكر أن تأسيس باكستان لم يحلّ المشكلة الطائفيّة، بل جعلها أكثر حدّة وإيذاءً؟ كان أساس التقسيم هو العداء بين الهندوس والمسلمين. لكن تأسيس باكستان أعطى هذا العداء شكلا دستوريا دائما، وزاد من صعوبة إيجاد حلّ له. وأكثر ملمح يؤسَفُ لهُ في هذا الوضع، هو أنّ شبه الجزيرة الهنديّة مقسّمة إلى دولتين تنظر كلّ منهما إلى الأخرى بعين الكراهية والخوف. تعتقد باكستان أنّ الهند لن تسمح لها أبدا بأن تنعم بالسلام، وستدمّرها إذا سنحت الفرصة. وبالمقابل تخشى الهند أن تتحرّك باكستان ضدّها وتهاجمها إذا سنحت الفرصة. أدّى هذا الأمر بالدولتين إلى زيادة النفقات على الدّفاع. بعد الحرب، أنفقت الهند غير المقسّمة قرابة مائة كرور لا غير على الدفاع. قال اللّورد وايفل نفسه إنّ مبلغ مئة كرور يكفي لأجنحة قوّات الدفاع الثلاثة. ثمّ جاء التقسيم. وذهب ربع الجيش غير المقسّم إلى باكستان. ورغم ذلك، كان على الهند أن تنفقَ ٢٥٠ كرو تقريبا لصيانة قوات دفاعها. إن حكومة الهند تنفقُ نصف مداخيلها تقريبا في مصاريف الدفاع.

كان وضع باكستان أسوأ. فالبرغم من أن لديها ربع الأراضي الهندية وربع الجيش الهندي فحسب، إلا أنّها تنفق ١٠٠ كرور على الأقلّ من دخلها الخاص، إلى جانب المساعدة التي تدفعها لها الولايات المتّحدة. إذا وقفنا لنفكّر، سيتبيّن لنا كَمْ أنه كبيرٌ حجْمُ الخسارة الوطنية الناجمة عن كلّ هذا. لو أمكن إنفاق هذه الأموال على التطوّر الاقتصادي، لتسارع تقدّم البلاد كثيرا.

لم يَبْدُ على السيّد جِنّاه وأتباعه أنّهم يدركون أنّ الجغرافيا تقفُ ضدّهم. كان مسلمو الهند موزّعين بطريقة تجعل تأسيس دولة منفصلة في منطقة موحّدة أمرا مستحيلا. كانت المناطق ذات الأغلبيّة المسلمة موجودة في الشمال الغربيّ والشمال الشرقيّ. ليس هناك أيّ نقطة التقاء فعليّة تصل بين هاتين المنطقتين. والناس في كلّ منطقة منهما مختلفون تماما عن الناس في المنطقة الأخرى على جميع الأصعدة، باستثناء الدين. من أكبر التحايلات على الناس أن نقول لهم إنّ وحدة الدين يمكن أن توحّد مناطق مختلفة جغرافيا، واقتصاديّا، ولغويّا،

وثقافيًا. صحيح أنّ الإسلام الحقيقيّ كان يطمح إلى تأسيس مجتمع يتعالى على الاختلافات العرقيّة، واللغويّة، والاقتصاديّة، والسياسيّة. لكن التاريخ أثبت أن الإسلام لم يستطع، بعد بضع عشرات من السنين الأولى أو بعد قرن على الأكثر، أن يوحّد كلّ البلدان المسلمة على أساس الإسلام وحده.

هكذا كان الوضع في الماضي، وهكذا هو الوضع الآن. لا أحدَ يمكنه أن يأمل في أن يُنهي شرق باكستان وغربها اختلافاتهما، ويشكّلان دولة واحدة. ففي صلب غرب باكستان هناك تنافرٌ داخليٌّ بين الأقاليم الثلاثة: السند، وبُنجاب، والحدود، وهي تعمل لتحقيق أهداف ومصالح مختلفة. لكن سبق السيف العذل. إن دولة باكستان الجديدة واقعٌ. ومن مصلحة الهند وباكستان أن يقيما علاقات وديّة ويتعاونا سويّا. وأيّ وجهة أخرى تسلكها الأحداث لن تؤدّي إلا إلى اضطرابات أكبر، ومزيدٍ من المآسي والمحن. يعتقد بعض الناس أنّ ما حدث كان أمرا لا مفرّ منه. ويعتقد آخرون جازمين، هم أيضا، أنّ ما حصل كان خطأً، وكان يمكن تفادي حصوله. لا يمكننا أن نجزم اليوم أيّ القراءتين كانت على صوابٍ. وحدهُ التاريخ سيقرّر إن كنّا تصرّفنا بحكمةٍ وبشكلٍ سليمٍ.

(سبتمبر 1957)

الملاحق

الملحق رقم 1

كلمة المحرّر

عندما كانت سيرتُهُ قَيْدَ الإعداد، شعر مولانا أبو الكلام آزاد بأنّ فيها بعض الأحكام على الرجال والأحداث لم يحن بَعْدُ أوان نشرها. لذلك أعدّ إصدارا منقّحا يتمّ نشره تحت عنوان:

الهند تظفر بالحرّية
حكاية سيرة حياة
لمولانا أبي الكلام آزاد

شعر مولانا آزاد أيضا، أنّه يرغب في أن يترك لمؤرّخ المستقبل تسجيلا كاملا لتقييمه لبعض المسائل المثيرة للجدل ورأيه فيها، وهي مسائل تمّ حذفها من الكتاب المنشور. حتّى المادّة التي لم يتمّ حذفها، تختلف اختلافا طفيفا عن النصّ الأصلي الوارد هنا. يعود سبب هذا الأمر إلى أنّ النصّ خضع إلى مراجعات كثيرة قبل نشره، كانت حدّةُ الموقف الوارد في الأصل تُلطَّفُ في كلّ مرّة، احتراما لمشاعر معاصريه وزملائه، إلا مرّة واحدة أو مرّتين.

أمّا في ما يخصّ المقاطع التي لم تنشر ضمن الكتاب والتي تتضمّن مواقف مولانا آزاد وأحكامه، فإنكم تجدونها ضمن هذه الورقات التي تمّ حفظها وديعةً في الأرشيف الوطني. الخطوط العريضة للفوارق هي التالية:

أ- شعر مولانا آزاد أنّ إساءةً قد وُجّهت إلى د. سيّد محمود عندما لم يتمّ اختياره ليصبح أول عضو من المؤتمر يتولّى رئاسة الوزراء في بيهار. ومن ناحية أخرى، كان يدرك بوضوح أنّ الطريقة التي

ضمن بها د. سيّد محمود الإفراج عنه من معتقل قلعة أحمدنجار لا يمكن تبريرها. كما أنّ مولانا آزاد استنكر بعض تصرّفات د. سيّد محمود بعد الإفراج عنه من المعتقل. وقرّر أن يُسقط من النصّ المنشور المقاطع التي تتناول هذين الأمرين.

ب- كان مولانا آزاد يدرك أنّ صاردار باتل قد لعب دورا لم يكن يتماشى دائما مع مُثُل المؤتمر. ومع أنّ النص المنشور يعطي إشارة واضحة إلى تقييمه لصاردار باتل، فقد أسقط بعض اتّهاماته الخطيرة لأنّه شعر أنّه ينبغي تأجيل نشرها من أجل المصلحة الوطنيّة.

ج- لم يكن مولانا آزاد يكره السيد كريشنا منُن فحسب، بل كان يزدريه تقريبا. كان يدرك أنّ السيد كريشنا منُن غير جدير بالثقة، وكان ينوي، في القسم الثالث من سيرته الذاتيّة، أن يطنب في مناقشة بعض تصرّفات السيد منُن عندما كان يشغل منصب المفوّض السامي للهند. كان مولانا آزاد يؤمن أنّه كان المفروض التحقيقُ في التّهم الموجّهة ضدّ السيد منُن، لكي تثبتَ براءته أو ينال عقوبته. كان يؤمن بهذا إلى درجة أنه عندما أراد السيد جواهرلال نهرو ضمّ السيد منُن إلى الإدارة سنة ١٩٥٤، أرسل مولانا آزاد استقالته. ولم يتمّ إقناعه، بعد ذلك، بضمّ السيد منُن إلى الإدارة إلاّ بصعوبة. قال صراحة إنه قَبِلَ استجابة لرغبة السيد نهرو لا غير، وأضاف قائلا إنه لم يرد

حتّى أن يعلن وجهات نظره وقتها لأنه شعر أنه، إن فعل، أضعف موقف السيد نهرو.

د- كان مولانا آزاد يكنّ للسيد جواهرلال نهرو مشاعر طيّبة جدّا هي مزيج من العاطفة والإعجاب. مما لا شكّ فيه أن بعض تصرّفات السيد جواهرلال نهرو لم تكن تعجبه وكان يعتبرها مفرطة في الاندفاعيّة أو التسرّع، وقد أبقى في النصّ المنشور على بعض الإشارات إلى عدم رضاه عن تصرّفات السيد نهرو أو عدم موافقته عليها. كان دائما يقول إنّ السيد نهرو يتمتّع بالعديد من المزايا وهو خادمٌ صادقٌ للهند إلى درجة أنه ينبغي عدم التركيز على نقائصه القليلة، خاصة ما دام على قيد الحياة. ويعتبر أيّ أمرٍ من شأنه أن يضعف موقف السيد نهرو أمراً ضدّ المصلحة الوطنيّة. وفي الوقت نفسه كان يعتقد أن مؤرّخ المستقبل ينبغي أن يُمنَحَ بعض المعلومات حول إخفاقات نهرو، فأبقاها في هذا الإصدار غير المنقّح لسيرته الذاتيّة.

كانت رغبة مولانا آزاد أن يتمّ تضمين هذه المقاطع في سيرته الذاتيّة بعد تسليم المخطوط إلى المطبعة.

دلهي الجديدة

توقيع

٢ أبريل/ نيسان ١٩٥٨

هومايون كبير

الملحق رقم 2

مقترحات الحكومة البريطانيّة يوم 29 مارس / آذار 1942

أصدر السير ستافورد كريبس مسودة التصريح التالي باسم الحكومة البريطانيّة:

بعد أن تدارست التلهّف الذي عبّر عنه الناس في هذه البلاد وفي الهند بخصوص إنجاز الوعود المتعلّقة بمستقبل الهند، قرّرت حكومة جلالة الملك أن تحدّد، بكلمات دقيقة واضحة، الخطوات التي تقترح الحكومة إنجازها، من أجل تحقيق الحكم الذاتي في الهند في أقرب الآجال. الهدف هو خلق وحدة هنديّة تشكّل سيادة[24] تشترك مع المملكة المتّحدة وسيادات أخرى في الولاء للتاج، لكنها متساوية على جميع الأصعدة، لا تنقص عنها بأيّ شكل من الأشكال، ولا تتبعها في أيّ شأن من شؤونها الداخليّة أو الخارجيّة.

تبعا لذلك، تعلن حكومة جلالته الإعلان التالي:

أ- فور انتهاء المعارك، ينبغي أن تتّخذ خطوات لتشكيل هيئة منتخَبة تُكلّف بوضع دستور جديد للهند.

ب- سيتمّ الحرص على مشاركة الدول الهنديّة في هيئة وضع الدستور، كما هو مبيّن أدناه.

ج- تتعهّد حكومة جلالته بأن تقبل الدستور وتنفّذه فور وضعه، على أن يخضع لما يلي:

24 - يتكوّن الكمنولث من مجموعة سيادات كانت في السابق مستعمرات بريطانيّة، ثمّ أصبحت كلّ دولة تابعة لسلطة الإمبراطوريّة البريطانيّة تتمتّع بالحكم الذاتي تسمّى سيادة. (المترجمة)

1. من حقّ أيّ إقليم من أقاليم الهند البريطانيّة أن يحافظ على وضعه الدستوري الحالي إذا وجد نفسه غير مستعدّ لقبول الدستور الجديد، على أن يخضع له في ما بعد، إن شاء.

إنّ حكومة جلالته ستكون جاهزة للموافقة على دستور آخر يمنح الأقاليم التي ارْتأتْ أن لا تخضع للدستور الجديد المكانة نفسها التي تتمتّع بها الوحدة الهنديّة، ويتمّ سَنُّهُ بشكل يتماشى مع البنود الواردة أدناه.

2. توقيع معاهدة يتمّ التفاوض في شأنها بين حكومة جلالته وهيئة وضع الدستور. ستشمل هذه المعاهدة كلّ المسائل التي تنجم عن نقل المسؤوليّة نقلا تامّا من أياد بريطانيّة إلى أيادٍ هنديّة. ستُتّخذ الاحتياطات اللاّزمة، بموجب الضمانات التي تمنحها حكومة جلالته، لحماية الأقليّات العرقيّة والدينيّة؛ لكنها لن تفرض أيّ قيود على سلطة الاتّحاد الهندي لاتّخاذ قرار، في المستقبل، يخصّ علاقته ببقيّة الدول الأعضاء في الكمّنوالث.

سواء اختارت دولة هنديّة أن تخضع للدسور أو أن لا تخضع، سيكون من الضروريّ التفاوض في شأن مراجعة ترتيبات معاهدتها بالقدر الذي يقتضيه الوضع الجديد.

3. ستتكوّن هيئة وضع الدستور كالآتي، إلا إذا اتفق

قادة الهند في الطوائف الرئيسية على شكل آخر قبل انتهاء المعارك.

فور معرفة نتائج الانتخابات الإقليميّة الضروريّة بعد انتهاء المعارك، يقوم كامل أعضاء المجلس الأدنى25 للهيئة التشريعيّة الإقليميّة، باعتبارهم مجمعا انتخابيا واحدا، بانتخاب هيئة وضع الدستور وفق نظام التمثيل النسبي. ويكون عدد أعضاء هذه الهيئة عُشر عدد أعضاء المجمع الانتخابي.

ستتمّ دعوة الدول الهنديّة إلى تعيين ممثّلين بالنسبة ذاتها المطابقة لمجمل عدد سكّانها، مثلما هو الحال بالنسبة إلى ممثّلي الهند البريطانيّة ككلّ، وبنفس سلطات الأعضاء الهنود البريطانيين.

4. طوال الفترة الحرجة التي تواجه الهند الآن، وبانتظار وضع الدستور الجديد، لا بدّ أن تضطلع حكومة جلالته بكامل مسؤوليّة الدفاع عن الهند، وأن تشرف عليها باعتبارها جزءا من جهود الحرب العالميّة لهذه الحكومة؛ لكن مهمّة التنظيم الكامل لموارد الهند العسكريّة والمعنويّة والماديّة يجب أن تكون مسؤوليّة حكومة الهند بالاشتراك مع الشعوب الهندية. إنّ حكومة جلالته ترغب في دعوة جميع ممثّلي أهمّ فصائل الشعب الهندي إلى مشاركة فوريّة وفعّالة في مجالس بلادهم،

25 - المجلس الأدنى: يسمّى أيضا مجلس العموم وهو يمثّل الشعب في البرلمان. (المترجمة)

وفي الكمّنوالث والأمم المتّحدة. وبهذه الطريقة سيتمّ تمكينهم من تقديم مساعدتهم العمليّة البنّاءة في إنجاز مهمّة حيويّة وجوهريّة من أجل الحرّية المستقبلية للهند.

الملحق رقم 3

مراسلات مع السير ستافورد كريبس

بيرلا بارك

نيو دلهي، 10 أبريل/ نيسان 1942

السير ستافورد العزيز،

أرسلت إليكم يوم ٢ أبريل/ نيسان وثيقة قرار اللجنة التنفيذيّة للمؤتمر وهي تتضمّن آراء أعضاء اللجنة في المقترح المبدئيّ الذي قدّمتموه نيابة عن الحكومة البريطانيّة. وقد عبّرنا في هذه الوثيقة عن رفضنا لمقترحات عدّة مهمّة وبعيدة المدى في ما يخصّ المستقبل. ولم يزدنا التباحث المتكرّر في شأن هذه المقترحات إلا إصرارا أقوى على مواقفنا تجاهها، ونحن نلحّ على أننا لا نستطيع أن نقبلها كما تمّ اقتراحها. إنّ قرار اللجنة التنفيذيّة يعبّر عن استنتاجاتنا بخصوصها. وقد توصّلنا إلى هذه الاستنتاجات بعد إمعان النظر فيها بأكبر قدر ممكن من الجديّة.

غير أنّ هذا القرار شدّد على خطورة الوضع الرّاهن، وأكّد أنّ القرار النهائي الذي قد نتوصّل إليه سيكون محكوما بالتغيرات التي تحدث في

الحاضر. إنّ المشكلة الملحّة أمامنا جميعا، وخصوصا أمام كلّ الهنود، هي حماية الوطن من العدوان والاجتياح. سيتوقّف المستقبل، على أهمّيته، على ما يحدث في الأشهر والسنوات القليلة القادمة. لذلك كنا مستعدّين للاستغناء عن ضمانات متعلّقة بهذا المستقبل غير المضمون، على أمل أن نضع، من خلال تضحياتنا في الدفاع عن الوطن، الأسس الصلبة والثابتة للهند الحرّة المستقلّة. لذلك ركّزنا على الحاضر.

جاءت مقترحاتكم الأصليّة في ما يخصّ الحاضر، كما وردت في البند (ج) من الإعلان المقترح، غامضة وناقصة، باستثناء توضيح "لا بدّ أن تضطلع حكومة جلالته بكامل مسؤوليّة الدفاع عن الهند". الواقع أنّ هذه المقترحات دعت إلى المشاركة في مهامّ اليوم بُغْيَةَ ضمان "الحرّية المستقبلية للهند". تُركت الحرّية لمستقبل غير مضمون، ليس للحاضر؛ ولم يشر البند (ج) إلى أيّ ترتيبات أو تغييرات في الحكومة وغيرها ستتمّ الآن. وحين لفتنا انتباهكم إلى هذا الغموض، قلتم إنه كان مقصودا، بُغية منحكم حريّة تحديد هذه التغييرات بالتشاور مع الآخرين. وفي محادثاتنا، جعلتمونا نعتقد أنكم تنوون تأسيس حكومة وطنيّة تضطلع بكلّ المهام باستثناء الدفاع.

إن وزارة الدفاع ذات أهمية قصوى في كلّ الأوقات وخاصّة وقت الحرب، وبدونها يكون مجال عمل أيّ حكومة وطنيّة محدودا جدا. فضلا عن ذلك الاعتبار، من الواضح أنّ كلّ ما كانت تهدف إليه مقترحاتكم ومحادثاتنا يدور حول إلحاح المشاكل المنجرّة عن التهديد باجتياح الهند. إن الدور الرئيسي لحكومة وطنيّة يجب أن يكون بالضرورة تنظيم دفاع مكثّف، ودفاع يقوم على قاعدة شعبيّة أوسع، وخلق سيكولوجيا جماهيرية لمقاومة الغازي. لا تستطيع أن تنجز هذا الأمر إلا حكومة وطنيّة تضطلع هي نفسها بمهمّة الدفاع. يجب أن تتمتّع المقاومة الشعبية بأرضيّة قوميّة، ويجب أن يشعر الجنديّ والمواطن العاديّ أنهما يناضلان من أجل حريّة الوطن تحت قيادة وطنية.

أصبحت المسألة لا تتعلّق بتلبية تطلّعاتنا الوطنيّة بل بالوقوف الفعليّ في

وجه الحرب ومقاومة أيّ غاز تطأ قدمه أرض الهند. تسيطر الحكومة الوطنيّة على الدفاع عبر وزير الدفاع، ويقوم رئيس الأركان بتسيير القوات المسلّحة وتكون له الحرّية المطلقة في إجراء العمليّات ذات الصلة بالحرب. عادة، كان ينبغي على أيّ حكومة وطنيّة هنديّة أن تتصرّف بهذه الطريقة. أوضحنا أنّ رئيس الأركان في الهند سيضطلع بمسؤولية تسيير القوات المسلّحة وإجراء العمليّات والمسائل الأخرى ذات الصلة بها. كنا مستعدّين، رغبة في التوصّل إلى تسوية، أن نقبل بتقليص النفوذ الطبيعي لوزير الدفاع بعض الشيء. لم نكن نريد، في منتصف الحرب، أن نتسبب في إرباك التنظيم العسكري الحالي أو الترتيبات. قبلنا أيضا أن ينظّم مجلس الحرب في لندن الاستراتيجيا العليا للحرب وسيكون فيه عضو هندي. كان الهدف الآني بالنسبة إلينا هو أن نجعل دفاع الهند أكثر فاعلية، وأن نقوّيه، وأن نوسّعه على أسس الإرادة الشعبيّة، ونزيل عنه كلّ الخطوط الحمر، والتأجيل، واللاّفاعليّة. مسألة تدخّلنا في الجانب التقني والجانب المتعلّق بالعمليّات ليست مطروحة تماما. وبالطبع كان هناك أمر له أهميّة بالغة بالنسبة إلينا وهو أمان الهند وصيانتها. تبعا لذلك، ليس هناك سبب يدعو إلى وجود صعوبة في التوصّل إلى مخرج من هذا المأزق يتماشى مع الرغبة التي يُجمع عليها كلّ الشعب الهندي، ذلك أنه لا يوجد بيننا خلاف في ما يخصّ هذه النقطة.

جعلكم التركيز على الدفاع تعيدون النظر في الأمر، وكتبتم لي يوم 7 أبريل/ نيسان تقترحون صيغة للدفاع.

جاء في رسالتكم: "كما فهمت اللجنة التنفيذيّة، لا يمكن أن ندخل أيّ تغيير على الدستور الموجود حاليا ما دامت الحرب قائمة." تمّ فهم موقف اللجنة التنفيذيّة من الأمر فهما خاطئا تماما، وأرغب في رفع الالتباس رغم أننا لسنا معنيين به مباشرة. لا يرى أعضاء المؤتمر أن هناك أيّ صعوبة كامنة تقف في طريق إدخال تغييرات على الدستور أثناء فترة الحرب. كلّ شيء يساعد في الحرب لا يمكن أن نفعله فحسب، بل يجب أن نفعله، وأن نفعله بسرعة.

تلك هي الطريقة الوحيدة التي تُدار بها الحرب، وتُكسب بها الحرب. لا حاجة إلى سنّ قوانين معقّدة. من السّهل الاعتراف بحرّية الهند وبحقّها في تقرير مصيرها، لو توفّرت الرغبة في فعل ذلك، إلى جانب بضعة ترتيبات وتحويرات مترابطة منطقيّا. وتُترك بقيّة الأمور لترتيبات المستقبل وتعديلاته. اسمحوا لي أن أذكّركم بأنّ الوزير الأوّل البريطاني اقترح وحدة بين فرنسا وإنجلترا عشيّة سقوط فرنسا. لا يمكن تخيّل تغيير أكبر من هذا ولا أكثر جوهريّة من هذا، وقد تمّ اقتراحه في فترة أزمةٍ وخطر كبيرين. الحرب تزيد من سرعة التغيير؛ ولا تتناسب مع التصوّرات الجامدة.

لقد تدارسنا كلّنا صيغة الدفاع التي أرسلتموها لنا، وكذلك الملحق الذي يتضمّن قائمة بالمواضيع أو الوزارات التي سيتمّ تحويلها إلى وزارة الدفاع. كانت هذه القائمة ذات دلالة، فقد كشفت أنّ مهامّ وزير الدفاع ستكون ثانويّة نسبيّا. لم نستطع أن نقبل ذلك، وأعلمناكم بالأمر.

بعد ذلك، اقتُرحت علينا صيغة دفاع جديدة. بدت لنا هذه الصيغة مبنيّة على مقاربة سليمة أكثر، واقترحنا بعض التغييرات مشيرينٍ إلى أنّ قرارنا النهائي سيتحدد بالضّرورة حسب ما يخصص لنا من مهامّ. فأرسلت لنا صيغة منقّحة مع إشارة إلى مهام رئيس الحرب.

شُكّلت هذه الصيغة بطريقة فضفاضة وشموليّة إلى درجة أنّه كان من الصعب علينا أن نعرف ما ستكون المهامّ والوزارات الموكلة لوزير الداخلية وما هي تلك الموكلة لوزير الحرب. فوقع تقديم طلب باسمنا لمدّنا بقوائم توضيحيّة بهذه المهامّ حتى نتمكّن من تدارس الأمر. ولم تصلنا أيّ قائمة منها.

في محاورتنا معكم البارحة ناقشنا الصيغة الجديدة وعبّرنا عن رأينا فيها. لا حاجة إلى أن أعيد ما قلته وقتها. إنّ العبارات المستخدمة في الصياغة مسألة بسيطة، في آخر الأمر، ولا ينبغي أن نسمح لها بأن تكون عقبة في طريقنا، إلا إذا كان مبدأ مهمّ في الميزان. لكن وراء هذه العبارات توجد أفكار، وتفاجأنا

عندما تبيّن لنا أننا طيلة الأيام القليلة الماضية، كنّا نتقدّم وفق افتراضات خاطئة.

وعندما طلبنا منكم مدّنا بقوائم توضيحيّة بمهامّ الوزارتين، أحلتمونا إلى القائمة القديمة الخاصّة بوزارة الدفاع؛ وهي قائمة كنتم قد أرسلتموها إلينا، ولم نستطع قبولها. وقلتم من الممكن أن تتمّ إضافة بعض المهام التكميليّة إلى القائمة؛ لكن في حقيقة الأمر، لا مجال لإضافة أيّ مهمّة لأنّ توزيع الحصص قد تمّ. لذلك قلتم إنّه لا تغيير بين القائمة القديمة وأيّ قائمة جديدة قد يتمّ إعدادها. إذا كان الأمر كذلك، ولا بدّ لنا أن نعود من حيث بدأنا، فما جدوى بحثنا عن صيغة جديدة؟ إن مجموعة من الكلمات تحمل المعنى نفسه لا تحدث فرقا. أثناء أحاديثنا توضّحت أيضا العديد من المواضيع الأخرى، ومن سوء الحظّ أن ذلك لم يكن يخدم مصلحتنا. لقد أشرتم خلال محادثاتكم الخاصّة وتصريحاتكم العلنية إلى حكومة وطنية وإدارة متكوّنة من وزراء. هذه الكلمات لها دلالة معيّنة، وقد تصوّرنا أن الحكومة الجديدة ستعمل بنفوذ كامل على الإدارة، ويتصرّف نائب الملك كرئيسٍ دستوريٍّ. غير أن الصورة الجديدة التي عرضتموها علينا لم تكن، في الواقع، تختلف كثيرا عن الصورة القديمة، فالفرق بينهما في الدرجة لا في النوع. إن الحكومة الجديدة لا يمكن أن يُطلقَ عليها هذا الاسم إلاّ بشكل فضفاضٍ وغير دقيقٍ، ولا يمكنها أن تعمل كحكومة وطنية. سيقتصر الأمر على نائب الملك ومجلسه التنفيذيّ ويحافظ نائب الملك على جميع سلطاته السابقة. لم نطالب بأيّ تغييرات قانونية، لكننا طالبنا بضمانات نهائية، ومواثيق تُبيّن أن الحكومة الجديدة ستعمل كحكومة حرّة ويتصرّف أعضاؤها كأعضاء وزارة في حكومة دستوريّة. وفي ما يخصّ تسيير أمور الحرب والأنشطة المرتبطة بها فإن رئيس الأركان سيكون حرّا ويتصرّف كوزير حرب.

أُعلمنا أنّ لا شيءَ يمكن أن يُقال في هذه المرحلة في ما يخصّ الاتفاقيات التي تتحكّم بالحكومة ونائب الملك ، ولو بشكل عموميٍّ فضفاضٍ. وفي النهاية، كانت إمكانية استقالة أعضاء المجلس التنفيذي أو تهديدهم بالاستقالة أمرا

واردا إذا اختلفوا مع نائب الملك في الرّأي. ذاك العقاب أو الدواء يظلّ واردا دائما. لكن من الغريب أن نبني مُقارَبتنا لحكومة جديدة، منذ تأسيسها، على ترجيح إمكانية الخلاف والاستقالة.

لذلك فإن الصورة التي وضعت أمامنا لا تختلف اختلافا جوهريّا عن الصورة القديمة. كلّ ما نصبو إلى تحقيقه، وأنا متأكّد أنكم تَهْفون إليه أيضا، هو خلقُ مقاربة سيكولوجيّة جماهيرية جديدة تجعل الشعب يشعر بأن حكومته الوطنية قد نشأت وأنه يدافع عن حرّيته التي ظفر بها مؤخّرا، سيُحبَطُ الشعب عندما يرى هذه الصورة القديمة تستعاد، مرة أخرى، وبمسمّياتها القديمة أيضا. إن استمرار مكتب الهند الذي ظلّ رمزا للشرّ بالنسبة إلينا سيؤكّد هذه الصورة. كان من تحصيل الحاصل دائما في الماضي القريب أن مكتب الهند سيزول قريبا لأنه لم يعد مناسبا لهذه اللحظة التاريخية. غير أنه يُقال لنا، الآن، حتى هذه الجثة غير المرغوب فيها والقادمة من عصور خلتْ ستستمرّ في البقاء.

إن صورة الحكومة شبيهة تماما بصورة الحكومة القديمة في كلّ سماتها الجوهرية، وقد رُسمت بطريقة تجعلنا غير قادرين على الانسجام معها. كنّا، عادةً، لا نجد صعوبة كبيرة في التخلّص من هذه المسألة لأنها بعيدة كلّ البعد عمّا كنّا نناضل من أجله، لكننا صرنا مستعدّين، في ظلّ الظروف الراهنة اليوم، لأن نُوليَ كلّ اهتمامنا إلى أيِّ مقترح من شأنه أن يحمي الهند حماية فعليّة. إن الخطر المُحدقَ بالهند يؤثّر فينا أكثر مما يمكنه أن يؤثّر في أيّ أجنبيٍّ، ونحن قلقون وراغبون في أن نبذُلَ قصارى جهدنا لنتصدّى لهذا الخطر ونتغلّب عليه. لكننا لا نستطيع أن نتحمل مسؤوليات مادمنا لم نُمنَح الحرّية والسلطة لنأخذ الأمر على عاتقنا، وما دامت هناك حكومةٌ قديمةٌ تقف عَقَبَةً في طريق الجهود الوطنية.

وفي الوقت نفسه الذي لا نستطيع فيه أن نقبل المقترحات التي تقدّمتم بها، نرغب في أن نعلمكم أننا مستعدّون لتحمّل المسؤولية إذا ما تكوّنت حكومة وطنية

حقيقية. نحن مستعدّون لأن نُنَحّي جانبا كلّ المسائل المتعلّقة بالمستقبل رغم أننا، كما أشرتم، قد كونّا فكرة ثابتة عن ذلك المستقبل. يجب أن تكون الحكومة الوطنية، في الوقت الحالي، عبارة عن مجلس وزراء حكومة يتمتّع بسلطة كاملة ولا يجب أن يكون مجرّد استمرار للمجلس التنفيذي لنائب الملك. أما في ما يخصّ الدفاع فقد سبق لنا أن شرحنا ما ينبغي أن يكون عليه الوضع الآن حسب رأينا. إننا نشعر أن تسوية مثل هذه هي أقلّ القليل الأساسي حتى تتمكّن حكومة وطنية من العمل، وحتى نَسْتَنْهِضَ التعبئة الجماهيرية الضرورية العاجلة.

نودّ أن نشير إلى أن الاقتراحات التي قدّمناها لكم ليست مقترحاتنا نحن فحسب، بل يمكن اعتبارها مطالب الشعب بأسره. لا يوجد اختلافٌ في الرأي بين مختلف الجماعات والأحزاب في ما يتعلّق بهذه الأمور، والخلاف القائم هو خلافٌ بين الشعب الهندي ككلّ والحكومة البريطانية. إن الخلافات الموجودة في الهند مرتبطة بالتغييرات التي ستطرأ على الدستور في المستقبل. نحن نرحّب بتأجيل هذه المسألة حتى يتمّ تحقيق أكبر قدرٍ ممكنٍ من الوحدة في الأزمة الحالية بُغْيَةَ الدّفاع عن الهند. ستحصل مأساةٌ إن منعت الحكومة البريطانية، رغم إجماع الرأي العام الهندي، حكومةً وطنيةً حرّة من العمل ومن خدمة قضيّة الهند، فضلا عن قضايا أكبر يُعاني من أجلها الملايين ويموتون يوميا.

وتفضّلوا بقبول فائق الاحترام

المرسِل أبو الكلام آزاد

المرسَل إليه معالي السير ستافورد كريبس

3 شارع الملكة فيكتوريا

نيودلهي

وفي يوم 11 أبريل/ نيسان ردّ عليّ ريبس بالرسالة التالية:

3 شارع الملكة فيكتوريا
نيو دلهي، 11 أبريل/ نيسان 1942

عزيزي مولانا صاحب،

يؤسفني جدّا أن أتلقّى منكم رسالتكم بتاريخ 10 أبريل/ نيسان التي تعبّرون فيها عن رفض اللجنة التنفيذية للمؤتمر مسودة تصريح حكومة جلالته.

لن أتناول النقاط التي وردت في تصريح لجنتكم الأوّل الذي أرسلتموه إليّ، فمن الواضح أن هذه النقاط ليست هي السببُ الذي جعلكم تأخذون هذا القرار.

ولا داعي أيضا إلى أن أخوض في مسألة اقتسام المهامّ بين وزير الدفاع ورئيس الأركان باعتباره وزير الحرب. فقد تحدّثتم في الأمر طويلا. هذه القسمة منحت وزير الدفاع كلّ المهامّ باستثناء تلك المرتبطة فعليّا بالقيادة العامّة والقيادة العامّة الحربية والقيادة الجوّية، فهذه كلّها تحت إمرة رئيس الأركان باعتباره رئيس القوات الحربية في الهند.

بالإضافة إلى هذه المهامّ في الميدان الضيّق "للدفاع"، تمّ اقتراح وضع الوزارات التالية في يد مندوبين هنود باعتبارهم أعضاء المجلس التنفيذي:

وزارة الداخلية: الأمن الداخلي، والشرطة، واللاّجئين، إلخ.
وزارة المالية: كلّ ما يخصّ تمويل الحرب في الهند.
وزارة الاتصالات: تموينات وذخائر لجميع القوات.
وزارة الإعلام والإذاعة: الدعاية والإعلان، إلخ.
وزارة الحماية المدنية: الحيطة من الغارات الجوية وجميع أشكال الدفاع المدني.
وزارة العدل: القوانين والنظام.
وزارة العمل: القوى العاملة.
وزارة الدفاع: الإدارة والموظّفون الهنود، إلخ.

لم يكن في الإمكان فعل أكثر من ذلك بنقل مسؤولية مصالح الدفاع من قائد الأركان إلى الأعضاء الممثّلين الهنود دون تعريض أمن الهند المباشر للخطر. هذا الدفاع، كما تعلمون، هو واجبُ حكومة جلالته الأعظم ومسؤوليتها، بينما القيادة الموحَّدة إنما تمثّل أمرا جوهريًا يخدم مسألة مساعدة الحلفاء للهند.

إن الداعي الحقيقي لرفضكم المشاركة في حكومة وطنية هو أن شكل الحكومة المقترَح لا يسمح لكم بأن تجعلوا الشعب الهنديَّ رهنَ إشارتكم.

أنتم تتقدّمون بمقترَحين. فحوى الأوّل أنه يمكن تغيير الدستور. بخصوص هذا الأمر ينبغي أن أشير إلى أنكم اقترحتم هذا المقترَح لأوّل مرّة البارحة، أي بعد ثلاثة أسابيع من استلامكم المقترحات، وعليّ أن أضيف ملاحظة أخرى هي أن المندوبين الآخرين الذين أجريتُ معهم مباحثات في هذا الخصوص قد قبلوا فكرة استحالة القيام العمليّ بأيّ تغيير تشريعي ما دامت الحرب دائرة، وفي مثل هذه اللحظة.

أما الثاني فيتمثّل في كونكم اقترحتم تشكيل "حكومة وطنية حقيقية"، وأنْ تكون هذه الحكومة "حكومة مجلس وزراء يتمتّع بسلطة كاملة".

لن يكون هذا ممكنا، كما تلاحظون، دون تغييرات في الدستور ذاتِ طابع معقّدٍ وعلى نطاقٍ واسعٍ.

إذا تمّ تطبيق هذا النظام التوافقي في الظروف الحالية، فإن مجلس الوزراء المعيَّن (يُفتَرَضُ أن يكون معيَّنا من قبل المنظمات السياسية الأساسية) لن يكون مسؤولا تجاه أيّ جهة أخرى سوى نفسه، ولا تمكن تنحيتُه وسيكرّس، في الحقيقة، الدكتاتورية المطلقة للأغلبية.

هذا المقترَح سترفضه كلّ الأقلّيات في الهند، لأنه سيضعها كلَّها تحت سيطرة الأغلبية في مجلس الوزراء بشكل متفرّد ودائم. ولن يكون متماشيا مع ما قدّمته حكومة جلالته من تعهّدات بحماية حقوق هذه الأقليات.

لا يمكن تكوين حكومة أغلبية غير مسؤولة من هذا النوع في بلدٍ مثل الهند حيث الانقسامات الطائفية لا تزال عميقة جدّا.

لكن إلى جانب ذلك، يجب على حكومة جلالته أن تواصل القيام بواجباتها نحو الجموع العريضة من الشعب الهندي التي تعهدت لها بذلك، إلى أن يحين الوقت الذي يضع فيه الشعب الهندي دستوره الجديد.

لقد أحجمت مقترحات حكومة جلالته، بأقصى قدر ممكن، عن التغيير الكامل للدستور لأن الجميع يُسَلِّمُ بأن هذا الأمر غير قابل للتطبيق في الظروف الراهنة.

لذلك فإننا في الوقت نفسه الذي نعترف فيه، أنا وحكومة جلالته، برغبة أعضاء لجنتكم التنفيذية الشديدة في خوض الحرب ضدّ العدوّ بكل ما أوتيتم من قوّة، يؤسفنا أن اللجنة التنفيذية لم تحدّد طريقها في الانضمام إلى جهد الحرب وِفْقَ الشروط التي منحناها إياها بصدق، باعتبارها الشروط الوحيدة التي كان من الممكن أن تجمع كل الطوائف المختلفة وفصائل الشعب الهنديّ.

وتفضّلوا بقبول فائق الاحترام

المرسِل ستافورد كريبس

أقترح نشر هذا الردّ.

مولانا أبو الكلام آزاد،

بيرلا هاوس،

نيو دلهي

كتبت إليه ردّا في اليوم نفسه:

بيرلا هاوس

شارع البوكرك
نيو دلهي
11 أبريل/ نيسان 1942

السير ستافورد العزيز،

استلمت، للتوّ، رسالتكم المؤرّخة بتاريخ 10 أبريل/ نيسان وعليّ أن أعترف أنني وزملائي قد تفاجأنا مفاجأة كبيرة عند قراءتها. أرسل إليكم ردّي هذا على الفور، ولا يمكنني أن أتناول فيه، باقتضاب، إلاّ بعض النقاط التي أثرتموها.

إن النقاط التي وردت في تصريحنا الأصلي مهمّة وهي تمثّل مواقف تجاه المقترحات البريطانية ككلّ، وقد تدارستها لجنتي جيّدا. غير أننا قد لفتنا انتباهكم إلى أنه ما دامت هذه المقترحات متعلّقة بالمستقبل فيمكن تركها جانبا لأننا منشغلون بالاضطلاع بمسؤولية حكومة الهند والدفاع عنها في ساعة الخطر هذه. لكن لا يمكن الاضطلاع بهذه المسؤولية إلاّ إذا كانت مسؤولية حقيقية وسلطة حقيقية.

أما في ما يخصّ تقسيم المهامّ بين وزير الدفاع ووزير الحرب فإنكم لم تمدّونا بقوائم توضيحية كما طلبنا منكم، بل أحلتمونا إلى القائمة القديمة التي تحدّد مهامّ وزير الدفاع. وهي قوائم لم نستطع أن نقبلها إطلاقا كما تعلمون. أنتم تشيرون، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، في رسالتكم التي أردّ عليها الآن، إلى بعض الأمور المتعلّقة بالحرب التي ستضطلع بها وزارات أخرى. في ما يتعلّق بوزير الدفاع من الواضح أن مهامّه ستكون مقتصرة على ما ورد في القائمة الأولى التي أرسلتموها. لم يتقدّم أحدٌ بأيّ مقتَرح يقيّد السلطات الطبيعية لقائد الأركان. لقد بلغنا مبلغا أبعد من هذا فعْلاً، وكنّا مستعدّين للموافقة على إعطائه سلطات أكبر باعتباره وزيرَ الحرب. لكن يبدو أن تصوّر الحكومة البريطانية في ما يخصّ الدفاع يختلف كلّيا عن تصوّرنا. فهو إنما

يعني، بالنسبة إلينا، أن نعطيه طابعا قوميا وأن ندعو كلّ رجلٍ وكلّ إمرأةٍ في الهند إلى المشاركة فيه. إنه يعني أن نثِقَ في شعبنا ونطلب تعاون الناس الكامل في هذا الجهد العظيم. يبدو تصوّر الحكومة البريطانية مرتكزا على انعدام الثقة المطلق في الشعب الهنديّ وسحبِ السلطة الفعلية منه. أنتم تشيرون إلى واجب حكومة جلالته الأعظم ومسؤوليتها في ما يخصّ الدفاع. لا يمكن الاضطلاع بذلك الواجب ولا بتلك المسؤولية بشكل فعليٍّ إلاّ إذا جعلنا الشعب الهنديَّ يضطلع بمسؤوليته ويشعر بها، والماضي القريب يقف شاهدا على هذا. لا يبدو أن حكومة الهند تتفطّن إلى أن الحرب لا يمكن أن تُخاض إلاّ على أساسٍ شعبيٍّ.

إنّ جملتكم التي جاء فيها أننا اقترحنا، لأوّل مرّة، تغيير الدستور بعد ثلاثة أسابيع لم تلامس الصواب إلا قليلا. فقد أشرنا إلى ذلك الأمر أثناء محادثاتنا، صحيحٌ أننا لم نركّز عليه لأننا لم نُرِدْ أن نخوض في مسائل جديدة. لكن عندما ذكرتم في رسالتكم، بوضوح، أننا وافقنا على أن لا تُجْرَى تغييراتٌ دستوريةٌ أثناء الحرب، كان علينا أن ننكِر هذا، ونصحّح انطباعكم.

إنّ القسم الأخير من رسالتكم خاصّة هو الذي فاجأنا وآلمنا. يبدو أن موقف الحكومة البريطانية ما فتئ يسوء تدريجيّا كلّما تقدّمنا في المفاوضات. ما قيل لنا في محادثتنا لأولى معكم يتمّ الآن إنكاره أو تأويله تأويلا ما أنزل الله به من سلطانٍ. قلتم لي، وقتها، ستُشَكَّلُ حكومة وطنية وستعمل باعتبارها مجلس وزراء، وستكون منزلة نائب الملك فيها مماثلةً لمنزلة ملك إنجلترا عند مجلس وزرائه. قلتم لي، في ما يخصّ الحكومة الهنديّة، إنكم تفاجأتم أنه لم يشرْ أحدٌ إلى حدّ الآن إلى هذا الموضوع المهمّ، وأن المسار العمليّ كان يقتضي أن تكون الحكومة الهنديّة مرتبطة بمجلس وزراء السيادة أو منضوية تحته.

هذه الصورة التي رسمتموها لنا تلاشت بأكملها أمامنا الآن تحت مفعول ما قلتموه لنا أثناء حوارنا الأخير.

لقد أوردتم في رسالتكم حجّةً لم تشيروا إليها في أيّ حديثٍ سابقٍ بيننا. فأنتم تشيرون إلى "دكتاتورية مطلقة للأغلبية." غريبٌ أنْ يصدرَ هذا التعبير في هذا السياق، وفي هذه المرحلة. هذه الصعوبة متأصّلة في أيّ خطّة مجلس وزراء مختلط يقع تشكيلُه في وضعٍ طوارئ، لكن هناك العديد من الطرق التي يمكن أن تُذلَّلَ بها هذه الصعوبة. لو أنكم طرحتم هذه المسألة لناقشناها، ولوجدنا لها حلاً مرضيًا. فقد اقتصرت كلّ مُقارَبَتنا للمسألة على أنّه ينبغي أن يتكوّن مجلس وزراء مختلط، وينبغي أن يتعاون أفراده مع بعضهم البعض. قبلنا هذا. نحن في المؤتمر لسنا مهتمّين بالوصول إلى السلطة، لكن كلّ اهتمامنا منصبٌّ على أن يحصل الشعب الهنديّ بأسره على الحرّية والسلطة. كيف سيتكوّن مجلس الوزراء، وكيف سيعمل، هذه مسألة يمكن الخوض فيها بعد أن يتمّ اتّخاذ قرار في المسألة الأساسية، وهي حجم السلطة التي ستعطيها الحكومة البريطانية للشعب الهنديّ. لهذا السبب لم نناقش الأمر معكم ولم نقم حتى بالإشارة إليه. ومع ذلك، فقد أثرتُم الموضوع للمرّة الأولى في الرسالة التي ستكون، حتماً، رسالتكم الأخيرة إلينا، وحاولتم دون أيّ مبرّرات أن تحيدوا عن لُبّ المسألة المطروحة بيننا.

ستتذكّرون أنني ذكرت، في أوّل حديث لي معكم، أن المشاكل الطائفية وما شابهها غير مطروحة في هذه المرحلة. ما إن تعقد الحكومة البريطانية العزم على نقل السلطة والمسؤولية الحيقيتين، حتى يتمكّن المعنيون بالأمر من التعامل مع المسائل الأخرى بنجاحٍ. لقد خلقتم لديّ انطباعا بأنكم موافقون على هذه المقارَبَة.

نحن مقتنعون بأن الحكومة البريطانية لو أنها لم تتّبع سياسة التحريض على الإخلال بالنظام، لأمكننا جميعا، مهما كان الحزب أو الفريق الذي ننتمي إليه، أن نجتمع ونجد خطّ عمل مشترك. لكن، لسوء الحظّ، حتى في ساعة الخطر الشديد هذه، فإن الحكومة البريطانية غير قادرة على التخلّي عن سياستها التخريبيّة. هذا يجعلنا نستنتج أنها تولي أهمية لرغبتها في مواصلة

استحواذها على السلطة في الهند أطول وقت ممكن، وتهتم بالحثّ على الشقاق والإخلال بالنظام في الهند بُغْيَةَ تحقيق تلك الغاية، أكثر مما تهتمّ بالدفاع عن الهند دفاعا فعليا ضدّ العدوان والغزو المُحْدقِين بها. إن الأهمّ، بالنسبة إلينا وبالنسبة إلى جميع الهنود هو الذَّوْدُ عن حمى الهند وصونُها، وذاك هو معْيَارُنا الذي نحكم به على الأمور.

أنتم تقولون إنكم تعتزمون نشْرَ الرسالة التي أرسلتموها إليَّ. أرجّحُ أنْ لا مانعَ لديكم الآن في أن ننشر تصريحنا الأوّل، والرسائل التي أرسلتموها إلينا، وتلك التي أرسلناها إليكم.

وتفضّلوا بقبول فائق الاحترام

المرسِل أبو الكلام آزاد

سعادة المكرّم السير ستافورد كريبس

3 شارع الملكة فيكتوريا

نيو دلهي

الملحق رقم 4

قرار "غادروا الهند"

أوْلَتْ لجنة مؤتمر كلّ الهند أهمّية بالغة للقرار الذي رفعته إليها اللجنة التنفيذية في تصريحها الصادر يوم 14 يوليو/ تمّوز 1942، وللأحداث التي تلته، بما في ذلك تطوّر وضع الحرب، وما أدلى به المتحدّثون المسؤولون باسم الحكومة البريطانية، والتعليقات والانتقادات التي صدرت في الهند وفي الخارج. إن اللجنة تصادق على ذلك القرار وتعتمده، وترى أن الأحداث التي تلته قد

منحته مزيدا من المبرّرات، وأوضحت أن إنهاء الهيمنة البريطانية على الهند ضرورةٌ ملحّةٌ لخدْمَة مصلحة الهند وإنجاحِ مساعي الأمم المتحدة. إن مواصلة هذه الهيمنة أمرٌ مُذِلٌّ للهند ومضْعِفٌ لها، وهو يقلّل من مقدرتها على الدفاع عن نفسها وعلى المساهمة في قضية حرّية العالم.

لقد شهدت اللجنة، بكلّ أسى، تدهور الوضع على الجبهتين الروسيّة والصينيّة، وهي ترفع للشعب الروسيّ والصينيّ أسمى عبارات الإعجاب باسْتبْسالِهما في الدفاع عن حرّيتهما. هذا الخطر المتزايد يجعلِ التمعُّنَ في أسس تلك السياسة التي انتهجتها الأمم المتحالفة، إلى حدّ الآن، الشُّغْلَ الشّاغِلَ لكلّ من يتوقون إلى الحرّية، ويتضامنون مع ضحايا العدوان. فتلك السياسة قد أدّت إلى فشلٍ كارثيٍّ متكرِّر. لا يمكن أن نحوّل الفشل إلى نجاح بتبنّي مثل هذه الأهداف والسياسات والأساليب، فقد أثبتت التجربة السابقةُ الفشل المتأصّل فيها. هذه السياسات ليست مبنيّة على الحرّية بقدر ما هي مبنيّة على هيمنة الدول المستعمِرة على الدول المستَعْمَرَة، وعلى استمرار التقليد الإمبرياليّ والطريقة الإمبرياليّة. إن سيطرة الإمبراطورية، بدل أن تمنح السلطة الحاكمة قوّةً، أصبحت حِمْلاً ولعْنَةً. ها أن الهند، الأرض القديمة للإمبريالية الحديثة، قد أصبحت الصليبَ، لأنه سيحكم على بريطانيا والولايات المتحدة بحرّية الهند، وستمتلئُ أفْئِدَةُ شعوب آسيا وأفريقيا بالأمل والحماس. وبالتالي فإن إنهاء الهيمنة البريطانية في هذه البلاد مسألة حياة أو موت، وهي مسألةٌ عاجلةٌ يتوقّف عليها مستقبل الحرب وانتصار الحرّية والديمقراطية. هِنْدٌ حرّة كفيلةٌ بأن تضمن هذا النجاح بالزجّ بكلّ مواردها العظيمة في النضال ضدّ النازيّة والفاشيّة والإمبرياليّة. لن يؤثّر هذا مادّيا على نتائج الحرب فحسب، بل سيجلب كلّ الإنسانية المضطهدة والمغلوبة على أمرها إلى صفّ الأمم المتّحدة التي ستصبح الهند حليفةً لها، وستصبح الأمم المتحدة قائدة روحية ومعنوية للعالم. ما دامت الهندُ مغلولةً فستظلّ رمزا يشهد على الإمبريالية البريطانية، وستؤثّر تلك الإمبريالية في مصائر جميع الأمم المتّحدة.

وتبعا لذلك، فإن خطر اليوم يقتضي استقلالَ الهند وإنهاء الهيمنة البريطانية. ليس هناك وعد مستقبليٌّ أو ضمانات قادرة على التأثير في الوضع الراهن أو مواجهة الخطر، فهما غير قادرين على إحداث المفعول النفسي المرجوّ في نفوس الجماهير. الآن لا شيءَ غير نور الحرّية يمكنه أن يطلق العنان لطاقة الملايين من الناس وحماسهم، فهما كفيلان بتحويل مجريات الحرب.

لهذا تكرّر لجنة مؤتمر كلّ الهند بكلّ إصرار دعوة القوّة البريطانيّة إلى الخروج من الهند. ما إن يتمّ إعلان استقلال الهند حتّى تُشكَّلَ حكومة مؤقّتة، وتصبح الهند الحرّة حليفة للأمم المتّحدة تتقاسم معها التجارب والمحن المرافقة للنضال المشترك من أجل الحرّية. لا يمكن تشكيل حكومة مؤقّتة إلا بتعاون الأحزاب والمجموعات الأساسية في البلاد. وهكذا تكوّن حكومة مركّبة، وممثّلة لكلّ الشرائح المهمّة للشعب الهندي. وتكون مهامّها الأساسيّة حماية الهند ومقاومة العدوان بجميع ما تملكه من قوى مسلّحة أو غير عنيفة، إلى جانب قواتها الحليفة، بُغْيَةَ تعزيز خير العمّال وتقدّمهم في المزارع والمصانع وفي ميادين أخرى، أولئك الذين يجب أن تكون السلطة والنفوذ كلّهما في أيديهم بالأساس. ستستنبط الحكومة المؤقّتة برنامجا لمجلس تأسيسيٍّ سيضع دستورا لحكومة الهند تقبله كلّ شرائح الشعب الهندي. ينبغي أن يكون هذا الدستور، حسب رأي المؤتمر، دستورا فدراليّا، تتمتّع فيه الوحدات المتّحدة بقدر كبير من الحرّية، وتُخوّل إلى هذه الوحدات صلاحيات تكميليّة. مستقبل العلاقات بين الهند وأمم الحلفاء سيعدّله ممثّلون عن كلّ هذه الدول الحرّة، يتباحثون مع بعضهم من أجل خيرهم المشترك، ومن أجل تعاونهم في المهمّة المشتركة لمقاومة العدوان. إنّ الحريّة ستمكّن الهند من مقاومة العدوان بشكل فعّال عندما تكون إرادة الشعب وقوّته موحّدتين وراءها.

يجب أن تكون حريّة الهند رمزا وفاتحة لحرية جميع الأمم الآسيويّة الأخرى التي ترزح تحت هيمنة أجنبيّة. يجب أن تنال بورما، ومالايا، والهند الصينيّة، والهند الهولنديّة، وإيران، والعراق حريّتها المطلقة. يجب أن يُفهم

بوضوح أنّ البلد الذي يرزح تحت نير هيمنة اليابانيين مثلا، يجب أن لا تهيمن عليه في ما بعد أيّ قوّة استعماريّة أخرى.

في الوقت الذي يجب فيه على لجنة مؤتمر كلّ الهند أن تنشغل، بالأساس، باستقلال الهند والذود عن حماها في ساعة الخطر هذه، ترى اللجنة أنّ السلام والأمن والتطوّر المنظّم للعالم في المستقبل تتطلّب كلّها فدراليّة عالميّة للأمم الحرة، ولا يمكن حلّ مشاكل العالم الحديث على أيّ أساس آخر. إنّ فدراليّة عالميّة كهذه كفيلة بأن تضمن حريّة الأمم المكوّنة لها، وتقي الأمم من أن تعتدي إحداها على الأخرى أو أن تستغلّها، وتضمن حماية الأقليّات الوطنيّة، وتجمع موارد العالم لما فيه خير الجميع. وعندما تتشكّل فدراليّة عالميّة كهذه، يصبح نزع السلاح ممكن التنفيذ في جميع الدول، ولن يعود هناك داع لوجود جيوش وطنيّة وقوّات بحريّة وقوّات جويّة، وستضطلع قوّة دفاع الفدراليّة العالميّة بحفظ أمن العالم والحيلولة دون العدوان.

سيُسْعدُ الهند الحرّة أن تنضمّ إلى مثل هذه الفدراليّة العالميّة وأن تتعاون مع الأمم الأخرى لحلّ المشاكل الدوليّة.

ينبغي أن تكون مثل هذه الفدراليّة العالميّة مفتوحة لجميع الأمم التي توافق على المبادئ الأساسيّة للفدراليّة. لكن في ما يخصّ الحرب، يجب على الفدراليّة أن تنضوي في البداية تحت الأمم المتّحدة. إذا اتُّخذت هذه الخطوة الآن، سيكون لها مفعول كبير جدّا على الحرب، وعلى شعوب دول المحور، وعلى السلام الآتي.

غير أنّ اللجنة تدرك بأسف أنّه رغم الدروس المأسويّة الساحقة التي لقّنتنا الحرب إيّاها ورغم المخاطر المحدقة بالعالم، فإنّ حكومات عدد قليل من الدول فحسب جاهزة لاتّخاذ هذه الخطوة التي لا مفرّ منها في اتجاه الفدراليّة العالميّة. إنّ ردّات فعل الحكومة البريطانيّة والانتقادات المضلّلة التي تقوم بها الصحافة الأجنبيّة تكشف بوضوح أن مطلب الهند البديهي للاستقلال يقع صدّه، في حين أنّنا تقدّمنا به أساسا لنواجه الخطر الآني، ولتمكين الهند من

الذّود عن حماها، ومساعدة الصين وروسيا في ساعة حاجتهما. إنّ اللجنة حريصة على أن لا تُربك، بأيّ شكل من الأشكال، الدفاع عن الصين أو روسيا، فحريتهما ثمينة ويجب أن تُصان، وأن لا تعرّض القدرة الدفاعيّة للأمم المتّحدة للخطر.

غير أنّ الخطر يتزايد على الهند وعلى هذه الأمم، والخمود والرضوخ لهيمنة إدارة أجنبيّة في هذه المرحلة ليسا مهينين للهند ومضعفين لقدرتها على الدّفاع عن نفسها ومقاومة العدوان فحسب، بل إنّهما أيضا ليسا ردّا على الخطر المتزايد ولا يخدمان شعوب الأمم المتّحدة. لم يتلقّ طلب اللجنة التنفيذيّة الجادّ من بريطانيا العظمى ومن الأمم المتّحدة أيّ ردّ إلى حدّ الآن، والانتقادات التي جاءت من جهات أجنبيّة برهنت عن تجاهل كامل لحاجة الهند وحاجة العالم، بل إنها برهنت أحيانا عن معاداة حريّة الهند، مما يكشف عقليّة مهيمنة وتفوّقا عنصريّا لا يمكن أن يقبلهما شعب أبيٌّ واعٍ بقوّته وبعدالة قضيّته.

ورغم ذلك، ها أنّ اللجنة التنفيذيّة تكرّر، في هذه اللحظة الأخيرة، وفي سبيل حريّة العالم، مناشدتها لبريطانيا والأمم المتّحدة. غير أنّ اللجنة تشعر بأنّه لم يعد لديها مسوّغ لمنع الأمّة من السعي لتحقيق إرادتها ضدّ حكومة إمبرياليّة متسلّطة تهيمن عليها وتمنعها من العمل لما فيه مصلحتها ومصلحة البشريّة. وبالتالي، فإنّ اللجنة قد قررت، من أجل إثبات حقّ الهند الذي لا يمكن التنازل عنه في الحرّية والاستقلال، إطلاق نضال جماهيري يقوم على اللاّعنف ويمتدّ على أكبر مدى ممكن، حتى تستخدم البلاد كامل القوّة التي تجمّعت لديها طيلة السنوات الـ22 التي أمضتها في النضال السلميّ. يجب أن يقود غاندي هذا النضال حتما، وتلتمس منه اللجنة أن يمسك بزمام الأمور، ويقود الأمّة في الخطوات التي يتوجّب اتّخاذها.

إنّ اللجنة تناشد شعب الهند أن يواجه المخاطر والصّعاب التي ستعترضه بشجاعةٍ وجَلَدٍ، وأن يتبع التعليمات باعتبار كلّ أفراده جنودَ حرية الهند المنضبطين. يجب أن يتذكّروا أنّ اللاّعنف هو أساس هذا التحرّك، فقد يجيء

زمن لا يمكن أن تصدر فيه تعليمات، أو لا يمكن أن تصل فيه التعليمات إلى شعبنا، ولا تتمكّن فيه أيّ لجنة من لجان المؤتمر من العمل. عندما يحصل هذا، يجب على كلّ رجل يشارك وكلّ امرأة تشارك في التحرّك أن يعمل بنفسه ضمن حدود الزوايا الأربع للتعليمات العامّة التي يتمّ إصدارها. يجب على كلّ هنديّ يتوق إلى الحرّية ويكافح من أجلها أن يكون دليل نفسه يستحثّها على الطريق الصعبة حيث لا مكان للراحة، تلك الطريق المؤدّية إلى استقلالها وفكّ أسرها في نهاية المطاف.

ختاما، إنّ لجنة مؤتمر كلّ الهند، إذ تعبّر عن تصوّرها الخاصّ لحكومة مستقبليّة للهند الحرّة، ترغب في أن توضّح تمام التوضيح لكلّ المعنيين بالأمر أنها، عندما تباشر الكفاح الجماهيري، لا تنوي أن يحصل المؤتمر على السلطة. فالسلطة، عندما تأتي، ستكون ملكا لشعب الهند.

الملحق رقم 5

تصريح الحكومة البريطانيّة بتاريخ 3 يونيو/ حزيران

1. أعلنت حكومة جلالته يوم 20 فبراير/ شباط عزمَها على نقل السلطة في الهند البريطانيّة إلى أياد هنديّة بحلول شهر يونيو/ حزيران 1948. كانت حكومة جلالته تتمنّى أن تتمكّن أهمّ الأحزاب السياسيّة من التعاون لإنجاح خطّة البعثة الحكوميّة بتاريخ 16 مايو/ أيار 1946 ووضع دستور للهند يقبله كلّ المعنيين بالأمر. غير أنّ هذه الأمنية لم تتحقّق.

2. إن أغلبيّة ممثّلي أقاليم مدراس، وبُمباي، والأقاليم المتّحدة، وبيهار، والأقاليم الوسطى، وبِرار، وأَسّام، وأُرِيصّا، والأقاليم الحدوديّة بالشمال الغربي، وممثّلو دلهي، وأَجْمر-مروارا، وكورغ، - قد أحرزوا تقدّما في

مهمّة وضع دستور جديد. ومن ناحية أخرى، قرّرت الرابطة الإسلاميّة بمن فيها أغلبيّة ممثّلي البنغال، وبُنجاب، والسند باعتبارهم يمثّلون بلوشستان البريطانيّة أيضا، عدم المشاركة في المجلس التأسيسيّ.

3. ما فتئت حكومة جلالته ترغب في أن يتمّ نقل السلطة حسب رغبات الشعب الهندي الخاصّة. لو كان يوجد اتّفاق بين الأحزاب السياسيّة في الهند، لصارت هذه المهمّة أسهل بكثير. في غياب هذا الاتّفاق، صار عبْءُ تدبّر طريقة لتحقيق رغبات الشعب الهندي ملقى على كاهل حكومة جلالته. قرّرت حكومة جلالته، بعد التشاور الكامل مع القادة السياسيين في الهند، أن يُعتمد المخطّط المرفق أدناه لهذا الغرض. وترغب حكومة جلالته في أن توضّح أنّها لا تنوي أن تحاول وضع أيّ دستور نهائيٍّ للهند، فهذا أمر من شأن الهنود أنفسهم، ولا يوجد في هذا المخطّط ما يعيق المفاوضات بين الطوائف من أجل توحيد الهند.

4. ليس في نيّة حكومة جلالته أن تُبْطِل عمل المجلس التأسيسيّ الحالي. الآن وقد توفّرت الشروط بالنسبة إلى بعض الأقاليم المذكورة أدناه، صارت حكومة جلالته، نتيجة هذا التصريح، على ثقة من أنّ ممثّلي الرابطة الإسلاميّة في تلك الأقاليم والذين يشارك أغلبهم بالفعل فيها، سيأخذون الآن نصيبهم المستحقّ من العمل. وفي الوقت نفسه، من الواضح أنّ أيّ دستور سيضعه هذا المجلس لا يمكن أن يطبّق على مناطق البلاد التي لا ترغب في قبوله. إنّ أعضاء حكومة جلالته مسرورون لأن الإجراء الموجز أدناه يجسّد أفضل طريقة لتلبية رغبات الشعب في مناطق مثل هذه، في ما يتعلّق بمسألة ما إذا كان سيوضع لهم دستور:

(أ) ضمن المجلس التأسيسيّ الحالي؛ أو

(ب) ضمن مجلس تأسيسيّ جديد منفصل يتكوّن من ممثّلين عن المناطق التي اختارت أن لا تشارك في المجلس التأسيسيّ الحالي.

بعد أن يتمّ هذا الأمر، سيصبح من الممكن تحديد السلطة أو السلطات

التي ستسلّم لها الصلاحيّة.

5. سيُطلب من المجلسين التشريعيّين الإقليميّين في البنغال وبُنجاب أن يعقد جميع أعضاء كلّ منهما (باستثناء الأعضاء الأروبيين) اجتماعا وأن ينقسموا إلى قسمين، قسم يمثّل المناطق ذات الأغلبيّة المسلمة، وقسم يمثّل بقيّة الإقليم. ستُعْتَمَدُ الأرقام الواردة في التعداد السكّاني الرّسميّ لسنة 1941 بُغْيَةَ تحديد عدد سكّان المناطق. تجدون قائمة بالمناطق ذات الأغلبيّة المسلمة في هذين الإقليمين في ملحق هذا التصريح.

6. يُخوّل أعضاء كلّ من جزئَيْ كلّ مجلس تشريعي منهما أن يصوّت لصالح تقسيم الإقليم أو ضدّه. وإذا صوّتت أغلبيّة 8 أصوات لصالح التقسيم، يتمّ التقسيم، وتتّخذ الإجراءات اللازمة.

7. قبل اتّخاذ قرار بشأن التقسيم، يُفضّل أن يعرف ممثّلو كلّ قسم، مسبقا، ما هو المجلس التأسيسيّ الذي سينضمّ إليه كامل الإقليم في حال اتّخذ القسمان بعد ذلك قرار الإبقاء على الوحدة بينهما. لذلك يُعقد اجتماع، إذا دعا إليه أيّ أعضاء من أيّ مجلس تشريعيّ، يجتمع فيه جميع أعضاء المجلس التأسيسيّ (باستثناء الأعضاء الأروبيين)، ويتّخذون قرارا في شأن ما هو المجلس التأسيسيّ الذي سينضمّ إليه كامل الإقليم في حال اتّخذ القسمان قرار البقاء متّحدين.

8. في غُضون اتّخاذ قرارٍ بشأن التقسيم، سيقرّر كلّ قسم في المجلس التشريعي، باسم المناطق التي يمثّلها، أيّ خيار يختاره من الخيارات الواردة في البند الرابع أعلاه.

9. من أجل الهدف الآني المتمثّل في اتّخاذ قرار يخصّ مسألة التقسيم، سيجتمع أعضاء المجلسين التشريعيّين للبنغال وبُنجاب منقسمين إلى مناطق ذات أغلبيّة مسلمة (حسب ما يرد في الملحق)، ومناطق ذات أغلبيّة غير مسلمة. هذه مرحلة تمهيديّة فحسب، ذات طابع مؤقّت محض، إذ

من الواضح أنّنا نحتاج، حتّى يتمّ تقسيم نهائيّ لهذه الأقاليم، إلى بحث مدقّق يخصّ مسائل الحدود. وما إن يتمّ اتّخاذ قرار بخصوص تقسيم أيّ مقاطعة سيشكّل الحاكم العامّ لجنة حدود، يتمّ تحديد أعضاءها ومهامها بالتشاور مع المعنيّين بالأمر. سيُنْصَحُ بتعيين حدود قسميّ بُنجاب على أساس التأكّد من المناطق ذات الأغلبيّة المسلمة والمناطق ذات الأغلبيّة غير المسلمة المتاخمة لها. سيُنصَح أيضا بأخذ عواملَ أخرى بعين الاعتبار. وستعطى نفس التعليمات للجنة الحدود في البنغال. وبانتظار أن يقع العمل بتقرير لجنة حدود، يتمّ العمل بالحدود المؤقّتة الواردة في الملحق.

10. سيُطلب من المجلس التشريعي للسّند (باستثناء الأعضاء الأوروبيين)، أثناء اجتماع خاصّ، أن يتّخذ قراره الخاصّ، هو الآخر، بخصوص البدائل الواردة في البند الرابع أعلاه.

11. إنّ وضعيّة الإقليم الحدوديّ بالشمال الغربي وضعيّة خاصّة. إثنان من أصل ثلاثة ممثّلين عن هذا الإقليم ينتمون فعليا إلى المجلس التأسيسيّ الحاليّ. لكن من الواضح، اعتبارا لموقعه الجغرافيّ ولاعتبارات أخرى، أنه لو اختارت بُنجاب كلّها أو أيّ جزء منها أن لا ينضمّ إلى المجلس التأسيسيّ الحاليّ، يجب أن يُمنح الإقليم الحدوديّ بالشمال الغربي فرصة أخرى لمراجعة موقفه. وبالتالي، في وضعيّة كهذه يتمّ استفتاء شعبيّ لناخبي المجلس التأسيسيّ الحاليّ في الأقليم الحدوديّ بالشمال الغربي ليقرّروا أيّ البدائل المطروحة في البند الرابع يختارون. يتمّ الاستفتاء تحت رعاية الحاكم العامّ وبالتشاور مع الحكومة الإقليميّة.

12. قامت بلوشستان الهنديّة بانتخاب عضو، لكنّه لم يأخذ كرسيّه حتّى الآن في المجلس التأسيسيّ الحاليّ. سَيُمنح هذا الإقليم، هو الآخر، اعتبارا لموقعه الجغرافيّ، فرصة أخرى لمراجعة موقفه، ولاختيار أحد البدائل المطروحة في البند الرابع. إنّ سعادة الحاكم العام بصدد دراسة الطريقة المثلى لإنجاز ذلك.

13. رغم أنّ أسّام إقليم ذو أغلبيّة غير مسلمة، فإنّ منطقة سِلْهِتْ المتاخمة للبنغال ذات أغلبيّة مسلمة. تمّت المطالبة بضمّ سِلْهِتْ إلى البنغال المسلمة، أثناء تقسيم البنغال. وبالتالي، إذا تقرّر تقسيم البنغال، سيتمّ استفتاء في منطقة سِلْهِتْ تحت رعاية الحاكم العامّ وبالتشاور مع الحكومة الإقليميّة بأسّام، لاتّخاذ قرار يقضي بأن تظلّ منطقة سِلْهِتْ جزءا من مقاطعة البنغال، أو أن يقع ضمّها إلى إقليم شرق البنغال المؤسَّس حديثا، وستشكّل لجنة حدود لها صلاحيات شبيهة بتلك التي كانت للّجنة التي تشكّلت لترسيم الحدود بين بُنجاب والبنغال. تقوم هذه اللجنة برسم حدود بين المنطقة ذات الأغلبيّة المسلمة في سِلْهِتْ والمناطق المتاخمة ذات الأغلبيّة المسلمة أيضا، ليتمّ، في ما بعد، ضمّها إلى شرق البنغال. بقيّة إقليم أسّام سيواصل، في جميع الحالات، المشاركة في أعمال المجلس التأسيسي الحالي.

14. إذا تقرّر تقسيم البنغال وبُنجاب، سيكون من الضروري تنظيم انتخابات جديدة لاختيار ممثّليهم على سلّم ممثّل واحد لكلّ مليون ساكن بحسب المبدإ الوارد في خطّة البعثة الحكومية بتاريخ 6 مايو/ أيار 1946. وستنظّم انتخابات مشابهة في سِلْهِتْ إذا قُرّر أن تصبح جزءا من شرق البنغال. عددُ الممثّلين المسموح به لكلّ منطقة هو كالتالي:

الإقليم	عامّ	المسلمون	السّيخ	المجموع
منطقة سِلْهِتْ	1	2	لاشيء	3
غرب البنغال	15	4	لاشيء	19
شرق البنغال	12	29	لاشيء	41
غرب بُنجاب	3	12	2	17
شرق بُنجاب	6	4	2	12

15. وفقا للفترة النيابية التي تمنح إلى ممثّلي مختلف المناطق، إما أن ينضمّوا

إلى المجلس التأسيسي الحالي أو أن يكوّنوا مجلسا تأسيسيّا جديدا.

16. يجب أن تبدأ المفاوضات في أسرع وقت ممكنٍ نظرا للتبعات الإدارية التي تترتّب عن أيّ قسمة قد تقرّر:

(أ) بين الممثّلين والسُّلَط التي سبقتهم حول المواضيع التي صارت الحكومة المركزية تضطلع بها الآن مثل الدفاع والمالية والاتصالات.

(ب) بين مختلف السُّلَط التي ستخلف حكومة جلالته في المعاهدات التي تخصّ المواضيع التي تنجم عن نقل السّلطة.

(ج) بخصوص الأقاليم التي يتمّ تقسيمها، في ما يخصّ إدارة كلّ المواضيع الإقليمية مثل تقسيم الممتلكات، والمستندات، والشرطة وخدمات أخرى، والمحاكم العليا، والمؤسسات الإقليمية.. إلخ.

17. المفاوضات مع قبائل الحدود الهندية في الشمال الغربي في شأن الاتفاقيات ستُجريها السلطة الجديدة المناسبة.

18. تودّ حكومة جلالته أن توضّح أن القرارات التي تمّ الإعلان عنها أعلاه تتعلّق بالهند البريطانية وأن سياستها تجاه الدول الهندية التي تشملها مذكّرة بعثة مجلس الوزراء بتاريخ 12 مايو/ أيار 1946 تظلّ على حالها.

19. من المهمّ أن تكتمل كلّ المراحل المذكورة أعلاه بأسرع وقت ممكن، حتى تجد السُّلَط الموالية الوقت لتستعدّ لاستلام السّلطة. ولتفادي التأخير، تطبّق مختلف الأقاليم أو أجزاء الأقاليم، كلٌّ على حدة، وبقدر ما في وسعها عمليّا، ما ورد في بنود هذه الخطّة. يشرع المجلس التأسيسي الحالي

والمجلس التأسيسي الجديد (إن تشكّل) في إعداد دستورٍ خاصٍّ بالمنطقة التّابعة له. وبالطبع سيكون المجلسان حرّين في سنّ قوانينهما الخاصّة.

20. أصرّت الأحزاب السياسية الكبرى، مرارا وتكرارا، على رغبتها في نقل السلطة إلى الهند بأسرع وقت ممكن. إن حكومة جلالته تساند هذه الرغبة بالكامل، وترغب في تسريع تاريخ يونيو/ حزيران 1948 المحدّد لتسليم السلطة، وذلك بتكوين حكومة هندية مستقلّة أو حكومات في تاريخ أقرب من ذلك. تبعا لذلك، إن حكومة جلالته ترى أن الطريقة الوحيدة العملية التي تلبّي هذه الرغبة هي أن تسنَّ، في هذه الجلسة، قانونا ينصّ على نقل السلطة هذا العام إلى حكومة أو حكومتين مواليتين حسب القرارات التي يتمّ اتّخاذها نتيجة هذا الإعلان، على أساس أن تكون الهند في وضعيّة سيادة بأسرع وقت ممكن. لن يقلّل هذا الأمر من حقّ المجالس التأسيسية الهندية في أن تقرّر، في الوقت المناسب، إن كانت ستظلّ جزءا من الهند أو لا، وحسب ما تتّخذه من قرار في هذا الشأن أيضا تختار البقاء ضمن الكمّنوالث أو لا.

سيحرص سعادة الحاكم العامّ، بين الحين والآخر، على إصدار إعلانات، بقدر ما تقتضيه الحاجة، تخصّ أسلوب العمل أو أيّ مواضيع أخرى تتعلّق بتطبيق الترتيبات الواردة أعلاه.

المناطق ذات الأغلبية المسلمة في بُنجاب والبنغال حسب التعداد الرسمي للسكان لسنة 1941:

1 - بُنجاب

محافظة لاهور: جوجْرَانْوالا، وغورْداسْبُور، ولاهور، وشَيْخُبُورا، وسيالْكوت.
محافظة رَوالْبَنْدي: أَتّوك، وغوجارات، وغلوم، ومْيانوالي، ورَوالْبَنْدي، وشَلْبور.
محافظة مولْتان: ديرا غازي خان، وغانج، وليَّلبور، ومونتغُمري، ومولْتان، ومُظفَّرجار.

2 - البنغال

محافظة شيتاغونغ: شيتاغونغ، و نواخالي، وتيبيراه.

محافظة دَكًّا: باكرغانج، ودَكًّا، وفَريدبور، وميمنسِنغ.

محافظة الرئاسة: جسُّور، ومرشد آباد، ونادية.

محافظة راجْشاهي: بُغْرا، وديناجْبور، ومَلْدا، وبَبْنا، وراجْشاهي، ورانغبور.

إصدارات وحدة الترجمة، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة

	العنوان	المترجم / المراجع	الزوج اللغوي	الطباعة والسنة
1	**سمك القرش والنورس البحري** دومينيك دو فيلبان	هاشم صالح ومحمد مخلوف. مراجعة د. حسام الخطيب	فرنسي - عربي	بيروت 2005
2	**مسـلمو الغـرب ومستقـبل الإسـلام** طارق رمضان	د. إبراهيم الشهابي مراجعة د. حسام الخطيب	إنكليزي - عربي	بيروت 2005
3	**تاريخ اللغات ومستقبلها، عالم بابلي** هارالد هارمان	سامي شمعون، مراجعة محمد فرززات	ألماني- عربي	بيروت 2006
4	**فلسطين في الشعر الهسباني المعاصر** محمد الجعدي	محمد الجعدي، مراجعة د. حسام الخطيب	إسباني - عربي	بيروت 2006
5	**شجرة الغاف** باحثون من جامعة قطر	مجموعة باحثين، جامعة قطر	عربي	الدوحة 2007
6	**شجرة الغاف** باحثون من جامعة قطر	مجموعة باحثين، جامعة قطر	إنكليزي	الدوحة 2007
7	**هل كنّا مثل أيّ عاشقين؟** نفتاج سارنا	د. منذر محمد	إنكليزي - عربي	بيروت 2006
8	**القضية المشتركة** د. فيليب آغران	عبدالودود العمراني مراجعة د. حسام الخطيب	فرنسي - عربي	دمشق، 2007
9	**عصر النفط** ليوناردو ماوجري	د. إبراهيم الشهابي	إنكليزي - عربي	الدوحة 2008
10	**حكايات من الأدب الشعبي الفارسي** مقتطفات من شهنامه الفردوسي	د. مصطفى باكور	فارسي - عربي	دمشق، 2008

11	**بنت عرب** إفلين شاكر	أمل منصور، مراجعة د. فائقة صديقي	إنكليزي - عربي	دمشق، 2008
12	**عناق الأسرة** نوبو كوجيما	د. منذر محمد	إنكليزي - عربي	دمشق، 2009
13	**عروق القدس النازفة** مجموعة باحثين، تحرير د. منير العكش	د. منير العكش	إنكليزي - عربي	الدوحة، 2010
14	**اللغة والثقافة** كلير كرامش	د. أحمد الشيمي مراجعة عبدالودود العمراني	إنكليزي - عربي	الدوحة، 2010
15	**مستقبل الدراسات الأدبية** هانس غومبرخت، والتر موزر	د. ربى محمود ود. منذر محمد	فرنسي وإنكليزي - عربي	الدوحة، 2010
16	**عصارة الأيام** سمرست موم	د. حسام الخطيب	إنكليزي - عربي	الدوحة 2010
17	**كُتُب تحترق، تاريخ تدمير المكتبات** لوسيان بولاسترون	هاشم صالح ومحمد مخلوف، مراجعة عبدالودود العمراني	فرنسي - عربي	تونس 2010
18	**الترجمة والعولمة** مايكل كرونين	محمود الهاشمي وعبدالودود العمراني مراجعة د. حسام الخطيب	إنكليزي - عربي	بيروت، 2010
19	**العلم في الترجمة** سكوت مونتغومري	إبراهيم الشهابي مراجعة وفاء التومي	إنكليزي - عربي	الدوحة، 2010
20	**محاضرات الحائزين على جائزة نوبل في الأدب**	وعبدالودود العمراني مراجعة وفاء التومي	إنكليزي وإسباني وفرنسي وألماني - عربي	الدوحة، 2011
21	**جسور إلى اللانهاية** مايكل غيلن	د. عامر شيحوني مراجعة بدرالدين علاء الدين ووفاء التومي	إنكليزي - عربي	الدوحة، 2011


NEW PRINTING CO.
الشركة الحديثة للطباعة
تليفون: ٤٤٤٢٤٥٢٥/٦ - ص.ب : ٢٢٥٩
الدوحة - قطر